

تأريخ العراق

في عصر العباسيين
للسيد خنقارة الإسلام في دار السلام

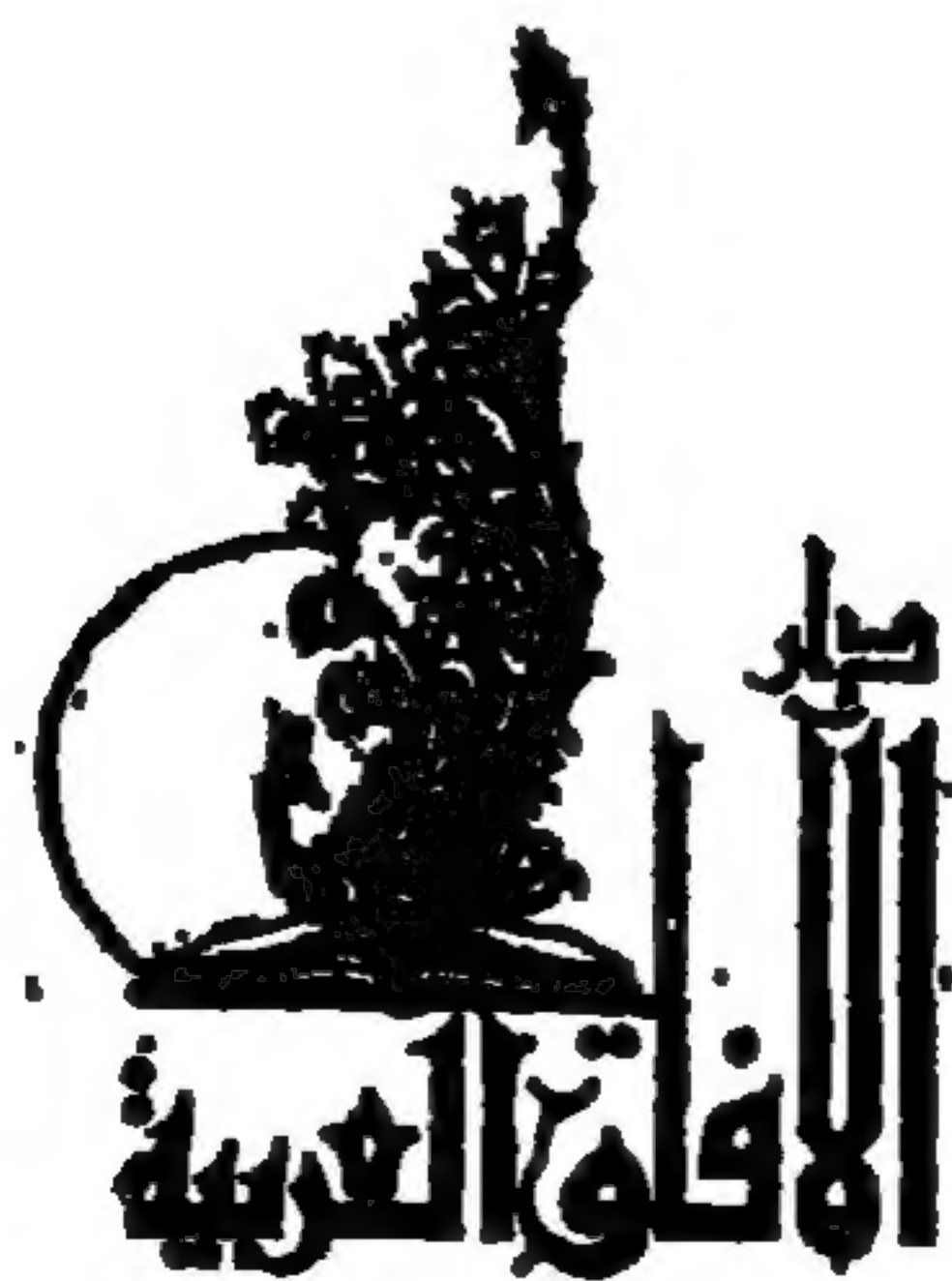
ألفه
جميل نخلة المدور



تأريخ العراق

في عصر العباسيين
المسمى حضارة الإسلام في دار السلام

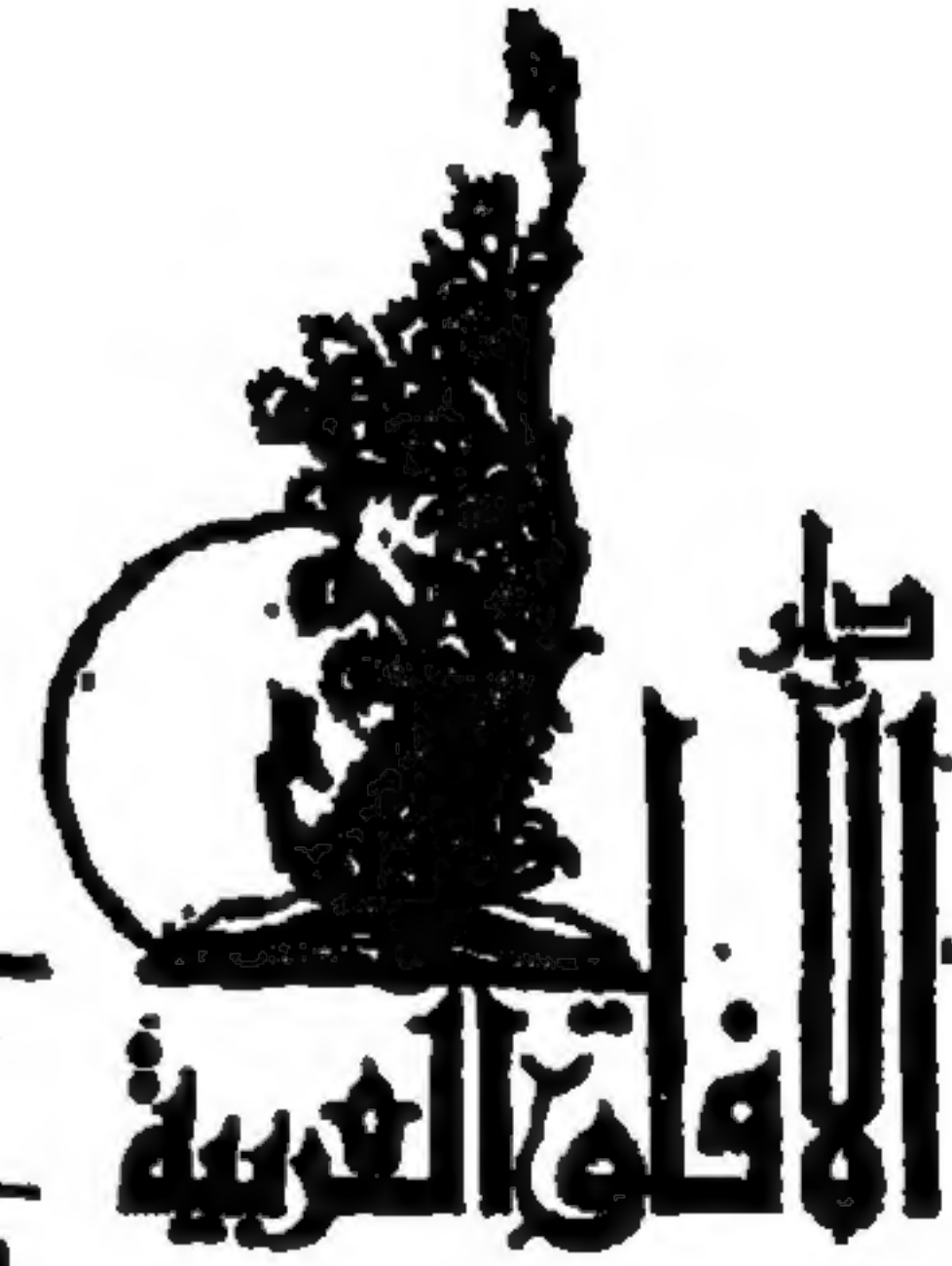
ألفه
جميل نخلة المدور



جميع الحقوق محفوظة للناس
الطبعة الأولى
٢٠٠٣ هـ - ٢٠٠٣ م

٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران - مدينة نصر

القاهرة - ت: ٢٦١٠١٦٤



٢٠٠٣ / ١٧١٧٠	رقم الايداع
977- 344-077-x	I.S.B.N الترقيم الدولي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله

هذه رسائل وصفت فيها عصرًا من عصور الاسلام قد أشرق به نور العلم . وجرت فيه أعمال عظيمة قام بها رجال كبراء ملئوا العالم بآثار جلالهم ، وجعلت الكلام فيها لرحالة فارسي طوَّقته معظم البلدان الاسلامية في المائة الثانية للهجرة . وطوَّقته مناصب الدولة برعاية البرامكة إلى أن نكسبهم الرشيد كما تراه في موضعه من الكتاب

فكان في النفس ومن عزم بعض خلأني على أن أبقى الحديث على لسانه إلى خلافة المأمون لوصف ما هو حقيق فيه بتجميل الاسلام من علم وحلم وعفاف . غير أنني كنت أحرص على التاريخ من أن أدخل فيه حكاية لا يحلّي جيدها صواب . ولا يرجع بأسنادها إلى كتاب . اذا أبقيت للفرس مراتبهم بدولة امباسيين بعد نكبة البرامكة . لأنني أوجبت على نفسي أن أذكر الحقائق كما كانت واقضت الحال أن تكون . غير واصف الأشياء إلا بصورها ولا ممثل الحوادث والأخبار إلا بما كان معلقًا في الخواطر جاريًا على أذهان أهل ذلك الزمان . ولذلك لما أتيت على الأسباب التي عظمت المسلمين ونهضت بهم إلى فتوح العالم أعرضت عن ذكر ما دعاهم من بعد إلى التواني والانحطاط . كما اني وقفت فيما وصفت من علومهم عند حد الخبر المجرد من غير أن أتبع في آدابهم آثار الحكمة التي اقتبسوها من يونان . ولا أن أتقصي الغاية التي وصلوا اليها من الفنون والصناعات لما لا يحفى من

(٢)

حدث ذلك كله بعد الرحلة وما وجب علىّ في تأليفها من النظر الى عصر
الرشيد لا الى ما بعده من الأيام

وقد اتخذت في الكتاب شواهد الاسناد للدلالة على ما وقع في
حديث الرحالة من الموافقة لما بين أيدينا من كتب الأقدمين . وإني لأرجو
أن ينفع إخواني بما أروم لهم من الخير . والله أسأل أن يرشدني وإياهم الى
الصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل

هذا نص ما كتبه في مقدمة الطبعة الاولى لهذا الكتاب وقد بدالى
بعد ذلك ولبعض أفاضل المسلمين ضعف في بعض الروايات التي كنت
عولت عليها وتحريف في ذكر بعض الوقائع الاسلامية يرجع عيبه الى السند
الذي أخذت عنه فلزم أن أرجع الى صفحات الكتاب بشيء من التهذيب
والتنقيح وتبديل الروايات الضعيفة بما هو أصح وأثبت عند أئمة النقل وإني
أشكر إدارة جريدة المؤيد الغراء التي ساعدتني في مراجعاتي لما ورد في
هذه الرسائل من آداب الدين والملة قبل الشروع في هذه الطبعة الجديدة .
فكان من وراء ذلك تهذيب تكفل بزيادة قبول الكتاب عند خاصة
المسلمين وعلمائهم ونفي عنه ما كان يؤخذ عليه من بعض الأسانيد الضعيفة
فجاء الكتاب والحمد لله بعد هذا كله روضة المطالع . وعمدة العالم
والمعلم والمراجع . وصح أن يؤخذ للدرس . كما يقتنى لتزويه النفس . وقد
عقدت النية إجابة لرغبة علماء المسلمين ممن تفضلوا باستحسان هذا الكتاب
على متابعة سرد التاريخ الاسلامي في شكل هذه السلسلة من الروايات .
وتنسيقها في مثل هذا السمط من درر الآيات الينيات . والله يؤتي الحكمة
من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، وهو ولي التوفيق والهادي
الى أقوم طريق

صميل مدور

الرسالة الأولى (كتبت في النهروان سنة ١٥٦ للهجرة)

ولقاءه بعض علمائها
ذكر البصرة وأما كتبها المشهورة . وفيه وصف عمران البصرة . وصبر أهلها
على طلب العلم

لم يتغلبوا الا على المتمصرين من العرب
الا انفصال عن البصرة ولمعة من أخبار الحجاج . وفيه ذكر مدينة واسط
وتنف من أخبار الحجاج . وانه قوم ملك أمية في العراق والحرمين بمن معه
من جنود الشام

الرسالة الثانية (كُتبت في بغداد سنة ١٥٧)

ذكر شيء من محاسن الزوراء . فيه وصف بغداد وأقليمها وعمرانها . وبلوغ أهلها من السعة ما لم تبلغه الأمم المترفة من قبلهم

ص

تقرّبني من رجال الدولة . يذكر الرحالة تقربه من البرامكة وآل المهلب وأمراء
شيبان . ودخوله على معن بن زائدة . وما جرى من الحديث بحضرته عن أبي
مسلم الخراساني . وأنه ما نكب أباً مسلم إلا ميله مع أهل البيت ٢٩
لمعة من أخبار أبي جعفر . وفيه أنه يقدم الموالى في مراتب الدولة خوفاً من
ميل العرب مع أهل البيت . ويمسك يده عن العطاء ليقعد الناس عن الخروج
عليه في دعوتهم ٣٣

ذكر الفتوح وإن العدل هو الذي حفظها للمسلمين . وفيه ذكر النبي صلى
الله عليه وسلم . وحفظ الخلفاء الراشدين سنته . ودخول الناس أفواجا في دين
الاسلام . وإن العدل هو الذي فتح الدنيا للمسلمين . ٣٦

الرسالة الثالثة . (كتبت في بغداد سنة ١٥٨)

لقائي ولي العهد وحظوقي لديه . يذكر الرحالة السبب الذي قرّبه من المهدي
وهو ولي عهد . وانعام المهدي عليه بضيعة في السواد ودار في بغداد
تشرف على دجلة ٤٠

في تأديبي الأميرين وما توالى عليّ من نعمة بني العباس . وفيه إن المهدي
أقامه على ولديه موسى وهرون مؤدباً وأن الرشيد أشد من الهادي حرصاً
على طلب العلم ٤٤

بقية من أخبار أبي جعفر . وفيه سهر الخليفة على تدبير المملكة . وصلاح
الدولة بخالد البرمكي . وإن قتله العلويين ظلم واقع عليه ٤٩

في ركوب الخليفة إلى الحج . وفيه وصف موكب . وركوبه في البردة والخاتم
والقضيب . ومصير الأمر بغيا به إلى المهدي ابنه ٥٣

في ذكر من لقيته من الشعراء . وفيه طرف من أخبار بشار ومروان بن أبي
حفصة وأبي العتاهية وأبي دلامة وابن المولى والسيد الحميري وأشجع السلي
وذكر شيء من أياتهم ٥٦

- الرسالة الرابعة. (من بغداد سنة ١٦١ وكان الرحالة على أهبة السفر الى خراسان)
جلوس المهدي على دست الخلافة . يذكر الرحالة شهوده بيعة المهدي . وان
الخلافة صارت اليه بحيلة الربيع الذي أوهم الناس لما أودى أبو جعفر بانه
حتى لم يمت فأجابوه الى البيعة مكرهين ٦٤
- سياسة المهدي وخلعه عيسى ابن عمه عن الولاية . وفيه ذكر تأثير المهدي
وحله . ووضع ديوان المظالم . ورفع الكسور . واستمالته الناس بالاحسان
اليهم . ورد الضياع المقبوضة عنهم . ثم خلعه ابن عمه عن ولاية العهد ٦٨
- ظهور المهدي بمناصرة العلم . وفيه اجلاله العلم والدين . واتخاذ لاهل الادب
مجالس يعرضون فيها بضاعتهم من فن أو علم أو صناعة ثم يجيزهم على ذلك بما
وسعت يده من الكرم ٧٤
- ولوع المهدي بمزاولة الصيد . وفيه ان المهدي قد جمع الى خلافة الملة ابهة
الملك . وانه يخرج الى الصيد في العدد الثينة والمواكب النيلة . ٧٩
- في تنمة أخبار المهدي ورسالتى الى خراسان . وفيه ذكر حج المهدي . وبناءه
الكعبة . وفتح يده في عطاء اهل الحرمين . وسياسته مع اهل البيت ثم ظهور
المقنع في خراسان يدعى الربوية ويستغوى الخلق . وبعثه الرحالة الى مرو
لمقاومة دعوته ٨٣

- الرسالة الخامسة . (كتبت في بغداد سنة ١٨١ والحديث
فيها تابع لرسالة كتبت في خراسان ولم تطبع هنا)
- طرف من أخبار المهدي والهادي . وفيه يذكر الرحالة عوده الى بغداد بعد
طول الغيبة عنها . وما حدث من أخبار المهدي والهادي الى أن صارت
الخلافة الى الرشيد ٨٧
- جمال بغداد بالرشيد والبرامكة . وفيه اقامة الرشيد أبهة الملك . واسترسال أهله
في الدعة والنعيم . وان البرامكة وأولادهم زينة الملوك ٩٢
- تَرْف البغادة وانفاسهم في طيبات العيش . وفيه ذكر تجارتهم مع جميع الأمم
 واجتماع محاسن الدنيا عندهم . واقامة النخاسين سوقاً لبيع الجوارى في مدينتهم . ٩٧

(ف)

ص

دخولى على هرون الرشيد . يذكر الرحالة ما لقي من أنس الرشيد به . وما
وجد بنفسه من الاضطراب فى تقديم المأمون على الأمين بالولاية مع أن بنى
هاشم مائلون الى الأمين . ١٠٠

الموازنة بين الرشيد وأبى جعفر . وفيه أن الرشيد من فضلاء الملوك وعقلائهم .
وأنه أصلح من جده المنصور بسياسة . يقيم فى الرعية سلطانه بسياسة الرفق
اتساعاً بالجميل وتقرباً من الخير . فلم لا ظلم ورفق ولا عنف ١٠٤

البرامكة نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها . وفيه أن الدولة قائمة يحيى
البرمكى . وإن اصدار الأمور الى الفضل وجعفر . وإن التواد الذى بين
الرشيد وجعفر لم يكن مثله بين أخوين ١٠٨

صلاح التجارة والمعاملة . وفيه كلام عن السكة . وما وجب على الرشيد من
تقديرها بعد أن تفاشش الفش فى التجارة . وما كان فى نيته من فتح البحر
عند السويس لوصل البحر الرومى ببحر القلزم ١١٦

زينة الدولة بالعلم والأدب . وفيه ذكر محاسن دولة الرشيد . وأنه اجتمع ببابه
من العلماء والأدباء والشعراء ما لم يجتمع على باب خليفة غيره قط وإن زينة
بجالسه ثلاثة أبو نواس والأصمى وأسحق النديم . كلهم امام فى الأدب
ولكن غلب على أبى نواس الشعر وعلى اسحق الغناء وعلى الأصمى
النوادر والأخبار ١٢١

الرسالة السادسة (كتبت فى بغداد سنة ١٨٥)

بيت الرشيد . وفيه صلاح الرشيد وتقواه . وذكر مواليه وجواريه وترف ذويه
وذكاء المأمون من أولاده . وتعلق أمور بيته بمسرور العبد . وصنع زيدة
زوجه أعمالاً يتباهى بها الملوك ١٢٨

جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم . وفيه مساماة دورهم الرشيد فى البهاء
والاشراق . وقصد المؤمنين اليهم من أبعد الآفاق . وذهاب كرمهم مثلاً فى
سعة العطاء والاتفاق ١٣٦

الدولة في خلافة الرشيد . وفيه أن دولة الرشيد أوسع دول الخلفاء رقعة
بملكه . وأنه يغالب الروم ويسلط عليهم سيف الاسلام ليس طمعاً فيما يحملون
اليه من الجزية ولكن لتعزيز الملة والدولة . وإن السياسة التي أتعبت خاطره
كانت متجهة الى اذلال العلويين في المغرب
١٤٥

عمران بيت المال . وفيه ذكر المحمول من عين وورق وأمتعة الى بيت المال .
وتدوين الخراج في الدفاتر لايجاد الموازنة بين دخل الدولة وخرجها
١٥٢
مجلس الغناء بدار الرشيد . وفيه خبر الخلاف الذي وقع بين ابراهيم بن المهدي
وأسحق النديم في صناعة الأصوات . وإن هذه المناظرة داعية الى الاجادة
في الغناء
١٥٦

الرسالة السابعة . (كتبت في بغداد سنة ١٨٥)

في ذكر آداب العرب . وفيه يذكر الرحالة شهوده مجالس الأدباء والشعراء
بدار الرشيد . وتعريب البرامكة كتب الفلاسفة من قوم يونان . وبلوغ
العرب الغاية التي يرومونها من علم أو أدب أو صناعة في أقصر مدة من
الزمان . وإن مثلهم في سرعة تحصيل العلوم مثلهم في سرعة فتوح البلدان
١٧٠
الطب والأطباء . وفيه أن النصارى برعوا المسلمين في الطب . وتقدموا عليهم
بذلك في دور الخلافة
١٧٤

النجامة وعلم الأفلاك . وفيه أن الفرس برعوا العرب في علم النجامة وأن المقرب
لهم في الاسلام الخليفة أبو جعفر . وأن أحمد النهاوندي صور الدنيا للرشيد
١٧٧
الحديث وعلوم الشرع . وفيه أن الحديث هو العلم الذي صبت اليه أقتدة
المسلمين . وأن مالكا أصبح الناس حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم
١٨١
في تدوين اللغة . وفيه أن اللغة انما قيدت اضطراراً الى تفسير القرآن ، وأن
السابق الى تدوينها هو الخليل بن احمد . وأن أهل الوبر يحافظون على قوام
اللسان العربي . وإن كلام السوقه وألفاظ المعربين داخلة في لغة الحضارة
١٨٥
الشعر في البداوة . وفيه ملكة العرب في قول الشعر . ونظر في المعلقات
السبع : واجادة الشعراء في ذكر الربوع والأطلال ووحشة الديار الى حيث
يقف حد البلاغة
١٨٨

(ح)

الشعر في الحضارة . وفيه أن الشعر في الحضرة أرق منه في البداوة . وأن أزمته
في الاسلام ثلاثة زمن عبد الملك وشعراؤه جرير والفرزدق والأخطل .
وزمن المنصور وشعراؤه من تقدم ذكرهم . وزمن البرامكة والشعر في أبي
نواس وأبي العتاهية

١٩٥

الغناء وتحريره وإصلاحه . وفيه تمييز الأصوات . وذكر من كان أصل الغناء
عند العرب ومكانة ابراهيم الموصلي وابنه اسحق من هذه الصناعة

٢٠٢

لمعة في علوم الفلسفة عند العرب . وفيه اشارة الى ما حصله العرب من العلوم
الرياضية . والعلوم المنطقية والعلوم الطبيعية . والعلوم الالهية وذكر ما لهم
فيها من تعريب أو تأليف

٢٠٧

أدب السير والحكايات . وفيه ثناء جميل على كتاب كلية ودمنة . ونظرة في
كتاب ألف ليلة وليلة وتعريبه عن الفارسية . وتصرف النساخ فيه وانه من
أضرف الكتب التي وضعت في غابر الدهر

٢١٣

تدوين الأخبار وأيام الناس . وفيه ان أيام العرب كانت محفوظة في الشعر
أو متناقلة على الألسنة بطريق الاسناد الى أن سطرت في الكتب في
زمن الخلفاء

٢٢٢

الرسالة الثامنة (كتبت في بحر تونس سنة ١٨٦)

بعد انصراف الرحالة من بلاد الروم)

رسالتى إلى قيصر الروم . وفيه ذكر الطاف الرشيد الى قيصر الروم . وان
الرحالة هو الذي حملها اليه . وبلغه ما يريد الرشيد من موافقته على بنى أمية
لينزع الأندلس من أيديهم

٢٢٧

المرور بالكوفة وبلاد الشام . وفيه ذكر مسير الرحالة الى الكوفة . وحب
الكوفيين لأهل البيت . وشيء من محاسن الشام وانها بلاد مباركة من الله
ولكن غلب على أهلها الشقاق فغلبهم الأمم على مملكتهم

٢٣١

وصف دمشق وانها بهجة البلدان . وفيه ان دمشق ماء ونماء . وان أهلها
أحسن الناس خلقاً وخلقاً . وذكر تنف من أخبار بنى أمية حدث بها الرحالة
مغنية كانت للوليد بن يزيد

٢٣٦

جامع الوليد المعروف بالجامع الأموي . وفيه ان الوليد بن عبد الملك عوض
النصارى عن نصف الكنيسة التي كانت موضع هذا الجامع بعدة كنائس
صالحهم عليها . وانه استقدم لبنائه صناع الروم . وأقام فيه العمدة المجزعة
وصور على الحيطان المدن والأشجار والأزهار . واتخذ فيه قناديل الذهب
وصيره نزهة العالم

٢٤٣

المرور ببلبك وركوب البحر من بيروت . وفيه وصف آثار ببلبك وانها
من بناء الروم لامن بناء سليمان . وقد رفعوها بالحيل الهندسية والقوة الآدمية
وقصدوا منها المعجزة ليظهروا ضخامة ملكهم لأهل المشرق . وفيه كلام
على بيروت وانها مدينة العلم والحكمة

٢٤٧

لقاء القيصر والمنصرف من الرسالة . وفيه بيان عادات الفرنجة واندثار
علومهم في ذلك الوقت الا ما حفظه الرهبان في اديارهم . وذكر لقاء
القيصر . وان خاطره يتوافق مع خاطر جعفر البرمكي في العدول عن
مناجزة الأمويين

٢٥٣

الرسالة التاسعة (كتبت في المشاعر المباركة سنة ١٨٦)

المرور بتونس من بلاد المغرب . وفيه خبر الأغلبة في تونس . واستقواء
أهل البيت في المغرب . وذكر القرآن الذي كتبه عثمان بمحض من الصحابة
في ذكر الاسكندرية . ومعاش النصارى فيها من الرغد . واختلاطهم مع
المسلمين وجهرهم بالانجيل واخراج آيتهم الى الأسواق

٢٦٤

الديار المصرية والنيل . وفيه وصف البلاد . وعمرانها بالناس واتساع اسباب
الكسب وما يفيض عليها من الخير والبركة

٢٦٨

في وصف الأهرام . وفيه صفة الأهرام . وبنائها لحوذاً للفراغة الذين كانوا
يقولون بالرجعة الى هذه الدار . وان مثلها دليل على ظلم الفرعنة واشتد
أمرهم على الرعية

٢٧٠

إلى عذاب فجدة فالبلد الحرام . وفيه اجتياز الرحلة بأرض مصر الى عذاب
في طرف البر . وما كان من احتياله لاستصحاب الماء في الصحراء

٨

ص

فى ذكر المشاعر المباركة . وفيه وصف مكة المكرمة . وتبرك الرحالة بوفادته
على البيت الحرام . وذكر ما أحدث فيه من البناء . ٢٨٣
موافاة الرشيد بالمدينة . وفيه وصف المدينة المنورة وما حوت من المشاهد
الكريمة والآثار المباركة ٢٩٨

الرشيد والبرامكة فى مكة . وفيه تحول الرشيد عن البرامكة بحيلة الفضل بن
الزريع الذى أوغر صدره عليهم من العداوة ومصانعة الرشيد لجعفر حتى
لا يتب إلى ما يريد به من المكروه . وابعاده الرحالة عن البرامكة فى رسالة
بنه إلى الرقة . ٢٩٣

الرسالة العاشرة (كتبت فى بغداد سنة ١٨٧ للهجرة)

أصبحت بسادة كانوا عيوناً * بهم نسقى إذا أقطع الغمام
وفيه رجوع الرحالة متخياً إلى بغداد وقتل جعفر البرمكى . . . وطلب الرشيد
الرحالة لينكب به ٢٩٨
وقوع التوائى فى الدولة بعد نكبة البرامكة . وفيه عم الخطب فى الدولة
بعد نكبتهم . ومصير الأمر بعدم إلى رجال لاعزمة عندهم ولا عزيمة .
واتفاق الناس صدعاً واحداً فى لوم الرشيد على قتلهم ٣٠٥
خيماً يتحدث به الناس من أسباب فتك الرشيد بالبرامكة . وفيه يذكر
مادار على السنة العوام من سبب نكبتهم . ويذكر أنه ما نكب البرامكة
الا ميلهم مع أهل البيت ٣١٣
خاتمة الكتاب . يختم الرحالة حديثه بنظرة عامة فى الاسلام وانحيازه إلى دول
ثلاث كبيرة : العلوية والأموية ،
ثم ينظر فى احوال العباسيين ويذكر حيلهم إلى خلافة الرشيد ويقول ان
دولتهم تحتاج إلى رجال عقلاء يديرون سياستها ويدبرون أمرها . وانها
إذا سقطت فى يد خليفة قليل الخبرة بأمر الملك لا تقوم لها قائمة بعد ذلك .
وهذا آخر الكتاب ٣١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرسالة الأولى

قدومى الى العراق

أتيت مدينة السلام في السنة السادسة والخمسين بعد المائة من هجرة
النبي صلى الله عليه وسلم لأتخرج في الفقه على لسان الشريعة يعقوب بن
ابراهيم بن خنيس الأنصارى،^(١) وكان خليلاً لأبي (رحمه الله) على صفاء
بينهما لم يكن بين اثنين، فركبت البحر من هرمز في ربح رضاء زجت
مركبنا إلى البحرين فأطراف العراق أهنأ ترجية، فلما حاذينا الساحل مما يلي
البصرة طلعت علينا ريح عاصفة، وانحدر بنا الموج إلى منعرج في البر من
البحر كله رمال ومهاوى ماء، فبتنا ليلنا فيه على أشد ما يكون من
الخوف إلى أن طلع الفجر، فأقبلت علينا من صدر البحر سفينة حملتنا إلى
عبادان، وأرسلت بنا على مظل من خشبات تنتهى المراكب إليها ولا
تتجاوزها خوفاً من الجزر^(٢) لئلا تلحق بالأرض وتغوص في الطين الذي
يأتى دجلة به^(٣) في انسيابه، وهذا البحر في مسامته العراق شديد على
السفر، ولا يُحمد منه إلا عُمران سواحله بالناس لما فيها من مفاصات^(٤)
الدر والياقوت والعقيق والبادييج وغير ذلك، وهى باب واسع لطلاب

(١) هو أبو يوسف القاضي

(٢) المسعودى ١ : ٥٠

(٣) تهويم البلدان ٣٠٩

(٤) ابن خرداذبه ٦١ والمسعودى ١ : ٥٢

الرزق ، وللنواصين عليها أخبارٌ غريبةٌ فيما سمعتُ ، حتى قيل إنهم يشقون
آذانهم للتنفس ويحملون في آنافهم القطن ويصطنعون وجوهاً من الدبل
كالمشاقص ، ويدهنون أبدانهم بالسواد خوفاً من أن تبتلعهم دواب البحر ،
ويصيحون عند الغوص مثل الكلاب لتنفيرها عنهم ، فإذا بلغوا القصر
عصروا دهنًا يضيء منه البحر ليروا الأصداف التي يتولد فيها اللؤلؤ ، وتكون
مدفونة في أرض البحر رملاً كانت أو طيناً . ومما يزعمون^(١) في هذا اللؤلؤ
أن تولده من مطر نيسان إذ تكون الصدفة مفتوحة على وجه الماء فتقع
عليها القطرات فتربي فيها درراً رائعة الصفاء .

ولما أخذت نصيباً من الاستراحة انتقلت على سفين إلى البصرة
ونزلت بها في موضع^(٢) يعرف بسكة بني سمرة بازاء دار الهيثم بن معاوية
أميرها . وقد طاب لي فيها المقام بما وجدت من ائتناس أهلها إلى الغريب
حتى ينسى في جوارهم أهله^(٣) بما يأنس عندهم من مظاهر الأُنس والمودة ،
ووجدت لهم صبراً على طلب العلم يتخذون المكاتب^(٤) لأولادهم وحلق
العلم لأدبائهم ، وتشدُّ إليهم رجالُ الطلب من جميع الوجوه ، لأن لهم من
الأدب المكان الذي لا يُرقى ، غير أني لم أَر فيهم إلا وهنَ البنية سقيمها
وأصفرَ اللون كاسفه^(٥) ، وذلك ناشئ فيهم من عفونة الماء ووقوع إقليمهم
في مهابِّ الرياح المختلفة التي تتبدل في اليوم الواحد ألواناً وضروباً ،
فيُجبرون على لبس القمصان مرةً والمبطنات أخرى ، ولذلك سُميت مدينتهم

(١) الدميري والقزويني والقرماني

(٢) ياقوت ١ : ٦٤٤

(٣) ابن بطوطة ٢ : ١٠ (٤) الاشبهي ١ : ١٧٧ (٥) الأغاني ١٧ : ٧٨

بالرَّعْناء ، أنشد الفرزدق^(١)

لولا أبو مالك المرجوُّ نائله ما كانت البصرة الرَّعْناء لى وطننا
وقد لقيتُ فيها جماعة كثيرة من الأدباء مثل عبد الكريم بن أبي
المَوْجاء والمؤدَّج السَّدُوسى الرواية ، والحسن بن هانىء الشاعر^(٢) والنَّضير
ابن شُمَيْل تلميذ الخليل بن أحمد وواصل بن عطاء الذى اعتزل مجلس الحسن
البصرى لمخالفة فى المذهب ثم سَمَّى الناس ~~مجلس~~ ذهب مذهبَه بالمعزلة^(٣)
لذلك، وشهدتُ حلقة عُتْبَةَ القحوى وأبى زيد الأنصارى ويونس النحوى،
وله أعظم^(٤) حلقة فى البصرة من حدِّق علمائها، وسمعت الحديثَ عن
سفيان بن شعبة الثَّورى وشعبة بن الحجاج العتكى، غير أنى ما أصطفيت
منهم لمحدثات الأدب إلا الخليل بن أحمد، لأنى وجدته أوسعهم عقلاً،^(٥)
وأحضرهم روايةً، لا يساميه فى علوِّ الخاطر إلا صالح بن عبد القدوس الشاعر،
ولكنى تحاميت مجلسه لما يَتَّهم به من الانحراف عن السنة،^(٦) وإن كنت
لا أبخس عقله حقَّه من التعظيم. وقد سمعت أنه يجهد نفسه فى طلب الدنيا
والتماس السعة منها ثم لا يحصل على القليل إلا بعد عَصَب الريق وفى قوله
لو يُرزقون الناسُ حسب عقولهم ألفت أكثر من ترى يصدِّق
إشارةً إلى ما هو فيه، وأنَّ النعمة تُصيب غير أهلها، بخلاف الخليل
ابن أحمد فانه متقل من الدنيا راض منها باليسير، والملوك تبذل له المال^(٧)
ولا يقبل منهم شيئاً مع مكانه من الحاجة إليه. وقد اشتهر فضله بين الناس

(١) ابن بطوطة ٢: ١٦ (٢) هو أبو نواس ذكر الأغاني ٦: ١٧٩ أنه كان
مقيماً بالبصرة فى صباه (٣) المستطرف ١: ١٢٦ (٤) العقد ٣: ١٣٧ (٥) ابن
خلكان ١: ٢١١ (٦) الأغاني ١٣: ١٥ (٧) الشريشى ٢: ٢٦٨ والابشهى ١: ١٧٦

بعلم العروض ، وضعه على دوائر خمس تتجزأ منها الأبحرُ الخمسة عشر . عـ
أنَّ سموه في العلم لا ينفرد بأدب الشعر وحده ، إذ له في اللغة كتاب سماه
العين وأودعه من عيون العلم ^(١) ما هو زينة وفخر لدولة الاسلام

ذكر البصرة وأما كنها المشهورة

ولقد ظننتُ البصرة لأول وهلة ليست بالمفرطة الكبير ، فلما
طفت في ساحاتها ، ^{وجدت} ~~ووجدت~~ في أرباضها ومَحَلَّاتها ، ^{بدلت} ~~بدلت~~ أنها متسعة البقعة
كثيرة العمران ، قلَّ أن يكون بها موضع غُفْلٌ من العمارَةِ خَلُو من السكان .
ومبانيها على الغالب من اللَّبن إلا ما كان من المسجد الجامع فانه مبني بالصخر
والجصّ على أتمِّ إحكام وأبدع صناعة ، وأولُ من بناه عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ ،
أقامه من القصباء لاجل أن ينزعه متى شاء ثم يُعيدَ اقامته ، فلما جاء أبو موسى
الأشعري بناه باللّبن وطلّى جدرانه بالأصباغ . ثم جاء زياد فزاد فيه السقيفة
التي في مُقَدِّمِ المسجد ^(٢) ، وحمل إليه العمْدَ المزخرفة من الأهواز ورفع
جُدْرانه بالحجر والجصّ ^(٣) ، ثم لم تزل عناية الولاة به من بعده إلى أن تمت
زينته وكثرت له الوقوف الواسعة . وفيه اليوم قاض يفرض النفقات ويحكم
في مائتي درهم وعشرين ديناراً فما دونها ^(٤) تخفيفاً عن الدواوين التي تنظر فيما
هو فوق ذلك من قضايا الناس

ثم سرتُ من هذا الجامع إلى مسجد عليّ عليه السلام ، وإذا صحنه
مفروش بالحصباء الحمراء ، وله أوقاف جزيلة مما وقف له الفُرس ومن يقول

(١) المقدمة ٥٠٢ وابن خلكان ١ : ٣٤١ (٢) الأغاني ١٧ : ٢٨

(٣) ياقوت ١ : ٦٤٢ (٤) الماوردي ١٢٣

بمخلافه أهل البيت ، وهم يجتمعون فيه ويتبركون بزمارة ، كأنَّ وعيداً أوى جعفر لم يجد منهم نفوساً راجعة إلى غرضه فيما أوجد من الفرقة بين العلوية والعباسية . ووجدتُ في بعض مقاصيره مصحفاً عليه أثر داغ مثل الدم الجاف ، يقال إنه المصحف الذي كان يقرأ فيه عثمان حين قتل ،^(١) وبعد أن قضيت زيارته المباركة جلّتُ في أسواق المدينة فرأيت التجارة فيها على أحسن ما يكون من الرواج ، ولا غرو فإن هي إلا فُرصة العراق والشام وخُراسان وما إليها من البلدان العالية مما يُكسيها حسنَ الموقع ، بحيث لا يصدر شيء من هذه البلدان ولا يرد إليها إلا من البصرة ،^(٢) ولذلك استفحل فيها العمران وكثرت بها المصانع والصنائع إلى أن صارت واسطة عقد بلاد العرب وقبة الاسلام .

ومما يذكر عن بنائها ما حدثني به الهيثم أميرها أن المسلمين افتقروا في صدر الدولة إلى منزل ينزلون به وإذا دهمهم عدو لجئوا إليه واعتصموا به ، فبعث عمر (رضي الله عنه) عتبة بن غزوان المقدم ذكره وأوعز إليه أن ارتد لنا موضعاً في جهة العراق قريباً من المرعى والماء والمحتطب ، فكتب له من البصرة اني وجدت أرضاً كثيرة القضة في طَرْف البرالى الريف ودونها مناقع فيها ماء وفيها قصباء^(٣) فكتب إليه عمر أن ينزلها بمن معه فوق تمصيرها في السنة الخامسة عشرة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم . ولما جلستُ إلى الخليل العالم الأمثل ودار بيننا الحديث على أيام الناس الأول ، أخبرني أن البصرة إنما اختطها العرب نكابة بالفرس لتحويل

(٢) المسعودى والقزويني

(١) ابن بطوطة ٢ : ١٠

(٣) ياقوت وابن حوقل ١٥٩

التجارة من سواحلهم اليها ، وذلك أنهم لما صالت منهم الأجناد ، واتسعت
بين أيديهم أحبوا أن يبنوا هذه المدينة فُرْصَةً لجميع المشرق ، ففشت العمارة
فيها في برهة يسيرة حتى غصت بالناس على ما رحبت أرجاؤها . يقال إنه
كان فيها من مقاتلة العرب لأيام زياد ثمانون ألفاً ، ^(١) وأخبرني الهيثم أن
أهلها يبلغون اليوم خمسمائة ألف من الرجال ، يبدل المال الذي فرقته فيهم
أبو جعفر ، وكان ألف ألف درهم فلم يُصِب الرأس منهم إلا درهمين ^(٢)
وتبعد البصرة عن عبادان حيث الشاطئ نحو ساعة زمانية ، وعندها
تختلط مياه دجلة والفرات ^(٣) وتصب في البحر الملح بعد أن تفقد عذوبتها ،
لأن المدّ يأتي إلى ما فوق البصرة بأميال ، فاذا امتزج به ماء دجلة صار
ملحاً ^(٤) ، ولقد يخال الرأي لأول وقوع المدّ أن البلاد صارت غديراً ، كما
وقع لحمزة بن عبد الله أمير البصرة لعهد ابن الزبير ، وقد ركب يوماً إلى
الفيض ، فقال إن هذا الغدير ان رفقوا به يكفهم صيفتهم هذه ، فلما كان
بعد ذلك ركب إليه فوافقه جازراً فقال قد رأيته ذات يوم فظننت أن لن
يكفيهم ، فقال له الأحنف بن قيس ، أيها الأمير إن هذا الماء يأتينا ثم
ينفض عنا ثم يعود ، فحجل حمزة ، وعاب عليه الشعراء ذلك في أبيات لهم
يعرفها عامة الناس .

ولقد تصفحت في البصرة كثيراً من قصورها المشرفة ، واستقرت
أماكنها المشهورة بما وعيت عنها من الأنباء ، وأحسن ما استظرفت
منها قصر محمد بن سليمان الهاشمي ^(٥) ، وهو أوفر بني العباس مالا وأعظام

(١) ياقوت ١ : ٦٤٤ (٢) الشريشي ٢ : ٤٣٧ (٣) المقدمة ٥٥

(٤) القزويني والاصطخري والمسعودي (٥) ياقوت

لشاعر نوالا ، تَغْلُ ضِيَاعُهُ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ أَلْفِ دَرْهَمٍ^(١) ، وقد بناه على بعض
الأنهار واستفرغ في زينته جهده ، واتخذ في جنانه المَهَا والغزلانَ والنعامَ
وأنواعَ السباعِ والطيورَ المغرَّدة ، فجمع فيه محاسن الحضارة والبدابة ، وفيه
يقول الشعراء .

زُرْ وادى القصر نعم القصر والوادي في منزل حاضر ان شئت أو بادي
ترقى به السفن والظُلُمان حاضرةً والضبُّ والنونُ والملّاح والحادي
الى آخر الآيات .

وأما القصور التي بقيت بعد أربابها فانها لكثيرةٌ في البصرة شاهدت
منها قصرًا لأوس بن ثعلبة^(٢) الذي وليَ العراق وخراسان في دولة
الأمويين ، وهو قريب من المربد^(٣) ، وعليه قباب مرفوعة يقصُّ الجوّ بها
صعوداً ، ومن حوله خمائل وأرفة ، كأنَّ الأيام تزيدها جدّة ونضارة ،
وتلبسها من الخضرة حلة قشبية . والله ابنُ أبي عيّنة حيث يقول في وصفها
هذه الآيات

بغرسٍ كأبكار الجوارى وتربةٍ كأن ثراها ماء ورد علو مسك
يذكرني الفردوسَ طوراً فأرعوئى^(٤) وطوراً يواتيني الى القصف والهتك
وسربٍ من الغزلان يرتعن حوله كما استلّ منظومٌ من الدرّ من سلك
وورقاء تحكى الموصليّ إذا غدت بتغريدها أحجب بها وبمن تحكى
فياطيب ذاك القصر قصرًا ونزهة بأفيح سهل غيرٍ وعرو ولا ضنك
وشاهدت قصر الأحنف بن قيس^(٥) المقدم ذكره في رحبة المنجاب^(٦) ،

(١) المسعودي (٢) الأغاني ٣ : ٣٦ وياقوت (٣) الأغاني ١٣ : ١٠

(٤) الأغاني ١٧ : ٥٦ (٥) محلة ذكرها الأغاني ١٢ : ٦٣

وداراً لأنس بن مالك^(١) خادم النبي صلى الله عليه وسلم ، وإيواناً للزبير بن العوام^(٢) تنزله التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم ، وآخر لعبيد الله بن زياد يسمى البيضاء^(٣) ، وهو بمقربة من الموضع الذي خطب فيه أبوه خطبته البتراء^(٤) التي أخذت بقلوب البصريين وقتاً تداعت جدرانها فلم يبق منه إلا أثر دارس ورسم شاخص .

العرب البادية وتنف من أخبارهم

ولقد أتيت مرْبِدَ البصرة عن طريق المهالبة^(٥) فسكة المرْبِدَ ،^(٦) فاذا هو ساحة كبيرة تنوخ فيها الجمال ، وتحطُّ بها الرحال ، وتعلق فيها الأشعار التي يتناشدها العربان في أيام من الشهر معلومة يكون لهم بها مجالسٌ ويبيعون ويشترون ،^(٧) وهناك موضع يقال له شمس الوزانين وفيه مسجد صغير يعرف بمسجد الأنصار ،^(٨) قد طُلِيَ بالأصباغ ولم ترفع صوامعه إلا قليلاً ، ووجدت صحراء البصرة من وراء المرْبِدَ وعرة مرملة لا يفرِد عليها طير ولا ينبت فيها شجر غير النخيل لفقدان الماء فيها ، وخيراتُ البصرة تردها من الأبلَّة ، وهي مدينة عامرة بالناس خِصْبَةُ الجَناب كريمة البقعة يشقُّها جدول من دجلة ولا تخترق أشعة الشمس أرضها لالتفاف شجرها بعضه على بعض ، وفي مُرْسَاهَا مجتمَع كثير من مراكب

(١) ياقوت ٤ : ١٠٩ (٢) المقدمة ١٧٨ والمسعودي ١ : ٣٣٣ (٣) القزويني

٢٠٦ (٤) سميت بذلك لأنه لم يفتحها بالحمد لله والثناء عليه (٥) الاتليدي ١٠٧

(٦) الأغاني ١٢ : ٦٤ (٧) تقويم البلدان ٣٠٩ والأغاني ٥٠٧ (٨) الأغاني

الهند والصين ، لأن الريح فيها واسع لأهل التجارة . وأما النخيل المتصل
فيما بينها إلى البصرة فأعلى الصحراء فإنه كسب وافر للناس ، يقال إن ثمنه
يعدل^(١) ما يحمل إلى بيت المال من الأقاليم كافة .

وإلى ما وراء الرّيد في ظاهر البصرة عربان من عامر^(٢) وقيس عيلان
كنت أختلف إلى أحيائهم وأيت ليالى عندهم وآكل من ثريدهم وأشرب
من ألبان نوقهم وأجلس على الوبر والأنطاع ، وأعى أحاديثهم بأقبال
واستماع ، وأشهد خلق القصّاص فيما يحدثون به من أيام العرب وأخبارهم
فوجدتهم يتفاخرون بتأليف الخطب وقول الشعر والسيف والضيف ، ولا
يهتئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج ، وعلمت من أخبارهم
أنهم لا يأتون الفحشاء بل يعاقبون الزناة بالقتل^(٣) وذكر هؤلاء القصّاض
أن جيلا لما سأله خلّاته^(٤) ما عملت مع بئنة طول تلك الأيام قال كنت
أمتع عيني من وجهها وسمعى من حديثها ، ولم أمدّ إليها يدأ غير مرة واحدة ،
أخذت يدها ورفعتها إلى صدرى لتشعر بحققان قلبي^(٥) ، وهذا خبر ينقلونه
عن أكابر الرواة فأحييت أن أكتبه إليك ليدلك على ما وضعه الله في
صدورهم من نبل الهمة وعفاف النفس .

وقد بقي في خاطري ذكر عذب لاجتماعي بهؤلاء العربان ، وقد طاب
لى الجلوس إلى قيس عيلان أكثر منه إلى بنى عامر ، لأنى وجدت فيهم بياناً
وفصاحة^(٥) غير أنهم لم يلبثوا في البصرة الأ قليلا حتى شالت نعمتهم ،

(١) ياقوت ١ : ٦٥٠ (٢) في الأغاني ٤ : ١٩٣ أن جماعة منهم نزلوا بظاهر

البصرة قريبا من ذلك الوقت (٣) تزيين الأسواق (٤) تزيين الأسواق ٢ : ٩

(٥) الأغاني ٣ : ٥٣

فصرت أتوجه إلى بني عابر وعرفت بالمقام بينهم كثيراً من خلال العرب المحموده ، وقد أعظمت رواج الأدب بينهم ، والكتابة عندهم مفقودة^(١) غير أنهم يجرون على قواعد اللغة في أشعارهم ومحاوراتهم بما ليس في الامكان أصح منه ، ولهم في كلامهم من الأمثال الحكيمة ما لم نجد في كثير من أمم العلم والحضارة ، فيمرق الكلام من أفواههم مروق السهم من الوتر كما يقولون ، وهم أصح الناس أبدانا ، لأن الظعن كفيل لهم بطيب الرياح التي لا تخبث إلا مع القرار والسكنى وكثرة الفضائل^(٢) ولأن طعامهم اللبن والتمر والقليل من اللحم ، وما يمارسون من الرياضة بعيد عن أن يجلب إلى أبدانهم العلل ،^(٣) وأكثرهم من صلابة الجسم والنشاط بحيث يلحقون الخيل والحمرا الوحشية عدوا ، فلقد سمعت من يحدث عن تأبط شرأ أنه كان إذا جاع نظرف السهل إلى الظباء فانتقى لنفسه أسمنها ، ثم يجري خلفه فلا يفوته حتى يأخذه ويذبحه بسيفه ،^(٤) وربما حدث الرواة بكثير من أمثال هذا الخبر عن الشنفرى وعمر بن برآق وغيرهما من العدائين

ووجدت لهم من الصفات الحسان التي تحدثها فيهم شهامة النفس ما ليس يجتمع في غيرهم من الأمم اجتماعه فيهم ، فهم يحمون الذمار ، ويمنعون الجار ولا يغمضون على الذل كما هو معروف عنهم في الأشعار ، فلأن يموتوا

(١) أى عند عربان البادية لأنه يعرف أن المتصرين كانوا يكتبون قديماً بالحروف الفهلوية التي كانت تستعملها الفرس ثم صاروا يكتبون قبيل الرسالة بالحروف الحميرية الى أن استبدلوها بالكتابة الكوفية في صدر الاسلام ويقال إن أيوب الصديق انما كتب حديثه بلسان العرب اهـ (٢) المسعودى والمقدمة (٣) قال في العقد الفريد لأمر ما طالت أعمار الرهبان . وصحت أبدان الرهبان . وما لذلك علة الا التخفف من الزاد (٤) الأغاني ١٢ : ٤٩

قتلا تحت ظلال السيوف ،. أحب اليهم من البقاء في رِبقة الذل والجُئوف .
يقول عمرو بن كُثُوم من أصحاب الملقات .

إذا ما الملك سام الناس خَسَفًا أينما أن تُقِرَّ الخسيف فينا
إلى غير ذلك من الآيات المعروفة ، وهم يفون بالقول من غير أن
يكتبوا على نفوسهم العهود ، يأخذون بثأرم أخذاً شديداً ، وذلك ناشئ
فيهم من بعدهم عن القضاء ، لأنهم لو كانوا يعاونون الأحكام لفسد البأس
فيهم ، وذهبت المنعة منهم ،^(١) ولكن ذلك قد يدعوهم إلى التفاني على غير
علة الا الحصول على الرخيص مما يبذلون في سبيله من النفيس ، كآثارهم
لأجل امرأة أو فرس أو بعير قتالا يستمر أعواماً طويلاً بين عشائرم ، حتى
إذا أراد الله تعالى أن يدركهم بلطفه الشامل نهام عن القتال في الأشهر
المحرمة فنقص فيهم من القتل ما يقع في أربعة شهور من القتال ، والله رءوف
بالمؤمنين وهو العليم الحكيم لا ربَّ سواه .

وأكرم ما وجدت فيهم من المحامد الموصوفة الكرم والسماحة ، حتى
إنهم ليُضيفون نزلاءهم ضيافة يوجبونها على أنفسهم ، ولو كان النزلاء قتلة
آبائهم ،^(٢) وربما توسعوا في أدب الضيافة إلى أن يكون بهم بشاشة عند
قدوم الضيف وغُصّة عند ارتحاله ، كما يقول عاصم بن وائل من شعرائهم
وأنا لنقرى الضيف قبل نزوله ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك
ولقد كنت أسمع عن كرمهم أحاديث لم أنقلها عن جانب الثقة
والاعتبار . فلما نزلت بجوارهم تحققتها بالمشاهدة والاختبار . ووجدت أن
كلهم كريم ، حتى لقد يكون السخاء تسعة فيهم وواحداً في الناس ،^(٣) ومن

(١) المقدمة ١٠٩ (٢) الأغاني والالتلیدی (٣) المحاضرة ٢ : ١٨١

زعم أن حاتم الطائي أكرم العرب فقد ظلمهم جميعاً. وظنى بأخذهم في هذه الضيافة الواجبة أنه أمر طبيعيّ عندهم، لأن الراحل منهم قد يفوز في القلاة أياماً طويلاً على جهد من العطش وسُعار من الجوع ، فإذا انتهى إلى خباء مضروب ورآه أهله بمكانه من العناء والأعياء قرّوه وعلفوا مطيته وأوقدوا له نارا يصطلي بها من كلب البرد كما يقولون ، حتى إذا أصابهم في ظعنهم مثل هذا العنت الشديد يتلقاهم أهل الخيام على السّعة من الضيافة قال حسان بن ثابت يتהל بذكر المكرمات :

واني لمعطٍ ما وجدتُ وقائلٌ لموقد ناري ليلة الريح أوقد
وكان الكرم ينتهي بهم إلى أن يقوم لعشائهم مناد في الأسواق ينادي
في الناس هل من جائع فنطعمه أو خائف فنؤمّنه أو راحل فنحمله ؟ . وهذا
أحسن ما يكون من محامد النفس الكريمة . ولست أقول إلا أنه كانت
لهم في مناقضة هذه المحاسن مساوئ كثيرة في الجاهلية ، فلما نزل كتاب
الله روض أخلاقهم المستهجنة وصرف عنهم المكروه من العادات ، فقد
نقلت الاخبار السالفة أنهم كانوا في جاهليتهم يتزوجون بنساء آبائهم^(١)
ويكرهون إماءهم على البغاء^(٢) ويألفون غير ذلك من العوائد الخسنة التي
ذهبت بمجيء الاسلام .

وإنما اضطرّ العرب إلى سكنى البادية وتخير بقاعها على الأيام بحسب
أحوالها من الصلاح ، لأنهم وجدوا في قفار قد تراكت عليها الرمال
المحرقة ، وما كانت تنبت لهم حباً ولا بقلًا ، وكانت آبارهم تفيض في حمارة
القيظ على بُعد قعرها ، فكانوا يظعنون لورود غيرها من المناهل في أصقاع

(١) الأغاني ١ : ١٠ . (٢) العقد الفرقد ٣ : ٢ .

يكون بها خضرة من السكّاء ، وتظهر للعين بين ما حولها من الرمال المنبسطة كأنها جزر في بحر تسير في مناحيه الجمال كما تسير السفن على ظهر الماء ، ولكن ليس ذلك إلا القليل في جانب الكثير من رمالهم المحرقة . ثم ان الله تعالى أوجد لهم الابل ^(١) والسائمة فكانوا يرتادون لها الماء فيما اتسع لهم من مجالات البادية ، فكان سكناهم في الوبر بما تقدم من الاسباب أمراً طبيعياً ، ولو أنهم نزلوا الأمصار ورفعوا بيوتهم من الحجارة لما اتسعت من حولهم المزارع والمسارح لحيواناتهم ، ^(٢) فظلاً عن كونهم يرون الأبنية والتحويط خصر لهم الرجال ^(٣) وحبساً لما في الغرائز من حب الاستقلال . فهم لا يصبرون على الضيم ، والحرية عندهم أفضل مما أعطاهم الله ، يبدلون نفوسهم ونفائسهم دون تقريرها لأنفسهم ، فانا لا نجد في أحاديث النقلة أن أمة استعبدتهم في غابر الدهر قط ، فهذه الكلدان والسرّيان واليونان والروم والفرس وآل ساسان قد ملكوا العالم إلا العربان ، وكان من أمانى الاسكندر الرومى أن يدعوهم إلى طاعته بعد أن تم له الغلب على المشرق ، غير أن المنيّة عاجلته قبل الاقدام على هذا التغير ، فزق بموته سلامة من الاخفاق ، حتى لا يقال عنه ، وهو الملك المنصور ، إنه توجهت عليه هزيمة ، إذ لست أشك أنه لو أقدم على العربان ما ثبت له جند عليهم في تلك المجالات التي يتوغلون فيها ويبيتون في أمن من العدو وإن كثّر .

(١) الابل سفين العربان وهم يغتدون بألبانها ويكتسون بأوبارها ويستدفنون بوقيد أبعارها وقد أوجد الله في قوائمها لبناً فوق القدم يطوى على الرمل ولا يغرز فيه مثل خوافر الدواب ليكون لها اقتدار على طرق الرمال (٢) المقدمة ١٠٥ (٣) المسعودى ٤ : ٢٣٤

ولقد لقيت من هؤلاء العربان قتيّ تلوح عليه النجاة والفظانة ،
فذكرت له أن في لقائه الملوك سبيلاً إلى نيل العلا فاخبرني أنه نزل
الزوراء لأول ما بناها أبو جعفر ولكن لم يمض إلا القليل حتى ملّ العمران
ومال به الشوق إلى ربوع العربان . وأنشدني وهو منصرف

لَبِيتُ تُحَفِّقُ الْأَرْوَاحُ فِيهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مَنِيْفٍ
وَلَبِسْتُ عَبَاءَةً وَتَقَرَّرَ عَيْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لَبْسِ الشَّفُوفِ

والآيات لفتاة من العرب صارت إلى معاوية بن أبي سفيان ثم لم تطب
نفساً بالمقام عنده، فرجعت إلى البادية بعد ما أنشأت الآيات التي أنشدنيها
هذا الغلام . فسبحان من قسم المعاش بين الأجيال . وركب في نفوسهم
طباعاً متفاوتة ، لا إله إلا هو ذو الأكرام والجلال .

الانفصال عن البصرة ولُـمعة من اخبار الحجاج

كان مُقامي في البصرة شهراً وثمانية أيام ، ولما طويت بساط الإقامة
تهيأ لي أن أصدع على دجلة سفراً^(١) يخفف عني مشقة الركوب على ظهور
المطايا، فدفعت حمولي إلى الرُّبَّان وانفصلت عن البصرة لأول هُدًى من الليل،
حتى إذا طلع النهار كنا في متوسط بطاح مفروشة بالنخيل على مد البصر،
وفيه خيام لبطون من تميم^(٢) وشيْبَان^(٣)، قد ضربوها على مرتفعات من
ذلك السهل ، فكان تأملي منازلهم مع ما أعلمه من شدة تعلقهم بعيش
البدواة يمثّل لي من بُعد ارتحالهم مرافقين الشعراء وقد وقفوا بالعيس على

(١) المسعودي ٢ : ٢٣٩ (٢) في الأغاني ٩ : ٧٨ أنهم كانوا يجتمعون
بجوار البصرة (٣) تزيين الاسواق ٢ : ٧

هذه الأطلال وبكوا عهوداً مضت لهم في زمان الأنس ما بين هذه
الربوع .

ولما كان بعد أيام طلعت علينا سموم يكاد يأخذ جرُّها بالنفس ،
وكدنا أظن ننكص على الأعقاب لاختلاف الريح ، فرأى الرُّبان أن ينزل .
الملاحون إلى البر ويربطوا المركب بامراس يجرُّونها بها من غدوة النهر
ريثما يحصل الفرج ، ومضى الليل كله من غير أن تكتحل عيناى بنوم من
شدة الحر إلى أيام عشرة لم نزل بها في مغالبة الريح ومقاساة عنتها الشديد .
إلى أن وصلنا إلى مدينة واسط^(١) .

هذه المدينة في فضاء من الأرض طيبة الاقليم والنسيم ، غير أن الحرَّ
غالب عليها لاقبال الرياح إليها من جهة الرمال المتراكمة على هضابها^(٢) ،
ومبانيها من الإحكام بمكان سايم ، ولا سيما القصر الذي بناه الحجاج^(٣) ،
وهو باق إلى زماننا هذا ، وهو سنة ست وخمسين بعد المائة ، والناس يسمونه
الخضراء ، وله قبة مشهورة في مباني الاسلام ، حتى قيل إنه ما بُني لأحد
قبل الحجاج مثلاً^(٤) ، وفيه أحواض كثيرة يرقى إليها ماء دجلة ، وأعظمها
حوض من الرُّخام الأخضر وبه مجلس به سرير مذهب^(٥) يقال إنه كان
مقعداً للحجاج في مجالسه العامة ، وهذا القصر بهيج مزخرف بأنواع الزينة ،
لأن النفقة عليه وعلى الجامع الذي بجواره بلغت نحواً من أربعين ألف
ألف درهم^(٦) ، ولكنه سمج في عيني بما ورد على خاطري عند مرآه من .

(١) تقويم البلدان ٣٠٧ (٢) القزويني ٣٢٠ (٣) المسعودي ٢ : ١٨٣

وهو يقول انه كان باقياً لأيامه (٤) المسعودي ٢ : ١١٥ (٥) الابشهي ١ : ٦٣

(٦) ياقوت ٤ : ٨٨٧

قُبَائِحُ الْحَجَّاجِ ، فَكَأَنَّهُ نِيَتْ قَدْ رَفَعَتْ جَدْرَانَهُ عَلَى دَعَائِمِ الظُّلْمِ وَالْاِعْتِسَافِ .
وَبَقِيَتْ فِي وَاسِطِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لِاخْتِلَافِ الرِّيحِ ، وَلَكِنْ عَلَى كُرْهِ مَنْ
النَّفْسِ ، لِأَنِّي كُنْتُ أَرَاهَا بَعِينَ الْمَاقَتِ لَهَا . وَنَزَلَتْ بِهَا فِي فُنْدُقٍ عَلَى شَاطِئِ
النَّهْرِ حَيْثُ الْجَسَرُ الْمُقَامُ مِنْ سَفْنٍ ، وَأَمَامَهُ سَاحَةٌ تُتَبَاعُ فِيهَا الْخِيُولُ وَيَكُونُ
بِهَا سُوقٌ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ مِنَ السَّنَةِ يَأْتِيهَا الْعُرَبَانِ بِمَا يَرِيدُونَ يَبِيعُهُ مِنَ الْخَيْلِ
الْجَيَادِ الَّتِي يَحْتَفِظُونَ بِهَا احْتِفَاطًا الْآبَاءُ بِالْبَنِينَ ^(١) ، فَانْهَمَ لَا يَتَخَلَّوْنَ عَنْهَا
بِالْقَلِيلِ وَلَا بِالكَثِيرِ مِنَ الْمَالِ ، وَإِذَا سَأَلْتَهُمْ يَبِيعُهَا مِنْكَ بِأَعْلَى الْأَثْمَانِ فَأَنْتَ
مُردودٌ فِي سؤْلِكَ ، يَقُولُونَ لَكَ هَذِهِ مَنْجَاتُنَا مِنَ الْعَدُوِّ وَإِذَا أَطْلَقْنَا لَهَا
الْعَيْنَانِ طَبَقَتْ الْآفَاقَ بِأَسْرَعٍ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ .

وَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْمَسْجِدُ مُقَامَةً فِي وَاسِطٍ مِنْذُ بَنِيَتْ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ ، لِأَنَّهَا
كَانَتْ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمِائَةِ مِنْ أَعْمَرِ بُلْدَانِ الْعِرَاقِ بِمَا خَصَّهَا اللَّهُ مِنْ خِصْبِ
الْتُّرْبَةِ وَكَثْرَةِ الْخَيْرَاتِ ، فَلَمَّا وَقَعَ بِهَا الطَّاعُونَ الْجَارِفُ مِنْذُ أَرْبَعِينَ
سَنَةً ^(٢) وَنَزَلَتْ بِالنَّاسِ السُّنُونُ وَأَخَذَتْهُمْ الْجَمَاعَاتُ أَتَتْ عَلَيْهَا الْخَرَابُ
وَالْإِنْحِلَالُ وَتَجَافَى النَّاسُ عَنْ سَكْنِهَا بِمَا تَوَالَى عَلَيْهَا مِنَ الْفِتَنِ الَّتِي وَقَعَتْ
فِي صُدُورِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّ فِيهَا السَّلَامُ وَبَعْدَ عَهْدِهَا مِنَ الْوَبَاءِ ، فَسَارِعَ
أَرْبَابُ التَّجَارَةِ إِلَى اسْتِيطَانِهَا لِمَا يَتَسَنَّى لَهُمْ فِيهَا مِنْ قُرْبِ الْإِتِّصَالِ وَالْمَسَافَةِ
الْآنَ مِنْهَا إِلَى الزَّوْرَاءِ خَمْسُونَ فَرَسَنًا ، وَمِنْهَا إِلَى الْبَصْرَةِ خَمْسُونَ أَيْضًا وَمِنْهَا
إِلَى الْأَهْوَازِ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَظَنِي أَنَّهَا سُمِّيَتْ بِوَاسِطٍ لِهَذَا السَّبَبِ ، وَهُوَ
تَوَسُّطُهَا فِي الْعِرَاقِ .

وَقَدْ اتَّفَقَ لِي قَبْلَ الْإِتِّصَالِ عَنْهَا أَنِّي لَقِيتُ فِيهَا شَيْخًا كَانَ أَبُومُ خَادِمًا

(١) تَزِينُ الْأَسْوَاقِ (٢) ابْنُ الْأَثِيرِ ٥ : ٧١

عند الحجاج (حاسبه الله تعالى) فحدثني من أخباره ما تنفطر منه الأفئدة
رحمة لأهل البيت وأصحابهم ، لأنه كان يقتل منهم جُزافاً على التهمة إلى أن
بلغ عدد الذين قتلهم صَبْرًا مائة ألف وعشرين ألفاً ، وكان في السجن عند
ما أهلكه الله أكثر من خمسين ألفاً يرُسفون في سلاسل الحديد ، ولا ذنبَ
لهم إلاَّ حبُّهم لأهل البيت ، وكانت الناس في أيامه إذا تلاقوا في المجالس
والمساجد والأسواق يتساءلون مَنْ قُتِلَ البارحة ومن صُلب ومن قُطِعَ ،
وقد تفاحش ظلمه في الخراج بحيث إنَّ الأمراء بعده كانوا يستنكفون عن
ولاية الخراج خوفاً^(١) من تقض الخراج إذا خففوا ضرائبه ومُكوسه ،
أو الاستمرار على ظلم الناس إذا راموا جباية ما كان يحمله إلى الخليفة
من المال^(٢) .

وقد رسم لي هذا الشيخ صورته بأنه كان قويَّ البنية مائلاً إلى السِمن ،
ولا يزال العرق متصبباً على جبينه وصُدغية من تحت قلنسوة قد حوَّطها
بعمامة خضراء ،^(٣) وكانت له مهابة تقصم ظهر الوافد عليه . وكان شديد
التهويل في خطبه ، وإذا صعد المنبر تلفع بمُطرقة ثم تكلم رويداً رويداً

(١) ابن الاثير ٥ : ٩ (٢) كان ملوك بني أمية يعرفون من الحجاج جوره
واعتسافه ولكن لم يكن في كراتهم سهم أشد منه نكاية على العدو فلم يرق لهم استبداله
بغيره بل كان ثقل أمره على الرعية . وفي مروج الذهب أنه لما وفد على الوليد بن عبد الملك
كان عليه درع وكنانة وقوس عربية وقد تفضل الخليفة في غلالة فجاءت بجارية وسارت
الوليد ومضت ثم عادت فسارته ثم انصرفت فقال الوليد للحجاج أتدرى ما قالت
هذه يا أبا محمد قال لا والله قال بعثتها إلى ابنة عمي أم البنين تقول ما مجالستك لهذا
الاعرابي المتسلح في السلاح وأنت في غلالة فأرسلت إليها أنه الحجاج فراعها ذلك
وقالت والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق اهـ (٣) العقد ٣ : ١١

فلا يكاد يُسمع حتى يتزايد في الكلام فيخرج يده من مُطَرَفِه ثم يزجر الزجرة فيقرع بها من في أقصى المسجد .

قال وكان يحدثني أبي أنه كان يجد لذّة^(١) في سفك الدماء وارتكاب أمور لم يُقدِّم عليها غيره ولم يسبقه إليها سواه ، ولما أرسله عبد الملك بن مَرْوان إلى العراق ليُوطئ له المنابر خرج كيش الأزار وغلب الناس بقوة الرجال لا بالسياسة والرأي ، لأن جنوده كانوا من الشام^(٢) . وهم على غرض الأمويين مخالفون لأهل البيت ، فلما أوجدتهم بين أعدائهم لم ير منهم إلا نفوساً مستقلة راجعة إلى رأيه في كل أمر ونهى ، فحملهم على منازاة مكة المكرمة من هذا الوجه ، ولم ينفك عن ضربها حتى استسلم إليه أهلها بعد أن تصدع جدار البيت الحرام ، فأقام ملك بني أمية على هذا الظلم وقومه لهم خمسين سنة من بعده ، إلى أن أراد الله بانقراض دولتهم في المشرق .

هذا نبذ يسير من أخبار هذا الظالم الناشم ، وقد رأيت تناقل الحديث عنه في أفواه الواسطيين كتناقل الحديث في مجالس البصريين عن زياد بن أبيه ، وكلاهما قد أذاق العراق من الهوان والقهر ما لم يسبق إليه أحد من البغاة الظالمين ، ولكليهما فضل في تدبير ما خبوا من الولاية إلا أن لزياد فضلاً في بلاغة الكلام التي شهد له بها أكبر الرجال وضبطه البلاد بأهل البلاد أنفسهم أعظم من فضل الحجاج الذي ما غلب العراقيين إلا أهل الشام وما قوم ملكه إلا بالسيف البائر . والجبروت القاهر .

(١) المسعودي ٣ : ١٠٣ (٢) الكنز ٢٢٢

المرور بمدائن كسرى أنوشروان

كان انفصالنا عن مدينة الحجاج في ليل رطيب قد انفتق سحابه عن القمر، فقضينا جزءاً كبيراً منه في السمرحتى إذا أسفر الصباح كنا في محاذة قصر يقال له الرُمان ^(١) ومن حوله خيام مضروبة للعربان، فوق ذلك من نفسى موقع الاستعمار من الدنيا في نعيم الحضارة وشقاء البداوة، إذ كانت الأضداد منها على هذا الوجه قلما يقع عليها النظر في وقت واحد. وكان يلوح لنا في صدر السهل إلى آخر النهار بناء عظيم أُخبرْتُ أنه من جملة المناظر التي أقامها الحجاج بينه وبين قزوين، ^(٢) وهي إذ ذاك آخر الثغور، حتى إذا ظهر فيها الخوارج دُخِنت بالنهار فدُخِنت المناظر كلها أو أوقدت بها في الليل ناراً فاستوقدت المناظر فيعلم ذلك

ولم نزل نحترق عُباب دجلة يوماً بعد آخر حتى جزنا جبل والنعمانية ثم الماطر ثم يلي كلواذا ^(٣) وأقبلنا على المدائن مع طلوع الفجر، فنزلت إلى البر أتفرج على الايوان الذي بناه كسرى أنوشروان. فاذا هو في غاية العظم ونهاية الاتقان. يبلغ طوله نحواً من مائة ذراع وعرضه نحواً من نصف ذلك وقد رت في ارتفاعه أكثر من ثمانين ذراعاً، وليس في مباني الآجر

ما هو أبهى منه، وقلما يوجد فيه موضع غفل من رسم أو نقش أو كتابة، وهو يعدُّ من العجائب ويشهد لما اقتدر عليه الفرس في عهود الأكاسرة الذين جبوا معظم الدنيا، حتى صار يضرب المثل بما جمع من الضخامة

(١) ابن خلكان ١٠١ : ٤٧١ وياقوت ٢ : ٨١٤ (٢) ياقوت ٤ : ٨٨٦

(٣) المسعودي ٢ : ٢٢٩

والإحكام ، ولا يُرى فيه اليوم من الآثار الجليلة إلا صورُ آلهة جبابرة .
وسباع ضارية . وشاهد حروب يفوز بها كسرى الخير أنوشروان ،^(١) وأهـ
آنيةُ القصور وزخارفُ المنقولة وما كان فيه من المتاع الثمين فقد فقدت بسد
الفتح ، وبلغ المحمول منها إلى بيت المال ألف ألف دينار من الذهب .
وجملة القول أن شأنه في الفخامة والاتقان مما يحير الأذهان ، على أن
الأيام قد أهوت عليه يعمول الفناء الذي ليس في طاقة الطين اتقاؤه ، ثم زاد
على ذلك كله أن أبا جعفر لما ابنتى الزوراء حمل من آجره جانباً كبيراً على
بُعدِ الشقة وعظم النفقة ، فعارضه خالد بن برمك (رعاه الله) وقال يرغبه في
حفظ ذلك الأثر يا أمير المؤمنين لا تفعل وأتركه ما تلا يستدل به على اقتد
آبائك الذين سلبوا ملك أهل هذا الايوان ، فاتهمه الخليفة في النصيحة وقار
أخذته الثمرة للفرس ، وأبى إلا التعصب لقومه ، فوالله لأصرعنه قريباً
ثم شرع في هدمه واتخذ له القُوس وصب عليه الخل وحماه بالنار ، حتى
إذا أدركه العجز وخاف الفضيحة بعث إلى خالد يستشيريه في التجافي عن
الهدم ، فقال يا أمير المؤمنين قد كنت أرى ألا تهدمه فأما إذ فعلت فاني
أرى أن تستمر على ذلك لئلا يقال عجز سلطان العرب عن هدم مصنع من
مصانع العجم ، فعرفها المنصور وأقصر عن هدمه ولكن بعد أن قوض جانباً
من هذا الأثر الجليل .

ولما وقفت بالايوان كانت الشمس لأول طلوعها وعلى تلك الدمن

(١) ذكر ذلك البحتري في وصف الايوان حيث يقول
والمنايا موائل وأنوشروا ن يزجي الصفوف تحت الدرفس
والدرفس الراية

ندى يتلأ ما بين الأوكار التي تجنح إليها طيور الخراب ، فقعدت أتأمل
ما كان عليه ربُّ هذا القصر من العزة وعظم القدر ، وكيف أخنى عليه
الدهر فأخذتني لذلك عبرة من مشاهدة الآثار الباقيات وتذكرت نظم
شاعر يقول هذه الأبيات .

أيها الشامت المعيرُ بالدهر أنت المبرأُ الموفور
أم لديك العهد الرقيق من الأيَّام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنونَ خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى خيرُ الملوك أنوشرُ وإن أم أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم لم يبق منهم مذكور

وقد كان لمرأى هذه الآثار تأثير في الخاطر لا يبرح منه العمر ، وكان
رحيلنا عنها قبيل الظهر ونحن على ستة فراسخ^(١) من دار السلام ، وقد
فرغت من تقييد هذه الرسالة في آخر يوم من رمضان أرانا الله بركته بمنه
وكرمه ، ونحن قد جُزنا موضعاً يعرف بالنهر وان^(٢) وصرنا على مُطلٍّ من
الزوراء أم البلدان .

مُقامى فى دار السلام

اتفق وصولى إلى دار السلام فى عيد الفطر قبيل العتمة وهى تلمع
بالأنوار ويتصاعد من المسبحين بحمد الله والمقدسين له نغمات تُؤوِّبها معهم
أرجاء المدينة ، وتعذر المسير على مركبتنا تجاه باب البصرة^(٣) أو كاد ،

(١) ياقوت ٤ : ٤٤٧ (٢) ابن خلكان ١ : ١٩٦

(٣) هو باب من أبواب بغداد

لازدحام الزوارق المشتبكة في هذا المكان ، وهي مظلية بأبهى الأصباغ والألوان . مرصعة بأنوار القناديل الحسان . حتى كأن دجلة في الزوراء . أشبه بالمجرة في كبد السماء . ثم تقدم بنا المركب حتى وقف بمقربة من الجسر ، وعلى مطل من قصور الخلافة التي كانت تتلأأ بضوء باهر ،^(١) فركبت البر في الموضع المعروف بجزيرة العباس ،^(٢) وقد غص بمجموع من الناس وقد لبسوا الطيالس السود تشبهاً بملوك هذه الدولة الذين اتخذوا السواد شعاراً للخلافة حزناً على شهدائهم من أهل البيت ونعياً على بنى أمية في قتلهم ، وشاهدت جماعة قد اتخذوا بدل المائم قلانس طوالاً مصنوعة من القصب والورق ملبسة بالسواد أيضاً ، وبدل الدروع دراعات مكتوباً عليها بين كتفي الرجل «فسيكفيكم الله وهو السميع العليم» ، أخبرني^(٣) بعض من لقيته في تلك الليلة أن أبا جعفر هو الذي أحب أن تزيأ حوزته بهذا الشكل من اللباس منذ ثلاث سنين .

ولما جلست في المدينة أخذت عن قطعة^(٤) أبي عيسى الهاشمي الى محلة يقال لها الميدان^(٥) ، ومنها إلى الشارع الكبير المعروف بشارع أبي جعفر ،^(٦) فوجدته كأحسن ما يكون وأحفله من الشوارع ، وله السيادة عليها بأمرين ، الأول اتساعه إلى أربعين ذراعاً^(٧) وإن كان يشاركه فيه غيره ، والثاني طوله من دار الخلافة إلى محلة باب الشام^(٨) على استقامة ليس في الامكان أصح منها ، فلما صرت فيه استقبلت في دور الخلافة زينة

(١) الاغانى ٤ : ١٨٩ (٢) في المسعودى أن السفن الواردة من البصرة تقف في بغداد بهذا الموضع (٣) ابن الاثير ٥ : ٢٤٥ والاعانى ٥ : ٩٥ (٤) ذكرها ياقوت (٥) الاغانى ٢٠ : ٦٦ (٦) ابن خلكان ١ : ٣٠ (٧) ابن الاثير ٥ وابن خلدون ١ (٨) ذكرها ابن خلدون وابن الاثير

كضوء الشمس ، قد اتُّخِذَتْ على القبة الخضراء ^(١) التي رفعها أبو جعفر إلى علو يزيد على ثمانين ذراعاً ليُشرف منها على جهات المدينة وما بجوارها من البساتين ، كما أنه غني بتجميلها بالرسوم العجيبة ليكون منها الدلالة على سعة ملكه والشهادة باقتداره على عظام الأعمال ، فكانت تظهر زينتها في تلك الليلة وهي مرتفعة في الفضاء كأنها إكليل من نور قد تدلى على قصر السلام .

ثم إنني أقبلتُ في صدر هذا الشارع على مسجد جامع عليه ازدحام فُلمت إليه ، رجال متمنطقين بالسيوف يَرْجِعُونَ الناس وَيَجْعَلُونَ مَهْرًا بَيْنَ جَمْعِهِمْ ، ووراءهم رجلٌ طويل ^(٢) أَسْمَرٌ نَحِيفٌ خَفِيفُ الْعَارِضِينَ مُعَرِّقُ الْوَجْهِ نَاطِقُ الْعَيْنِينَ عَلَيْهِ ثِيَابٌ سَوْدٌ مِنَ الْخَزِّ وَقَلَنْسُوءَةٌ مَطْوُوقَةٌ بِوَبَرٍ ^(٣) أَسْوَدٌ مِنَ الْأَوْبَارِ الْغَالِيَةِ الثَّمَنِ ، وَفِي وَجْهِهِ مَهَابَةُ الْمُلُوكِ وَجَلَالَتِهِمْ ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْخَلِيفَةُ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَى غَيْرِ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ جَاشِيَتُهُ ، إِذِ الشَّمْسُ لَا تَخْفَى وَإِنْ سُرِّتْ ، ثُمَّ لَمْ أَزَلْ أَتَّبَعُهُ بِالْعَيْنِ حَتَّى تَوَارَى بَيْنَ الْجَمْعِ وَرَكِبَ بَغْلَةً ^(٤) عَلَيْهَا حِلْيَةٌ خَفِيفَةٌ مِنَ الْفِضَّةِ ، وَكَانَ لَجَامَهَا فِي يَدِ حَاجِبٍ مِنْ حُجَّابِ الْخَلِيفَةِ :

ثم دخلت المسجد وعلى المنبر خطيب له بيان وفصاحة يقال له الحجاجُ ابنُ أَرْطَاةٍ ^(٥) ، وعلى مقربة منه قُرَاءٌ سَبْعَةٌ يَتْلُونَ الْآيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَى مِائَةِ آيَةٍ مِنْ مَوَاضِعَ مُتَفَرِّقَةٍ وَسُورَ مُخْتَلَفَةٍ ، فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنْ تِلَاوَتِهِمْ تَطَايَرَتْ إِلَيْهِ رُقَعٌ فِي مَسَائِلِ الْفَقْهِ فَأَجَابَ عَنْهَا بِكَلَامٍ أَمْضَى مِنَ الْمَرْهَفِ ، وَحَدَّثَ

(١) المسعودي والقزويني (٢) العقد الفريد (٣) ابن عون وذكر ابن جبير أنه رأى الخليفة ببغداد وعليه قلنسوة ذات وبر (٤) ابن خلدون (٥) ذكر في العقد الفريد أنه ولي القضاء لابي جعفر

عن البحر في بُعد الفور رُقربِ المغتَرَف ، وعهدى بمن لَقِينِه من الخطباء أنى
ما سمِعَهم إلا تَمْنِيتُ أن يسكتوا مخافةً أن يخطئوا ما عدا هذا الفقيه الذى
كان يُواتيه الكلام ويتابعه ، حتى إذا فرغ من جوابه على هذه الرقع اندفع
في تفسير كتاب الله وإيراد الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى أن أخذ
في سرْد الآى المقرَّوات فأتى بها على نسق القراءة من غير تقديم ولا تأخير .
حتى انتهى إلى آخر آية وهى قوله تعالى « فى يُوتِ أذن الله أن ترفع
ويذكر فيها اسمه ^(١) الآية » ، فتمق خطبة يذكُر بها المؤمنين قافيةً سجعاً بها
الالف اللينة واللام ترْداداً لموقف الآية « الآصال » حتى أرسلتِ العيون
لخشية الله عبراتها ^(٢) .

ولم أزل فى المسجد مع القوم يزن- قراءة وتسبيح إلى ما بعد العشاء
الآخرة ، فخرجت التمس موضعاً أبيت فيه بقية الليل لعلى أجد فى النوم
راحةً تعوّض على بعض ما أخذ منى السفر ، فأرشدت إلى خان لطيف ينزله
الغرباء من أهل التجارات وغيرهم ، فلما كان الصباح بكرت إلى استاذى
أبى يوسف ، منزله على نهر عيسى ^(٣) فى قنطرة الزياتين ^(٤) بمقرّبة من دور
الخلافة ، فتلقانى بالبشاشة والايّناس وأبى إلا ضياقتى عنده فى جناح أفردته لى
من داره ، وهو يؤملى بلوغ ما أرتجيه من خدمة الدولة ، إذ لا يعدّم قومنا محلاً
فى مراتبها الوزارّة فى يد خالد بن برمك أميرنا . إنى إلى هذا اليوم أخرج فى
الفقه عليه ، وقد وجدت عنده من العقل والعلم ما يندّر مثله فى صدور الرجال .

(١) سورة النور (٢) من رحلة ابن جبير (٣) ابن حوقل ١٦٥

ويقول المسعودى ١ : ٧٤ انه يأخذ من الفرات وفى ابن خلكان ١ : ٧٤٠ انه يأتى

بغداد من جهة الانبار و ١ : ١٠١ انه بجوار قنطرة الزياتين (٤) الاغانى ٣ : ١٨٢

وابن خلكان ١ : ٢٨٣

ذكر شيء من محاسن الزوراء

ولقد أکبرت من الزوراء رواج سوقها بالتجارة واشتباك أحيائها بالعمارة في مدة عشر سنين حتى جمعت من اسباب العمران ما لا يكون في مدينة بنيت من قديم الزمان ، ووجدتها من لطف الهواء وطيب الاقليم على خير ما تكون مدينة ، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وأسواقها في نهاية من الاحتفال ، قد جمعت بالكرخ أخلاطا من التجار^(١) والصناع ، إلا سوق الصاغة منها فانه منفرد بجماعتنا الفرس ، وقد بلغوا من الاجادة في صناعتهم الغاية بحيث يرصعون الزجاج بالجواهر ، ويكتبون عليه بالذهب المجسم ، ويصنعون للملوك أقداحا^(٢) تقيّد الأبصار حسنا وإشراقا ، ويتخذون على الجامات صورا يحكمون صناعتها بالرسم إلى مماثلة الحقائق ، وقد رأيت من ذلك جاما قد صورت عليه طيور تطير^(٣) ومن فوقها عقاب ينقض عليها ، وهي تهوى في الفضاء للتخلص منه ، لكن بهيئة تملك النفس وتستوقفه الطرف . وإلى طرف هذه السوق مما يلي سويقة غالب^(٤) جماعة من البنائين يبنون الدكاكين لأرباب التجارة بإشارة من السلطان الذي أمر بتحويل الأسواق إلى الكرخ^(٥) ليعبد أخلاط الناس عن رجواره .

أما دور المدينة فانها متخذة على هندسة الفرس وصنائعهم ،^(٥) ومثال

(١) الاغانى ٩ : ٣٣ و ١٨ : ٦ (٢) الاغانى ٤ : ١٨٩ (٣) في الحصرى ١ : ٣٥ هذا الشعر لاني نواس .

تدار علينا الراح في عسجدية حبثا بانواع التصاوير فارس

الاغانى ٣ . ٢٧ (٤) ذكره ابن خلكان في محلة الكرخ ١ : ٢٤ في ابن الاثير ٦ : ٩٩ ان بين الكرخ ومدينة المنصور سورا يفصل بينهما ثم ان العمارة امتدت من وراء الكرخ حتى صار الكرخ في جوف بغداد (٥) المقدمة ٣١٣

ما بنت الروم في الشام أو حيث كانوا ينزلون من البلاد ، وهي مجللة كلساً ومرفوعة إلى طبقتين ^(١) ومبنى بالآجر ما ارتفع منها عن الأرض ، وبالحجر ما يماسها دفعا للماء في أوان السيل ^(٢) أن يبلغ الطين ويتمكن منه ، ومنهم من يقوى الآجر بالقصباء والحلفاء وينمسه بالحص ^(٣) حتى يصير يابسا وتكون له رنة كرنه الحجر الصلد إذا صلصل . وليس لدور العوام أسوار تحيط بمنزلهم وإنما تطل نوافذها على الشوارع ^(٤) بحيث إذا ارتفع المار على حجر أو على دابة تسر له أن ينظر من بداخل البيت ، ^(٥) أما دور المتمولين من أهل اليسار فأنها ثلاثة أقسام يجمعها سور واحد ، وهي مقاصير الحرم وحجرات الخدم ومجالس السلام . وفي ساحاتها جنات تزرع فيها البقول والرياحين والرمان وسائر الفاكهة حتى تكون رَوْحاً وريحاناً واسترواحاً للنفس ، وعلى جدرانها وسقوفها نقوش في رسم ملون أو فسيفساء من ذهب ، وعلى دوائر الأبواب والقمريات وبرادات ^(٦) الدور كتابة يتخذونها من الزجاج ^(٧) الملون ويحوطنونها بخشب أسود من الآبنوس وغيره ، ثم يعلقون عليها رسوماً من النحاس تمثل غصوناً وثماراً وأزهاراً وأشكالاً فيها كل غريبة من الابداع ، فتمتلئ العين ارتياحاً من النظر إلى إشراقها . واني ليمعبنى من جمال مبانيهم ما يتأثقون في زينته من الخارج أيضا ، فإن القباب التي يرفعونها من فوق السطوح على عمود قد دقت أمثال الرماح ليخيل للرائي أنها لا تستند على شيء . وكأنما هي معلقة في الهواء .

(١) يستدل على ذلك من الاغاني ٧٣ : ٢ و ٣١ : ٣ (٢) ذكر الاغاني

١٤٤ : ٩ وقوع سيل بغداد (٣) ابن خلدون ٣ : ١٩٧ (٤) الاغاني ١٧ : ٤٩

(٥) الاغاني ٣٨ : ٥ (٦) الاغاني ١٧ : ١٢٩ (٧) القزويني ١٢٧

ولما كان الحر يشتد وَهْجَه في الزَّوْرَاءِ وَيَفْتَقِرُ أَهْلُهَا إِلَى رَطوبَةِ الْمَاءِ
اِفْتِقَارَ النَّفْسِ إِلَى الْهَوَاءِ قُلَّ أَنْ يَخْلُوسَوْقَ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ أَوْ بَنِيَّةً مِنْ مَبَانِيهِمْ مِنْ
سِقَايَةٍ يَجْرِي بِهَا مَاءُ دِجْلَةٍ، ^(١) وَلِذَلِكَ لَا يَسِيرُ فِيهَا الرَّجُلُ إِلَّا مُحْفُوفًا بِالشَّجَرِ
الْمُزْهِرِ وَالرِّيحَيْنِ ^(٢) الَّتِي يَتَغْنَى بِوصفِهَا الشَّعْرَاءُ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الزَّوْرَاءَ
كُلَّهَا مَاءٌ وَنَمَاءٌ . وَلِأَهْلِهَا فِي إِقَامَةِ الْأَحْوَاضِ عَنَاءٌ تَامَةٌ فَيَرْفَعُونَ عَلَيْهَا عُثْمًا
مُزَخْرَفَةً مِنَ الرُّخَامِ وَيَعْقِدُونَ مِنْ فَوْقِهَا قُبَابًا مَنْقُوشَةً بِآيَاتٍ مِنَ الذَّهَبِ ^(٣)
وَمَا يَبْنِيهَا النَّقُوشُ الظَّرِيفَةُ وَالرَّسُومُ الَّتِي تَقْرَأُ بِهَا الْعَيُونَ . فَتَوْسَعُوا مِنْ اتِّخَاذِهَا
لِلضَّرُورَةِ إِلَى الْمَغَالَاةِ بَزِينَتِهَا عَلَى سَبِيلِ التَّرَفِّ وَالتَّرَقُّهِ ، وَإِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ
الْحَرُّ اتَّخَذُوا أَسْرَابًا تَحْتَ الْأَرْضِ وَأَقَامُوا فِيهَا بِالنَّهَارِ لِيَكْسِرُوا الْحَرَّ كَمَا
يَقُولُونَ ^(٤) .

وَلَقَدْ عَظُمَتْ عَنَاءَةُ أَبِي جَعْفَرٍ بِهَذِهِ الْمَدِينَةِ حَتَّى أَنَّهُ أَنْفَقَ نَحْوًا مِنْ
أَرْبَعَةِ آلَافِ أَلْفِ دِينَارٍ فِي بِنَاءِ السُّورَيْنِ اللَّذَيْنِ يَحُوطَانِهَا وَالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ
وَدُورِ الْخِلَافَةِ وَالْمَجَالِسِ الَّتِي عَقَدَهَا فَوْقَ أَبْوَابِ السُّورِ الْخَارِجِيِّ مِنْ طَلَاقَاتِهَا
الْمَعْقُودَةِ ، وَهِيَ أَرْبَعَةٌ أَوَّلُهَا بَابُ خُرَاسَانَ وَيُسَمَّى بَابَ الدَّوْلَةِ لِأَقْبَالِ الدَّوْلَةِ
الْعَبَّاسِيَّةِ مِنْ خُرَاسَانَ . وَالثَّانِي بَابُ الْكُوفَةِ وَهُوَ تِلْقَاءُ الْكُوفَةِ . وَالثَّلَاثُ
بَابُ الشَّامِ وَهُوَ مِنْ تَاحِيَةِ الْغَرْبِ . وَالرَّابِعُ بَابُ الْبَصْرَةِ وَهُوَ بِمَقْرُبَةٍ مِنْ
دِجْلَةٍ . وَقَدْ هَمَلَ إِلَيْهَا أَبْوَابُهَا مِنْ وَاسِطِ الشَّامِ ^(٥) وَالْكُوفَةِ عَلَى بَعْدِ الشُّقَّةِ
وَالْمَشَقَّةِ . وَاتَّخَذَ الْأَبْوَابَ الدَّاخِلَةَ مُزَوَّرَةً عَنِ الْأَبْوَابِ الْخَارِجَةِ ^(٦) وَلِذَلِكَ

(١) المقدمة ١٠٥ و ٣٥٧ والاعاني والاتيدي (٢) ياقوت ١ : ٦٨٧

(٣) الاتليدي ٢٢٦ (٤) من ابن خلكان (٥) ابن الاثير ٥ : ٢٣١

(٦) تقويم البلدان ٣٠٣

سميت المدينة بالزَّوراء .

ثم إنَّ تناهىَ جمالها بما شاد فيها الأمراء من المباني التي تقف عندها
الغايةُ في الفخامة والاشراق ، ولا سيما ما كان من المساجد المزخرفة فانها
لكثيرة ^(١) في الزَّوراء ، أتيتُ منها . إلى زيارة مسجد في قنطرة الصَّراة ^(٢)
ومسجد بناه عبد الله بن حرب في الموضع ^(٣) المعروف بالحرية . ومسجد
أقامه أمير من آل قحطبة في شارع المحرم ، ^(٤) وآخر بنته الخيزران زوج
وليَّ العهد في الخيزرانية ، ^(٥) وهو فائق الحسن وفيه أكثر من ثلثمائة قنديل
من الفضة والذهب ، وصحنه من حجارة سود شديدة البصيص تصف
الأشخاص كالمرآة ، وعلى حيطانه صور تقاحات وثمار وغصون تخيل للوافد
على المسجد أنه بين شجر زاه مزهر . في روض باه باهر . ورأيت العملة قد
حُكِّوا فيها رسوم الأعاجم على انسجبتهم حتى جاءت الحجارة توهم الرأى أنها
بُسُطٌ مُجَمَّلَت من طبرستان ، ولا فرقَ بينها إلا فرقٌ ما بين الصوف
والحجر ، وليس في مساجد الزَّوراء مثله في الزينة إلا مسجد بناه أبو جعفر
في شارع دُجَيْل ^(٦) مما يلي باب الأنبار ^(٧) والمسجد الجامع الذي بجوار ذور
خلافة .

(١) ذكر القرماني وغيره أنه كان يغداد ثلاثون ألف مسجد وعشرة آلاف
حام (٢) موضع يغداد ذكره ابن الأثير ٦ : ١١٧ (٣) ذكره ابن خلكان
١ : ٢٣ وياقوت ٤ : ٥٨٦ والمسعودي ٢ : ٢٤٠ و ٣٨٨ (٤) ذكره الاغانى
٥ : ١٢٦ (٥) ذكره ابن الأثير ٦ : ١٠١ (٦) ذكره ابن خلكان ١ : ٤٩٨
(٧) ذكره ابن الأثير ٦ : ٩٨ والمسعودي ٢ : ٢٤٠ والمستطرف ١ : ٢٨٩

في تقربي من رجال الدولة

ولقد لقيتُ في الزَّوْرَاءِ جماعة من الأُمراء المُقدِّمين في الدولة غير أنني انقطعت إلى خدمة ماوكتنا البرامكة وملازمة بابهم في البكور والرواح ، إذ كانوا أصحابَ فضل وجمال ومروءة وعفاف . وقد وقع بيننا من المودة ما ضمني وإياهم في أوثق جبال الانس والاثلاف . وتقربت بكفالتهم إلى معن بن زائدة الشَّيباني وروُح بن حاتم المهلبِي وهما أعظمُ رجال الدولة بعدهم ، وكنت إلى آل المهلب أكثر مني تقربا إلى شيبان^(١) وإن كانوا جميعا على خلاف غرضنا من الميل مع أهل البيت ، إلا أن معنًا كان على مخالفة البرامكة والانحراف عنهم من حيث تقدمهم في مراتب الدولة وهم أغرابٌ عن العرب ، وذلك لم يكن في آل المهلب فانهم كانوا مع البرامكة على خُلفة ومودة واتصال .

وأقربُ الأُمراء مكانا من الخليفة هو خالد وزيرنا لقيامه بثقل الدعوة في خراسان من قبل أبي مسلم الخراساني . وهو من أولاد الملوك لم يبلغ أحد مبلغه في رأيه وعلمه وبأسه وجوده وجميع خلاله ،^(٢) والمنصور لا يُبرم أمرا إلا بمشورته ، ولا يركن في أعماله إلى أحد سواه اللهم إلا في سياسته مع العلويين فانها كانت جارية على البغض والجور ، مع أن خالدا ميال إليهم منذ أخذ في الدعوة الإمامية بخراسان ، وهي إذ ذاك لهم وللعباسيين جميعا . أما المهلبيون فانهم من عظماء العرب ومن لهم الرأي المُقدَّم عندهم والإمرة

(١) يقول ابن الأثير ٦ : ٥١ ان شيبان كانوا مع البرامكة على انحراف

(٢) ابن خلكان ٢ : ٣٦١ والمسعودي ٢ : ٢٢٢

المطاعة عليهم ، وقد كانوا هم وآل قَحْطَبَة من القواد الذين نصرُوا العباسيين
على بنى أمية ثم انضافوا إلى جملة أبي جعفر بعد الفُرقة بينه وبين العلوية
رغبةً عن الأئمة من أهل البيت ، فقدّمهم أبو جعفر في المراتب من هذا
الوجه حتى انصرفت إليهم الوجوه وانطلقت الألسن في مدحهم بالقصائد
التي تعظم عن أن يقال مثلها في الخلفاء أنفسهم كقول المغيرة بن حبياء
أمسى العباد لعمرى لا غياث لهم إلا المهلبُ بعد الله والمطر
هذا يذود ويحمي عن ديارهم وذا يعيش به الأنعام والشجر
وأما معن فانه أمير شيبان كلهم ، وقد اجتمعت فيه جميع خلال العرب
الحسان إلا أنه غلب عليه الجود مقرونا بحلم يتحير في نعته اللسان . وشيبان
من بيوتات العرب في قریش ، وهم أربعة بيوت بعد بيت بنى هاشم ، وهي
بيت قيس . وبيت تميم . وبيت شيبان . وبيت اليمى .^(١) وقد كان معن
على مخالفة العباسيين لأول ظهور دُعائهم وأبلى مع بنى مروان بلاء حسنا ،
فلما انقرضت دولتهم طلبه أبو جعفر طلبا شديدا وجعل لمن يأتيه به مالا
جزيلا فلم يظفر به لأنه كان مقيما في البادية كما يقال ،^(٢) ثم إنه رجع إلى

(١) الاغانى ١٧ : ١٠٥ (٢) قد وقع لمعن أيام كان يطلبه أبو جعفر ظريفة
أحببت أن أذكرها هنا لنكتة فكاهية تدل على كرم العرب وأنفة نفوسهم والكلام فيها
لمعن يقول كنت قد اضطررت لشدة الطلب الى أن أقیم في الشمس حتى لوحى وجهى
وخفت عارضى ولحيتى فلبست جبة صوف عريضة وركبت جملا من الجمال النقال
لأمضى الى البادية فأقيم بها فلما خرجت من باب حرب تبغى أسود متقلدا سيفاً حتى
إذا غبت عن الحرس قبض على خطام بعيرى فأناخه وقبض على فقلت له مالك قال
أنت طلبة أمير المؤمنين قلت ومن أنا حتى يطلبنى أمير المؤمنين قال أنت معن ابن زائدة
قلت يا هذا اتق الله أين أنا من معن قال دع هذا عنك فأنى والله لأعرف بك منك
قلت ان كانت القضية كما تقول فهذا جوهر حملته معى يفى بأضعاف ما بذله أمير

الهاشمية^(١) مثلما ووافق يوم وصوله قيام الرواندية على الخليفة في الأسواق، وقد قاتلوه إلى أن ضاق به الحناق، فكان معن يجد في ذلك اليوم وسيلة لهلاك أبي جعفر بانضمامه إلى العدو وبعد أن بدت له مقاتله، ولكن أبت مروءته إلا أن يكون الحلم في نفسه طبيعة تجلله عن مطامع الأخساء، فأعلن السيف دونه حتى كشف عنه سواد العدو. فلما عرفه أبو جعفر طابت به نفسه وجعل له الولاية ومكّنه من خزائن المال.

ولقد دخلت على هذا الأمير مرة واحدة فأصبت بين حرس على رأسه. وحفدة بين يديه،^(٢) وفي حضرته جماعة من الأدباء النذمان قد خاضوا في حديث الشيعة في خراسان. وأخذوا يتناقلون خبرها من غير نقد ولا إمعان. فضل عنهم سر السياسة فيها إلا رجلا من شيبان بليغ الفطنة يقال.

المؤمنين لمن جاءه في نخذه ولا تسفك دمي قال هاته فأخرجته إليه فظفر إليه ساعة وقال صدقت فيما تذكر عن ثمنه ولست قابله حتى أسألك عن شيء فان صدقتني أطلقتك فقلت له قل قال ان الناس قد وصفوك بالجود فاخبرني هل وهبت قط مالك كله قلت لا قال فنصفه قلت لا قال فثلثه فربعه فخمسه حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت أظن أنني قد فعلت هذا فقال ما أراك فعلته. أنا والله راجل ورزقي من أمير المؤمنين عشرون درهما في الشهر وهذا الجوهر قيمته عشرة آلاف دينار وقد وهبته لك. ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس لتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل شيء تفعله ولا تتوقف عن مكرمة قط ثم رمى العقد في حجرى وترك خطام البعير وانصرف فقلت يا هذا والله قد فضحتني ولسفك دمي أهون على مما فعلت فخذ ما دفعت اليك فاني عنه لغني فضحك ثم قال أردت أن تكذبني في مقالى والله لا آخذه ولا آخذ بمعروف ثمناً ومضى فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن يحى به ساء فما عرفت له خبراً وكان الأرض ابتلعت. ابن خلكان ٢ : ١٦٠ والأغانى ٩ : ٣٠٩ وعجائب المخلوقات ٣٠٩ (١) كان يقيم فيها المنصور قبل بناء بغداد.

(٢) الابشيهى ٢ : ٣٠٩ والاتلیدی ١٠٩

ناه محمد بن الحسن الشيباني ، وهو بسيط اللسان إذا تكلم خيّل لسامعه أنّ القرآن نزل بلغته ، ^(١) فكان يرى لنكية أبي مسلم رحمه الله السبب الذي لم يفتن له أحد من هؤلاء الجلاس ، فانه لم يتحقق لدى مما يذكرون من أن الخليفة قد نكبه لما كان من سبقه إياه إلى الحج ولا لادعائه أنه من ولد العباس ولا لتصدير اسمه قبل اسم الخليفة في الكتب التي كان يبعث بها إليه ، ولا لافراطه في القتل ، وإنما نكّب أبا مسلم ما كان من ميله مع أهل البيت وإمداده إياهم بالرأى فيما يدبرونه لأمر أنفسهم ، حتى إذا علم الخليفة منه ذلك وخاف من فتنة صماء تعصف ريحها بالدولة استقدمه إلى المدائن وفي نفسه أن يفتك به على غيرة ، وكان أبو مسلم على حذر من ذلك كما ظهر من كتاب له إلى أبي جعفر ومما كان من استصحاياه للجنود في سيره إليه ، ولكن طلع عليه وهو بين يدي الخليفة جماعة من حيث لا يدرى فاعتوروه بالسيوف ومعن يعلم هذا كله ولكن لا يقوله إجلالاً لأمر المؤمنين .

وأما ما يقولون من أنه خامل السلالة فليس ذلك إلا من باب التدليس لموافقة أرباب الدولة على أهوائهم ، على أنه لو صحّ ادعائهم ما منع من أن تكون به خصال لا تُرى في عامة الناس ، فانك لتعلم أنه ملك خراسان ^(٢) وهو ابن تسع عشرة سنة ، وأبدى من السياسة وهو بذلك العمر ما عجز عن تدبير مثله الحكماء ، وكان ثبت الجنان إذا جاءتته الفتوح العظام لم يغلب عليه السرور ، وإذا نزلت به الحوادث الفادحة لم يظهر فيه اكتئاب ، ^(٣) وكان

(١) أبو الفداء ١٩٣ وابن حلكان ١ : ٦٤٧ والخيس ٢ : ٣٣٣

(٢) (ذكر) صاحب العقد القريد ١ : ١٢١ أنه ربما جرى عليه لقب أمير المؤمنين

(٣) ابن حلكان ١ : ٣٩٨

أقلّ الملوك طمعاً^(١) وأبعدهم بين الناس شهرة ، حتى كان اذا حج هربت العرب من وجهه ولم يبق في المناهل منهم أحد لما كانوا يعرفون من شدة بأسه ودهائه ، وهو أكبر ملوك الاسلام . والرجال عندى ثلاثة وهم الذين قاموا بانشاء الدول . الاسكندر الرومى . وأردشِيرُ الفارسى . وأبو مسلم الخراسانى .

لُـمعة من أخبار أبى جعفر

ومن المقرّبين إلى أبى جعفر غير من لقيته من الأمراء المقدّم ذكرهم الرّبيعُ بن يونس حاجبه ومولاه ، وهو حظيّ عنده ومكين لديه إذ أنه مقدّم على الموالى ، وهم المقدّمون في هذه الدولة ، لبلاّتهم مع يزيد بن المهلب ، على ملوك بنى أمية بجرّجان^(٢) وما إليها من البلدان ولا استمرار أبى جعفر على تقديعهم في الرياسة تحفظاً على نفسه من العرب الذين يميلون مع أهل البيت ، وهو يحدّ عليهم أشدّ مما يحدّ على بنى أمية

فتجد أكرمك الله أن أبا جعفر لم يقدّم الأعراب^(٣) في مراتب الدولة إلّا بما هو مطبوع في نفسه من التيقظ والسهر ، كما تجد أنه ما أبناه مدينته إلّا الخوف من أهل الكوفة أن يفسدوا جنده ويحملوه على مناصرة أهل البيت ، فجمع المنجمين لذلك ولم يياشربناءها إلّا بعد ما أعلمه نوبختُ بسلامتها من الأعداء ، ولما فشت فيها العماره وجمعت أخلاط الناس خاف قيام العدو عليه فأقلل الدروب بالليل ،^(٤) وأقام عليها الحراس وحول

(١) أبو الفرج ٢١٦ (٢) الأغاني ٢١٠ : ٩ (٣) ابن الاثير ٦

(٤) الأغاني ٣٤ : ٧

الأسواق إلى جهة الكرخ كما تقدم حتى لا يبقى بجواره من لا يأمن ناحيتهم، وشرع قومه يقولون إن رسول الروم أشار بذلك إليه وقد سأله لما وفد عليه كيف وجدت بلدنا أيها الرسول؟^(١) فقال إني رأيته أعزّ على الطالب من: يرض الأنوق يبدّ أنى رأيت الغريب يطرّقه ويبيت فيه، وربما كان فيهم العين والجاسوس. وهذا كلام فيه بعض المزية عندي لأن من أبناة الخوف مدينة حوطها بسور بل سورين^(٢) وحفر بعدها خندقاً بعيد المهورى غنى بما في نفسه من الخوف عن أن يخوّفه أحد كيد الغيور ومحالمهم.

نم إنا لنجد له هذا التيقظ في البخل الذي ليس هو فيه عن لؤم^(٣) يغلّ يده عن الخير، لأنه وصل أعمامه بعشرة آلاف ألف درهم لكل واحد ألف ألف درهم،^(٤) وهو أول خليفة وصل بأمثال هذه الهبات، وإنما أمسك يده عن العطاء مخافة أن يقع ماله في يد المتربصين به من المخالفين، كما أنه أقلّ من أعطية الجند ليأمن عصيانهم^(٥) واستغناءهم عنه، كأنه يعمل بالمثل السائر الذي يقول جوع كلبك يتبعك،^(٦) وإلا فانا لا نرى هباته إلا لمن هو خلو من الأغراض السياسية من أهل العلم والأدب وإن كان لا يصل هذا العطاء إلى الكرم، وذلك لما نعلم من خروج^(٧)

(١) ابن الأثير ٥ : ٢٣١ (٢) أبو الفرج ٢١٩ والمسعودي ٢ : ٣٨٧

(٣) الفخرى ١٨٨ وأمر البخل في أبي جعفر معروف ومتفق عليه (٤) المسعودي

٢ : ١٩٤ والمستطرف ١ : ٢٠٠ (٥) في ابن الأثير ٦ : ٥ ابن المنصور عرض

جنده في السلاح وهو لا لبس درعاً وبيضة (٦) الفخرى ٦٩ (٧) الاغانى

١٣ : ٩١ وفي العقد الفريد ١ : ١٢٢ أن حاجب الخليفة قال له أن الشعراء يبابك وهم

كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم

الشعراء في أيامه من الحضرة إلى غير وجهة يسترفدون بها صلتهم .
وأما دليل تخوفه من ولاة الأقاليم فكونه يذكي عليهم العيون
ويتدارك عزلهم من قبل أن ترسخ في الإمارة قدمهم ثم يستولى على مايصل
إليه من أموالهم ويجعله في بيت سماه بيت مال المظالم^(١) حتى يقدمهم عن
القيام عليه في ثورة أو مخالفة ، وليس ذلك حباً في جمع المال وادخاره كما
يزعم كثير من الناس لأنه لولا أنه لم يخل ناشئ عن رأى له في السياسة
ما حنق على معن حين جاد بماله على أهل اليمن ليسهل من أمرهم ما حزن^(٢) ،
كما أنه لو طمع في حفظ هذه الأموال المنتصبة ما أوصى ابنه بردها إلى
أربابها في كلام من الوصية يقول فيه^(٣) إني لأحضك يوم تدركنى الوفاة أن
تدعو من أخذت ماله وترده عليه ، فانك ستحمد بذلك إليهم ، ولكن
إياك أن تعود إلى توليتهم المناصب لأنى مارأيت الوفاء طبيعة إلا في
الموالى والأغراب .

ثم إنه طمح من هذه السياسة إلى أن يأخذ التجارة بالشدة ويضرب
عليها المكوس ثقيلًا على التجار ، فوضع على الحموانيت خراجاً^(٤) لم يسبق
له عهد في الاسلام .

هذا نزر يسير من أخبار أبي جعفر وفيه دلالة قاطعة على الخوف الذى
يدعوه إلى التيقظ ، والناس يقولون إنه صالح النظر في السياسة وربما
جارتهم على ذلك فيما هو آخذ بتدبير أمره ، غير أنه حبس النفس الزكية
محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسين رضى الله عنهم وقتل أخاه ابراهيم بن

(١) ابن الاثير ٦ : ١١ (٢) ابن الاثير ٦ : ٩ (٣) الفخرى ١٨٧ وابن

الاثير ٦ : ١٢ (٤) المقرئى ١ : ١٠٣

عبد الله وكلاهما براء من الذنوب ، ولست أرى لأبي جعفر فيما وقع له من الظفر بهما على سبيل الاتفاق وجهاً تطمئن به نفسه ، لأن فشل العلويين إلى هذا اليوم انما نشأ عن تفرق دُعائهم على أغراض ، لم تجمعهم غابة واحدة في جميع البلدان بل كان بعضهم منقطعاً عن بعض ، وكان كل واحد منهم منفرداً إلى نفسه فيما يطلبونه من ثأر شهدائهم المشرفين (عليهم صلوات الله ورضوانه) ، فغلبهم أبو جعفر من هذا الوجه وظفر بالواحد منهم بعد الآخر كما كان شأن الأمويين في مقاتلتهم من قبل ، ولو أنهم جمعوا دُعائهم إلى الوحدة وأثاروا العراق وخراسان والحجاز في غرض واحد كما فعل أبو مسلم رحمه الله في اظهار الدعوة الامامية لأعاد الله إليهم الخلافة التي غلبهم عليها الأمويون ، وهم الذين عرفت لهم الفضائل التي لا يستطيع المكابرون من أعدائهم^(١) انكارها ، والله يؤتي ملكه من يشاء وهو العليم الحكيم لا شريك له .

ذكر الفتوح وأن العدل هو الذي حفظها للمسلمين

وما حدثني لسان الشريعة بهذه الأخبار وافق قوله ما في نفوسنا من التحسر على أهل البيت لضياع حقوقهم ، وقد كنت استزدته الحديث عن أخبار العرب وأيامهم فحدثني عن فتوح الاسلام خيراً أحببت أن أسرده

(١) قال عمر بن عبد العزيز من ملوك بني أمية ان الذين حولنا لو يعلمون من على ما نعلم لتفرقوا عنا إلى أولاده . ابن الاثير ٥ : ١٧ وكذلك الحجاج بن يوسف جلس يوماً يعطي الناس على بلائهم فقام رجل يطلب العطاء وكان من قتلة الحسين بن علي رضي الله عنه فلما علم الحجاج ذلك قال له انك لا تجتمع أنت وهو في مكان واحد ثم أخرجه ولم يعطه شيئاً . ابن الاثير ٤ : ٢٣٩

إليك في هذا الكتاب ، وأسلك فيه سبيل الاطناب ، ليكون فخراً للأعراب ،
باقياً إلى منتهى الأحقاب . فان الله تعالى لما أراد أن ينشر فيهم رحمته بعث
إليهم رسولا منهم ومعه كتاب من الله ناطقٌ بالهدى ودين الحق ليُجِيرهم
من الملمات التي وقعت فيها جاهليتهم لمخالفتهم سياسة الشرع وتباين عقائدهم
في الدين ، إذ لم يكن فيهم من الموحدين المقرين بالخالق المصدفين بالبعث
الموقنين بالثواب في الآخرة إلا نفر قليل ، ^(١) فجمع بالرسالة كلمتهم ، ونزع
الكعبة من يد الجاهليين الذين وضعوا بها تماثيل آلهة ^(٢) وتركوا عبادة
الآله الواجب الوجود ، من يَهْدِ الله فهو المهتد ومن يُضِلْ فلن تَجِدَ له
ولياً مُرْشِداً ^(٣) .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مأموراً في بدء رسالته بأن يدعوا
العرب إلى الاسلام ، ثم جاءه الوحي بدعوة الناس كافة إليه ، فلما قبض صلى
الله عليه وسلم وهو مشكورٌ سعيه مرفوعٌ منزلته انقبضت نفوس العرب
وباتوا في موقف التردد ، فمنهم من كانوا يخافون أن يدخلوا في ولاية أحد
من بعده يُطلق يده في الأمر بما يشاء ، وعهدُهم قريبٌ بالجاهلية من
تباين الميول والأهواء ، فلما رأوا من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم
بُعدهم عن الأغراض النفسانية ، والتماسهم من الخلافة السلوك في سنة الله
ورسوله دون شيء آخر من حاجات الدنيا إلا هداية الناس ، اجتمعوا على
كتاب الله أمةً واحدة في دين وسياسة ، حتى غلبوا الملوك على أمرهم
وابتزوا الأعاجم سلطانهم وحازوا معظم العالم في شرق وغرب .
وإنما صال المسلمون كالسباع ، وشدوا على الحصون والقلاع . وتراءوا

(١) المسعودى ١ : ٢٣٩ (٢) المقدمة ٣١١ (٣) سورة الكهف

على ممالك الحَضَر، واقتحموا المشاقَّ والغَرَر، بما حضَّهم عليه الكتاب من الجهاد، ولأنَّ المائت منهم في ساحة الحملات، شهيدٌ له في دار الخُلْد جنات. وعدهم الله تعالى ذلك بقوله « ومن يخرج من بيته مُهاجراً إلى الله ورسوله ثم يُذكره الموتُ فقد وقع أجره على الله »، ^(١) فلما ندبهم أبو بكر رضي الله عنه إلى فتوح الشام أقبلوا بنسائهم ^(٢) وولدهم ويوتهم وماشيتهم وسائر ما يملكون، وعلى وجوههم سِمات الفرج والابتهاج، ^(٣) كأنما النصرُ محقق في النفوس صِرفاً بغير مزاج. ويقال إنَّ الشيوخ الفانية قد قدموا مع أولادهم ليَطْثُوا الأرض التي وعدهم النبي صلى الله عليه وسلم، حتى إذا رآهم أبو بكر ابتدرهم بالسؤال أن لِمَ أقبلتم؟ ومعناه يزيد على كلامه بأنَّ ليس لكم عزم ولا فيكم بقية، فقالوا قدِمنا يا خليفة الرسول رغبةً في ثواب الله وحباً في فاكهة الشام واستعداداً لمائه الزُّلال، ^(٤) فتفأل منهم بالخير، وقال إن ربكم يُعطى النصرَ العزيزَ لمن يشاء. فإذا كان هذا عزمَ المسانِّ وإقدامهم فما الظنُّ ببسالة الفتيان الذين هم صرَّاب السيوف، ^(٥) وشرَّاب الحُتوف؟ فان تنظر إلى ما تعرف لهم من الأشعار. ويروى عنهم من الأخبار. تجد أنَّهم لا يبتغون بغير الكفاح الفخار. وتستدل على أن قوتهم في مهاجمة الديار. أشدُّ من عدو تمنعه القلاع والأسوار...

ومما حفظ هذه الفتوح للمسلمين أنَّ البلدان التي دخلت في حوزتهم لم تُبدِ إشارة ثورة ولا أمارة فتنة، لأنها كانت قبل ذلك في سلطان الفرس أو الروم

(١) سورة النساء (٢) ياقوت ٤ : ٣٢٤ (٣) المقدمة ٢٣٢

(٤) الواقدي (٥) ذكر الطرطوشي ١٧٣ أن من فرسان المسلمين من ضرب عدوه بسيفه فقطع البيضة الحديدية التي على رأسه

فاستوى لديها أن يحكمها كسرى أو أمير المؤمنين . وربما مالت إلى عُثمَال
الخلفاء أكثر من ميلها إلى عُثمَال الروم لِمَا وجدت قبَلهم من وفور العدل
والقيام على مراعاة العهود مما أمر به الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم
وحرّضوا على التشبُّث به ، حتى لقد عزلوا خالد بن الوليد عن الامارة من
أجل أنه أراد أن ينقُض الأمان الذى أعطاه أبو عبيدة المعروفُ بِأمين الأمة
لأهل دِمَشق ، إذ دخل مدينتهم صلحاً ، بينما كان خالد يدخلها بالسيف .
وأمثالُ هذه الرعاية المنصفة كثيرةٌ في سير الخلفاء ، وكانوا إذا أوصوا
عمالهم باستعمال العدل والاحتراس من المعصية والاستنكاف من القتل
الكثير قالوا لهم « إنه لولا ذلك لم تكن لنا بالأعاجم قوة ، إذ كان عدونا
دون عددهم ، وعدتنا دون عدّتهم ، فان استوينا في المعصية كان لهم
الفضلُ علينا بالقوة ، وإلاّ نُنصرُ عليهم بفضلنا لم تغلبهم بقوتنا » فيظهر لك
أنه إنما عمَّ الاسلام بما عدل الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم في زمن
الفتح ، وما أوجد الله فيهم من حسن السيرة التى ذهبت فضائلها مثلاً بين
الناس ، حتى إن الخلق الكثير من الأعاجم كانوا يدينون بالاسلام على بعد
الديار ، وليس ذلك إلاّ لما يسمعون من عدل الخلفاء وعفاف أنفسهم .
فلعمري إنه لولا انقلاب خلافة الملة إلى مُلك في يد الأمويين ما بعد أن
يعمَّ الاسلام العالم بأسره ، والله تعالى أعلم بالغيب ، وله في قضائه حكمة
تعالى عن أن يدركها العباد .

هذا هو السر في اتساع الفتوح وحفظها في يد المسلمين ، والاعاجم
يعلمون ذلك ولكنهم يقولون إن الاسلام غلب أمماً لا مدنية عندها ولا
نظام للملكها فقوى عليها . وهذا مردود من وجوه كثيرة ، ولا سيما أن

فارس كانت من أضخم الدول سلطاناً ، وأبعدها في الحكمة أعراقاً ، فإِ
يصعُبُ عليه منالها ، كما لم يعسر عليه غلب الروم في الشام ، وهم بمكان من
المدنية لا يرام . ولست أقول إلا أنه لما نشأ الاسلام كانت القياصرة في
ضعف وانحلال ، وكان الفُرس يمزقهم ظلمُ العمال . فكان ذلك داعياً
إلى انتزاع ملكهم ، ولم ينل الاسلام اخفاق في عهد الخلائف الأولين وهم
بمكانهم من صلاح الرأي وحكمة السياسة . فلم يُهزَم للاسلام راية في
أيامهم ، إلى أن ذهبت الخلافة من بيت علي عليه السلام فذهبت سداجة
الملة ، وانقلب أمر الأمة من الخلافة إلى الملك ، كما قال النبي صلى الله عليه
وسلم (الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً عَضُوضاً) والله في خلقه
شؤون ، وهو يقدر الليل والنهار .

وكان الفراغ من تقييد هذه الرسالة في أول يوم من رجب من السنة
السابعة والخمسين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أشرف
السلام وأزكى التحية .

لِقَائِي وَلِيَّ الْعَهْدِ وَحِظُوتِي لَدَيْهِ

هذا كتاب إليك أبدأ فيه بذكر لقائي وليَّ العهد ، فإننا لفي بعض
الأيام ، ونحن جلوس إلى فقيه الاسلام ، إذ دخل علينا البيت خادم من
خدم الخليفة فتخوَّف الفقيه من شيء لم أدر ماهو ، وكذلك الناس يغشاهم
الخوف والانتباض كلما دخل عليهم خادم الخليفة على غير موعد ، ^(١) فقال
له أبو يوسف سبق وهمي إلى أنك تطلبني لأمر جَلَل ، قال أَجَلُ إن الأمير

(١) هو أمر معروف في الحكايات وكتب التاريخ

يدعوك الساعة إليه لأمر أقلقته الليل كله ، ولم يجر في خاطر أحد من العلماء التصرف في وجه يكون به كشف الغمة وتحقيق المسئول ، فدعا خالد بن برمك إليه فقال له عليك بتلاميذ أبي حنيفة وما فيهم أحفظ لعلمه من أبي يوسف^(١)

فلما سمع ذلك طابت نفسه وذهب ما كان يجده من الخوف ، ولم يلبث أن استوضح هذا الخادم الخبر فأعلمه أن الأمير حنق على الخيزران أم أولاده ليلاً ، وقال لها في سورة الغضب أنت طالق ثلاثاً إن بت الليلة في مملكة أبي ، فلما سكن غضبه ووجد لها براء من التهمة راعه أمر الطلاق فاستدعى الأعيان والفقهاء فلم يكن عندهم ما يرجوه من الافتاء الذي يطيب به نفساً ، ففكر أبو يوسف برهة فلم يفتح الله عليه بشيء . وكنت في ذلك الوقت أجيل الفكرة في أمر الخيزران وأذكر ما أثرها في الدولة وذلك المسجد الذي زينت به الزوراء ، فوقع في نفسي ما يكشف هذه المهمة ، فقلت لأبي يوسف إن المساجد يوت عبادة الله تعالى ، ولا تدخل في ملك أحد ، فلو بات الأمير فيها الليلة ما حسبت يدي في مملكة أبيه ، فما كدت أنتهي من كلامي حتى كاد ينخلع من ثيابه لشدة الفرح ، وهو يقول لقد ظننت والله أن إعمال الفكرة في مثل هذا التخلص الجميل . جهد من غير تحصيل . وعناء للنفس ليس له من سبيل . فأما إذ ابتدعت هذا الرأي الميمون فعلى عهد الله لا ذكر نك عند الأمير ليقربك إليه بما أنت أهله من الخير ، ثم خرج وأنا أحسب للأمير مسرة عظيمة مما رزقني الحظ استنباطه ليكون في حل من يمينه ومبرة له من قسمه .

فلم تكن إلا ساعة حتى عاد إلى نُصَيْرٍ ذلك الحاجبُ قائلًا^(١) أجب الأمير، فقامتُ لساعتي أمثل الأمر، فلما صرت في باب الدار وجدت جماعة من العِلَّمان قد أعدوا لي بغلة فارهة من مطايا الأمير مجلَّةً بالديباج، عليها حلية من الفضة، فركبت وسار العلمان بين يدي حتى وصلنا إلى دور الخلافة، وقد كان أخبرني نُصَيْرٌ عما جرى بين الأمير وأبي يوسف من الحديث، وأنه لما مثل بين يديه كاد يعدل عن استفتائه ظنَّامنه أن لا يكون من فتواه جدوى، « والخلفاء وأولادهم يبدعون الناس بالكلام وليس للناس أن يفتتحوه معهم »،^(٢) فلما استطلعه رأيه فيما أهمه من الأمر وذكر له الرأي الذي تقدَّمتُ به إليه غلب عليه السرور حتى ما كاد يستقر به المجلس من القيام والقعود، ثم سأله أمن معقوله ذلك أم من منقوله؟ فقال له أبو يوسف لا والله وإنما قائلُ هذا صديقٌ لي من أبناء الفرس وأخذ يذكرني عنده بما استطاع من جميل الكلام.

فلما أقبلنا على دور الخلافة جزنا باب السور الكبير وملكنا ممراً مفروشاً بالحصباء الحمراء تحيط به حدائق القصر وجنان قد اتخذ فيها أحواضٌ يتصعد منها الماء وعليها عمُد من الرُّخام تُقلُّ قباباً مُعشاة بالرسوم الموسومة بماء الذهب. ورأينا في طرف هذه الجنان صناعاتاً يرفعون^(٣) قصرًا سماه أبو جعفر قصر الخلد^(٤) وأضافه إلى قصر السلام^(٥) الذي يسكنه في هذه الأيام، فأنهينا من هذا الممر إلى باب القصر، وهو معقود

(١) ذكره الأغانى ٣: ٥٧ والعقد الفريد ٢: ٩٩ (٢) ابن خلكان ١: ٣١

(٣) الأغانى وابن الاثير ٦: ٥ (٤) القزوينى ٢١٠ (٥) الأغانى ٩: ٥٥ والسيوطى.

تحت القبة التي كانت مزينة في عيد الفطر، وهي علم الزوراء ومأثرة بني العباس، فلما جاوزناه انتهينا إلى دار مسورة بالعمد وبها مقاصير منجدة أرضها وحيطانها بالأرمني^(١)، وفي أطرافها دهليز ينبعث إليه الضوء من شمسيات قد اتخذت في قباب بديعة الشكل حافلة الزينة، فجزناه فاذا نحن في دار أفسح من الدار الأولى، ولها باب عليه مسامير من الفضة والذهب^(٢)، وفيها كثير من العمد التي يوجه الخلفاء عنايتهم إلى تزيينها بالرسوم والاكتار منها فيما يبنون من القصور، حتى إنى عدت في صحن من صحن دور الخلافة سبعة وأربعين سارية لو أن ثمانين غلاماً وقفوا وراءها ما رأهم من هو في صدر الدار.

ثم انتهينا من هذا الدهليز إلى سلم من الرخام ينتهي بالراق^(٣) عليه إلى مجلس الأمير، وناهيك به مجلساً قد فرش بالرخام المجزّع، وبين كل رخامة قضيب من الذهب يشد بعضها إلى بعض^(٤)، وقد اتخذ فرشه من الديباج والبسط الطبرية^(٥) عايتها أبيات^(٦) في مدح الأمير، وفيه كراسي مرصعة بأصداف اللؤلؤ وعليها جماعة من الأعيان خافتون كأن على رؤوسهم الطير^(٧)، وفي صدرهم الأمير جالساً في قبة قد اتخذ لها فرش مبطن بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب والإبريسم^(٨) وإذا به أسمر طويل القامة معتدل الخلق مليح الشكل جعد الشعر، بعينه اليمنى نكتة يياض، وعلى

(١) الأغاني ٥ : ١٧٣ والاتليدي ٢٢٦ (٢) الاتليدي ١٤٦ (٣) في الأغاني ٦ : ٧٨ ما يشير إلى أن قصور الخلافة طبقة فوق طبقة (٤) الأغاني ٥ : ١٦٦ (٥) المسعودي ٢ : ٨٢ والأغاني ٥ : ٥٩ و ١٢٨ (٦) الكتابة على البسط مذكورة في الأغاني ٥ : ٨٦ (٧) الفخرى ٥ (٨) المسعودي ١ : ٢٣٤

رأسه خصي واقف بالمِظَلَّة ، وهو من الخدام المقربين إلى السلطان وأهل بيته ومن يستميلهم الناس بالمال الكثير ليدكروهم عنده أو يخاطبوه في حاجتهم .

فلما أقبلت على المجلس غلبني البهر من جلالة المهديّ فسلمت عليه بالامارة فردّ عليّ السلام بخفض الجناح ، وأظهر ما حسب لي عليه من المنّة ، وقال لي إنه يأنس بي ويحب أن يصير إليّ تأديب ولديه موسى وهارون ليما بلغه عنى من العقل ، فدنوت من كرسیه وقبلت الأرض بين يديه وقلت له في موقف الشكر على جزيل ما أولاني من النعمة إنك قد جعلت لي بهذا شرفاً لم ينله أحد قبلي من العلماء ، فقال لي أحسن الله عنا جزاءك ، فما الكثير من فعلنا بك بجزاء لليسير من حقك ،^(١) ثم إنه دعا أبان بن صدقة كاتبه فوقف بين يديه ،^(٢) فقال له اكتب له بدارنا على درجة ، وأقطعه من ضياعنا الخاصة ما تقيمه غلته على السعة ، ثم أمر لأبي يوسف بخمسين ألف درهم معجّلة ،^(٣) وكان هذا أول اتصالي بولي العهد أصلحه الله وتولى عنى مكافأته بما هو واسع من الجميل .

في تأديبي الأميرين وما توالى عليّ من نعمة بنى العباس

ولما اتصل هذا الخبر بالخيزران وقد كانت في دار لها تسمى باساس^(٤) عادت إلى دور الخلافة في موكب عظيم من العلمان المزيّنة والخيل عليها القطوع من الديباج والحلية الثقيلة من الفضة حتى تظهر ما عندها من الأبهة

(١) الأغاني ٩ : ٣٠ (٢) المسعودي ٢ : ١٨٢ (٣) الأغاني ٣ : ٩٥

(٤) المسعودي ٢ : ١٩٦

مع تقرير موضعها من السلطان . وأقام الأمير في ذلك اليوم مأدبة صرف في زخرفتها وُسْعَةً ، وجلس فيها لعطاء قریش^(١) وسائر الناس حتى امتلأت المدينة بأسباب المسرة والأفراح ، ثم جاءني من لدن الأمير من ينطلق بي إلى الدار التي وهبها لي على دِجْلَةٍ ، فاذا هي مشيدة على أساطين رفيعة وحنايا مقوسة وقياب مُخَرَّمَةٍ ، ولها رَوْشَن^(٢) بديع الحسن يُشْرِف على دِجْلَةٍ وما وراءها من الرُصافة ، وفيها من السُدُول والأستار الحربية والبُسُط الديباجية والقماقم النحاسية والآنية المزخرفة والخزائن^(٣) المجزعة ما ليس مثله إلا في أمتعة الملوك وجلسائهم مما^(٤) يتكرمون به عليهم في سبيل الهبات ، حتى لقد كانت الأوتاد التي تُدَقُّ بجانب الباب ليعُلَّقَ فيها الداخل^(٥) ما ثَقُلَ عليه من ثيابه متخذة من العاج الأصفر وعليها رسوم منزلة بالذهب تمثل ثماراً تجتنى بالأبصار لحسنها ولفرط ما أبدع فيها الممثل من الصناعة .

ثم جاءني من لدن الخيزران خادمان للمهدي لم تكن نوبتهما^(٦) في ذلك اليوم بملازمة بابه ، ووضعوا بين يديّ إناءين من الذهب في أحدهما منشور^(٧) بضیعة في السواد وفي الآخر مِخْنَقَةٌ في وسطها دُرَّة عن يمينها ويسارها أربع يواقيت وأربع زُمُرَدات بينها كثير من شذور الذهب^(٨) ، ثم جاءني وصيف آخر للمهدي أكرمه الله يحمل إلى رُقْعَةٍ بالضیعة التي سبق لي بها العطاء وهي في السواد من جوار الحيرة يقال لها العُمريّة^(٩) ،

(١) الأغاني ٧ : ٩ (٢) الأغاني ٥ : ١٠ (٣) الأغاني ٥ : ١٠٩

(٤) الأغاني ٥ : ٤٠ (٥) الأغاني ٤ : ٥٢ (٦) الأغاني ٣ : ١٨٤

(٧) المستطرف ١ : ٢٤٣ (٨) الأغاني ٧ : ٣٦ (٩) ذكرها الأغاني ٩ : ١٠٣

ثم بعده وصيف لأم المهدي وهي بنت منصور الحميرية ومعه إباء من ذهب قد انتشرت عليه اللاآئي^(١)، ثم وفد للغالية أخته ومعهم جام^(٢) فيه دنائير وخاتم من العقيق قد رُسِمت فيه أم القرآن ولكن بأحرف صغيرة لا تبصرها العيون وذلك أحسبه من محاسن الأشياء التي لا تكون إلا عند الملوك، فهطلت على النعمة غيثاً من الذهب، وليس ذلك إلا لأنني وجدت منصرفاً في القول حل تلك اليمين.

وأخذت من ذلك اليوم في تأديب الأميرين موبى وهرون بما أحب أبوهما وأوصاني به يحيى بن خالد وزيرنا، ولكن كنت إلى الصغير أميل مني إلى الكبير لما وجدت من انصبابه على المطالعة^(٣) واعتباره بأقوال الحكماء، ووددت أن يكون هو السابق في الولادة لتكون له حقوق الولاية قبل أخيه لما هو جدير به من تعير البلاد وتقويم العباد. لأنني رأيت الكبير صعب المرام شكس الأخلاق، وقد عرفت ذلك ذات يوم من أمر لم يتدبر معناه فلما استطلعت فيه رأيه حرد على وطار طائرُه من الغيظ، فحفظت له ذلك وأخذت أشغله من العلم السهل بما لا يحتاج إلى كبير مطالعة ولا إلى تكلف عناية به، فسُرَّ لذلك وأوسعني عما بدر منه في وقت الحدة اعتذاراً، فعرفت من ذلك أنه صعب المرام^(٤) وأن من توقعه وعرف أخلاقه دخل في رضاه، ومن فتح فاه فاتفق له أن يفتحه بغير ما يهواه أطرحه وأقصاه^(٥)، وهذا كما ترى خلق غير محمود في أولاد الملوك الذين يتجافون عن الحكماء والوعاظ إلى تقريب من يداهنهم بالثناء على ما ليس فيهم

(٣) الفخرى ٢٣٠

(٢) ابن خلكان ٢: ٤٥٥

(١) ١٣٣: ٦

(٤) المسعودي ٢: ٢٠٢ (٥) الأغاني ١٦: ٥

من الخلال ، فإن ذلك دليل واضح على بعد الحزم منهم وضعف البصيرة عندهم .
 أمّا هرون رعاه الله فاني عرفت فيه من الرقة واللطافة وسجية الحلم
 ما أعظم في عيني منزله ، ولم أرفى أولاد الملوك أجمل منه خلقاً وخلقاً ،
 وفيه مماثلة للفضل بن يحيى بن خالد في الصورة ، وهما في سن واحدة .
 ونشأة واحدة ، حتى إنهما تبادلا لبن الرضاعة من ثدي واحد^(١) فكانت
 أم الفضل تُرضع هرون والخيزران تُرضع الفضل ، وهو أبيض^(٢) اللون .
 واسع العينين عالي الجبهة منطوي على خير وصلاح وسلامة قلب ، وإذا تألم من
 أمر لم يستفزّه الغضب ولا يزيد على هاه هاه^(٣) كلمة غيظ واحدة ، وأنا
 أتشرف بتأديبه^(٤) إلى هذا اليوم وهو سنة ثمان وخمسين بعد المائة ، وقد آتى
 عليه من العمر أربعة عشر عاماً أصلحه الله ووفقه إلى ما به من صلاح الملة .
 والدولة بمن الله وكرمه .

ولست أكنتم عنك أنه لما صارت إلى نعمة بني العباس تحدث الناس

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٩ وأبو الفدا ٢ : ٥ وفي الفخرى ان من بعض ما قيل في .

مدح الفضل بن يحيى قولهم

كفى لك نفراً أن أكرم حرة غدتك بشدى والخليفة واحد

(٢) العقد الفريد ٣ : ٥٤ والخيس ٢ : ٣٣١ (٣) الأغاني ٥ : ٦٦ (٤) قال
 مروج الذهب انه لما أسلم المهدي ولديه الهادي والرشيد الى المؤدب أوعز اليه أن
 يصير يده عليهما مبسوطة وطاعته منهما واجبة وأن يقرئهما القرآن ويعرفهما الآثار .
 . رويهما الأشعار . ويعليهما السنن وبين لهما فضل الحكماء في مواعظهم ويصبرهما
 بمراقع الكلام ويمنعهما الضحك الا في أوقاته يأخذهما بتعظيم الأمراء من بني هاشم
 ورفع مجالس القواد وألا تمر به ساعة الا وهو يغتم فيها فائدة يفيدها إياها من غير أن
 يقسو عليهما فيميت ذهنهما ولا يتوسع في مسامحتهما فيستحليا الفراغ ويألفاه وأن
 يقومهما ما استطاع بالقرب والملاينة فان أياها فعليه بالشدة والغلظة .

بها كثيراً في الحضرة ، وأحدثت في النفوس غُصَصاً يُثيرها الإشفاق على دولتهم من المهديّ أن يجري على سنة أبيه في تقديم الأعراب عليهم في المراتب إلى أن تخلو منهم مناصب الدولة ، غير أن ما يخافونه من هذا الأمر لا يتعدى إلى غير مصلحتهم الخاصة ، فانما يعظم الإسلام بانضمامنا وجميع المسلمين إليه في غرض واحد حتى تشتدّ صولته وتروج فيه سوق الأدب بما يوجد له العجم من فوائد العلم ومحاسن الصناعة ، ولو أن الخليفة لم يقدمنا لهذه الغاية لم يكن له مع ما سبق من خوفه من الأمويين إلا أن يتجافى عن العرب ويُقصيهم عن المراتب إلى أن ترسخ في قبائلهم دولته من غير حاجة إلى قتل المسلمين بالمسلمين في فن صعب لا يرجوها بلوغ أمنيته ، وإنما رُزق من السياسة الحكمة في تقديم الأعراب واستمالتهم إلى غرضه حتى يستظهر بهم على تقويم ملكه بما يُظهر من الجبروت الذي لا يلتبس في تمكين مهابته من المخالفين له سواء ، كدأبه في الانقطاع عن اللهو ،^(١) وبعده من البهرجة التي تبعده عن شعائر الملة ، وتوجّسه من الناس ريبةً يتهم فيها كثيراً من أهل بيته أنفسهم ، وتجافيه عن الجلّاس والنُدماء إلا خلف ستارة يضربها فيما ينه ويُنهم على بعد أربعين ذراعاً^(٢) إلى أمور غيرها تدل على أن مثله في التيقظ مثل الذين يستقلّون بالملك على غير استرضاء الناس ، ثم يمرُّ بهم زمانهم في أشد ما يكون من الخوف والريبة .

(١) الخيس والعقد الفريد وابن الأثير ٦ : ٨ والفخرى ١٨٧

(٢) السيوطي

بقية من أخبار أبي جعفر

وقد عرفت بترددى إلى دور الخلافة كثيراً من أخبار أبي جعفر وسياسته فوجدته ينظر^(١) في أحكام الدولة وأمور العمال دون أن يدع لنفسه فرصة يستريح فيها من عناء الأعمال ، فإذا طلع النهار جلس في إيوانه ونظر في حال الأمة وعزل الولاة الذين يريبه منهم مخالفته، ونصب^(٢) من يعرف فيه الأمانة وتظهر منه النجابة والفتانة مكانهم ، لا يزال آخذاً في ذلك بما يروم من إذلال المخالفين له إلى قبيل الظهر ، فإذا تناول الغداء عاد إلى النظر في المصالح والاهتمام بأمر الجند ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته وفاوض أعمامه وغيرهم ، فإذا صلى العشاء نظر في كتب العمال مما تجمع في النهار وشاور^(٣) من يركن إليه من سُمّاره ، تلك عادته من يوم ولي الخلافة . وإن تذكر عاك الله ما وصفته لك من نحوه في الرسالة السالفة ثم تُضيف إلى ذلك ما أنا ذاكر لك من سهره على تدبير المملكة تتمثل لك صورته بما هو مطبوع فيها من آثار المجاهدة العظيمة التي أفنى فيها عمره وطال منها عناؤه ، فإن أيامه قد انقضت بين مخالفة الأمة له والنياب الجند عليه حتى اقتضت الحال أن يوجد الفرقة فيهم بين مضر وريعة والخراسانية^(٤) لملك بعضهم بالذى هو واجد على الآخرين ، فترى أن ما لقي من تصاريف الزمان هو الذى جعله على سوء ظن بالرعية ، فهو لا يركن في أموره إلا إلى وزيرنا خالد أعزه الله ، ولولاه ما استوى له الملك بين

(١) ابن الأثير ٦ : ١٠ (٢) الماوردى ١٣٧ (٣) المسعودى ٢ : ١٨٤

(٤) ابن الأثير ٥ : ٢٣٩

تغلب الأكراد^(١) في فارس وظهور الخوارج فيما إليها من البلدان .
وقد عانت مما تقدم إليك من الكلام أن البرامكة يملون بطبعهم
مع أولاد علي عليه السلام ، فلما بعد خالد عن الحضرة لحرب الأكراد^(٢)
تمادى أبو جعفر مع وزيره أبي أيوب المورياني^(٣) في سياسته مع أهل البيت
من القتل والعنف ، وجاء بالنفس الزكية وأخيه إبراهيم وقتلها على خنق
كثير من أهل بيته عليه ، ولا سيما عمه عبد الله الذي غلب بنى أمية في
الشام ، فانه لما أحس منه الانحراف أسكنه في قصر بني أساسه على الملح
حتى إذا دجا الليل أرسل الماء حوله فذاب الملح وسقط البيت عليه ،^(٤) وهذا
من الأمور التي يتناقلها الناس عنه بسوء الأخذوثه كما يتناقلون ذكر قتله
لأبي مسلم داعية الامامية في خراسان ، وكلاهما من القواد الذين غلبوا
الأمويين وأقاموا ملكه في فارس فالعراق فخراسان فما بين المسجد الأقصى
إلى البلد الحرام . ولقد فاوضت أبا يوسف يوماً في هذا الشأن فحدثني عن
جبروت أبي جعفر وأخبرني أن سلامة أمه لما حملت به رأت في منامها كأن
سبعاً زار فأقبلت عليه السباع من كل ناحية ، وكما انتهى إليه سبع سجد له^(٥)
فصح تعبير منامها بما يراد من معنى الملك والظفر

ولقد دخلت على أبي جعفر مرة واحدة بعد رجوعه من الحيرة وهي
المدينة التي يقصدها^(٦) حين يشتد عليه الجرب في الزوراء ، إذ ليس في جوارها

(١) ابن خلكان ١ : ١٤٩ (٢) ابن الأثير ٥ : ٢٣٦ و ٦ : ٦

(٣) المسعودي ٢ : ١٨٢ (٤) الفخري ١٩٨ وابن الأثير ٥ : ٢٣٥ والمستطرف

١ : ٩٦ (٥) المسعودي (٦) وفي ابن الأثير ٦ : ٥٥ أن الرشيد سكنها أيضاً

برهة من الزمان

ما يصلح لسكنى الملوك غيرها^(١) فلما أذن للناس بالدخول عليه صحبت
لسان الشريعة أبا يوسف فأصبناه في مجلس الأمراء وفيهم شاعر مقرب إليه
يقال له أبودُلّامة ، وهو يدينه ويضحك منه على يبتين من الشعر^(٢) قالها
في استهجان الزى الذى عم استعماله في لباس الخواص والعوام كما تقدم ،
كأنهم في كتابة الآية بين أكتافهم ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم^(٣) ،
فلما أدبنا فروض السلام أمرنا بالجلوس ، وقال لى بعد أن قمنا بالواجب من
إجلاله إني رأيتم « يريد الفرّس » أهل وفاء^(٤) وفطانة فوليتكم المناصب
في دولتنا ، ولم أر بنى مروان قد انتبهوا لذلك ولا تكلفوا العناية في تجميل
الدولة بانتفاعهم من آداب العجم ، فقد كان عبد الملك جباراً لا يبالي بما
يصنع ، وكان سليمان همه بطنه ، ثم أفضى أمرهم إلى أولادهم المترفين فكان
همهم الشهوات وركوب الملاذ من معاصى الله عز وجل جهلا منهم
باستدراجهم وأمناً منهم لمكره مع أطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم
بحق الرياسة .

فلما ذكر ذلك عنهم جعل يضرب الأرض بمخصرة كانت في يده ،
أوقع على بنى أمية ممن حضر المجلس قذف شديد يرومون به موافقة
فسلطان ، وقالوا إنهم كانوا يعاقرون الحمر ويظلمون العباد حقوقهم ويستحلون
الخذ أموالهم بغير استحقاق ويكلفون أهل القرى إذا خرجوا إلى الصيد

(١) الأغاني ٢ : ١٢٥ (٢) البيتان هما قوله

وكنا نرجى من امام زيادة فجاد بطول زاده في القلانس

تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس

(٣) العقد الفريد ١ : ٩٨ (٤) ابن الاثير ٦ : ١٢

ما لا طاقة لهم به من الضرب والاهانة ، ولا يقنعهم ذلك حتى يحطموا
زرعهم في طلب درّاج قيمته نصف درهم ، ثم انتقل بعضهم من هذا
القذف إلى أن بحث الخليفة على تتبع الهارين منهم في جميع الوجوه ،
وسمعت من أنشده هذين البيتين المشهورين الذين قالها سديف لأبي
العباس لما تمّ له الغلب عليهم .

لا يفرنك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويّا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّا
فامتلاً وجه الخليفة غضباً وقال لعمرى إن الأمويين أهل مظالم قد
غمطوا النعمة فهوى نجمهم وثلّ عرشهم ولله فيهم ^(١) نقمة سأتبعها فيهم
حيث لقيت منهم عاتياً ، فعجبت من مظهرته بهذا الكلام وبين يديه
كثير من الذين يتقربون إليه بالتدليس والمحال . وأنا لا أقول إن الأمويين
منزهون عن هذا الطعن ولا عن أشد منه ولكنى أرى أنهم لو لم يكونوا
حقيقين بمثله لرامهم كثير من هؤلاء الجلاس بأنكى منه تقرباً من السلطان
فيما يحب من القدح في أعدائه ، وكان ذلك أول ما لقيت أبا جعفر ، ثم لم
أره بعد ذلك لأنه ركب ^(٢) إلى موطن الحج المباركة شرفها الله
بكرمه وإحسانه .

(١) ابن الأثير ٥ : ١٦٧ والقزويني ١٦ (٢) ابن الأثير ٦ : ١٦

في ركوب الخليفة إلى الحج

كان لخروج الخليفة الى الموسم موكب لم يُرَ أحفلُ منه في مواكب الملوك ، فقد أقبل أهل المدينة الى باب الكوفة^(١) حيث اجتمع من النافرين إلى الحج الشريف من العراقيين والخراسانيين والفرس وغيرهم ما لا يُحصى عدده إلا الله ، وكلُّهم مجهّز أبلة وكُسوته وقربه وخرثية وطعامه وهو الأخبصة اليابسة والأقراص المعجونة باللبن والسكر والكعك المنضد والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج ،^(٢) ومعهم قطعة من الجند تحوطهم^(٣) في تزولهم وارتحالهم ، وفي طليعتهم هودجٌ تظللها قباب من الديباج المطرز بالذهب ،^(٤) وفيها يقيم الأمير المولى على الحجاج ، وله في إمارته النظر في أمور عشرة وهي أن يجمع الحجاج في مسيرهم وتزولهم حتى لا يتفرقوا فيخاف عليهم التواني . وأن يرتبهم في المسير ليعرف كل منزله ويألف مكانه اذا أناخوا في بلد . وأن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم . وأن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها . ويتجافى أوعرها وأجدبها . وأن يرتاد لهم المياه إذا قلت والمراعى إذا انقطعت ، وأن يحرسهم إذا تزلوا ويحوطهم إذا رحلوا . وأن يمنع عنهم من يصدّهم عن المسير بجهاد لا بمال . وأن يصلح بين المتشاجرين لأنهم يكونون تحت ولايته كأهل المدينة تحت ولاية رئيسهم . وأن يؤدب خائنهم ويلزم الناس آدابهم . وأن يراعى فوات الوقت فلا يُخشى عليهم ضيقه

(١) هو من أبواب بغداد (٢) المسعودى ٢: ٥٦ (٣) الأغاني ٩: ٦٤

(٤) أبو الفداء ١: ١٥٧

لأنهم إذا لم يصلوا عَرَفة في يوم عَرَفة بما بين زوال الشمس إلى طلوع الفجر فقد فاتهم الحج^(١)

ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة وقد غصَّت بالناس الواقفون وضائق بهم الساحات ضرب البُوق إيذاناً بركوب الخليفة، ثم لم يلبث أن أقبل مرتفعاً على فيل أبيض قد استرسلت عليه الفضة^(٢) في الحلية الثقيلة، وهو جالس في هودج^(٣) منزل بالأصداف اللامعة، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب، وفي يده قضيب الخلافة وفي الأخرى الخاتم، وعليه جبة وشى^(٤) من فوقها برودة خضراء للنبي صلى الله عليه وسلم وهي غير البردة التي كانت للملك بنى أمية يلقونها على أكتافهم في جلوسهم وركوبهم، لأنها فُقدت بفقدان الخلافة منهم، وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبي سلمى بأربعين ألف درهم،^(٥) وإنما هذه البردة هي التي أعطاها النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الأبلّة لتبقى عندهم بركة، فاشتراها أبو جعفر بثمائة دينار^(٦) واتخذها في شعار الخلافة موضع البردة التي كانت عند الأمويين. وأما الفيلة فانه لم يسبق أحد من ملوك العرب إلى اتخاذها في المواكب، وقد أخبرني نصير ذلك الخادم الذي مضى في هذه الرسالة ذكره أنه إنما اتخذها مركباً له لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائهم لها وإعدادها للحروب والزينة في الأعياد وغيرها، إذ كانت أوطأ مراكب الملوك وأمهدها^(٧). وكان يصحب أبا جعفر جماعة من

(١) الماوردي ١٨٧ (٢) المقدمة ١٤ (٣) الكشكول (٤) كذ

في العقد الفريد ٣: ١٥٦ (٥) أبو الفداء ١: ١٥٦ (٦) السيوطي

(٧) المسعودي ١: ١٨٥

الأمراء ورجال بيت الخلافة ، ووراءهم الأبل التي يظعن بها حريمه وأهل بيته وفيهم موسى بن المهدي حاجاً ،^(١) ومعهم حرس خاص بهم يحملون الرايات السود .

فلما وصل موكبهم إلى موقف الحجاج ارتفعت أصواتهم بالدعاء وعلا ضجيجهم بالتكبير والتهليل فكان الواقف يستشعر من عزة الأسلام ما لا يخالج النفس أعظم منه ، إذ ليس من فروض العبادة ما تظهر فيه أهبة الدولة غير حج البيت الحرام ، فلما وقف الأمراء والعظماء إلى وداع الخليفة أوصاهم بالسهر على الرعية ،^(٢) وأن يسألوا الله له النعمة ويوفقه ويلهمه الرأفة بهم . ثم إنه عزم على ولي العهد أن يصحبه إلى قصر عبدويه على مسيرة يومين^(٣) من الحضرة لتم له الخلوة به على انفراد ، إذ كان يحسب من هذا الموسم إتيان ما لامرّد له ، وقد كان يرى في منامه كأنّ نجومًا تهوى من السماء^(٤) فيتشام من ذلك . فلما نفّخ في البوق إيذاناً بالنفير زحف الحجاج كالبحر المتلاطم الأبواب . كأنّ سفنه الرّكاب . وشرعها الظلل المرفوعة والقباب . وفي مقدمتهم هو دج الخليفة قد لمع ذهبه كأنّ الشمس ترسل إلى الناس نوراً من جلال الخلافة .

ولما كان بعد ذلك عاد المهديّ إلى الحضرة وشرع في مباشرة الأحكام على الوجه الذي يريده أبوه ، حتى صرنا ونحن اليوم في ولايته أشبه بنا في ولاية أبيه إلّا فيما يصير إلينا من العطاء الذي لم تعود من أبي جعفر ، وأمّا ما سوى ذلك من أمور السياسة فلم يكن له إلّا أن يقتنى فيها أثره ،

(١) ابن الأثير ٦ : ١٣ (٢) السيوطي (٣) أبو الفرج ٢٢٠

(٤) ابن الأثير ٦ : ٦

وقد أوصاه وهو يودّعه في قصر عبدويه الوصية التي هي من أحسن ما أوصى الملوك به أولادهم في السياسة، بدأ فيها بتحريضه^(١) على سَكَن الزَّوْرَاءِ وألّا يستبدل بها غيرها، وأن يظهر كرامة أهل بيته^(٢) ويحسن إلى مواليه ويستكثر منهم ولا سيما أهل خراسان إذ كانوا شيعتهم وأنصارهم ومن لا تخرج محبتهم من قلوبهم^(٣) وألّا يستعين بأحد من بني سُلَيْم (خوفاً من ميلهم مع أهل البيت)، وأن يحفظ النبي صلى الله عليه وسلم في أمته ويلزم حدود الله والآدميين ويعف عن البغي الذي لا حاجة به إليه مع ما خلفه له من المال، وأن يشحن الثغور ويضبط الأطراف ويُعِدَّ الكُراع والرجال ويسيء الظن بالعمّال، وألّا يدخل النساء في أمره^(٤) ولا ينام إلّا وهو مستيقظ إلى آخر ما أطلّ به في هذه الوصية التي ذهبت مثلاً بين وصايا الملوك.

في ذكر من لقيته من الشعراء

يحسُنُ بي في ختام هذه الرسالة، أن أذكر لك عن الشعراء الذين زهت بهم دولة أبي جعفر ما ورد على الخاطر الفاتر، ولكن بإيجاز يدلُّ على موضعهم من الإجابة في مذاهبهم، دون إطناب ينتهي إلى ما لا تسعه الصحف من ذكر أبحاثهم ونواديرهم. فأبدأ منهم بذكر بشار بن بُرْد البصري وهو ضرير قد لقيته في مجالس البرامكة^(٥) لأول قدومي إلى الزَّوْرَاءِ وكان خالد أعزه الله قد أحب أن يطلق على اسم الزائر ويُبطل عنى اسم

(١) ابن الاثير ٦: ٧ وأبو الفداء ٢: ٧ (٢) أبو الفرج ٢٢٠ (٣) العقد الفريد (٤) الفخرى ٤٨ (٥) الأغاني ٣: ٣٦

السائل الذي كان يُنعت به الغرباء في ذلك الوقت^(١) لقوله لي إني والله
لا أحب اسم السائل إلا لطلاب الاحسان، وأرفع قدر الكريم عن أن يُسمّى
به أمثال هؤلاء المؤمنين، لأن فيهم الأحرار والأشراف ومن لعله خير ممن
يقصد وأفضل أدباً ولكننا نسميهم الزوار، فوجد بشار لنفسه نصيباً من
كلام الوزير فأطلق لسانه في الانشاد بما دل على سرعة خاطره إلى النظم
وسرعة تصرفه في فنون الشعر.

وقد رَوَيْتُ لبشار هذا الشاعر نحواً من مائة قصيدة ورأيت له في
أكثرها ابتداء يرفعه إلى مساماة المقدمين من شعراء العرب، فلقد سمعت
من لا أحصى من الرواة يقولون أحسنُ الناس ابتداءً في الجاهلية امرؤ
القيس حيث يقول (ألا عِمَّ صباحاً أيها الطللُ البالي) . وحيث يقول (قفا
نبك من ذكرى حبيب ومنزل) وفي الإسلام القطاميُّ حيث يقول (إنّا
محيوك فاسلم أيها الطللُ) ومن المسلمين بشارٌ حيث يقول .

أبى طللٌ بالجِزْعِ أن يتكلما . وماذا عليه لو أجاب متيماً
وبالجِزْعِ آثارٌ بقين وباللوى ملاعبٌ لا يُعرفن الا توها
ووجدت له من جمال التشبيه ما يعجز البصراء عن الاتيان بأفضل منه
وفي قوله . .

كأنّ مُثَارَ التّع فوق رءوسنا . وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
سموّ لم يعمل عليه أحد من المتقدمين ولا المتأخرين، وهذا من الغريب الذي
لم يُسمع بمثله عن أحد من العميان لأن قولهم منحصر في الزهد والمديح
والهجاء وما يتصرفون به من أبوابها، بخلاف هذا الشاعر فإنه يتوسع منها

(١) الأغاني ٣: ٣٦ الوطواط ٢٤٩ والفخرى ١٨٥

إلى سائر المذاهب من غير أن يقع في الانحطاط الذي لا يؤمن على من يدخل نفسه فيما هو غريب عنه، وكان المتبادر إلى العقل أن يكون بعيداً عن تصور الحسن ولكنه أغزل الشعراء^(١) حيث يقول .

أنا والله أشتهى سحرَ عَيْنِيكِ وأخشى مصارعَ العشاق

وهذا أحسبه من المواهب الطبيعية والملكات النفسانية، ولذلك أقدمه على جميع الشعراء من هذا الوجه الذي يُجَلِّه عن التكلف ولا أجد فيه من انتقاد عيب^(٢) به شعره إلا استرساله في الهجاء واختلاقه بعضاً من الألفاظ التي يُحتاج إليها لقيام أياته على القافية من غير أن ترد في لغات العرب . ولقيت من الشعراء المقدمين مروان بن أبي حفصة وهو منقطع في شعره إلى مديح معن بن زائدة^(٣) لأنه كفاه مؤنة الاستعطاء من غيره، ولما أتى في بعض مديحه له على ذكر بلاته في حرب الرواندية بقوله .

مازلت يوم الهاشمية مُعلنا بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاه من وقع كل مُهندٍ وسان

أعطاه مائة ألف درهم وذلك أعظم ما أعطى الملوك من الجوائز، حتى إن أبا جعفر لما علم بذلك أكبره وقال في سبيل التعجب من سماحة معن « لله دره من أعرابي ما أهون عليه ما يعزُّ على الرجال وأهل الحرم »^(٤)

وقد انتهت بلاغة هذا الشاعر إلى القصيدة اللامية التي يقول فيها مادحاً هذا الأمير .

(١) الأغاني ٦ : ٤٩ وابن خلكان ١ : ١٢٥ (٢) الأغاني ٣ : ٤١ و ٥٣

و ٧٣ وابن خلكان ٢ : ٢٥٢ وابن الأثير ٦ : ٣٧ (٣) الأغاني ٩ : ٤٤

(٤) المسعودي ٢ : ١٨٣ والأغاني ٩ : ٤٤ وابن خلكان ٢ : ١٦٠ والمستطرف ١ : ٧٣

بنو مطر يوم القساء كأنهم
هم يمنعون الجار حتى كأنما
أود لهم في غيل خفان أشبل
لجارهم بين السما كني منزل
إلى أن يقول .

تجنب لا في القول حتى كأنه
تشابه يوءاء علينا فاشكلا
حرام عليه قول لا حين يسأل
فما نحن ندرى أي يوميه أفضل
أيوم نداء القمر أم يوم بأسه
وما منهما الا أغر محجل
ولكني سمعت من يقول إنه رفسها بعد حوّل كامل^(١) فقالها في أربعة
أشهر وانتخلها في أربعة وعرضها في أربعة فجاءت كأنها السحر الحلال^(٢)
يعجز عن مثلها الشعراء ، ولكن هذا يدل على أن علمه أكثر من عقله وأن
الشعر عنده صناعة ينال نفسه منها عناية شديدة، وإنما يحب من الشعراء سرعة
الخطار إلى النظم كمثل ما نعلم عن العرب من قولهم الشعر ارتجالا في
المجالس والأسواق. ومن كلام مروان:

طرقك زائرة فحى خيالها
بيضاء تخط بالجمال دلالها^(٣)
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها
قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

وممن لقيته من شعراء هذه الدولة أبو اسحق اسماعيل « من قبيلة
عنزة^(٤) » ويعرف بأبي العتاهية وهو من المطبوعين المجيدين يقول المائة
والمائة والخمسين بيتا في اليوم الواحد ، حتى ليس إلى الاحاطة بجميع شعره
من سبيل ، وله كلام لم يسبق إليه أحد^(٥) كقوله .

(١) الأغاني ٩ : ٤ (٢) ابن خلكان ٢ : ١٣ (٣) في العقد الفريد
« بيضاء تنشر بالحياء دلالها ، (٤) الأغاني ٣ : ١٢٧ (٥) الأغاني والعقد
الفريد ١ : ٣٧٤

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن

وله من بعض كلام^(١)

لا تأمن الدنيا على غدرها كم غدرت قبلُ بأمثالكا
أجمعت الناس على ذمها وما أرى منهم لها تاركا
وهو يأخذ في ذلك على أسلوب سهل يروم أن تفهمه العامة وترضى
به الخلاصة وإن كان منحطاً عن لغة الأولين في فصاحة الألفاظ، وتصرفه في
الشعر مقصور على وصف الآخرة^(٢) ولم أحفظ له من المديح غير ييتين
قالهما في عمرو بن العلاء.

إن المطايا تشتكك لأنها قطعت إليك بسابساورمالا
فاذا وردن بنا ورددن خفافا واذا صدرن بنا صدرن ثقالا
وهذا أحسن ما يقال في امتداح الكريم ، إذ لا يخفى أن
وراءه من المديح ما يترك البلاد والعباد والحيوانات العجم ناطقة بما له
من الجميل .

ولقيت منهم أبا دُلَامة زَنَد بن الجَوْن وهو من الشعراء المجيدين
لكنه قد أضاع شعره في استعطاء أبي جعفر وهو بمكانه من الامساك كما
علمت وقد قال في الثناء عليه .

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قومٌ لقليل اقعِدوا يا آل عباس
ثم ارتقُوا في شعاع الشمس كلُّكم إلى السماء فأنتم اكرم الناس
وهذا كلام يسمو به إلى جمال الشعر ويملك القول بما أودعه من وصف
السعادة التي صورها محفوفة بالنور ولكن قد ضاع تأثيره في النفوس ببعد

(١) المسعودي ٢: ٢١٨ : (٢) الأغاني ٣: ١٢٦

المدوح عن محاسن الكرم . وقد وجدتُ آياتَها ١ حلاّة بالخلاعة
كما أتى وجدته يتوسع فيها إلى المجون^(١) وكثيراً ما كنت ألقاه في مجالس
المهالبة يلتمس نصيبه من عطائهم بما يتصرف به من الهزل والمزاح .
ومن الشعراء المجيدين محمد بن المولى الأعرابي لقيته في مجالس المهالبة
مرة واحدة وقد قصدتهم من البادية وقال فيهم المدايح الرنّانة فأجزلوا
عطيته من المال وقد حفظت له من جملة آيات يقولها في مديح رّوح بن
حاتم من أمرائهم^(٢) .

إني لأرجو إن لقيتك سالماً ألا أعالج بعدك الأسفارا
وكان روح عند ما أنشده إياه قد غلبته الأريحية فأمر بإفراغ المال
عليه حتى تثقل به فقلت للأمير ما أنت إلا من يقول فيه زهير .
تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تُعطيه الذي أنت سائله
فقال والله لأن أعطى أحبُّ إلى من أن أمدح . ولا بن المولى كلام
يقرب أن يكون مثل أقوال الجاهليين ، لمقامه في مواضعهم من البادية
بعيداً عن حضارة الأمصار ومن شعره في النسب .
أحينُ إلى ليلي وقد شطّبت النوى بليلي كما حنَّ اليراع المُثَقَّبُ
تقربتُ ليلي كي تُثيبَ فزادني بعيداً على بعدٍ إليها التقرب
(وقوله)

وأبكي فلا ليلي بكت من صباية إلى ولا ليلي لذي الود تبذلُ
وكان الحسنُ بن زيد رضى الله عنه ، وهو عامل على المدينة^(٣) ، قد

(١) ابن خلكان ١ : ٢٧١ والأغاني ٩ : ١٣٢ والمستطرف ٢ : ٤ والشرشي

٢٦ : ٢ (٢) الأغاني ٣ : ٩٠ (٣) ابن الأثير ٥ : ٢٤٣

دعاه وأغلظَ له ، وقال أُتُشَبَّبُ في جَرَمِ المسلمين وتُنشدُ ذلك في المحافل
والمساجد ظاهراً ؟ فقال امرأتى طالق ثلاثاً إن كانت ليلى إلا قوسى هذه
ذكرتها على سبيل التشيب ، لأن القريض لا يحسن إلا بالنسيب . على
أنى وجدت شعره إلى فصاحة البداوة أقرب منه إلى حلاوة الحضارة
وفي قوله .

سلا دار ليلى هل تُبينُ فتَنطقُ وأنى تردُّ القولَ يَداءِ سَمَلَقُ
عفتها الرياح الدامسات مع البلى بأذيالها والرائح المتعَبِّقُ
بكل شأيبٍ من الماء خلفها شأيبُ ماء مُزِنها مُتَأَلِّقُ

ما يبعد تناوله على سكان الأمصار الذين ينقطع عهدهم بمحاضرة أهل البادية ،
وانما يُدخلون في لسانهم كلام السُّوقَةِ ^(١) وألفاظ الأعاجم الذين يخالطونهم
في أسفارهم وتجاراتهم ، حتى تُصبح لغتهم في أشد المباينة للسان العرب .
وممن لقيته من الشعراء المجيدين السيد الحُمَيْرِيُّ ، وهو من الواقفية
القائلين بالامام المنتظر ، ^(٢) يأتي في شعره على غرضه في السياسة ، ويفرط
في سب أصحاب النبي ^(٣) صلى الله عليه وسلم ممن كان يرغب عن آل
البيت ، وربما وقع عليه من الناس تجافٍ عن شعره من هذا الجنس ، إلا
أنه ليس لأحد من الشعراء ماله من عذوبة الألفاظ ، وجودة السبك ،
ورونق الشعر وطلاوته . وقد جمعتني وإياه إلى هذا اليوم أكثر من
مجلس ، ووجدته حسن الكلام جميل الخطاب ، إذا تحدث بين القوم أعطى

(١) يقول في الأغانى ٣ : ١٧٣ أن الألفاظ السوقية لا تمنع أن تكون القصيدة

جيدة . (٢) العقد الفريد ١ : ٢٦٦ والمقدمة ١٧٣ وذكره المسعودى ٢ : ٨٠ وسمى

شيعة بالكيسانية (٣) أبو الفداء ٢ : ١٥

كل رجل في مجلسه نصيبه من حديثه ، ^(١) وله في النسب كلام رقيق فمن ذلك قوله :

ولما رأيتني خشيّةَ البيتِ مَوْجِعاً أَكْفَيْتُني أَدْمُعاً يَبِضُّها دَرَرٌ
أشارت بأطراف اليّ ودمعُها كنظم مُجَنَّحانِ خانهُ السِّلْكُ فانتثرُ
ومن الشعراء المقدّمين أشجعُ بنُ عمرو السَّامِيُّ ، ^(٢) وقد نزل الشعرُ
في صدره مَوْهَبَةً من الله ، فانتفضت به قَيْسٌ لذلك ، إذ لم يكن بها في
الاسلام شاعر قبله ، وإنما كان الشعر في ربيعةَ واليمنِ ، فلما نجم أشجع وقال
الشعر افتخرت به قيسٌ على العرب ، ^(٣) ومما أستحسنه من نظمه سهولةُ
القول التي لا يعانى إلى البراءة فيها تكلفاً ، وقد حفِظتُ له في مديح ولى
العهد يَتَيْنِ من جيد الشعر وهما قوله ^(٤)

وعلى عدوك يا ابن عم محمد رَصَدانِ ضَوْءِ الصَّبِيحِ والإِظْلَامِ
فاذا تَنَبَّهَ رُعْتَهُ وإذا غفا سَلَّتْ عليه سِیُوفُكَ الأَحْلَامِ

هذا ما أذكره عن شعراء هذه الدولة بوجه الاختصار ، وقد رأيتهم
يتسابقون إلى ابتكار المعاني الحسان من غير أن ينتحلوا مذاهب من تقدمهم
في عصور الجاهلية ، إلاّ فيما كان أقلّ من النادر ^(٥) ، ولو رأينا لهم ماسبقوا
إليه ما صحّ أن تهّمهم بالانتحال ، لأنّ القول قد تتوافق وتتوارد ، وإن
كان المتقدمون من الجاهلية أشرفَ منهم لفظاً فانهم لألطف منهم صنْعاً
وأكثر من المعاني حظاً . وهوّلاء هم أشعر العرب قد اجتمعوا في الزّوراء

(١) الأغاني ٣: ٧ (٢) الأغاني ١٥: ١٠٨ (٣) الأغاني ١٧: ٣٠

(٤) البتان قلا في هرون الرشيد (٥) أنظر ابن خلكان ١: ١٠٢ والأغاني

٤٩: ٣ و ١٤٨ و ١٧٨: ٥ والحصرى ٢: ١٦٧

إلا ابن هرمة وسلماً الخاسر، وكلاهما شاعرٌ مجيدٌ أيضاً إلا أن أياهما لم تصل
إلى ، فلم أُعَلِّق أخبارهما في هذا الكتاب .
وقد كتبت هذه الرسالة في مُتَّصِفِ ذِي الْحِجَّةِ من السنة الثانية
والخمسين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم ، والله المستولُ في توفيقنا إلى
السَّداد ، وهدايتنا إلى الرشاد : بمنه تعالى وكرمه .

الرسالة الرابعة

جلوس المهديّ على دست الخلافة

أُفْتِشُ هذه الرسالة إليك بذكر جلوس المهديّ على دَسْتِ الخلافة
عند وصول الخبر بوفاة أبي جعفر ، وقد كان لذلك يوم عظيم في الحضرة
والأسلام كله ، لأن العقلاء من أهل السياسة كانوا يَرَوْنَ زوال الخلافة عن
وَلَدِ العباس إلى الأئمة من أهل البيت وتعذر مصيرها إلى المهديّ ، والمشايخُ
من أهل هاشم حاضرون ، فجرى الأمر على خلاف المظنون بحيلة علمتها
من البرامكة سرّاً لم تنكشف للناس إلى هذا اليوم . وذلك أنه لما أودى
أبو جعفر — غفر الله له — كتم الربيع موته إلى الصباح عمن كان معه في
الحج ، واستدعى عيسى بن عليّ عمه وعيسى بن موسى وليّ العهد بعد
المهديّ وجماعة من القواد والأمرء ، وتقدم إليهم بأمره — فيما كان يزعمُ
— أن يجددوا البيعة لابنه من غير أن يُعلمهم بوفاته ، فلم يتجرأ أحد على
مخالفة الأمر ، ظناً منهم أنه صادر من السلطان . ولو أنهم علموا بوفاته

ما تسارعوا إلى تجديد بيعتهم لابنه ، فلما بلغ مراده ولم يبق له غرض من كتمان موته دخل عليه كمن لا يعلم أمراً مما نزل به ، ثم خرج إليهم مشقوق الجيب باكياً ينعى وفاته ، فلم يكن فيهم إلا من أخذت عليه البيعة ، وركب رجال المهدي إلى مكة ، وبايعوا أهل الحل والعقد من أهلها ،^(١) فصارت الخلافة إلى المهدي بهذه الحيلة التي تعاب على الربيع من وجه الظلم ، وإن كان فيها حقنٌ لدماء المسلمين .

وكانت وفاة أبي جعفر في بثر ميمون مع السحر ، لست خلون من ذي الحجة ، وهو مُحَرَّمٌ بظاهر مكة ،^(٢) ولذلك دفن مكشوف الرأس دون أحد غيره من الخلفاء ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم منع المحرم من لبس القميص والعمام والبرانس^(٣) وغير ذلك من أنواع المخيط ، وحفر له أهله مائة حفرة بين الحجون وبثر ميمون ،^(٤) ليُعمَّوا على الناس ، ثم دفنوه في غيرها . ووجه الربيع منارة^(٥) الخادم إلى الحضرة بالبيعة ، وأمره بالسرعة خوفاً من أمر يحدث في الإسلام ، فجاءها في أحد عشر يوماً^(٦) من مكة .

وقد كنت في مجلس هرون الرشيد حين سمعتُ الجليلة في مقاصير الحرم ، فاستعامت الخبر ، فنبئتُ أن أبا جعفر قد مات ، فأسرعت إلى منازل البرامكة لأشهد مجلسهم في ذلك الوقت ، فأخبرني نافذ أحد الحُجَّاب أن المهدي قد دعاهم إليه ، فنزلت إلى السوق فلقيتُ أستاذي أبا يوسف ، فأبنتُ له ما أنا تائق إليه من حضور البيعة ، فأشار إليّ بالبقاء

(١) ابن الأثير ٦ : ١٣ (٢) ابن الأثير ٦ : ٨ (٣) الزرقاني ٢ : ١٤٨

(٤) الخيس والعقد الفريد ٣ : ٥٣ (٥) المسعودي ٢ : ١٩٤

(٦) أبو الفداء ٢ : ٩

معه إلى قبيل الظهر ، وهو الوقت الذي يجتمع فيه أهل الحل والعقد لمبايعة المهدي .

فلما سرنا إلى دور الخلافة ، رأينا الساحات غاصّةً بجواهر الناس ، فَوَجَّنا باب السور بين ازدحام تضيق منه الأنفاس ، حتى انتهينا إلى باب القبة الخضراء ، فجاورنا الحجاب إلى المجلس الذي تقام فيه البيعة ، فإذا به قد جمّع الأمراء من بني العباس وجيلة القواد والأعيان وأهل البيوتات مثل البرامكة أغزهم الله وآل المهلب وآل طاهر وآل قحطبة وآل نوبخت وغيرهم . وكان المهديّ مستويّاً على عرش مكلّل باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر ، وعلى رأسه قبة تتدلى منها أستار من الديباج ،^(١) وعلى يمينه ويساره غلامان قد التحفا بالذهب ، ووقفاً بمظلتين من الريش الأسود مرفوعتين على رحين مكسوين بعروق من الذهب ، قد نُزِّلَ فيها الياقوت والزبرجد والفيروز ، ودونهما بنو هاشم على وسائد قد تُنبت لهم ،^(٢) ولباسهم خز أسود ، وكذلك كان لباس المهديّ ، وكانت عليه الطرحة ، وعلى كتفه برودة النبي صلى الله عليه وسلم التي استصحبها أبو جعفر إلى الحج ، وفي يده القضيب وفي الأخرى خاتم الخلافة .

وكان على يمين العرش منبرٌ مزخرف بأنواع الزينة والجوهر والديباج ، قد وقف به كاتب المهدي في خلافة أبيه^(٣) أبو عبد الله معاوية بن عبد الله الأشعري ، وهو الكاتب المشهور بالبلاغة ، قد اتخذ وزيراً^(٤) له في سياسة الملك . وكان سلامان الأبرش حاجبه واقفاً على بعض مِرْقاة^(٥) هذا

(١) المسعودي ١ : ٢٣٤ (٢) الأغاني ٤ : ٩٣ (٣) الفخرى ٢١٥

(٤) الأغاني ٣ : ٤٦ العقد الفريد ٣ : ٥٣ والمسعودي ٢ : ١٩٦ (٥) السيوطي

المنبر بالبيعة التي جاء بها منارة من مكة، وتحت يد الخليفة أمير من البرامكة،^(١) قد أخذ في يده البيعة على أمراء الحضرة الذين لم يروا إلا متابعة الناس، بعد أن بايعت مكة والمدينة وبايع القواد والوزراء وأكابر المسلمين.

وكانت عادة الناس في مثل هذا الموقف أن يبدءوا الخليفة بتعزيته في أبيه، ثم يهتئوه بجلوسه على تخت الخلافة، فلما أخذوا في تعزية المهدي خلعوا قلائسهم ونبذوها وراء ظهورهم، لأن الخلفاء لا يعزّون بالعمائم،^(٢) ثم وقف وزيره أبو عبد الله يبايعه عن المسلمين، ولفظ البيعة قوله^(٣) «إنا نبايع سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على جميع الأنعام أبا عبد الله محمد بن عبد الله المنصور، على كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد أمير المؤمنين، وأن لا خليفة سواه»، ثم بايعه كل من حضر المجلس حتى لم يكن يُسمع إلا دعاء له وتنويه باسم بني العباس.

ثم تناول الوزير منشوراً كتبه الربيع على لسان أبي جعفر استنهاضاً للناس إلى مبايعة المهدي،^(٤) فتلاه على مسمع من الأمراء وفيه يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بني هاشم وشيعته في خراسان وعامة المسلمين. أما بعد فإني كتبت هذا وأنا حي في آخريوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة. أقرأ عليكم السلام، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدى، ولا يلبسكم شيعاً، ولا يذيق بعضكم بأس بعض وأوصيكم بحمد ولي عهدكم وأذكركم البيعة له،

(١) يفهم من ابن الاثير ٦: ٦ أن خالداً ويحيى كانا غائبين عن بغداد لما توفي

المنصور (٢) الأغانى ٩: ٩٧ (٣) السيوطي (٤) ابن الاثير ٦: ١٢

وأستنهضكم للوفاء بعهده واجتماع كلمتكم عليه ، فانما قوتكم تكون بالاجتماع الى رأيه ، وقد أوصيته بكم وبالرأفة عليكم والاحسان الى المسامين والسلام . « فترقق الدمع في عيني المهدي ^(١) ولم يتمكن من إطالة الخطبة التي يقولها الخلفاء ، لما غلب عليه من تأثير النفس ، فصرف الأمراء وهم يدعون له بالسلامة .

سياسة المهدي وخلعه عيسى ابن عمه عن الولاية

ولما كان المساء أقيمت في المدينة زينة حافلة فصرفت العناية إلى تزيين مشرع الزوايا ^(٢) بالأنوار ، لقربه من موضعي ، ليكون في ذلك قضاء الواجب من شكر الخليفة على ما أولاني من الجميل ، ودفع لآلسنة الوشاة عن السعاية بي إليه فيما استقر بنفوسنا من الميل مع أهل البيت ، وامتلات الزوراء في تلك الأيام بأرباب الملاحى ، وبما يعرضون من صور الطين التي يصنعونها للعب الصبيان في المواسم والأعياد ^(٣) ولا أطبل لك الكلام على عادات العامة وسذاجتهم ، لأنها في جميع الأمم عامة ومتماثلة ، وإنما أخبرك بما عرفته للمهدي — أصلحه الله — من حسن السيرة التي يروم بها أن يستبدل برعب الناس من أيه ورغبتهم عنه محبتهم له وميلهم إليه فأقول .

إنه بعد أن أظهر من الأبهة بافتتاح خلافته ما يعظم موضعه من السلطان ، صنع لبني هاشم وسائر قریش طعاماً جاوز فيه الحد بسعة

(١) الاسحاق ٨٨ (٢) موضع ذكره ابن خلكان ١ : ٤٦٤

(٣) ابن خلكان نقلا عن كتاب احياء علوم الدين للغزالي

النفقة ، ^(١) حتى إنه أطعم الناس الطير وخبز السميد . وكان يحمل معه بدر الدراهم والدنانير في ركوبه ، فلا يتعرض له أحد الا أعطاه ، ^(٢) فكان تخاف أرباب الدولة تفاد ما في بيت المال ^(٣) اذا استمر على هذا العطاء ، ^(٤) ولا سيما بعد أن نقص دخل الدولة برفعه المؤمن والكسور ، وهو الأمر الذى كان يفاوضنى فيه أيام خلافة أبيه ، فان الناس في صدر الاسلام كانوا يؤدّون ما في أيديهم للخراج من دراهم ودنانير مضروبة على وزن كسرى وقصر ، لا يفرقون في الأوزان ، فلما ساد فيهم العمران وأفسدهم التجار والصيارفة صاروا يؤدّون الدينار الطبرى ، الذى هو أربعة دوانيق ، وممسكون الوافى ، الذى هو مثقال ، فلما أمّر زياد صار يطلب الوافى ، ثم أمّر الحجاج فطلبه كذلك ، فلما صار الأمر الى أبى جعفر أزال الخراج عن الحنطة والحبوب ، وصيّره على الناس مقاسمة ، ولكن من غير أن يسقط الكسور ، فلما ولي المهدي قال معاذ الله أن ألزم الناس ظلماً في ذلك ، فقل له إن أسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من أمواله في السنة اثنا عشر ألف ألف درهم ، ^(٥) فقال على أن أقرّ حقاً وأزيل ظلماً ، لأن العدل مؤفر للجباية ، كفى بعمران الأمصار .

ولقد أعظمت للمهدي هذه المأثرة التى أحسبها له من أجل آثار العدل وأحسن سياسة الرفق ، فان لنا في سقوط الدول التى قامت في هذا المكان نفسه من النبط والكلدان وغيرهم ما يدُلُّنا على أن الظلم يقتل

(١) الأغاني ٣ : ٩٤ (٢) المسعودى ٢ : ٤٠١ (٣) المسعودى ٢ : ١٩٦

(٤) الحصرى والخيس ٢ : ٣٣٠ (٥) الماوردى ١٣٧

العباد والبلاد جميعاً ، فأنما كان غرضُ الناس من الاجتماع تحت لوائهم القيامَ بأعمال الزراعة والمُقام في بلدان الحِصب ، لما يتسع بين أيديهم من أسباب الكسب والارتزاق ، وقد تناسلوا في ظلال العدل ، وبلغوا من الكثرة فيما مضى من الزمن الغابر بحيث كانوا اذا اجتمعوا لحرب أو لغزوة بلغوا ألوف الألوف من الخلائق ، ثم لما غفلت الدولة عن مصلحتهم ، وأوقعت عليهم المكوس الفادحة لسد ما دعتها إليه مطالبُ الترف ، لم يبق في نفوسهم شيء من حب البلاد ، وهم لا يبتغون منها إلا تحصيل القوت الذي يأتيهم على إجهاد النفس ، فضعفت فيهم أسباب الهمة ، ولم يكن للدولة طاقة على مرَدِّ العدو بهم ، وقد ماتت نفوسهم من الظلم ، فخلت البلاد منهم ، والله يرث الأرض ومن عليها .

وكان وفود البلدان يردون على المهدي من الأقاليم الإسلامية الأقرب فالأقرب لتهنئته بالخلافة ، فاجتمع ببابه كثير من أشراف العرب وملوك الأقاليم ، وكانوا يتبركون به ويتوسمون فيه الخير لأنهم رأوا منه عدولا عن سيرة أبيه ، وإنما كان محسناً إليهم ، ^(١) محباً لهم وساعياً فيما تصلح به أمورهم ، فاتخذ لهم من هذا الوجه مجلساً لردِّ المظالم ، ^(٢) ولم يكن قبله في الدولة العباسية من ينظر في تعدّي الوُلاة على الرعية وجورهم فيما يجبونه من الأموال ، ^(٣) ولقد وجدت له في استمالة الناس إليه غايتين تصبو إليهما

(١) الخيس ٢ : ٣٣١ (٢) السيوطي وابن الاثير (٣) في الماوري

ومقدمة ابن خلدون أن هذا المجلس ينظر في كتابة الدواوين اذا وقع بها تزوير وفي تظلم المسترزقة من الجند من نقص أرزاقهم ومن تأخرها عنهم وفي مشاركة الوقوف ورد المنصوب الى أصحاب الحقوق وتنفيذ ما وقف من أحكام القضاة اضعفهم عن

نفسه ، ولا يهدأ له بال إلا بقضائهما على ما يروم ، وهما إذلال العلويين إلى أن يكون بأمن من تغلبهم عليه ، ثم جعل الخلافة من بعده في ولده ممنوعة على غيرهم من بنى العباس . فأما أمر العلويين فما كان يشتد عليه وقعه بعد أن رماهم أبو جعفر بالخسائر التي يحتاجون معها إلى زمن يلمون به شعثهم ، ويجمعون إليهم أطرافهم ، فكأنما هو يقارعهم بسيف أبيه إلى هذا اليوم . وأما خلع عيسى ابن عمه عن ولاية العهد فإنه كان يتعيب منه البال ، وقد دخل عليه يحيى بن خالد — أعزه الله — فأصابه في قلق شديد ، يقعد مرة ويضطجع أخرى . قال لي يحيى فعامت من ذلك أنه يريد أمراً عظيماً ، فقال اجلس قريباً مني ، لأنني أريدك للمشورة ^(١) إن النبي صلى الله عليه وسلم مات في غير وصية ، وترك الأمر شورى بين المسلمين ، فما لبثوا أن أجمعوا على أبي بكر ، ولكن بعد فتنة كادت تقع بين المهاجرين والأنصار ، لقولهم منا أمير ومنكم أمير ، ثم مات أبو بكر وقد صير الأمر إلى عمر بمحض من الصحابة ، فلم ينازعه فيه أحد ، ثم عهد لها عمر إلى ستة نفر الذين مات النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فأجمع رأي الأمة على علي وعثمان ، وكان عبد الرحمن بن عوف أحد الستة المنوّه عنهم يميل مع عثمان ، وفي وصية عمر إلى المسلمين أن يتبعوا رأيهم ، فبايعوا من أرادهم ، فاستقر عثمان في خلافته إلى أن ثارت عليه الفتنة لأقصائه ولد أبي بكر وإقباله على أقاربه من

انفاذه وعجزهم عن المكتوب عليه لقوة يده وعلو خطره وامضاء ما يعجزون عن امضاءه في البيئات والتقارير واعتماد الامارات والقرائن وتأخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل المتخاصمين على الصلح .

الأمويين بالصلوات الطائفة ، وعهدُ المسلمين قريب بضبط^(١) أبي بكر وعمر ، فقتلوه وكانت تلك أولَ فتنة في الاسلام ،^(٢) ثم أجمع العرب على علي عليه السلام ، وكان الفُرس يميلون معه ، فاستوثق له الأمر في العراق واليمن والحجاز ومصر وفارس وخراسان ، إلا الشام لاستواء معاوية فيها ، فلما قتله الخوارج لم ير الحسن ابنه مقاومة الأمويين بالقتال ضناً يبذل الدماء فنزل له عن الأمر ، وصارت الخلافة إلى غير أهلها بما قد بلغك من الفتن فأخاف اليوم إن صارت إلى ابن عمي أن تذهب من بيتي بلا رجوع ، ثم يكون من الفتن ما لا يؤمن غائلته على المسلمين ، فأشِر علي يا أبا الفضل في هذا الأمر ، الذي لا يتعاضمه أمر ، فانك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر . فقال له يحيى يا أمير المؤمنين إني أرى الزلّة في هذا الأمر لا تستدرك ، والخطأ فيه غير مأمون ، فإن تكتب بالولاية لأولادك بعد ابن عمك كان ذلك أوكد في البيعة . فقال له المهدي كنت أفعل هذا لولا أني أخاف من عيسى نكث العهود ، ولكنني أرى أن أخلعه عن الولاية وأخذ البيعة لموسى على المسلمين ، فقال له يحيى على أمير المؤمنين أن يعلم شيعته ومسان أهلهم بذلك ، ولم يتعمق في هذا البحث إلى أبعد مما أشار به ، لأن موقفه بين العلوية والعباسية من أشد ما يكون من الصعوبة ، وأنه وإن كان يأخذ في تعظيم العباسيين لرسوخ دولتهم في المشرق ، له في حبه للعلويين ما يرى به عدولهم عن العراق الذي ترهق النفس دون التمكن من أهله ، وانما يلتبس لهم من المغرب أمماً ترسخ فيهم دولتهم ، إلى أن يأتيهم الله بالنصر القريب .

(١) الفخرى ١١٦ (٢) السيوطي

ولما جمع المهديّ أكابر الدولة وفاوضهم في هذا الأمر ظفر بالموافقة من نفوسهم^(١) ولكن على أن يُجيبه ابنُ عمه إلى الاتحاد وانتهى بعض من يستخديم الفقه في رضا الملوك إلى أن يقول إنّ أبا جعفر لم يكتب لعيسى بالولاية إلّا لتبقى الخلافة في بيته بعد المهديّ ، فلما رزقه الله أولاداً كانوا أحق بها من أعمامهم ، فكتب المهديّ إلى الرّحبة يستقدم ابن عمه إليه ، فلم يصل منه خبر ، أو وصله أنّه يعتلّ بالشكوى ، وما بنفسه اعتلال ، ويستنكر الخروج إليه إلّا أن يُكره بالقتال . فعمدَ إذ ذاك إلى مكيدة الحرب ، وأرسل الجند على ذلك الوجه مأموراً بالآخذ بالقتال ، بل يستعمل الرفق والملاينة في ترغيبه عن المخالفة إلى أن يجيبه إلى الخضوع . وكان على هذا الجند قائد نبيه الصوت في الحروب يقال له أبو هريرة محمد بن فروغ ، فرأى أن يفاجئ الحصن في آخر الليل ويصفّ العساكر صفوفاً متعارضة ، ويضرب وراءهم مصاف الخيام ليؤمّ باستكثار العُدّة والعزم على مثابة الحصار ، ثم يُنزل بالجنود الزعقة العظيمة التي إذا سمعها عيسى وهو في نومه خامره الجزع وأفزعه الهول ، فلما فعل ذلك استيقظ عيسى على رعب من الصيحة ، ثم أشرف من الحصن سحراً ورأى سواد الجيش ، فامتلاً قلبه من الوحشة ولم ير السلامة إلّا بالاستسلام ، فأخذه أبو هريرة إلى المهديّ ، فلم يفتّر عن استعمال الحيلة في تعويضه عن الولاية بالمال إلى أن أجابه إلى الانحلاع ، ولكن بعد شدة ما لحقه من الضيم .

ولما تصرف المهديّ في أمر البيعة بما أراد ، ثار في قلوب المخالفين^(٢) له ما كان يُخمدّه فيهم حلمه وسعة عطائه ، فحصل في نفسه منهم خوف

(١) ابن الاثير ٦ : ١٦ (٢) ابن الاثير والفخرى والسيوطي

شديد ، ولكنه لم يرمقواهم بالقتل ، وفيهم كثير من أهل السيف ، لئلا يتسع الفتق وتعود عليه الفتنة بغير ما يحب ، وإنما رجع إلى من يلوذ من العلماء ، وأمرهم بتصنيف الكتب في الرد عليهم ، وأخذ في استصلاح الزوراء والنظر في حسن السيرة الظاهرة من أهلها باكره العزّاب على الزواج ، والأحسان إلى المتعفين من الشبان ، مما جرى له قيل وقال بين الناس ، كمثل أن نسبوا ذلك منه إلى غيرة به على النساء ،^(١) وهم قد غفلوا عن الغاية التي يرومها من صلاح أمره بصلاح الزوراء ، وموازنتها بمكة مهد الاسلام حتى يعظم فيها أمر الدين ، وتصبو إليها أفئدة المسلمين .

ظهور المهدي بمناصرة العلم

إني وإن لم أكن على غرض العباسيين في السياسة ولا تطيب نفسي بما ينفردون به من الملك (لأني إلى قوم سواهم لأميل) لأؤتي المهدي حقه من الثناء على ماله من جميل العناية^(٢) في تعظيم العلم وتكريم العلماء . فهو يتخذ لأهل الأدب وأرباب الصناعة والغايات أياماً^(٣) معلومة من السنة ، يعرضون فيها بضاعتهم من علم أو فن أو أدب أو صناعة حتى يحصل بينهم التنافس ، ويصدروا ما عندهم من النفائس ، ثم يجزيهم على ذلك بما هو مطبوع عليه من الكرم .

ولقد رأيت أنه أصلحه الله أعطى الخلفاء نوالاً للشعراء ، وهو يأذن لهم بالدخول عليه مرة في السنة^(٤) فيجتمعون يبابه ويتفاخرون بما عندهم من

(١) في الاغانى ٣ : ٤١ ان المهدي من أشد الناس غيرة (٢) الاسحاق ٨٨

(٣) المستطرف ١ : ٣٧ (٤) الاغانى ٩ : ٤٤

محاسن الشعر وفصاحة الكلام . وقد حضرت اجتماعهم بداره لأول
 ما ولى الخلافة ، وقد قصده ابن المَوَلَّى من البادية ،^(١) وسَلَّمَ الخاسر من
 البصرة ، وابنُ الخياط من مكة ، وأشجعُ السُّلَمِيِّ^(٢) من الحجاز ، فقالوا فيه
 الشعر الذي لم يُمدَح بمثله أحدٌ من الملوك . ومن جملة ما حفظت لأبي العتاهية
 في تهنته إياه بالخلافة قوله .

أَتَه الخِلافةَ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تُجَرَّرُ أَذْيَالُهَا
 فَلَمْ تَكُ تُصَلِّحُ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكْ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا
 وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ لَزُلْزَلَتْ الْأَرْضُ زَلْزَالُهَا
 وَإِنْ الْخَلِيفَةُ مِنْ بَغْضٍ «لَا» إِلَيْهِ لَيُبْغِضُ مَنْ قَالَهَا

فأصاب لذلك حظاً وافراً من المال . وكان بشار المقدم ذكره في الرسالة
 السالفة واقفاً في صفوف الشعراء فلم يتمالك أن يقول لمن حوله وَيَحْكُمُ
 انظروا هل طار الخليفة عن سريره ؟

وكان المهديّ يقدم عليهم سَلَمًا البَصْرِيّ ومَرْوَان بن أَبِي حَفْصَةَ
 ويُعْطِيهِمَا عَطِيَّةً واحدة ، فأما مروان فانه يلتمس الفصاحة في كلامه تشبهاً
 بأَكْبَر الشعراء ،^(٣) وأما سَلَمٌ فانه يودع أَيْبَاتِه المَجُونِ والخِلَاعَةَ لتكون
 أنساً في عيون السلطان ، فوقع فيما يتصرفان به من مذاهب الشعر بَوْنٌ
 يشبه أن يكون ناشئاً عما فيهما من تباين المَشْرَبِ بين الافراط عند
 الأول والتفريط عند الآخر ، فَإِنَّ مروانَ بِخَيْلٍ يَضِنُّ بِمَالِهِ ،^(٤) وسَلَمٌ
 سَمَحٌ يَبْذُلُ الْمَالَ ، يَأْتِي إِلَى دار المهدي على بِرْدَوْنٍ قِيمَتُهُ عَشْرَةُ آلَافٍ

(١) الاغانى ٣ : ٨٨ (٢) ابن خلكان ١ : ١٠١ (٣) الاغانى ٩ : ٤١

(٤) الاغانى ٩ : ٣٩ والوطواط ٢٩٥

درهم ، ولباسه الخَزُّ والوشى ،^(١) ويأتى مروان بأثواب رثَّةٍ على حمار
يكتريه بدرهم لا يخرج من يده إلا بعَصْبِ الرقيق ، مع كثرة ما أصابه
من المال^(٢) فى صلات تجاوزت خمسة آلاف دينار فى عطية واحدة
كما علمت .

ولئن تكن الفصاحة فى كلام مروان أجلَّ منها فى شعر سلمٍ إني لأعيبُ
عليه المداهنة التى يلتمس بها مرضاة الخليفة بقدحه فى أهل البيت على غير
حكمةٍ وعقل ، كأنه يجزم بما يراه عن يقين لا رجوع فيه ، كقوله فى ثبوت
الخلافة للعباسيين وبعْد العلويين عن وراثة النبی صلى الله عليه وسلم .
يا ابن الذی ورث النبیَّ محمداً دون الأقارب من ذوی الأرحام
أنى يكون وليس ذاك بكان لبني البنات وراثةُ الأعمام^(٣)
وهذا مردود من وجوه كثيرة ، لأن الخلافة إنما هى مصلحة دينية
لا وراثة دنيوية فحيث توجد المصلحة الدينية تكون الخلافة ، ثم إن النبی
صلى الله عليه وسلم صرَّح بأن الحسن والحسين هما ذُرِّيَّته فاذا وجدت
الذرية لم يبق مدخل للأعمام فى الوراثة ، اللهم إلا إذا رجعنا إلى شريعة
الجاهلية التى نُسِخت بمجىء الاسلام ، ولو أننا ضربنا عن ذلك كله
صفحاً ما وجدنا أصلح للإسلام من أن تجتمع كلمته على من لا ينصرف
عن طاعته أحد من المسلمين ، إلى ردود كثيرة ما أنا من ذكرها الآن فى
شئ ، وإنما أعود الى الحديث الذى جرى به القلم عن سيرة المهديّ ، فأنى
شهدتُ بداره أيامَ الشعراء وأيامَ القصَّاص وأيامَ النُدماء وأيامَ المغنّين وأيام

(١) الاغانى ٣٩ : ٩ (٢) ابن خلكان ٢ : ١٣١

(٣) الاغانى ١٢ : ١٠ والعقد الفريد ١ : ١١٨ والمسعودى

الرماة^(١) وأيام جَرَى الخيل ، وقد سبقه إليها الخلفاء ، إلا يوم السَّبَّاق فإني لأعلم عن أحمد بن بنى العباس أنه أقام الحَلْبَةَ وأجرى بين يديه الخيل في محفل من كبراء الدولة قبله . وكان له فرس سَبَّاقُ الأضاميم ، يقال له الفضبان ،^(٢) فكان أولَ خيل الحَلْبَةِ في ذلك اليوم ، فلما وَصَفَه الشعراء أصاب جأثرهم العُمانيّ وقد ارتجز .

قد غضِبَ الفضبانُ إذ جددَ الغضبُ وجاءَ يحمي حَسَبًا فوق الحسبِ
من إرث عباس بن عبد المطلبِ وجاءت الخيلُ به تشكو التعبِ
له عليها ما لكم على العرب

ولكن هذا من الأمور التي تكفي المشاهدة لها مرة واحدة ، وأما الذي ترتاح إليه النفس ، على التماس الكثير منه في دور الخلفاء ، فهو يوم الغناء وكان المهدى إذا اتخذ له مجلساً بداره ضرب للمغنين ستارة يجلسون وراءها في صفوفهم بحيث لا يروونه^(٣) الأفلح بن أبي العوراء ، وهو أوضح الناس غناء وأعرفهم بالألحان والأصوات ،^(٤) وإن هو لم يكن أحسنهم صوتاً ، فإنما يحسنُ الغناء عند من يُشبعُ الألحان ، ويملاً الأنفاس ، ويعدل الأوزان ويفخم الألفاظ ، ويعرف الصواب ، ويقيم الأعراب ، ويستوفي النغم الطوال ، ويحسن مقاطيع النغم القصار ، ويصيب أجناس الإيقاع ،^(٥) فهو يحسن ذلك كله لمحله الجليل من هذه الصناعة ، وليس له فيها شريك إلا مغن آخر يقال له عطرده^(٦) قد أدرك دولة الأمويين في آخر مدتهم ،

(١) ذكرها المستطرف ٢٧: ١ (٢) الأغاني ١٧: ٨٢ (٣) الأغاني ٩٩: ٤ وذكر المسعودي ١١٨: ١ أن الأوائل من بنى العباس ما كانوا يظهرون للنداء (٤) الأغاني ٤: ٨٨ (٥) الأغاني ١: ١٢٦ (٦) الأغاني ٤: ٩٩

وأما مَنْ سواهما من المغنين فليس لهم في الصناعة ما للمتقدمين من الفرس ،
وأنا لا أعيب ذلك عليهم لأنّ الزمن الذي مضى عليهم في صدر الدولة كان
مضرباً بدماء الحروب ، فانصرف الخلفاء عن النظر في مطالب اللهو
والترف إلى التماس الأسباب التي يؤيدون بها ملكهم من الحكمة والسياسة .
ثم إنّ نقل الغناء إلى العربية ^(١) ليس بقديم عهد عندهم حتى يتمكنوا من
صناعته وفنونه ، لأنهم نقلوه من الفارسية في خلافة معاوية بن أبي سفيان ،
وهو الزمن الذي أخذ فيه العرب بسكنى الأمصار وانقلب أمر الأمة من
سذاجة الخلافة إلى ترف الملك ، فلقد نقلت إلينا الأخبار السالفة أن
الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم لم يقيموا أبهة الملك ، ولا كان لهم على
المسلمين سلطان دنيوى يتوسعون منه إلى التماس النعيم من الدنيا ، ^(٢) وإنّما
كانوا مظهر الفضيلة ومثال القناعة والعفاف ، وكانوا يلبسون الثياب
المرقعة ، ^(٣) ويتخذون في أرجلهم نعالا من ليف ، ^(٤) ويمشون في الأسواق
كبعض الرعية رجالا ^(٥) وكان لباس أئى بكر الشملة والعباءة ، ولباسُ عمر
جبة الصوف مرقعة بالأديم ، ومرّ كَبُه الأبل ، ^(٦) وكان على عليه السلام
يتجافى عن جمع المال ، ويقول يا صفراء ويا بيضاء غرّى غيرى ، ^(٧) وكان مطعمهم
على مثل هذا الوجه من الكفاف يلتمسون به الغذاء من غير تأنق في
الأطعمة ، حتى إنّ المناخل كانت مفقودة عندهم ، فكانوا يأكلون الحنطة

(١) الأغاني ٣: ٨٦ والمسعودى ٢: ٣٥٧ (٢) وكانوا يقولون في خطبهم
للمسلمين أطيعونا ما أطعنا الله فيكم فاذا عصيناه فلا طاعة لنا عليكم (٣) الطبقات
١: ١٩ والمقدمة ١٨٥ (٤) الفخرى ٣٣ (٥) الفخرى ٨٩
(٦) المسعودى ١: ٣٢٠ (٧) الطرطوشى ١٢٤

بُنْخَالَتِهَا ، وَلَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْأَلْوَانِ إِلَّا اللَّحْمَ يَطْبُخُونَهُ بِالْمِلْحِ وَالْمَاءِ ،^(١)
وَكَانَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ يُتَجَانَفَى عَنْ أَكْلِ الطَّيْرِ وَالِدَّاجِجِ ،^(٢) وَكَذَلِكَ
كَانَ الْعَرَبُ فِي سَدَاجَةِ دَوْلَتِهِمْ عَلَى بُعْدٍ مِنْ تَرَفِّ الْمَتَمَصِّرِينَ فِي جَمِيعِ
مَعَايِشِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْغِنَاءِ إِلَّا حُدَاةُ الرِّكْبَانِ أَوْ
ضَرْبٌ مِنَ النَّصَبِ أَرْقُ مِنْهُ ، فَلَمَّا سَادَ فِيهِمُ الْعِمْرَانُ فِي عَهْدِ الْأُمَوِيِّينَ ،
وَأَلْقَيْتَ عَلَيْهِمْ أَصْوَاتَ الْفَرَسِ نَبَغَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ فِي مُحَاسِنِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ،
ثُمَّ فُتِقَتِ الْفِتْنُ فِي دَوْلَةِ الْعَبَّاسِيِّينَ ، وَقَدْ طَلَبُوا الْخِلَافَةَ مِنْ دُونِ الْمَلِكِ ، فَلَمْ
يَتَبَيَّأْ لَهُمْ مَجْلِسٌ بِدَوْرِهِمْ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ .

وَلَوْعُ الْمَهْدِيِّ بِمَزَاوِلَةِ الصَّيْدِ

تَجَدَّ فِيمَا أَنَا ذَاكَرُكَ عَنِ الْمَهْدِيِّ أَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى خِلَافَةِ الْأُمَّةِ أَبْهَةَ
الْمَلِكِ ، وَهِيَ أَمْرَانُ لَمْ يَجْتَمِعَا فِي خَلِيفَةٍ غَيْرِهِ ، وَرَبَّمَا التَّمَسُّ الطَّيِّبَاتِ فِي هَذِهِ
الْأَبْهَةِ وَالتَّنَاقُ فِي فَنُونِ الْمَعِيشَةِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي لَمْ يَبْلُغَهَا مُلُوكُ بَنِي أُمَيَّةٍ مِنْ
قَبْلِهِ ، فَإِذَا جَلَسَ إِلَى النَّدْمَاءِ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَتَّعَ نَفْسَهُ بِلَذَّةِ أَحَادِيثِهِمْ^(٣)
وِإِشَارَتِهِمْ دُونَ سِتَارَةٍ تَحْجُبُهُمْ عَنْ نَظَرِهِ ، وَإِذَا خَرَجَ إِلَى الصَّيْدِ رَكِبَ فِي
الْمَوَاكِبِ الْعَظِيمَةِ الْمُزَيَّنَةِ ، وَرَبَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَحَبِّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ .
وَأَنَا لَا أَعُدُّ الصَّيْدَ مِنَ الْمَلَاهِي الَّتِي تَعَابُ عَلَى الْمُلُوكِ إِلَّا مَتَى أَفْرَطُوا فِيهِ
وَكَانُوا أَقْرَبَ بِهِ إِلَى الْأَشْرَ مِنْهُمْ إِلَى الزُّهَةِ وَالرِّيَاضَةِ ، كَمَا نَعْلَمُ عَنْ صَبِيحَةِ
الْأُمَوِيِّينَ الَّذِينَ أَجْلَوْا أَهْلَ الزَّرَاعَةِ مِنْ حَوْلِهِمْ لِتَحْطِيمِهِمْ زَرْعَهُمْ فِي طَلَبِ .

(١) الْإِبْشِيهِ ١ : ١١٤ (٢) الْمَقْدَمَةُ ١٧٨ وَفِي الْبَخَارِيِّ وَشَرْحُهُ لِلْقُسْطَلَانِيِّ

(٣) السَّيُوطِيُّ

مَا يَخَالِفُ هَذَا

الصيد . وهذا بعيد عن أن يكون في المهدى (أصلحه الله) وإنما هو كـ^(١) به من غير إفراط فيه . لأنى رأيت من الأمراء من يتأتق أكثر منه في اتخاذ العدة له ، إلى أن يصنعوا نصال سهامهم من الذهب كما ورد عن بعضهم في كلام الشعراء .

ومن جوده يرمى العدة بأسهم من الذهب الإبريز صيغ نصاله لينفقها المجروح عند انقطاعه ويشترى الأكفان منها قتيلاً^(٢) . وهذه مباهاة لا ينظر إليها الخليفة من مزاولة القنص ، وإنما عني باتخاذ الصقور والبيران وتربية الكلاب التي تسبق الظليم في عدوها ، يلبسها أطواقاً من ذهب ،^(٣) ويؤكّل بكل كلب عبداً يخدمه ، كما يفعل كثير من الأمراء وأهل النعمة^(٤) في تربيتها للتحريض على الصيد . إذ كان لا ينهى الشرع عن اتخاذها إلا فيما كان لغير الصيد والحراسة . وأما البيران والصقور فانه لم يسبق إلى اتخاذها ، بل كانت معروفة عند العرب من ملوك كندة ، وقد وقف أحدهم يقانص بالحباله فانقضّ بازٍ وحمل عصفوراً وعلق وياه في الحباله ، فأخذه الملك وأتى به وهو يأكل العصفور ، ورماه في كسر البيت فرآه قد دجن ولم يبرح مكانه ، وإذا رمى إليه طعاماً أكله ، وإذا رأى طيراً طار إليه ، فاتخذ في عدة الصيد وطلب به الطير ، وصار العرب يؤدّبونه^(٥) لذلك ، ثم يؤدّبون العقبان أيضاً ، ويقولون إنها تعمل عملاً لا يدركه أكثر الصقور^(٦)

(١) ذكر حب المهدى للصيد في الأغاني ٣ : ١٥٠ وابن الاثير والاتليدى وابن عون (٢) الاتليدى (٣) ذكر الفخرى ٦٧ هذه الأطواق من الذهب (٤) الأغاني ٧١ : ٦ (٥) المسعودى ٩١ : ١ والأغاني ٤٥ : ٧ (٦) الديري ٢ : ١٥٢

وقد ركب المهدي يوماً إلى الصيد وكنت في خدمته مع الأمير عليّ ابن سليمان ابن عم أبيه وأنى دُلَامَةُ الشاعر، وكان خروجه من القصر في آخر الليل، وفي طَرَف الأفق بَشَقٌّ من الفجر، وكان يحوطه فرسان من الحرس متنكبون قسيهم، متقلدون سيوفهم، يتبعهم قطعة من الجنود، وطائفة من الغلمان قد حملوا المؤنة على الخزائن^(١) الخفيفة، وبينهم عدد من الوُصفاء في أخف كُسوة وأجل لباس، وكان مسيره محاذياً للنهر ارتياداً للخضرة التي تبجح إليها الطيور وتسرح فيها المهي والغزلان، حتى إذا انجلي النهار وقد رمى شيئاً من الطير تقدم إلى من بين يديه من الفرسان أن يضربوا حلقة في أرض مطمئنة مُمَرَّة، ثم يضيّقوها رويداً رويداً إلى أن يؤخذ الصيد بين جموعهم من كل جهة،^(٢) فلما أحاطوا بذلك الموضع وقع في حلقتهم غزال قد نفر ومراً، وكان الخليفة قد نشط للصيد وخفّ له في ذلك اليوم، فال هو وابن عمه إليه ورشقاه بالسهم فأصابه سهم في صدره، وأصاب السهم الآخر بعض الكلاب فصرعه، فلما جلسا للاستراحة حمل إليهما هذا الغزال، فوجد في صدره سهم الخليفة، فارتجل أبو دُلَامَةَ وهو يريد المزاح^(٣).

قد رمى المهدي ظيلاً شكّ بالسهم فؤاده
وعلى بن سليمان ن رمى كلباً فصاده
فهنئاهما كل امرئ يأكل زاده
وقد اتفق للمهدي في ذلك اليوم نادرة لم أَرَ أظرف منها فيما يتفق

(١) ابن الاثير ٦ : ٣٠ (٢) الفخرى ٦٥ (٣) الاغانى ٦ : ٤٧
والشريشي ٢ : ٢٦١ والعقد الفريد ٣ : ٤٤٥ .

للديوك من النوادر، وهي^(١) أنه أخذته السماء وهو منقطع عن عسكره
منتبذ من أصحابه، فركض فرسه سبل، فُروجه حتى لا يلبده المطر، فانتهى
إلى بيت أعرابي ملاح^(٢) فبادر إلى نزع ما ابتل من ثيابه وجلس بجانب
نار موقدة، ثم قال يا أخا العرب هل من قرى؟ قال عندي فضلة في
ركوة فقال له هات اسقني، فشرب قعباً وسقاه، فلما شرب قال له يا أخا
العرب أتدرى من أنا؟ قال لا والله قال أنا من خدام أمير المؤمنين الخاصة،
قال له بارك الله في موضعك، ثم شرب قدحاً وسقاه فلما شرب قال له
يا أعرابي أتدرى من أنا؟ قال زعمت أنك من خدام أمير المؤمنين، قال لا
بل أنا من قواد أمير المؤمنين، قال رحبت بلادك وطاب مرادك، ثم شرب
قدحاً وسقاه فلما شرب قال له يا أعرابي أتدرى من أنا؟ قال نعم ذكرت
أنك من قواد أمير المؤمنين، قال فليست كذلك قال فمن أنت؟ قال أنا أمير
المؤمنين فأخذ الأعرابي الركوة وأوكأها، فقال له الخليفة مالك يا شيخ؟
فقال مكانك. والله ما آمن أن أسقيك القدح الرابع قزعم أنك رسول الله.
فضحك المهدي حتى استلقى وأقبل الجند عليه. ونزل الأشراف إليه. فطار
قلب الأعرابي من الخوف، فقال له المهدي لا بأس عليك ولا خوف، ثم
أمر له بمال وكسوة. ولم يلبث أن رجع إلى الحضرة بعد انكماش ناله من
المدو السريع وتزول المطر وهبوب الريح الباردة.

(١) المسعودي ٢ : ١٩ وابن الاثير ٦ : ٣٠ والفخرى ٢١٢ والمستطرف

٣٠٦ : ٢ والشريشي ٢ : ٢٥٧ والاتليدي ٨٦ (٢) الاغانى ٣ : ١٥٠

في تئمة أخبار المهدي ورسالتى الى خراسان

نعود إلى ذكر المهدي في دولته وسياسته ، فانه لما حقق البغية بما أراد من البيعة لأولاده بقي عليه أن ينظر في أمر العلوية ، وقد بقي منهم في السجون جماعة لم يطلقهم منها فيمن أطلقه عند ما ولي الخلافة ،^(١) بل أبقاهم مع الذين عندهم تبعات من دم أو مال ، وهذا من شر ما يلاقه أهل البيت من الذين خلفوا جدهم عليه الصلاة والسلام ، ثم إنه لم يكتف بهذا الظلم حتى تعمّد مضرّتهم باستمالة جماعة من أشياعهم يطلعونه على أمورهم فيما يسرون ويعلنون ، وفيهم رجل من بني سليم يقال له يعقوب بن داود ، طوّقه أمر الوزارة ومكّنه من بيوت المال ليطلع على أمورهم ، ويعلمه بمكان الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بعد خروجه من السرداب الذي حفره إلى محبسه ذوو النخوة من رجال الشيعة ، ولكن يعقوب كان ذا عقل ورأى وفتوة ومن لا يستبدل المال بغرضه غرضاً آخر ، فبقي مبلّغ مع أهل البيت ، والمهدي وأبو عبد الله يظنان أنه على خلاف ذلك^(٢).

ولما استوثق للمهدي أمر العراق رأى أن يستميل أهل الحرمين ، فركب إلى الحج في كثير من عظماء دولته ، واتخذ من الأبهة ما لم يسبق له مثيل في الاسلام ، واستصحب معه هرون ابنه ويعقوب بن داود المقدم ذكره وجماعة من أقاربه المقربين ، واستخلف في الحضرة موسى ابنه ويزيد بن منصور الحميري خاله ، وحمل معه خمسين ألف ألف درهم ومائة

(١) في ابن الاثير ٦ : ١٥ والأغانى ٣ : ٣٩ انه عند ما ولي الخلافة أطلق

المسجونين (٢) ابن الاثير ٦ : ١٤

وخمسين ألفَ ثوب^(١) يُفَرَّقُها في أهل الحرمين ، وكان عازماً في تلك الحجة أن ينكب الإمام الحسن بن إبراهيم بن عبد الله من أولاد علي عليه السلام ، وقد علم أنه في جوار مكة ، فتقدم يعقوب بالشفاعة إليه والحيلة المباركة عليه حتى نال رضاه عنه فأطلق له الأمان^(٢) الذي كان مقبوضاً عنه وعن آل بيته في خلافة أبي جعفر .

ولما قدم إلى مكة نزع كُسوة الكعبة وطلّى جدرانها بالمسك والعنبر ثم كساها كُسوة جديدة من الحرير ، لأنه كان يخاف عليها أن تهدم لكثرة ما عليها من الديباج الذي كساها إياه هشام بن عبد الملك ، ثم أمر بإنشاء أروقة المسجد الحرام ، وحمل لها الأعمدة الرخام من البحر ،^(٣) وأتم بناءها على عناية يلتبس بها استمالة أهل الحرمين مع ما أولاهم من الاحسان ، واتخذ لهم مآذب أفرغ الوسع في زخرفتها وتنسيقها للدلالة على عظم ملكه ، حتى إنه سقاها الماء المبرّد بالثلج المحمول من الشام ،^(٤) (وكان الذي حمله إلى مكة محمد بن سليمان الهاشمي الذي تقدم في الكلام على اليصرة ذكره) وهذا من الأمور التي توسع أهل البادية تعجباً من اقتدار الملوك على الغريب ، ثم إنه رد عليهم الوظائف التي قبضت عنهم في خلافة أبيه ، وفرّق عليهم غير ما حمله من الحضرة ثلثمائة ألف دينار ثمّلت إليه من مصر ، وماتت ألف دينار من اليمن ، وغير ذلك مما جاءه من الجهات ، فبلغ المنفق في هذا الحج على كُسوة الكعبة وصلة الناس وبناء القصور بطريق مكة واتخاذ المصانع في كل منهل منها وتحديد الأميال والبرك وحفر الركاب وغير ذلك نحواً من ستة آلاف ألف دينار ، واصطفى لنفسه من الأنصار

(١) الخيس ٢ : ٣٣٠ (٢) ابن الأثير ٦ : ١٨ (٣) الخيس ٢ : ٣٠

خمسائة نفر أجرى عليهم الأرزاق الواسعة واتخذهم لمراتب السيف في العراق ، كأنه يعارض أباه في تقديم الموالي على العرب ليستبدل بجفائهم له محبتهم إياه ، واتفق أن كانت هذه السنة سنة رخص وخصب بعد جهد أصاب الناس في العام لما دهمهم الوباء^(١) الجارف ، فأحبه الناس وتبركوا به وقالوا هذا هو المهديّ ابنُ عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسميّه^(٢)

ولما عاد إلى الحضرة وقد وجد في تجواله في البلاد اختلالاً لم يأمن معه على الدولة من الفساد صرف المهمة في النظر إلى تدير الولايات ورتب أناساً يؤدون رسائله إلى العمال ويرقبون لهم في إنفاذها وسهام الأمناء^(٣) ، ووجههم في جميع الأمصار فكان لا يُنفذ كتاباً إلى عامل في أمر خطير حتى يكتب يعقوب الوزير إلى بعض الأمناء بانفاذ ذلك . ثم نظر في أمر الرعية فوضع لهم ديوان الأزيمة^(٤) وأقام على الشرطة من تبيّن فيه حسن النظر والتدبير ، فاستوثق له الملك من الوجه الذي يرومه في استمالة الناس إليه . إلا أنه تواترت عليه في منتصف هذه السنة ، والدهر له صافٍ ، رسائل من أبي عون عامله على خراسان يشكو فيها ضعف جندها واعتلال دولته وتغلب رجل أعور من مرو قد ادّعى الربوبية وأغوى خلّاق ، وقامت له في الصفد وبخارى أنصار قد عاثوا في البلاد ، واتخذوا البياض شعارهم لمخالفة السواد ، فتخوف المهديّ أمرهم وأخرج إليهم معاذ بن مسلم موعظاً إليه بأن يلتئم مع الحرشي الذي هو أمير الجيش في خراسان ، حتى إذا كان

(١) ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ١٦٠ (٢) الأغاني ٣ : ٩٤

(٣) ابن الأثير ١٦ : ٢٠ ويقول في موضع آخر أن المنصور كان يحب أن يوجد في

دولته مثل ذلك ١٠ : ٦ (٤) ابن الأثير ٦ : ٢١

على انتظار البشائر منه وصله من أبي عون أن قد وقع الخلاف بين الجيشين ، فعزم على توجيه رسول يكشف قناع الفتنة ويصلح بين الأمويين ، فوقع الخلاف بين يعقوب وأبي عبد الله فيمن يطوّقانه أمر هذه الرسالة ، فرام يعقوب أن يقلدنيها ، وأحب أبو عبد الله أن يصيرها الى أمير من آل قحطبة وكان الربيع حاجب أبي جعفر راغباً في توجيهي بها أيضاً حباً لي ، ولكنه وقعت نفرة ^(١) بينه وبين أبي عبد الله فاشتغل في معاكسته وبلوغ المكروه منه .

ثم إن المهدي وقع رأيه على أن يبعثني إلى مرو لأنظر في أمر هذا المقنع الأعور ، وجعل لي التصرف فيما أرى حلاً وعقده من خلاف القواد ، إذ يكون خير الجيش المرجو مالم تتقلب بامرائه الأغراض ، ولا سيما أن له في خراسان عدوين يتفقان جميعاً عليه . جماعة خارجي يقال له يوسف البرم ^(٢) وشيعة هذا المقنع الذين يدعون ألوهيته وقيمون دعوته على بذل الدماء . فأما جماعة البرم فلم يكن لهم وجه بالثورة إلا في أمر من السياسة ، ولذلك كانوا أقل على الدولة خطراً من رجال المقنع الذين أقاموا دعوتهم بأمر الدين وزعموا أن الله تعالى خلق آدم فتحوّل في صورته ثم في صورة نوح ثم في صورة غيره من الأنبياء حتى تحوّل في صورة هذا المقنع بعد أبي مسلم رحمه الله . وقد نقلت الأخبار السائرة أنهم يسجدون له من جميع النواحي ويزعمون أنه أراهم في السماء قرأ آخر يراه المسافرون على بعد شهرين ويستضيئون بنوره والعياذ بالله من شرور الأعمال وغلبة الرجال .

وإنما زعم هذا المقنع أن الله تعالى تحوّل قبله في صورة أبي مسلم

(١) الفخرى ٢١٦ وابن الاثير ١٩ : ١٩ (٢) ابن الاثير ١٦ : ١٦

ليسنبيل الناس إليه كما استمالهم داعيةُ الاماميةِ رحمه الله وان كان بعيداً عن اظهار دعوة أهل البيت . فكان استخدامُه الدينَ لنيل مناهِ وجهاً من السياسة ، يريد من شيوع المعجزات عنه بين العوام وهم بمكانهم من السذاجة والغفلة أن يتسارعوا إلى الانضمام اليه ، وقد رأى أن عصر موسى عليه السلام كان مقدماً بالسحر فغلب السحرة ، وعصر عيسى عليه السلام مقدماً بالطب فغلب الأطباء ، وعصر النبي صلى الله عليه وسلم مقدماً بالبلاغة ففضل البلغاء ، فرأى أن عصره مقدّم بالكيمياء فأراد أن يبهز الناس بما يستنبطه من المركبات ،

وقد فرغت من تقيد هذه الرسالة في ختام السنة الحادية والستين بعد المائة من الهجرة المشرفة وأنا على أهبة السفر إلى خراسان وسأصدر لك منها كتاباً أودعه ذكر الشيعة فيها وأخبار أممها من الفرس والديلم وغيرهم . وبالله نعتضد فيما نعتمد . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الرسالة الخامسة

طرف من أخبار المهدي والهادي

ولما^(١) وصلتُ إلى بغداد قصدت باب البرامكة لأقرأ عليهم سلامَ الفضل^(٢) أعزّه الله وأطفيء ما بنفسي من الشوق إلى الأئمة بقربهم

(١) الرسالة المكتوبة في خراسان لم تطبع والحدث هنا تابع لها موصول بها كما تراه (٢) كان في ذلك الوقت عامل خراسان من لدن الرشيد كما هو مذکور في ابن الأثير

المحبوب، إذ كانت المكاتبة بيننا طول هذه الأيام لم تردني إلا شغفاً بحاسنهم واستطلاعاً إلى حيا برأهم. ثم إني قصدت باب فقيه الإسلام وقد اتخذ المهدى (رحمه الله) قاضياً قضاء المسلمين، وصارت إليه جوائز الهادي والرشد من بعده حتى بنى لنفسه في درب أبي خلف^(١) من ناحية الكرخ الدار التي لم يبن مثلها إلا ملك أو أمير، فألفيته في مجلس حافل بالأدباء والأمراء وعليه^(٢) المبطنة والطيلسان وقلنسوة طويلة^(٣) قد حوَّطها بعمامة سوداء دعت الحاجة من خدمة العباسيين إلى اتخاذها على لون شعارهم، وهذا هو الزي الذي يروم أن يكون مخصوصاً بالفقهاء^(٤) لتمييزهم عن سائر الناس، فكان لِمَلَقَانَا موقفٌ يستبكي الجمام لفرط ما بنا من الأشواق، وصرفتُ اليوم بقيته بحضرته أجاذه أطراف الحديث، وقد نبأني بأحوال القوم في المدة التي كنت منفصلاً فيها عن دار السلام، لأن القضاة قد يرد عليهم من طرائف الأخبار^(٥) ما لا يرد على غيرهم، ولا سيما من كان بمنزلة هذا الفقيه عند الخليفة حتى إنه ليجلسه على سريره بجانبه^(٦)، ويقوم له إذا دخل عليه ولا يقلد القضاء^(٧) ببلاد العراق والشام ومصر وخراسان إلا من أشار به إليه.

ولقد ذكرت لك في رسالتي من خراسان ما اتصل بي من أخبار المهدى والهادي رحمهما الله فيما يتعلق بأمور الدولة. أما أخبارهما الخاصة

(١) محلة بغداد ذكرها ابن خلكان ١ : ٣٠ (٢) المسعودي ٢ : ٣٣٧

(٣) وجدت في العقد الفريد ٣ : ٤٣ و ٢٣١ لفظة الطويلة بمعنى القلنسوة

(٤) ابن خلكان ٢ : ٤٥٠ والأغاني ٥ : ١٠٩ (٥) الاتليدي ٧٩ (٦) الاتليدي

١٤١ (٧) الماوردي والاسحاق ٩٠

فقد حدثني بها لسانُ الشريعة علي إسماعيل لا موضع له في هذا الكتاب ،
على أن المهديّ ما برح مستمراً إلى انقضاء خلافته على ما ذكرت لك من
استمالة الناس ومقاومة أهل البدع فيما به تمزير الملة والدولة ، ولقد جرت
الشريعة في أيامه ، إلى هذا اليوم على أحسن منوال معروف لا تقطاع النظر
فيها إلى أبي يوسف من دون الخلفاء ، بحيث لم يتولّ القضاء إلا أهل العلم
ومن لا يميل به طمع النفس إلى الخروج عن جادة العدل . وقد أقرّ رجاله
في وظائفهم إلا وزيره يعقوب وقد وضح له ميله مع أهل البيت ^(١) ورفع
إليه المفسدون يبتين من الشعر أغرّوا بشاراً على قولهما ، وأطاروا ذكرهما
كل مطار .

بنى أمة هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
صاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود
فنكبه لذلك وألّقي في برعمي فيها وهو يتوسد التراب إلى أن مات في
خلافة الرشيد قبيل عودتي من خراسان .

وكانت ماثرة المهديّ في آخر أيامه وضعة البريد ^(٢) إبلاً وبغالاً في
كثير من البلاد مما استنفق أموالاً طائلة ، ولا سيما فيما بين مكة والمدينة إلى
العراق ، وهو أول من أقام البريد من الحجاز إلى الحضرة لما يروم من
تناول الأخبار ومناولة الرسائل على وجه السرعة ، إذ كان على تيقظ من
العرب في مناصرتهم لأهل البيت بالمواطن المشرفة كما كان على حذر من
أهل الشام في استظهارهم على عماله بمن يجاورهم من العرب الذين ما كانوا

(١) ابن الأثير ٦ : ٢٦ والمسعودي ٢ : ١٩٦ والفخرى ٢٢١ (٢) ابن

الأثير ٦ : ٢٦ وأبو الفداء ٢ : ١٠ والسيوطي والكنز ١٠٦

بحكم العباسيين راضين سوى نفر قليل كانوا يحملون الضيم لمخالفة السواد الأعظم من قبائلهم ، ولذلك كان يرى المهدي إمداد عماله بالرجال والعرب بالمال حيناً بعد حين ، حتى دعت له الحال إلى الشخصوص بنفسه إليهم فزار دِمَشق^(١) وبيت المقدس ،^(٢) وأخذ في إزالة الخلاف الذي كان بينهم في بادية الشام بما فرق فيهم من الأموال الجسام .

أما الهادي (رحمه الله) فانه نسج على منوال أبيه وقد رسم له بتتبع الزنادقة فمضى على ذلك وافتتح خلافته بقتلهم ووكل بهم رجلاً يقال له عبد الجبار^(٣) وهو المعروف بصاحب الزنادقة ، فاقتص أثرهم في الزوراء حتى لم يدع منهم عيناً تطرف . فما كان الزنادقة فيما أخبرني أبو يوسف إلا لزاز شراً في عقيدتهم وإن بدا للناس ظاهراً لهم من الظرافة وحسن السيرة ،^(٤) كما يشير لذلك بعض الشعراء بقوله في رجل قد اتهم بالزندقة^(٥)

لست بزنديق ولكنما أردت أن تؤسم بالظرف

فانما يتعدون مذهبهم من التكذيب بالانبياء وتعليم الناس بغض الخلفاء إلى أن يمسوا الشرع الشريف بما لا يحلله كتاب الله ، فقل للمفترين على الله إنه يُحضّرهم في يوم لا يغني عنهم شيء ولا هم يرحمون . واعلم أنه لم يَلِ الخلافة قبل الهادي في سنه ، ولكنه لم يستكمل ستاً وعشرين سنة حتى مات ، فكانت مدة ولايته سنة وشهرين إلا أياماً ، وكان ذا جبروت^(٦) وإذا ركب مشى الرجال بين يديه بالسيوف المشهّرة والأعمدة والقسيّ

(١) قضاة الشام (٢) الأغاني ٦ : ٦٧

(٣) الأغاني ٣ : ٧٢ (٤) ابن الأثير ٦ : ٣٨ (٥) الأغاني ١٧ : ٧٢

(٦) الخنيس والمسعودي والسيوطي

الموترة ، ولذلك كثر السلاح في عصره ، وأحرر منه الشيء الذي كان يحب التباهي به ، حتى قيل إنه أعطى شاعراً مدح سيفاً عنده كان لعمر بن معدى كرب يقال له الصمصامة عشرين ألف درهم على هذه الأبيات .

حاز صمصامة الزبيدي من بسين جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خيراً ما أغمضت عليه الجفون
أخضر اللون بين خديه برؤ من ذعاف تيمس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت به الذعاف القيون
فاذا ما سللته بهر الشمس ضياء فلم تكد تستبين
ما يبالي من انتضاه لحرب أشمال سطت به أم عيين
يستطير الأبصار كالقبس المشعل ما تستقر فيه العيون
وكان الفرند والجوهر الجا رى على صفحته ماء معين
نعم مخراق ذا الخليفة في الهيجاء يقضى به ونعم المعين^(١)

وقد صارت المراتب في أيامه إلى المنتشئين من البرامكة والطاهريين والمهالبة وغيرهم ممن كنت أعرفه صبياً قبل نزوحى إلى هذه الرحلة التي امتدت بى طويلاً . وكان على وزارته الربيع بن يونس حاجب أبى جعفر (غفر الله له) وعلى بيت ماله المعلى بن طريف ،^(٢) وعلى حجابته الفضل بن الربيع ، وعلى جنده آل أبى العلاء ، وقد حدثنى بأخباره معهم بعض من كان مقرباً إليه من الندمان ومنهم رجل من أهل الحجاز يقال له عيسى بن دأب ، وقد بلغ عنده من الحظوة لديه والجلوس بحضرته على المتكآت ما لم يكن يطمع به غيره في ذلك ،^(٣) فكان يصف لى أخبار مولاه بما يرفعه

(١) الحصرى (٢) الاغانى ٣: ١٥٣ (٣) المسعودى ٢: ٢٠٢

إلى مسامة العظماء من أهل الرأي والتدبير، غير أنني ما عرفت له شيئاً من هذه المحاسن وهو صبيّ ولا رأيت في دولته الزُّهاء الذي أشرق على دولة المهدي قبله ثم الرشيد من بعده، لأنه كان منهمك النفس بحب الله وولده له في فتّاء سنّه أولاد كثيرون وفيهم ولد أعمى^(١) فما سمعت. ولذلك كان الطامعون إليه من غير أهل المراتب أكثرهم أهلُ لهو وطرب. وكان أقربهم إليه مكاناً وأفضلهم عنده منزلة إبراهيم الموصليّ النديم، وهو أعمىُّ الأصل بارع في جميع فنون العلم والأدب إلا أنه غلب عليه الغناء بعد أن تخرج على جوانويه^(٢) وسياط، فبلغ من الأجادة فيه المكان الذي لم يبلغه المغنون من أهل الحجاز، ولذلك كان الهادي إليه أميلَ منه إلى سواه من الندماء، يقال إنه كان إذا استعطاه خمسين ألف درهم أعطاه مائة ألف،^(٣) وقد قال لي اسحق ابنه والله لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب^(٤).

جمال بغداد بالرشيد والبرامكة

ولما جُلْتُ في المدينة بعد طول الغيبة عنها وجدتها في سعة من العمران ما كنت أعهد لها قبل هذا الوقت، فما كفى أهلها الموسرين ما رفعوا في مدينة المنصور من المباني المشرقة حتى توسعوا إلى سكنى الجانب الشرق المعروف بالرُّصافة، فبنوا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة واتخذوا الأسواق والجوامع والحمامات،^(٥) وتوجهت عناية الرشيد والبرامكة إلى

(١) العقد الفريد ٣ : ٥٤ (٢) الأغاني ٥ : ٤ (٣) الحصري ٢ : ٢٠١

(٤) الأغاني ٥ : ٦ (٥) قال ابن حلقون نقلاً عن الخطيب إن الحمامات بلغ عددها في بغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وأمصار

تزيينها بالبنائيات العامة ، حتى أصبحت الزوراء بجانبها كأنها البلد القتيق ،
تجتمع محاسنه في جريء من محاسن المدينة التي أُخْدِثَتْ في جواره .

ولقد أكبرتُ من بغداد بلوغَ العمران فيها بما رأيت من ازدحام الناس
بأنحائها ، وتموجهم كالبحر في أرجائها ، يقال إنَّ عددهم يزيد عن ألف ألف
 وخمسمائة ألف ،^(١) وهذا جمع لم يكن مثله ولا قدرُ نصفه في مدينة من العالم
قط ، فانما يدل اجتماع الناس إلى هذا القدر العظيم على أن ليس في المدن
أيمنٌ^(٢) ولا أيسر من الموضع الذي يتكوّفون فيه تكوُّفَ الرمال . ثم
أعظمتُ بلوغَ النعيم في أهلها بما رأيتُ من توفر أرباب الغايات عندهم على
الفنون التي لا تقتصر الحاجة منها على ضروريات العمران ، وإنما تتوسع
المنفعة من صناعاتها ومصنوعاتها إلى مطالب الترف الذي يقع في الأمم عند
استكمال دولتهم واستفحال أمرهم .

وإنه يتعذر علىّ بهذا القلم الذي لامادة فيه أن أصف مفاخر المدينة^(٣)
التي أقلُّ ما تصيبه من الشرف أنها تزهو بهاء السلطان . وتضم إليها من
عيون الأعيان كثيراً حتى إذا لقي السائر جماعة منهم في الطريق لم يفتن
لهم من حيث الكثرة مع أن أقلَّهم في الثروة والجاه يتعذر على أكبر المدن أن
تحمل سكناه وتسع جنده وغاشيته والطامعين إليه من كلِّ الوجوه^(٤) فلقد

متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد
لاتساع العمران .

(١) في الاتليدي أنهم ألف ألف وخمسمائة ألف (٢) ابن الاثير ٦ : ٩٦
وأبو الفداء ٢ : ١٩ (٣) يقول الحصري أن أدباء العصر يصفون الجمال بقولهم
كان بغداد مسروقة من حسنه وظرفه (٤) الأغاني

يمشي أهل النعمة فيها بالغلان^(١) والحاشية إلى عدد يتوهمه السامع بعيداً عن الصدق، فشاهدت في محلة العتائية^(٢) أميراً قد ركب في مائة فارس وأحرق به الغلمان حتى ملثوا الطريق وسدوا على الناس سبيلهم ، إلى أن مرّ ، وشاهدت في مَشْرَع القصب^(٣) على دجلة فتى من أهل النعمة قد سار بموكب عظيم من الخيل والرّجل كأنني به قيضر على مركبه أو كسرى في جلال موكبه . وربما عدّ المحصى في ولد العباس أكثر من ألف رجل^(٤) يركبون في مثل هذا الجمع ، وكلهم في سعة من الثروة وترف من الحضارة . وإنما ساد العمران عند البغادة إلى حد الترف تشبهاً بما يرون من الرشيد في إقباله على الدنيا بطلب النعم ، حتى يَصْدُقَ المثل الذي يقول « الناس على دين المَلِك » ، فهو الذي ألبس الدنيا هذا الجمال بسعة عطائه ، ولم يُسمع عن الخلفاء من كان أسمح منه ببذل المال .^(٥) يقال إنه ينفق على طعامه في كل يوم عشرة آلاف درهم ،^(٦) وربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لونا من الطعام ،^(٧) وقد أخبرني أبو يوسف أنه لما بنى بَرْيُودَةَ بنت جعفر اتخذ وليمة لم يسبق مثلها في الاسلام ، وجعل الهبات فيها غير محصورة حتى كان يهب أواني الذهب مملوءة بالفضة ، وأواني الفضة مملوءة بالذهب ونوافج المسك وقطع العنبر ،^(٨) وبلغ جملة المنفق فيها من بيت المال خمسة وخمسين ألفاً

(١) الاغانى ٤ : ١٠٤ و ٥ : ٨٤ وابن الاثير ٥ : ١٤١ و ٢٣١ والمستطرف

١ : ٦٥ (٢) ذكرها ابن خلكان ١ : ٧٤١ (٣) ذكره ابن خلكان ١ : ٧٩

(٤) في مروج الذهب ٢ : ٢٥٩ أن المأمون أحصى ولد العباس ستة ٢٠٠ فكان

عدهم من رجال ونساء وصغير وكبير ثلاثة وثلاثين ألفاً (٥) الفخرى ٢٣٠

والخيس ٢ : ٣٣١ (٦) المسعودى ٢ : ٣٤٢ و ٢٢٠ والمستطرف ٢ : ٣٤١

(٧) السيوطى والعقد الفريد وتزيين الاسواق والمقدمة

ألف درهم، وأمر أن تُجلى زبيدة في درع من الدرّ لم يقدر أحد على تقويمه
بشئ، وزينها بالحليّ حتى لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من الجواهر،
وهذا شئ من الأسراف لم يسبق إليه أكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم^(١)
ولا صبيّة الأمويين مع ما تقلبوا فيه من المال الكثير.

ومن جمال الدنيا في هذه الأيام أن الرشيد لا ينفرد وحده بكثرة
الاتفاق والتبذير، فإنّ زبيدة زوجة تصنع أعمالاً تفوق مقدرة الملوك،
كمثل اصطناعها بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع
الأجناس، وصورة كل طائر من الذهب وأعينها من يواقيت وجواهر، يقال
إنها أنفقت عليه نحواً من ألف ألف دينار^(٢) وكمثل اتخاذه الآلة من
الذهب المرصع بالجواهر، والثوب من الوشّى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين
ألف دينار، والقباب من الفضة والأبنوس والصندل عليها الكلايب من
الذهب الملبّس بالوشى والديباج والسّمور وأنواع الحرير، وكمثل اتخاذه
شمع العنبر واصطناعها الخفّ مرصعاً بالجواهر واتخاذه الشاكرية من
الخدم مختلفون على الدواب ويذهبون في حاجاتها ورسائلها،^(٣) إلى غير
ذلك من الأمور التي تدوّن في سير الملوك لتعظيم موضعهم من السلطان.
وذكر ما تقلبوا فيه من الطيبات.

(١) وجدت في بعض الكتب أن المأمون بن الرشيد اتخذ في قصوره ثلاثة آلاف
وثمانمائة بساط منها ألف ومائتان مزركشة بالذهب وغيرها مطرز بالحرير واتخذ
سبعائة خادم منهم ثلاثمائة عبد اسود فإن صحت الرواية فليس لذكر ترف الروم ولا
الفرس موضع في جانب العظيم من ترف العباسيين (٢) المستطرف ١: ٩٨ وذكر
ان التي صنعتها هي أم المستعين (٣) المسعودي ٢: ٤٠٢

ولم أر مثل هذا الترف في غير دور الخلافة إلا عند البرامكة الأمجاد ،
 وإليهم ينتهي جمال الملوك وإشرافهم ، فإذا عزموا على الركوب جلس الناس
 لهم حتى يروهم أكثر مما يجلسون للخليفة . ولقد رأيت بعض صبيتهم
 يباب المحوّل من الجانب الغربي^(١) في موكب عظيم وقد طرّز ملبسه وبين
 يديه الجند والغلمان ، والحفد والأعوان ، وهو واضع طرفه على معرفة فرسه ،
 والناس ينظرون إليه وهو لا يلتفت إليهم كبراً وجلالة ، وكان الرشيد نفسه
 إذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية المرصعة ، والخزائن المجزّعة ، والمطارج من
 الوشي والديباج ، والجواري يرفلن في الحرير والجوهر ويستقبلنه بالروائح
 التي لا يدري ما هي لطيبها ، خيل إليه أنه في الجنة بين الجمال والجوهر
 والطيب .

وقد انتهت ترف شبابهم إلى الغاية التي لا وراء بعدها من التمتع بسعة
 النعيم ، وربما كانت مجالس الطرب في دورهم أجلّ منها في دار الرشيد وأجمع
 لمعدّات اللهو ،^(٢) لأنّ عندهم الغواني^(٣) اللواتي لا مثيل لهنّ في البلاد ولا
 سيّما فوز وفريدة^(٤) ومنة^(٥) وهنّ أظرف القيّان غناء وأحسنهن
 ضرباً بعود .

واعلم أنّ الغناء من قبل البرامكة ما كان يعلم في دور الأمراء لغير الصفر
 والسود ،^(٦) فلما نشأ أولادهم أحبوا أن يعلموه الجوارى الحسان^(٧) ليزيد
 جمالهن في الغناء تأثيراً في النفوس ، وقد أخبرني ناقد من بعض حجابهم

(١) ذكره الأغاني ٦ : ٧٨ والمسعودي ٢ : ٢٣٧ (٢) الأغاني ١٥ : ١٤١

(٣) الأغاني ١٥ : ١٤١ (٤) الأغاني ٣ : ١٨٣ (٥) الأغاني ٤ : ٨٧

(٦) الأغاني ٥ : ٩ (٧) الأغاني ٥ : ١٤ و ١٧

أنه لما زارهم الرشيد في يوم من أيام فراغه. أخرجوهن الى البستان فاصطففن مثل العساكر صفين صفين ، وغنَّينَ وضربن بالعيدان وتقرن على الدفوف إلى أن طلع الى مقاصير القصر .

ولا نعلم عن أحد من الملوك السالفة أنه نال من الطيبات ما هو موفور عند ملوكنا في هذا الزمان ، فكان بغداد قد ألفت جوانبها على مهاد الدعة ، ووجدت لأهلها أسباب النعيم والكبر^(١) بما توفر عندهم من المال .

ترف البغاددة وانغماسهم في طيبات العيش

يتوفر الترف عند العظماء من أرباب الدولة ثم ينقص شيئاً فشيئاً عند من هم أقل منهم في الجاه إلى أن يبقى منه نصيب لعامة الناس . وهم وإن لم يكونوا بموضع هؤلاء الملوك من جلالة قدر لهم واتساع نعمة عندهم أخذوا يمتعون أنفسهم من الطيبات في جميع وجوهها ، بعد أن تغربوا بالاسفار التي اكتسبتهم التجارب وأرتهم العجائب ، وأوجدت لهم التجارات والمكاسب . فصار الناس من الجهات يقصدونهم بأنجر ما عندهم من جميع الأجناس إلى أن عمّرت عندهم الأسواق ، وتطرقوا من التماس الحاجات لضرورة العمران إلى إقتناء الأشياء للزينة والمباهاة ، كابتياعهم السلاح المنزل بالذهب ، وتنافسهم في الجواهر الثمينة والآنية المزخرفة والمتاع الفاخر ، واقتنائهم العدد الكثير من الغلمان والقيان إلى غير ذلك مما كانوا يوجهون رسلهم في طلبه من الجهات ،^(٢) فلما حبل اليهم كلُّ غال ونفيس من البلاد تحقق لدى أن

(١) ذكر ابن جبير ٢١٩ الكبير من عيوب بغداد (٢) ذكره تزيين.

محاسن الدنيا قد اجتمعت في بغداد .

ولقد شهدت سوق الجوارى بُعْدَ عودتي من خراسان ، وقد أقيمت في الموضع المعروف بسوق النخاسين ، ^(١) وهم الرجال ^(٢) الذين يجلبونهم من أطراف الدنيا إلى بغداد ، فرأيت فيهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعرييات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر ذوات الألسنة العذبة والجواب الحاضر . وكان ينهن من الغانيات اللاتي يعرفن بما عليهن من اللباس الفاخر الذي لا غاية بعده ، ^(٣) وبما يتخذن من العصائب التي ينظمنها ^(٤) بالدر والجوهر ويكتبن عليها بصفائح الذهب .

ولقد يخال الناظر لأول وقوفه بهذه السوق أن يبعهن إنما هو جارٍ عليهن من قبيل الظلم والاسترقاق ، غير أنه لا يستقر في هذا الوهم الطاريء . بعد أن يرى تطارحن على أهل النعيم . ولقد سمعت أن بعض الغواني المترفات يتخلصن سرّاً من حيث لا يُحِبُّنَّ المَقام ، ثم يأتين السوق متواريات عن عيون الرقباء إلى أن يقع سوقهن على أحد من الناس ، ومواليهن بهن غير عالمين ، فيتصرف النخاسون في بيعهن مثل تصرف التجار ببضائعهم ، وإذا وقع سوقهن على رجل قبض بيده على يد النخاس كما هي العادة المألوفة في البيع والشراء . ولقد وقفت في ذلك اليوم والدلال ينادي بمن حوله من الراغبين ويصف لهم الجارية بعد الجارية بأحسن ما يكون من أوصاف الجمال ^(٥) وكانت الضوضاء مرتفعة والسوق راججة

(١) الاغانى ٩: ١٢٨ (٢) الاغانى ٥: ١٢٦ (٣) الاغانى ٢: ١٧٥
والعقد الفريد ٣: ٤٣٩ (٤) الكنز ٤٧ (٥) الاغانى وحلبة الكيت

أعود إلى ما كنت بصدده من ذكر البغادة في ترفهم المفرط فإني
رأيتهم يزینون مجالسهم بالفرش الفاخر والمتاع الثمين، ويلبسون حيطانها
بالوشى والديباج، ويعنون بغرس الأزهار في جنباتهم، حتى إنهم ليحبون
لها الرياحين^(١) من بلاد الهند، فيصير من هذه الجنان ما يقوم ثمن البستان
الواحد منها بعشرة آلاف دينار،^(٢) ويتخذون غلمانهم من أظرف الناس
وأخفهم نشاطا، ويميلون إلى اللهو والطرب بما قد ذكرت من إقبالهم
على اقتناء القيان، ويتفنون في ملاذ الطعام إلى أن يشتروا الصيد في غير
أوانه، والثمار في غير إبانها بما يزن مثله فضة، ويتمتعون بالذوق في غير
طعامهم بما يعضنون من الطيب وورق التانبول الهندي الذي يمزجونه
بالنورة المبلولة مع الفوفل لتطيب النكهة وتشبه الأكل وإحداث الطرب
والأريحية في النفس،^(٣) ويتخذون مقاعدهم في أوان الحرير المائي المتدفق
من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال التفاحات وغيرها، مما ينقشون
في الرخام فاذا ما أصابت الأجساد منها الرطوبة الوافية بترويح النفس
اتخذوا في السقوف مراوح^(٤) يعملون لها حبلا تجرها، فيجذبونها فيهب
عليهم النسيم البارد، ويستجيدون في اللباس والزينة وركوب الخيل بالديباج
والحلية الثقيلة من الفضة إلى الغاية التي لم تبلغها الأمم المترفة من قبلهم.

(١) ياقوت ١ : ٦٨٧ والمسعودي ١ : ١٨١

(٢) الاغانى ٥ : ١١٥

(٣) المسعودي ١ : ١٠١

(٤) الكشكول والاعاني ١١ : ٩٩ والعقد ٣ : ٢٣٥

دخولي على هارون الرشيد

لقد ذكرت لك عن بغداد باليسير من الكلام ما فيه دلالة على عظيم ما صارت اليه في هذه الأيام ، فاكْتُبُ الآن إليك ما يأتي به القلم عن دولة الرشيد وما يقابلني به من جميل العطف والاجسان ، فاني مضيت إلى داره في ذلك اليوم الذي وصلت فيه إلى الحضرة. فأصبحت ابن البواب جالسا في حُجرات الحجاب ، وهو الذي يخلف الفضل بن الربيع على حُجابة الخليفة ،^(١) فلما رآني أوسعني سلاما وتحيية ، ثم تجاوزني إلى قصر الرشيد وهو قصر بناه^(٢) لنفسه تجاه دار الضيافة^(٣) من دور الخلافة ، وقد استجاد فرشاه وأفرغ العناية في تجميله بأنواع الزينة ، وأقام فيه الأساطين التي يصطف بجوانبها الغلمان ،^(٤) وقد بناه على دجلة بحيث يسمع صوت الذين يعبرون في الزوارق ،^(٥) وكثيرا ما كنت إذا زرته بعد ذلك أصبته جالسا إلى الشباك يستمع غناء الملاحين في الزلاّلات ،^(٦) فلما دنوت منه بادرت إلى يده فقبلتها فضمني اليه بالتحية والسلام . وأقبل يلاطفني برقيق الكلام . وكان الرشيد طويلا عَبلَ الجسم أشقر اللحية عليه مهابة الملوك وجلالتهم ،^(٧) وعيناه وقادتان كأنهما لسانان ناطقان ، فاذا أصفى لمتحدث بين يديه حوْطه يبصره حتى لا يجد سبيلا إلى أن ينطق في حضرته بغير صدق . فلما وقفت بين يديه أمر الفرّاش^(٨) أن يأتي بما أتكىء عليه ،^(٩)

(١) الاغانى ٢٠: ٤٢ (٢) الاغانى ٥: ٣٣ (٣) قصر من قصور الخلافة ذكره الاغانى ٦: ١٣٣ (٤) الاغانى ٦: ٧٦ و ٥: ٣٣ (٥) الاغانى ٩: ٦٧ (٦) الاغانى ٣: ١٧٧ (٧) العقد والخمس والسيوطى وابن الاثير (٨) ذكره الاغانى ٩: ٦١ (٩) ابن الاثير ٦: ٣٨ والاغانى ٥: ٢٣ و ٩: ٦١

وهذا تعطف من الخليفة لا يكون الا للبرامكة وأبي يوسف وجلة المشايخ من ولد العباس . ثم أنه استدنانى ^(١) إليه وأخذ يحادثنى بما يستعذبه من أحوال صباه ، ويحفظ لى بنفسه من جميل الذكر ، وأنا أجيبه على ذلك بما تقتضيه جلالة الخلافة ، إلى أن ذكر لى حديثه عن خراسان فاخبرته عما كان هناك من الاختلال ، وأنَّ الفضل رتق الفتق الذى دبره أهلها بالمحال . وأطلق يده فيهم بالضرب والنكال . وكنت عند ما ذكرت ذلك قد بادرت إلى سيفى كما جرت العادة بالألا يكلم الخليفة أحد بما فيه الوهن إلا بادر إلى سيفه ^(٢) تعظيماً للأمر وقياماً بواجب الاجلال . فقال سبحانه الله لقد أوصينا الفضل بهم خيراً لأنهم محبون لنا ، ^(٣) وهم سيوف دعوتنا وأنصار دواتنا ، ومن لهم حق الدالة علينا وحرمة الوسيلة عندنا ، فقلت يا أمير المؤمنين إنَّ الفضل أخاك لم يمكنَّ السيف فى رقابهم إلا بموافقة القواد الذين إذا ما شاورهم فى الأمر وقع بالموافقة من نفوسهم مقاتلة خوارج قد تراخت بهم الحال . وصارت فتنهم إلى سوء المآل . فلما ذكرت له ذلك أعرض عن الافاضة فى هذا الحديث ، وأخذ ينكت الأرض بشيء فى يده ، ثم قال وهذه مصلحة التجارة فما الذى يكتب إلينا الفضل عن لزوم حراستها بالجند ؟ فقلت له إنَّ فى خراسان تجارة تباع بأبخس الأثمان فاذا أمن السابلة الأعراب جلبوا خيراتها إلى العراق وأتجروا بها مع أمم البحر ، فقال حسن ولكن لنا أعداء ينبغى أن نكون منهم على حذر ولا نرفع عنهم سيف الاسلام ، ونحن ساهرون عليهم ومرقبون لهم بالجند إذ لا بد للراعى من حراسة

(١) الاغانى ٥ : ١٠٦ (٢) الاغانى ٥ : ٥٩ (٣) العقد الفريد وابن

الرعية، ^(١) ولقد يكفي التجار ما أمنا لهم من السبل في غير الديار العران، وما احتفرونا لركبهم من الركايا، وأوجدنا لهم من المناهل في البلدان العامرة التي نحب أن تكون سوق التجارة فيها دارّة، وأما تجار خراسان وما أليها من البلدان النائية فانا لا نحسب زكاة أموالهم كافية لمصلحة الجند ووافية بأرزاقهم.

وكان الرشيد على مهمة هذه المفاوضات عنده يقطع حديثه مرة بعد مرة، ثم يقبل على نفسه بالتأمل والفكرة. فأوهمت أنه يرى فيها مسألة تتقبض نفسه دون بسطها إلىء فاذا الأمر على خلاف ذلك، وإنما كان مشغول الخاطر بما أقلق أباه قبله من أمر الولد وإثار بعضهم على بعض بالخلافة ^(٢) فاتفق وأنا بالخلوة معه أن دخل عليه خادمه العبد ففترسه الرشيد وقال له ما وراءك يا مسرور؟ فقال ما تحب يا أمير المؤمنين. ثم قام مقامه الذي كان إذا قامه علم الرشيد أنه يريد أن يساره بشيء، ^(٣) فأوماً إليه بالدنو فالتقى في أذنه كلاماً ثم تنحى، فقال لي الرشيد هذا خادمنا الأمين نرتاح إليه في الأسرار والمهمات، لم يحدثنا جهراً بحضورك ولكنه سارّنا في أمر مما أخذنا من تقديم المأمون على الأمين بالولاية، لأننا نرضى سيرته ونأمن ضعفه، ^(٤) ونعرف فيه حزم المنصور ^(٥) ونسك المهدي وعزة نفس الهادي، مع أن بني هاشم يميلون إلى الأمين وأنشد. ^(٦)

أخاف التواء الأمر بعد استوائه وأن ينقض الحبل الذي كان أبرما

(١) قالها الرشيد وذكرها الطواط ١٠١ (٢) ابن الاثير ٦ : ٥٨

(٣) الأغاني ٥ : ٣٣ (٤) المسعودي ٢ : ١٥ والمستطرف ١ : ٩٣

(٥) الأغاني ١٧ : ٨٠ (٦) الحصري ٢ : ٤٩ والمستطرف ١ : ٩٣

فلما رأيت بلوغ القلق في نفسه من هذا الأمر تقدمت إليه فيما تقدم به يحيى إلى أبيه ، ^(١) والفضلُ إليه ^(٢) من مبايعة الولد بعد الآخر ، مع علمي بأن ذلك أمر لا يجري فيه الوفاق ولا يتم على الوجه الذي يريد الرشيد بعد مارأينا من العباسيين تطاولهم في أمر الخلافة وتقضهم العهود التي كانوا يكتبونها على أنفسهم في حدود الله والآدميين . فهذا أبو جعفر ^(٣) لما رسخت دولته ، ومضت في الناس كلمته ، لم يجد من نفسه رادعاً نخلع ابن عمه من الولاية وصيرها إلى المهدي من بعده ، فلما ولي المهدي بحيلة الربيع ، وأخذ في استمالة الناس بما فرق فيهم من المال لم يجد منهم عند اظهاره أغراضه فيهم إلا المتابع له والموافق على خلع ابن عمه كما علمت . ثم لما صارت الخلافة إلى الهادي وفي أعناق المسلمين المبايعة للرشيد بعده أراد أن يخلعه ^(٤) عنها ويصيرها إلى جعفر من أولاده لولا ما أجراه يحيى رعاه الله من الدراية والحيلة المباركة كما علمت بعد الأوبة من خراسان . وإنما كان المأمون أحق بالولاية من الأمين لأنه أكبر منه بأيام وإن لم تكن أمه هاشمية مثله ، فلو صارت الخلافة إلى من هو أصغر منه وهو حاضر لم يصبر على ذلك ، فكان يخشى الرشيد من تقديم الأمين عليه بالولاية وقوع الفتنة بينهما وزوال الخلافة عنهما جميعاً إلى الواقفين لها من أهل البيت ، أو إلى من كان أقرب الهاشميين إلى استخلاف أبي العباس ، فان عم عم الرشيد إلى ثلاثة أعمام حاضرون فعبد الصمد بن علي عم

(١) المسعودي ٢: ٢١٥ (٢) الأغاني ١٧: ٧٨ وابن الأثير ٦: ٤٣

(٣) ابن الأثير ٦: ٥٨ وأبو الفداء ٢: ١١ (٤) ابن الأثير ٦: ٥٨

العباس بن محمد والعباس عم سليمان بن المنصور وسليمان عم هرون^(١) فهو لاء هم المرتقبون للخلافة والواقفون لها بالمرصاد ، فلا يسع الرشيد مخالفتهم في تقديم المأمون على الأمين ، وإنما يرجع إلى الرأي الذي تقدمت به إليه فتطمئن نفسه من بقاء الخلافة في بيته ، ومصيرها إلى من يحب^(٢) من أولاده .

الموازنة بين الرشيد وأبي جعفر

هذا فصل أفردته لذكر سياسة الرشيد وبيان الموازنة بينه وبين أبي جعفر^(٣) إن صحت المقابلة بينهما ، فإني لم أجده في الملوك من جمع فنون السياسة إلى عقل الملوك وفضلهم^(٤) وحكمتهم ودهائهم مثله ، تجتمع محامده في قربه من الخير وبعده عن البغي الذي كان طبيعة في أبي جعفر وبعض العباسيين ، حتى إذا صار إليه الأمر كان أول ما أصدر من الأمر أن تعاد إلى الناس الضياع التي اغتصبها آباؤه وترد الأموال المنصوبة إلى أهلها في جميع النواحي والأمصار ،^(٥) فلو لم يكن له من المآثر غير هذا لكفى الناس فرجاً ورحمة واسعة ، بعد ما شملهم من المكروه في خلافة أبي جعفر وما استمر عليه المهدي من حفظ الضياع المقبوضة عنهم ، إماً لطمع في استغلالها ، وإما استصواباً لسياسة أبيه حتى لا يقال عنه إنه ظلم العباد في أموالهم .

ثم يصح تفضيل الرشيد على أبي جعفر بما هو آخذ في سياسته من

(١) العقد الفريد ٣ : ٥٤ (٢) وهو المأمون عبد الله (٣) أجمع

المؤرخون على أن الرشيد كان يقتفى سيرة جده في السياسة ويطلب العمل بآثاره

(٤) الفخرى ٢٣٣ (٥) الماوردي ١٥٦

الصدق وحفظ المودة ومكافأة المحسنين على إحسانهم ، حتى إنه ليزيد عماله
تَجَلَّةً كلما عظم قدرهم واستفحل في الاسلام ملكهم ، فهذا رَوْحٌ من أمراء
آل المهلب ، لما عظم في الدولة أمره ، ودانت الرقاب المتطاولة له ، أفرغ
النعمة الواسعة عليه ، وجعل الولاية من بعده إرثاً في ولده ، وكذلك إبراهيم
من أمراء الأغالبة ، لما تمكن سلطانه من أهل المغرب أمره على إفريقية إلى
أطراف الثغور ، وجعل له الولاية في بيته ليكون ممتنعاً على العدو وكفيلاً
برد الفرَنجة إلى ما وراء البحر . وهذا أمر يدل على الحكمة التي فيها مصلحة
الملة وإن كان وراءه من استقواء الأغالبة خوفٌ ما كان ليصبر على مثله
أبو جعفر مع ما عرفت له من التيقظ وسوء الظن بالعمال ، فإن كان المنصور
يحتال للامر حتى لا يقع فيه ، فإن الرشيد يحتال لما يقع في يومه من الأمور
على وجه يكون فيه توطيد الدولة وتعزيز الاسلام .

ولقد سمعت من يقول في مجلس المُرَاوَةِ إن الرشيد يقتنى سيرة جده
في السياسة ، وذلك مردود عندي من حيث امتناع المماثلة بين الحلم والظلم ،
وإلا فإن كان الرشيد يُمِضِي بالعدل أحكامه ليستميل الناس بالاحسان إليهم
حتى لا ينصرفوا عن طاعته ، كما كان أبو جعفر يأخذهم بالعسف حتى
لا يستطيعوا مغالبتَه ، فما الغاية المقصودة من سياستهما إلا واحدة غير أن
سياسة الحلم خيز من سياسة القتل والظلم ، إذ يكون لصاحبها من دالة الرعية
غِبْطَةٌ يُحَرِّمُهَا البغاة الذين في نفوسهم مرض من الظلم ، إذ يحجبهم عن
رعيتهم سِتْرُ الخوف ، ثم يقتلهم استنكاراً من حولهم من الناس والأشياء ،
كما تقدم في الكلام على أبي جعفر .

أمّا سياسة الرشيد مع أهل البيت فيُظَنُّ فيها خروج عن العدل لاستمراره

على هضم حقوق الذرية ، وإن لم تكن مُجَرَّاةً على ما رسم أبو جعفر من
تتبعهم في كلِّ الوجوه فانما كانت تختلف عنها بما تختلف فيه السياسة بين
اللين والعنف . واقد كنت أسير الرشيد في بعض الأيام فقال لي بلغني أن
العامّة يظنون بي بغض عليّ بن أبي طالب فوالله وتربة أمير المؤمنين أبي
إني ما أحب أحداً حبي له ، ولكنّ هؤلاء (يريد آله) أشد الناس بغضاً
لنا ، وسعيّاً في فساد دولتنا ، بعد أخذنا بثارهم من بني أمية ومساهمتنا إياهم
ما حوينا ، حتى إنهم أميل إلى بني أمية اليوم منهم إلينا فكنت في ذلك
الوقت بعيداً عن الوثوق بصحة هذا الإيهام ، ولكنّ ظهر لي بعد ذلك أنّه
لا يروم إقصاءهم إلّا على غير مكروه يُصيبهم ، وأنه لو قدر أن يرفع عنهم
الضيم الذي يلحقهم من جور العباسيين ، وهو موقن ببقاء الخلافة في يده
من غير منازع له فيها ، لفعل وطاب بذلك نفساً ، فلقد علمت أن المكروه
الذي ألمّ يحيى بن عبد الله بن الحسن إنما كان بسعاية أقاربه من العباسيين
الذين لم يسعهم مخالفتهم ، وهو بموقف يخاف منه الفتنة ، وكذلك مقتل موسى
ابن جعفر الأمام لم يقع من نفسه برضاه ، لأنه لم يكن مُتَمَمّاً في بدعة ولا
ظنينّاً على دِخْلَةٍ مكروهة ، ولما قتلوه في حبسه أظهروا أنه مات حتف
أنفه ، ومشى الرشيد في جنازته إلى باب التبن حيث مقابر قريش فويق نهر
عيسى الهاشمي ، فكنت أحيط به في ذلك اليوم مع البرامكة فسمعتَه يترحم
عليه ، ويظهر براءته من دمه ، غير أن تفاضيه عن هذه المؤامرة ، وإنّ هو
لم يدخل فيها غررٌ يُسأل عنه يوم الحساب ، لأنه يجب على خلفاء النبي
صلى الله عليه وسلم أن يتبعوا سنته التي هي العدل ، ولا يتساهلوا في قتل
الأبرار الذين هم ذريته الصالحة وسلالته الشريفة ، رضى الله عنهم أجمعين .

هذا ما صحت فيه الموازنة بين سياسة الرشيد وأبي جعفر إلى الغاية التي يرجونها جميعاً من تأييد الدولة بها ، وإن لم تتوافق إليها السبل ، وقد وجدت للرشيد أعزه الله فضلاً في تدبير المملكة أحق بالثناء الجزيل . وأبقى للذكر الجليل مما رأيناه لأبي جعفر (غفر الله له) بما ينال الرشيد من المشقة في ركوبه إلى أطراف المملكة لتفقد ثغورها ، والنظر في تظلم الناس من ثقل يقع عليهم في الخراج ، أو ضيم يلحقهم من جور العمال . فاذا صار إلى البلدان العالية مما وراء خراسان حيث لا يُعرفُ اللسان العربي أخذ التراجمة ^(١) معه حتى لا يفوته شيء من أمر الرعية ، فهو يحج سنة وينزو سنة ، كذلك عادته من يوم ولي الخلافة ^(٢) قال الشاعر يمدحه على بعد هذه المهمة منه ^(٣)

فمن يطلب لقاءك أو يُرِدهُ ففي الحرمين أو أقصى الثغور
وقال الآخر ^(٤)

ألف الحجَّ والجهادَ فما ينفكُّ عن غزوتين في كل عام
وربما رام في أسفاره أو بالزَّوراء أن يعرف ما يدور بين الناس من
الأحاديث والأخبار فيتخفى في زِيِّ التجار ، ^(٥) ويطوف الأسواق مع جعفر
وزيره ومسرور خادمه لاستطلاع ما لا يصل إليه خبره من أمر السوق
والعوام ، فنجم عن عنايته بهذا الأمر كثير من الفوائد التي صلحت

(١) المقرئى ١ : ٨ (٢) هو أمر معروف تجده في كتب المؤرخين وزاد في العقد الفريد على ذكر حجه ماشياً أنه لما مشى إلى مكة ومشى معه زيدة كانت تبسط الدرانك أمامهما وتطوى خلفهما (٣) أبو الفرج والخميس ٢ : ٣٣١ (٤) فوات الوفيات ٢ : ٣٩١ (٥) الاغانى ٦ : ١٣٧ والاتليدى ١٢٦ والاسحقى ٩١

بها دولته ورعيته جميعاً ، فقد قال جعفر (أعزه الله) إننا ما ضبطنا بغداد
بالشرطة ولا عُنِينَا بتقدير الأوزان وتمييز المغشوش من السُّكَّةِ إلَّا
وجدنا من الاختلال في تطوافنا بين الناس .

البرامكة نُكْتة محاسن الملة وعنوان دولتها

وهذه السياسة التي يباشرها الرشيد إنما هي بإشارة البرامكة الذين رفعوا
منار الاسلام^(١) بصلاح مشورتهم إليه في أمور الخلافة ، ولذلك صيّر إليهم
النيابة في الدولة^(٢) والنظر في ديوان الحسبان والترسيل لصون أسرار الدولة ،
وحفظ اللسان في بلاغتهم بعد أن فسد عند الجمهور من أهل الأنصار
بعض الفساد ،^(٣) فصار جعفر يُسمَّى بالسلطان إشارة إلى عموم نظره في
عموم الخلافة ، لأن الخطط كلها بيده إلَّا الحِجَابَة لم تكن له لاستنكافه
عنها ، لأن صاحبها يقف بالوفود عند الحدود في تحياتهم وخطبهم والآداب
التي تلزم بين يدي أمير المؤمنين ،^(٤) وذلك مما يُنزّه نفسه عنه ، وهو بالموضع
الذي علمت من جلالة القدر والقيام بسياسة الدولة .

ولقد كان يحيى أعزه الله قائماً بأوْدِ الوزارة من قبل ، وهو الذي قلّد الرشيد
الخلافة بحكمته ودرايته^(٥) حتى إذا استوثق له الأمر قال له أنت أجلسني
في هذا المجلس يمينك وبركتك ، وقد قلّدتني الأمر يا أبت ، ثم دفع إليه
خاتمته وقلّده أمر الرعية بأن يحكم بما يرى ، ويعزل من يرى ، ويستعمل على

(١) العقد الفريد ٣: ٢٧ (٢) المقدمة ٢٠٧ (٣) المقدمة ويتضح ذلك
من كتب الذين دونوا اللغة في أيام الرشيد (٤) المقدمة ٢٠٧ (٥) ابن الاثير
والفخرى والطبرى

الولاية على من يرى ، وفي ذلك يقول إبراهيم الموصلي النديم^(١)
 ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هرون أشرق نورها
 تلبست الدنيا جمالا بملكه فهرون واليها ويحيى وزيرها
 فكانت سياسة هذا الشيخ المبارك منصرفة إلى تقويم الدولة في المشرق
 حباً في الرشيد أن تعظم في الاسلام صولته ، على حين لا يحرم أهل البيت
 قيام ملكهم فيما وراء البحر ، مع ما يكون في ذلك من حقن الدماء الطاهرة ،
 وسلوك السنن الشريفة ، فانتج له حسن نظره أن يطوّق أمر الجند إلى غير
 العرب ، الذين لا يقدرّون بنفوسهم على كبح عنان الثأرين من أخوانهم بما
 يكون بينهم من القرابة والدالة ، فلقى دون بلوغ غرضه من هذا الأمر
 صعوبة كادت تُفضي إلى الفتنة ، بما وقع من الضغائن بينه وبين يزيد بن
 مزيد^(٢) وغيره من أمراء الجيش ، إلا أن الرشيد كان على موافقته^(٣) فيما
 يرى فيه مصلحته ، فاذا فتح الناس عليه باب الفرقة أرسل إليهم الفضل أو
 هرثمة بن أعين^(٤) فجبرا الوهي في أقل من طرفة عين .

ثم استقال يحيى من الوزارة بعد أن أدركه الشيب ، فقوضها الرشيد
 إلى الفضل ثم إلى جعفر^(٥) بعده ، وعهد بالمراتب إلى إخوته وأقاربهم^(٦) ،
 وهم بمكان من الفطانة^(٧) التي توارثوها مع المجد طرافاً وتلاداً ، فقاموا بأوْدِ

(١) المسعودي ٢: ٢٠٧ وابن الاثير ٦: ٣٩ والأعاني ٥: ٤١ والمستطرف

٢: ٩٧ والاتليدي ٩١ والمحاضرة ٢: ١١٤ والسيوطي وابن خلدون (٢) ابن

الاثير ٦: ٥١ يذكر انحراف بني شيان عن البرامكة كما مر (٣) المقدمة ١٥٩

(٤) راجع كتب المؤرخين (٥) و (٦) المقدمة والعقد الفريد (٧) ابن

خلكان ٢: ٣٦١

الوزارة وجمعوا إليهم مراتب السيف والقلم ، يقول سلم الخاسر^(١) في شرف الدولة بحاسن عقولهم .

إذا ما البرمكي غدا ابنَ عشر فہمتہ أميرٌ أو وزير
إلا أنه كان منتهى نظرهم في السياسة^(٢) إلى جعفر ، هذا السلطان ،
وهو حاضر الروية ، مؤيد البديهة ، جامع لخصال الخير ، مؤتمن على الأسرار
بارع في مهمات الأمور ، وليس في أهل الأدب من هو أذكي^(٣) ولا أفطن
ولا أعلم بكل شيء ولا أفصح لساناً ولا أبلغ في مكاتبة منه ،^(٤) خلق
جميل ، وأصل نبيل ، وعلم جزيل ، وكان الرشيد يقدمه على الفضل بما
يسرع في استنباط الحيلة لتدير ما يطرأ على المملكة من المهمات الصعاب ،
كما يقول فيه الشاعر .

وزير إذا ناب الخلافة حادث أشار بما عنه الخلافة تصدر
ووجدت في نفس الرشيد من الميل إليه بحيث إنه لم يكن له صبر على
مفارقتها في ساعة من نهار أو ليل ،^(٥) وإذا دخل أجلسه على سرير الخلافة
بجانبه وأجلس بني هاشم على الكراسي والوسائد^(٦) دونه ، وربما قدمه في
المشورة على أحب أهل بيته إليه ، حتى إنه لا يعهد إليهم بولاية ولا يضلهم
بمال إلا برأيه ورضاه ، وقد وقع لعبد الملك بن صالح من كبراء بني هاشم^(٧)

(١) المحاضرة ٢ : ١١٤ (٢) العقد ٣ : ٢٧ (٣) الطواط ٢٤٩ وابن
خلكان (٤) الاغانى ٤ : ٨٥ والحصرى ١ : ٣٧٥ والعقد ١ : ٣٧٢
(٥) الاتليدى (٦) ذكر الوسائد يجلس عليها بنو هاشم بمجلس الخليفة
الاجانى ٤ : ٩٢ (٧) هو من القواد الذين غزوا الروم وقد عقد الفداء مع تقفور
في اللامس على جانب البحر على اثني عشر فرسخاً من طرسوس واسترجع من أسرى
المسلمين ثلاثة آلاف وسبعمائة . ابن الأثير ٦ : ٥٧

أن الرشيد غضب عليه فقصد باب البرامكة ، فقال له جعفر أنت تقصدني
فهل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فاقضيها لك ؟ فقال عبد الملك
نعم . إن في قلب أمير المؤمنين على مَوْجِدَةً أحب أن تخرجها من قلبه
وتعيد إليه جميل رأيه في ، فقال له جعفر قد رضى عنك أمير المؤمنين ،
وزال ما عنده منك ، قال عبد الملك وعلى أربعون ألف دينار ديننا ، قال
هي لك حاضرة من مال أمير المؤمنين لأنني أجلُّ قدرَكَ عن أن يصلحك
بالمال غيره ، قال وابن إبراهيم تخاطبه فيه حتى يرفع الألوية على رأسه ،
قال لتطب نفسك ، إن الرشيد قد ولّاه مصر أو قال ماشئت من البلدان .
فانصرف عبد الملك وهو يتردد بين العجب من جعفر والاعجاب به ، حتى
إذا كان الغد دعاه الرشيد وأمر له بأربعين ألف دينار ، وكتب سِجلاً ابنه
على مصر^(١) . فهذا أمر يدلُّ على مكانة جعفر عند الرشيد وما له من
المائة المريعة والشفاعة المقبولة عنده ، بحيث إنه يضمن عنه ضمانات لا
يجد بداً من وفائها ، كما يدلُّ أن مشاركته في الملك لا تقف على حدّ
السياسة فيما يبيده له من رأى جميل أو تدبير حسن ، وإنما يتناولها في
أكثر الأحيان بما ينهما من الدالة التي ليس مثلها بين الإخوان ،^(٢) فما
أذكر أني رأيت الرشيد في مجلس يطيب له نفساً بغير محضره ،^(٣) بل كثيراً
ما رأيتهما يتبادلان لباس الحلة الواحدة ،^(٤) ويجلسان معاً . على محبة
ومصافاة خلّان .

(١) الاغانى ٥ : ١١٩ والفخرى والابشهى ٢ : ١٩٢ والعقد الفريد ٣ : ٣٤

والاتليدى ١٦١ وابن خلكان ١ : ١٥٢ (٢) الحصرى ٢ : ١٠٢

(٣) الاتليدى ١٦٩ (٤) الاغانى والاتليدى وابن خلكان وابن خلدون

وإن كان ليحيى فضل في تقويم هذه الدولة فإن لجعفر فضلاً في تدير مملكتها أتم وأجمل في عين الرشيد، وقد أغناه بنفاذ سلطانه في المشرق عن أن يطمع في الاستيلاء على بلاد المغرب، ثم يبيت على خطر الفتنة التي لا يأمن إن حدثت أن تبقى الخلافة في يده، فلم يكن بُدَّ لصالح أمره من سلوك السبيل الذي مهدّه له جعفر لثم له الفائدة التي رامها أبوه في تقويم الدولة وبلوغ غرضه منها في المشرق، فوقفت مصلحة الدولة والإسلام جميعاً على أن يتبع الرشيد هذه الخطة التي كان ليحيى فيها الفضل السابق والمقدم، ولجعفر من بعده الفضل اللاحق والمتمم.

ولقد شملت عناية جعفر خطط الدولة كلها بين مراتب سيف وقلم. إلا أنه كان إلى تدير المملكة وتنظيم الدواوين ^(١) أشد منه عناية وأقرب من نفسه ميلاً إلى النظر في مصلحة الجند وهم الفرسان الذين لم ير لهم مع ما هو مطبوع فيهم من نخوة الجهاد، التي لا يطيق الأعاجم مناجزتها فيهم، إلا أن يصرف إليهم أرزاقهم في إبتائهم ويرضيهم بسعة العطاء من غير مال الخليفة ^(٢) بما يقتصد فيه من نفقات الدولة. وأما مآثره في تدير المملكة فإنها تتناول ضبط الأموال وترتيب ديوان الأعمال والجبايات ^(٣) على غير مارسم أبو عبد الله في كتابه ^(٤) على الخراج، وإنما اقتصد من النفقة قدرًا أبقاه للزيادة في أرزاق الجند. وأقام على السجلات قومًا مهرة في الحساب، ^(٥) ليجد الموازنة بين ما يدخل بيت المال وما يخرج منه، ويجعل لهذا

(١) إنما دون العرب الدواوين عملاً بطريقة الفرس من قبلهم. ولفظة الديوان فارسية كما هو معروف (٢) ذكر المسعودي ١: ٨٢ أن الخليفة يعطى الجند من بيت ماله (٣) المقدمة ٢١٢. (٤) ذكر الفخرى هذا الكتاب ٦١٦. (٥) المقدمة

الديوان شعباً ترجع مصالحها إليه ، كديوان الخراج وديوان الضياع والنفقات ^(١) وغير ذلك ، وأحب أن تُحفظ دقاتر الخليفة للمراجعة ^(٢) لينظر فيما يتصرف فيه بموازته للدخل الذي دُون في سجلات الديوان .

ثم توسعت عنايته من الاهتمام بمصالح الدولة إلى النظر في أمر الرعية والرفق بهم وإدخال الراحة عليهم ، وصحَّ عنده مساواة الناس بالأحكام التي لا تفرق بين المسلم وغير المسلم ^(٣) إلا فيما هو مأخوذ على أهل الذمة من العهود المحفوظة ، وأقام رجال العدالة في جميع البلدان لكتابة العقود على روابط الشرع ^(٤) ليكون في ذلك حفظ حقوق الأمة وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم من الكفالة ونحوها ، ^(٥) وأمرهم بأن يجلسوا في الدكاكين والمصاطب ليسهل وصول الناس إليهم ، فتجرى معاملاتهم على متن العدل الذي يروم أن يشملوا به نفوسهم كما تشملهم به الدولة ، فكان (أعزه الله) يقول ^(٦) الخراج عمود الملك ما استغزر بمثل العدل وما استنزر بمثل الظلم

ثم إنه نظر في صلاح الزوراء ودرس فيها العيون بأمره عبد الله بن مالك صاحب الشرطة ^(٧) للآفة الخلل الذي يطرأ عليها من وفود الأغراب واختلاطهم ، ^(٨) وأقام العسس ^(٩) بالليل لحراسة الدروب ^(١٠) إلى أن وقع الأمن في أحيائها ، وخيم السلام على أرباضها ، وذلك يندر أن يكون في مدن الأعاجم ومحاشد مللهم ، فلقد ينمي إلينا عن قاعدة الزوم أن المكروه

(١) الأغاني ٩ : ٢١ و ٢٦ (٢) ذكر الأغاني هذه الدقاتر ١٤ : ١١٤

(٣) الماوردى ٣٩٣ (٤) العقد الفريد ٢ : ٢١١ (٥) المقدمة ١٩٦

(٦) العقد الفريد ١ : ١٣ (٧) ذكره الأغاني ١٧ : ٤٦ و الماوردى

٢ : ٢١٣ (٨) ابن خردادبة ١١٦ (٩) الأغاني ٢ : ١٥٧ (١٠) الأغاني

٧ : ١٩ والمستطرف ٢ : ١٨٦ (١٠) المقدمة ١٩٤

نازل بها كل يوم لا محالة ، مع أنها مُحْتَشَدُ النصرانية ومبَاءة الملوك الذين حازوا معظم الدنيا فيما سبق لهم من زمن العز والصولة . ونحن لا نريد بذلك أن الروم قوم جهلة لانظام ملكهم ، مع أنهم حَمَلَةُ العلم المتقلبون في مهاد العمران على سَعَةِ واستقامة من الملك ، غير أن الترف قد غلب على عامتهم حتى لا سبيل إلى ردعهم عن معاقرة الحُرِّ وكبح عنانهم عن ركوب الأهواء^(١)

ولما وضع الرشيد فضل هذا السلطان فيما أصلح به الملة والدولة جميعاً بلغت منه الثقة به إلى أن يُطَوِّقَه السلطة التي تقارن سلطته ويشترك فيها معه ، فقوَّض إليه القضاء بمجلس المظالم ، وهو القضاء الذي كان يباشره الخلفاء^(٢) من الأمويين بنفوسهم ، ثم المهديُّ من بعدهم كما رأيتَ في موضعه من الكتاب ، فصار جعفر يجلس^(٣) بجانب الرشيد على سريره ويشاركه في توقيعه على القِصَص التي يرفعها الناس إليه ولكن بالعبارة التي يتنافس^(٤) في بلاغتها العلماء .^(٥) فمن بعض ما حفظت له من هذه التوقيعات التي جرت مجرى الأمثال توقيعه في قصة رجل شكاه بعض عماله إليه « قد كثر شاكوك . وقل شاكروك . فاما عدلت وأما اعتزلت . »^(٦) وتوقيعه في قصة قوم قطعوا الطريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله » الآية^(٧) ووقع إلى بعض عماله « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك

(١) وكان هذا من أسباب التواني في دولتهم (٢) أبو الفداء ١١: ٢ وابن الأثير ٢٩: ٦ وأبو الفرج والسيوطي والفخرى ٢١٢ والماوردي (٣) الأغاني ٤: ١٦٢ (٤) الكنز ٩٤ (٥) ابن خلكان ١: ١٤٧ والمقدمة ٢٠٧ (٦) ابن خلكان ١: ١٤٧ (٧) العقد الفريد ٢: ٢٣٣

عندنا « ووقع في قصة مجبوس « العدل أوقعه والتوبة تُطْلِقُه »^(١) ووقع في قصة متظلم « طِبْ نَفْسًا فَكُنْ بِاللَّهِ لِلْمَظْلُومِ نَاصِرًا » ووقع لرجل اعتذر عنده من ذنب « قَدْ قَدَّمْتَ طَاعَتَكَ وَظَهَرْتَ نَصِيحَتَكَ وَلَا تَغْلِبْ سَيِّئَةً حَسَنَتَيْنِ » ووقع وقد قرأ كتاباً فاستحسن خطه « الْخَطُ خِيَطُ الْحِكْمَةِ يُنْظَمُ فِيهِ مَشُورُهَا . وَيُفَصَّلُ فِيهَا شُذُورُهَا » ووقع في قصة مُتَنَصِّحٍ « بَعْضُ الصَّدَقِ قَبِيحٌ » ووقع في قصة رجل تظلم من بعض عماله « أَنَا لِمِثْلِهِ حَتَّى يُنْصِفَكَ »^(٢) ووقع في قصة قوم شكوا سوء جوار بعض قرابتهم « يَرْحَلُ عَنْكُمْ » ووقع إلى بعض عماله « أَنْصِفْ مَنْ وَلَّيْتَ أَمْرَهُ وَإِلَّا أَنْصَفَهُ مِنْكَ مَنْ وَلَّى أَمْرَكَ »^(٣) ووقع في قصة رجل قد استأذنه في الحج « مَنْ سَافَرَ إِلَى اللَّهِ نَجَحَ » إلى غير ذلك من التوقيعات التي يتداولها الأدباء^(٤) إلى أن تبلغ القصة الموقع عليها عشرين درهماً ثمناً^(٥) في أيدي الناس . وهذا ما أكتفى بذكره من ما أثر هذا السلطان الذي ليس له ند في الرجال ، وقد فضل الملوك قاطبة بالعلم والعقل والسياسة ،^(٦) وزاد الرشيد عزّة ومنعة على نحو لم نره قديماً في دول الخلفاء فتولّى الله مكافأته عن المسلمين والاسلام بما هو واسع له من الجميل ، وجعل المجد لائذاً بجانبه والسعادة حافة يبابه . آمين

(١) العقد الفريد ٢ : ٢٣٢ (٢) العقد الفريد ٢٣٣ (٣) الطواط ٣٥ (٤) السيوطي (٥) المقدمة ٢٥ (٦) أعلام الناس وابن خلكان

صلاح التجارة والمعاملة

أُخْرِجُ بِكَ قَلِيلًا عَنْ مَوْضُوعِ السِّيَاسَةِ إِلَى بَيَانِ الْمَعَامِلَةِ الرَّائِجَةِ بَيْنَ النَّاسِ بِقَدْرِ مَا يَسْمَحُ لِي الْمَقَامُ ، فَانَّهُ لَمَّا تَوَفَّرَتْ فِي أَيْدِيهِمُ الْأَمْوَالُ بِمَا كَسَبُوا مِنَ الْفَتْوحِ الْعَظَامِ ، وَقَدْ نَزَلُوا الْأَمْصَارَ الَّتِي كَانَتْ مُسْتَوْدَعَةً الدَّعَةِ عِنْدَنَا وَمُسْتَقَرًّا مَلَاذَ الرُّومِ فِيمَا مَضَى لَنَا وَلَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْمَلِكِ الْغَابِرِ ، فَتَحَوَّلَتْ طِبَاعُهُمْ مِنَ الْخَشُونَةِ إِلَى نَعُومَةِ الْعَيْشِ ، وَأَخَذُوا يَتَأَثَّلُونَ الْكَسْبَ وَيَطْلُبُونَ حَاجَاتِ التَّرَفِ مِنْ جَمِيعِ الْبُلْدَانِ بِمَا تيسرَ لَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْإِتِّصَالِ فِي زَمَنِ الْخُلَفَاءِ ، فَمَا أُمِّمَ الرَّشِيدُ الْعَنَاءَ بِتَأْمِينِ السَّبِيلِ لِقَوَافِلِهِمْ وَتَهْيِئَتِهَا لِسَفَرِ تِجَارَتِهِمْ ، حَتَّى حَمَلُوا تِجَارَةَ الدُّنْيَا إِلَى الْعِرَاقِ ، فَحَمَلُوا مِنَ الْهِنْدِ آيَتِهَا وَمِنْ أَصْبَهَانَ وَشِيرَازَ وَيَزْدَ شَرَابَهَا ^(١) وَمِنْ خُرَاسَانَ حَدِيدَهَا وَمِنْ كَرْمَانَ رَصَاصَهَا وَمِنْ قَشْمِيرِ النَّسِيجِ الْمَلُونِ ، وَمِنْ الصِّينِ الْكَمَّكَامَ وَالْعُودَ وَالْمَسَكَ وَالسِّنُّورَ وَالسَّرُوجَ وَالْفَضَائِرَ وَالْدَارَصِينِيَّ وَالْخَوَلْتَنَجَانَ ، وَمِنْ الْيَمَنِ الْعَطَرِ ^(٢) وَأَنْوَاعِ الطَّيِّبِ ، وَمِنْ فَارِسِ السِّلَاحِ وَالْمَصْوَغَاتِ ، وَمِنْ عَيْذَابِ اللَّالِي ^(٣) ، وَمِنْ الْوَقُوقِ الذَّهَبِ وَالْأَبْنُوسِ ، وَمِنْ الْهِنْدِ وَالسِّنْدِ الْقُسْطَ وَالْقَنَا وَالْخِزْرَانَ وَالْكَافُورَ وَالْعُودَ وَالْجُوزْبَوِّيَّ وَالْقَرَنْفُلَ وَالْفَاغِرَةَ وَالْكَبَّابَةَ وَالنَّارَجِيلَ ^(٤) وَالثِّيَابَ الْقَطْنِيَّةَ وَالْمَخْمَلَةَ وَالْفَيْلَةَ ، وَمِنْ سَرَ نَدِيبِ الْأَوَانِ الْيَوَاقِيتِ وَأَشْبَاهِهَا وَالْمَاسِ وَالْدُرِّ وَالسُّنْبَازِجَ الَّذِي يَعَالِجُ بِهِ الْجَوْهَرَ ، ^(٥)

(١) العقد الفريد ٢ : ٣٤٤ (٢) القزويني ٢٠٩ (٣) المسعودي
٣٩ : ١ (٤) ابن خرداذبة ٦٨ (٥) الأغاني ٥ : ٢٤

ومن ناحية الجنوب البقم الدارى ، ومن البحر الغربى المرجان ويكون بأرض
الفرنجية ، ومن الروم المصطكا والجلود والغلمان والرقيق^(١) ، ومن الشام
الفاكهة والسلاح والحديد الذى يقطع من جبل لبنان . ومن روسيا جلود
الخزّر والثعالب يأتى بها الروس إلى بغداد عن طريق سورية أو عن طريق
جرجان^(٢) ثم تحمل إلى أصبهان والجزيرة وآمد ونصيبين^(٣) ويتجر بها .

هذه هى تجارة الشرق^(٤) قد حملت إلى العراق ، وأما تجارة الغرب
فقد تعذر نقلها لبعده المسافة وتراعى الشقة ، ولذلك كان يرى الرشيد فتح
البحر عند السويس^(٥) حتى يقرب المجال من المغرب إلى عمان فسيراف
ف فارس فأطراف العراق ولا سيما أن على البحر الرومى سواحل إفريقية
وتونس ومصر وطرابلس والأندلس إلى الغرب والجنوب وسواحل صقلية
والفرنجية إلى الشمال ، وسواحل الروم والشام إلى الشرق ، وإنها لبلدان
كثيرة الخيرات ، وافرة الغلات . فكان الرشيد يروم أن يحمل تجارتها إلى
بغداد على مراكب البحر من طريق السويس ، ولكن جعفرأ (أغزه الله)
قد ثناه عن هذا الأمر وخوفه أن تصل سرايا الروم وسائر الفرنجة إلى جدة ،
فينخرّبون المواطن المشرفة ،^(٦) على حين لا يتوقع لقدمهم أثر ، فقال
جعفر « يا أمير المؤمنين إن خرق السويس خرق فى الاسلام ولو أنك
وجدته مخروقا بأيدي الملوك الذين سبقوا الخلفاء لوجب عليك اليوم سدّه
لأن مصالح التجارة لا تقضى على الاسلام بتضييع الفتوح التى دانت له

(١) ابن خرداذبة ٨١ (٢) ابن خرداذبة ١١٦ (٣) ابن الاثير ٥ : ١٠١

(٤) الأغاني ٥ : ٢٤ وابن الاثير ٥ : ٢٢٥ والقزويني ٢٠٩ (٥) المسعودي ١ :

٢٩٩ والمقرئى فى الخطط والسيوطى والمقدمة ٢١ (٦) السيوطى والمسعودي

ببذل الدماء « وهذا رأى لا يبدو إلا لمن رُكِّب فيه إسجاح الخليقة ومعدلة النظر، فان العلماء كلهم قد ضلوا عن إدراك ذلك، وإنما خوفوا الرشيد علو البحر الرومي على بحر القلزم، وأنه إذا ريم خرق ما بينهما طمى البحر على أرض مصر وأغرق عذاب والنوبة وسواحل اليمن والحجاز، ولكن قولهم بعيد عن الصحة، لما يُعلم عن بحر الظلمات إلى ما وراء الأندلس أنه لم يطم مأؤه على سواحل البحر الرومي مع كونه يعلوه من حيث الاقليم، فما ثبت عند العاقل إلا أن سطح البحور متساو في الشمال والجنوب، ولم يُسمع ببحر أخفض من غيره إلا بحر لوط في أرض الأردن من إقليم فلسطين، ولكنه ليس بالبحر الواسع ولا بالأوقيانوس المحيط، وإنما هو مياه تصب في متحد من الأرض.

ولما اتسع نطاق التجارة في بغداد أصبحت مورداً لأهل الإيعواز من البلاد كافة يتناولون فيها حاجتهم من المال، فوقع غش فاحش في التجارة وصارت الصيارف من اليهود^(١) وغيرهم^(٢) يُعطون ما لهم بالربا على أن يعاد عليهم المثل في آخر العام مثلين^(٣) وأكثرَ منهما، فأقام الرشيد مُحْتَسِباً يطوف بالأسواق ويفحص عن الأوزان والمكاييل وينظر في معاملات التجار^(٤) أن تكون جارية على سنن العدل، حتى لا يتحامل الشرفاء على الوضعاء ولا الأغنياء على الفقراء، إذ الواجب على الملوك أن يمهّدوا سبيل الارتزاق لأهل الحاجة أكثرَ منه للمتمولين المنسلخين للتجارة الذين نراهم يتعرضون لشراء السلع والتجارات بما يفرضون لها من الثمن البنفس ثم

(١) الأغاني ٨٥: ٣ (٢) الأغاني ٨٣: ٣ و ١٦١: ٥ (٣) كليات

٩٩ والأغاني ١٥٤: ٢ (٤) الأغاني ١٠٨: ١٧

يبيعونها بما يشاءون من الغلاء، فإن ذلك احتكار يُفضى إلى فساد العمران كما مرّ في موضعه من الكتاب. وقد أخبرني الرشيد في بعض مجالس إليه أنه يروم أن يُصلح معاملة التجار ويُغيّر تقدير الدنانير والدرهم على وزن واحد صحيح،^(١) ولكنه لم يباشِر ذلك إلى هذا اليوم، مع أنه زُاعِمٌ ما يكون للعمران، وإن كان ضرب السكّة في الاسلام قد حدث عن نكّاية وقعت ضغائنهما بين عبد الملك بن مروان وقيصر الروم كما هو معروف^(٢) فقد أصبح اليوم من الضرورة أن تُقدّر أوزانها بعد ما ساءت المعاملة في تأدية الخراج والبيع والشراء. وقد كان العرب يتعاملون قديماً بالذهب والفضة وزناً،^(٣) وبين أيديهم دنانير الفرس والروم التي يقال لها الكسروية والقيصرية، فلما ذهبت سداجة الاسلام وصارت الخلافة إلى ملوك أمية، وقد أغفلوا أمر المعاملة بما تشاغلوا به من أمور نفوسهم، تفاحش الغش في التجارة وصارت تُنسب إلى الروم سكة ليست من ضربهم ولا من ضرب الفرس فيما ابتدع الناس من دنانير كسرى وقيصر، فعني عبد الملك بتمييز المغشوش من الدنانير والدرهم، ف ضرب السكّة في دمشق^(٤) وصرفها في جميع النواحي والأمصار، ولكن من غير أن يقدر أوزانها، فبقى منها الخفيف^(٥) والثقيل وما هو بين، ولذلك لم تسهل المعاملة بها بين التجار، حتى إذا تنبه لما فاتته من تقديرها على وزن واحد وأحب أن يميّز القديم منها عمداً إلى تعيين السنة على السكّة المقدّرة بعد أن كان يضربها خلوا من التوقيت إلا « بركة الله » في أحد الوجهين واسمه في الوجه الآخر. وهذا

(١) المحاضرة ٢ : ١٧٤ (٢) الاتليدى ٢٧٤ (٣) المقدمة ٢٢٧

(٤) ابن الأثير ٤ : ١٧٤ (٥) ذكر الدرهم الخفيفة الاغانى ١٠٤

كان منشأ الخلاف في أول من ضرب السكة التي ليس فيها توقيت ، فيقول بعض الناس إنها من ضرب عمر بن الخطاب ،^(١) ويقول غيرهم إنها لمُصْعَب ابن الزبير ،^(٢) ويقول بعض إنها لمعاوية بن أبي سفيان ، ويزعمون أنه صور نفسه عليها متقلداً سيفاً^(٣) كأنه فاتهم علم موضعه من الخلافة وحرصه على متابعة الملة والشرع ، إلا أن ما يذهبون إليه من هذه الأقاويل ليس بمُجْمَع على رأى منه . ولم يقع إلى من الدنانير الموقوتة إلا ما ضرب هذا الخليفة المقدم ذكره في السنة السابعة والسبعين من الهجرة النبوية المشرفة ، وعليه جرى الخلفاء بعده في ضرب السكة ، بأن يرسُموا فيها « بركة الله » من وجهه ،^(٤) وعلى دائره « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » واسمهم من الوجه الآخر يُحوطونه بتعيين السنة وذكر البلد الذي يضربون فيه السكة .

وأما الأوزان المقدرة فان المسلمين كانوا يتعاملون بالدرهم الطبري وهو أربعة دوانق ، والدرهم المغربي وهو ثمانية ، والدرهم البغلي وهو ستة والدرهم البغلي « وهو الذي يقال إنه ضرب في خلافة عمر رضى الله عنه على وزن الدراهم الكسروية » وهو ثمانية دوانق ، فأمر الحاجاج أن يُنظر الأغلب في المعاملة فكان البغلي والطبري وهما اثنا عشر داتقا ، فاتخذ ما بينهما لضرب السكة وقدر الدرهم ستة دوانق . وأما وزن مثقال الذهب فهو درهم وثلاثة أسباع درهم ، حتى إذا جُمع عشرة دراهم كان وزنها سبعة مثاقيل^(٥) والناس

(١) المقرئى (٢) ابن خلدون ٣ : ٤٥ والماوردى ٢٦٩ (٣) الاتليدى

نقلا عن الديميرى (٤) الانس الجليل ١ : ٢٤٠ والمحاضرة ٢ : ١٧٤ والاتليدى ٢٧٤

(٥) المقدمة ٢٢٧

يتعاملون بالسكة ثماننا هذا على تقدير الحجاج ، إلا أن ما في أيديهم منها مختلف الأشكال ، فلا تتناول الدولة منهم في الخراج إلا الدنانير العباسية والدنانير المسماة بالخالدية^(١) واليوسفية والهبيرية ، وهي أجود النقود التي ضربها بنو أمية^(٢) على يد عمالهم في العراق مثل أبي هبيرة ويوسف بن عمر وغيرهما ، ولذلك رأى الرشيد أن يقدّرهما على وزن واحد صحيح حتى لا يبقى للنفس في التجارة مجال ، ولا يحصل عنف في جباية المال .

زينة الدولة بالعلم والأدب

هذا الماع بذكر محاسن دولة الرشيد وإنها لدولة خير وصلاح كما علمت ، فما حدثت أهل الأخبار أن الاسلام كان في أمة دولة أعز جانباً ولا أوسع رقعة مملكة^(٣) منه في خلافة الرشيد . ولعمري إن الملوك الذين يتعهدون النصر مثله في جميع ما يباشرون من الأعمال قليل في العالم ، فما رأيتهم والبرامكة أعوان له قد نكب في حرب قط ، ولا توجهت عليه هزيمة ، وإنما أعز الاسلام باجتماعه في المشرق كله إليه ، ورعى ملوك الأعاجم بسهام بأسه حتى عصفت ريحه بهم من الروم وسائر القرىجة ، وهذا شرف للسيف لم ينله المسلمون فيما تقدم لهم من الدول السالفة مقرونًا بفضائل العلم وجمال الحضارة ، وكفى بشرف دولته أنه اجتمع بيابه من الوزراء^(٤) والأمراء والقواد والعلماء والفقهاء والأدباء والخطباء والمحدثين والقرّاء والرؤاة والشعراء والندماء والمغنين ما لم يجتمع على باب خليفة غيره.

(١) الماوردي ٢٦٩ (٢) ابن خلدون ٤٥ : ٣ (٣) الفخرى ٢٣٣

(٤) ابن الأثير والفخرى ٢٣٣ والخميس ٢ : ٣٣٢ والماوردي ٣٣

مثله ، فان البرامكة أعوان دولته ، وأبا يوسف قاضيه ، وهرثمة ابن أعين أمير جنده ، والعباس بن محمد عم أبيه جليسه ،^(١) ومروان بن أبي حفصة شاعره ، والأصمعي محدثه ، وأبا نواس نديمه ، والفضل من آل الربيع جاجبه ، وإبراهيم الموصلي واسحاق ابنه مغنياه ، وابن بجّيشوع جبريل^(٢) وبنى ماسويه أطباؤه ،^(٣) والعلماء والأدباء كلهم قيام على بابه لا يفارقونه في حصر ولا في سفر ، حتى إنه ليطلب شاعره في أطراف الليل^(٤) فيجده يبابه مع غيره من محدث أو نديم .

وإنما قرّب العلماء إلى الرشيد ما بنفسه من الميل إلى الأدب^(٥) والحرص على إحراز العلوم ،^(٦) حتى كانوا إذا اجتمعوا بداره سما إلى مناظرتهم^(٧) من حيث العلم والتواضع له ، لا من حيث السيادة عليهم ، وهو بموضعه الجليل من الخلافة ، وأنا لا أريد بذلك أن التواضع طبيعة في نفسه ، لأنه لو لم يأتته الكبر من ناحية العلم لأتاه من ناحية السلطان ، وكلاهما داع إلى الإعجاب بالنفس ، فكثيراً ما كنت أراه إذا انتصب في عرشه يحتمل أن يمدح بما يمدح به الأنبياء ، وهو لا ينكر ذلك ولا يردّه ،^(٨) غير أنه ربما كان يبتغي بتواضعه للعلم مع ما هو مطبوع في نفسه من الأجلال له أن تحصل له الغاية التي يرومها من صلاح أمره باستمالة الأئمة من أهل العلم ، حتى يستقيم ملكه من ناحية القلم كاستقامته له من ناحية السيف .

(١) الخميس ٣٣٢:٢ (٢) الفخرى والمسعودى ٢: ٢١١ وابن الاثير ٦: ٧٥ والمقدمة ١٦ (٣) أبو الفرج (٤) الأغاني والالتلدى (٥) ابن الاثير ٦: ٧٨ والفخرى ٢٣٠ والاسحاقى ٩٠ والدميرى ١: ٩٥ (٦) الشرقاوى ٢٢٢ (٧) القزوينى ١٠٦ (٨) السيوطى والأغانى ٩: ٨٦

أما أدبه وفضله وصحة ما عنده من النظر في تخير ما يروق لديه من العلوم فهو الأمر الذي تقدم الالماع إليه فيما مضى من الكتاب، ورأيت أنه يتوسع في أدب اللغة إلى أن يقول الشعر فيما يعرض له من تصورات أهل الغرام، فاذا دخلت عليه عرضه على في سبيل الفكاهة فمن ذلك قوله في جارية^(١) تركية له .

ياربة المنزل بالفرك وربة السلطان والملك

ترقى بالله في قتلنا لسان من الديلم والترك

وقوله في قينة له^(٢)

تبدى صدوداً وتخفى تحته مقة فالنفس راضية والطرف غضبان

يا من وضعت له خدى فذله وليس فوقى سوى الرحمن سلطان

وقوله^(٣) في رثاء جارية رومية يقال لها هيلانة وقد عراه على فقدها

من الحزن ما ضاق له الصدر، وفرغ دونه الصبر.

قاسيت أوجاعاً وأحزانا لما استخص الموت هيلانا

فارقت عيشي حين فارقتها فما أبالي كيفاً كانا

قد كثر الناس ولكنتي لست أرى بعدك انسانا

والله لا أنساك ما حركت ريح بأعلى نجد اغصانا

إلى غير ذلك، وكان من الفضل بحيث إن ما دبه لم تخل قط من عالم

أو أديب أو شاعر. وكان يستدعى إليه العمرى والفضل بن عياض^(٤) وابن

(١) الأغاني ١٢ : ١٨ (٢) العقد الفريد ٣ : ٢٥٧ (٣) السيوطي

(٤) المقدمة ١٥ والمستطرف ١ : ١٠١ والخيس ٢ : ٣٣١ والاسحاق ٩٠ والسيوطي

السَّامَكُ الْكَوْفِيُّ^(١) وإسحق الفزاري وغيرهم من الأولياء فيحاورهم في مسائل الدين^(٢) ويبيكي^(٣) من مواعظهم ، ويقوم بواجب الاحترام لعلمهم ، حتى إذا جلس معاويةُ المحدثُ الضريرُ إلى طعامه قام من موضعه وصب الماء على يده تعظيماً لقدر العلماء ، فقال له معاوية يا أمير المؤمنين إن تواضعك في شرفك لأشرفُ من شرفك^(٤)

أما زينة الدولة من الأدباء فثلاثة إسحق بن إبراهيم النديم وعبد الله الأصمعي والحسن بن هاني المعروف بأبي نواس ، وكلهم إمام في العلم ، إلا أنه غلب على إسحق الغناء ، وعلى أبي نواس الشعر ، وعلى الأصمعي الأخبار والنوادر والملح .

فأما إسحق فانه بالمكان الرفيع من الأدب ،^(٥) وقد اتخذ خزانة كتب جمع فيها من مدونات العلم ما ليس عند الذين يُعَنُّون بجمع صنف واحد من صنوفه مثله ، ولقد رأيت عنده من كتب اللغة مثلاً ما ليس مثله في خزانة ابن الأعرابي ،^(٦) وله مقام سام بين العلماء حتى إنهم ليُهدُّون إليه كثيراً من تأليفهم ودواوينهم كأبي نواس وابن أبي عيينة^(٧) وابن الأعرابي^(٨) وغيرهم تنشيطاً لعلمه وأدبه ، لأن انصبابه على الغناء لم يكن حرفة للتميش ، وإنما هو ميل بنفسه إلى محاسن الأدب والصناعة ، فكان يترفع عن أن يغنى إلا في دور الرشيد والبرامكة ، وكانوا إذا حضر مجالسهم يؤثرون محاورته

(١) العقد الفريد (٢) سراج الملوك ٣٠ (٣) ابن الاثير ٧٨ : ٦ والطوطشي ٣٨ (٤) الفخرى ٢٣١ والسيوطي (٥) الأغاني والحصرى ٢٠٦ : ٢ (٦) ذكر ابن خلكان ١ : ٩٣ أنه كان عند ابن الاعرابي خزانة جمع فيها كتب اللغة (٧) الأغاني ١٨ : ١٢ (٨) الأغاني ٥٥ : ٥

في العلم على جلوسه إليهم في صفوف المغنين ^(١).
ولقد كنت أسمع الرشيد يقول لو لم يشتهر إسحق بلقب المغني لوليته
القضاء بين المسلمين ^(٢)، ووجدت في نفسه من جيل الميل إليه ما كان
يحمّله على أن يقصد داره ^(٣) على سبيل التجب، ولقد كنت يوماً بداره
وهي باب الشماسية ^(٤) من الجانب الشرقي تِلْقَاءَ قُطْرُبَل ^(٥)، فجاء الخليفة
على حمار صغير أسود وهو الحمار الذي يركبه ^(٦) في ساحات القصر وجنانه
للنزهة، ومعه خمسمائة نفر من خدمه وغلماؤه وندمائه ^(٧)، فقام إسحق
بالواجب من إكرام وفادته ^(٨) وأخرج الحلوى إلى خدمه بما كفى الجمع
كله، ثم أشار إلى جواريه أن يجلسن للغناء، فقال الرشيد لست أريد
هذا، وإنما شوق في النفس دعاني إلى الأنس بقربك.

وأما الأصمعيّ فإنه قدّم بغداد ^(٩) في خلافة الرشيد في جملة من وفد عليه
من العلماء. وهو إمام في النوادر ^(١٠) والأخبار وأيام الناس مشهود له بصدق
الرواية، ولقد حدث الرشيد يوماً عن ملوك بني أمية فقال إن سليمان كان
نَهَمًا إذا قُدِّمَ إليه السَّمُاط لا يصبر حتى يبرُد بل يتناول اللحم بكفه، وإنَّ
يزيد كان إذا جلس للشراب يسقطُ الخمر في ثيابه فصاح به الرشيد قاتلك الله

(١) الأغاني ٥ : ٦٠ (٢) ابن خلكان ٩ : ٩١ وكتاب الأغاني
(٣) الاتليدي ٢٨٦ والأغاني (٤) الأغاني ٥ : ٧ (٥) ذكره المسعودي
٣٨٥ : ٢ و٣٩٧ (٦) الأغاني ٥ : ٣٠ و٤٦ (٧) ذ ياهوت ٤ : ١١٨ أن
الخليفة كان يركب في كذا وكذا رجلاً وخدمًا (٨) واتخذ الفرش من الخنز
المظهر بالسنجاب كذا في العقد الفريد ٣ : ٢٤٠ وهذا نص كلامه فدخلنا دار إبراهيم
الموصلي فاذا هي لا أشرف منها ولا أوسع واذا بفرشها خنز مظهر بالسنجاب
(٩) ابن خلكان ١ : ٤٠٨ (١٠) الشريشي ٢ : ٢٧٩

ما أصدقك في نقل الأخبار! والله إن ثيابهما عندي وإن الدُّهن لفي أكمام سليمان والخمر في ثياب يزيد^(١)، على أنه لم يكن بيني وبينه مع طول المدة التي أقمتها في بغداد قرب ولا ائتلاف لا تقطاعه من مجالس البرامكة، وإنما كنت ألقاه بدار الرشيد وأسمع ما يحكيه عن طرائف بغداد، فأراه لا يغفل عن نادرة مليحة إلا ويذكرها له، ولكن بالألفاظ التي تأخذ بمجامع القلوب، وكنت يوماً بين يديه وقد بدر من رجل ظريفة فالتفت إليه الرشيد وقال له حررها يا أصمعي^(٢). وقد أخبرني بعض أصحابه أنه أقام في صباه بالبادية أياماً طويلاً يستطلع فيها عادات العرب ويستكشف أخبارهم ويستنطق آثارهم، وقد شاهد ما يقيمون من المجالس والأسواق، وما ركب الله فيهم من السجايا والأخلاق، وما وقع لبناتهم من الشعراء، فلما أقام ببغداد أخذ يحدث بكثير من أخبارهم ثم اشتهر اسمه بين الناس بما هو آخذ بكلامه من الرشاقة والبلاغة حتى صار علماً في المدينة، وصار يتفق له فيها من النوادر ما لم يسمع أحد بأعجب منه.

وأما أبو نواس فإن الشَّيْخَ هو الذي يقدمه اليوم عند الرشيد، وقد^(٣) كان أبو نواس يحدثه من قبل بنوادر الناس ولكن من غير أن يفككه

(١) المسعودي ٢ : ٦٢٨ وابن خلكان ١ : ٤١٠. وتزيين الأسواق ١ : ١٤٣

(٢) المسعودي ٢ : ٢١١ والتليدي ٩٦ والعقد الفريد

(٣) وربما حفظ له شيئاً من أيساته يتمثل بها في مجالسته الأدباء فلقد سمعته مرة يقول لو قيل للدنيا صفى لنا نفسك وكانت ممن ينطق ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبي نواس. إذا امتحن الدنيا ليت تكشف له عن عدو في ثياب صديق وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق

العقد الفريد ١ : ٣٦٩

باعرا . هم ، ثم أعرض عن ذلك ، فقال له ذات يوم حدثنا يا أبا نواس فقال لا
يحضرني شيء ، فقال بحياتي ^(١) إلا ما قلت شيئاً ، قال كان الكذبُ عملي
واليوم هجرته يا أمير المؤمنين ، ^(٢) فضحك وقال هذا أحبُّ إليَّ من الحديث ،
وله كلام ظريف في المجون والخلاعة ^(٣) وحوادثٌ تدل على خفة رُوحه .
وكان إسحق يتعصب له ^(٤) ويُشيد بذكره ويجهر بتفضيله ويجلب له الرد
من الرشيد ويحطُّ من قدر الأصمعي لتنافس بينهما ، ^(٥) حتى أخذ المقام
الأول بين الندماء وبنى لنفسه في نهر طابق الدور ^(٦) التي لم يكن مثلها عظماء
الناس ، بينما الأصمعي يستقرض من أصحابه ^(٧) حاجته من المال .

ومن خلال أبي نواس الماثورة أنه يميل مع أهل البيت سرّاً لا يجسُر
على المجاهرة به ، وقد قيل له في إعراضه عن مدحهم لقد ذكرت كل معنى
في شعرك وهذا عليُّ بنُ موسى الرضا في عصرِكَ لم تقل فيه شيئاً ، فقال والله
ما تركت ذلك إلا إعظاماً له وليس في قدرة مثلي أن يقول في مثله وأنشد ^(٨)
أنا لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه

وقد وقع تدوين هذه الرسالة في السنة الحادية والثمانين بعد المائة من
هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث خلون من شوال والناس يتجهزون
للخروج إلى الحج الشريف أرانا الله بركته بمنه وكرمه .

(١) كلمة يقولها الخليفة عند التجب الأغاني ٦ : ٧٥ (٢) المستطرف ٢ : ١٠٠

(٣) الكنز ٩٤ (٤) الأغاني ٥ : ١٠٧ (٥) الشريشي ٢ : ٢٧٤

(٦) ابن خلكان ١ : ٢٩٥ والأغاني ٣ : ١٦١ (٧) المستطرف ١ : ١٢٣ وذكر

المسعودي ٢ : ٢٢٣ أنه رأى في دار الأصمعي خباء مكسور وعليه دراعية خلقة

ومقعد وسخ وكل شيء عنده رث . (٨) ابن خلكان ١ : ٤٥٧ .

الرياسة السادسة

بيت الرشيد

لقد مضى علىّ في بغداد بعد العودة من خراسان نحو ست سنين
ما زلت منقطعاً فيها إلى البرامكة حافظاً لمقامي في الدولة تحت ظلمهم وعنايتهم ،
وكنت أتردد في خدمتهم إلى دور الرشيد وهو يأنس بي في خلواته إلى أن
صرتُ منه بالمنزلة التي لا يطمح إليها غيري من المقرّين إليه ، وكنت أقف
على أمور يته وأولاده ، فرأيتُه (أكرمه الله) صالح السريرة شديد الاغراق
في الدين محافظاً على أداء الصلاة في أوقاتها وشهود الصبح لأول وقتها ،
يصلي في كل يوم ليلة مائة ركعة لا يتركها إلا ليلة ،^(١) وأذكر أنه لما
حصل في العام لزنة وغلاء سعر للناس واشتد عليهم الكرب اشتداداً
عظيماً أمرهم بكسر الملاهي وكثرة الدعاء والتوبة ،^(٢) وذلك دليل على موقع
العبادة عنده ، ومظهر يروم منه تأييد الدولة باجلال الدين حتى يكون الاسلام
مغتبطاً بمناحيه .

وإن كنتُ رأيتُ له في تدبير المملكة ذلك التصرف الجميل فاني
ما وجدته له في تدبير أهل بيته ومواليه ، وإنما يرجع الرأي في ذلك إلى
زوجه أم جعفر ، وهي أنفذُ نساء العباسيين كلمةً في الدولة ، وقد ريت في
مهاد الدعة والدلال كما يشير إليه اسمها ، فأنما سماها أبو جعفر جدّها بزيدة
لفضاضة بدنّها ، وقد كان يرقصها تهلاً بها وإعجاباً بملاحتها ، فسماها بزيدة

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٧ والفخرى ٢٣٠ والمقدمة ١٥ (٢) المستطرف ١ : ٨٢

لذلك^(١) فلما بنى بها الرشيد ووجدها طُرْفَة حديث ومصدر رأى جميل لم ير
بدأ من الانقياد إليها في قضاء جميع ما ترومه من الحاجات^(٢) ومن ذلك أنه
مكّنّها من يوت المال فأنفقت من سَعَة ما يُنَيَّفُ على ثلاثين ألف ألف
دينار، فبنت مسجداً مباركاً على صَفَة دجلة بمقربة من دور الخلافة يسمى
بمسجد زبيدة، ومسجداً سامياً بالحسن في قطيعتها المعروفة بقطيعة أم
جعفر^(٣) بين باب خراسان وشارع دار الرقيق،^(٤) وحفرت بالحجاز العين
المعروفة بعين المشاش^(٥)، ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع
وسهل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلاً إلى مكة، فبلغ ما أنفقته
عليها ألف ألف دينار، وهذا من الأعمال التي لم تباشرها امرأة في الإسلام
إلا الخيزران أم الرشيد فانها عَمَرَتْ كثيراً من المساجد^(٦) أيضاً وبنت دار
ابن يوسف بمكة التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم مسجداً^(٧) جزيل
البركة، وتوافرت عندها الأموال حتى بلغ الذي خلّفته مع ما توسعت فيه
من النفقة مائة ألف ألف درهم،^(٨) فان لم يكن عند زبيدة من المال ما يبلغ
هذا القدر الجسيم فان لها في السياسة رأياً تسمو به إلى التدخل في أمور
الدولة كأفطن من يكون من الرجال .

وقد صير الرشيد أمر بيته بعد زبيدة إلى مسرور خادمه العبد، وهو
حاجبه وسيد مواليه^(٩). وله في قصور الخلافة دواوين تقيم فيها حوزته من

(١) الأغاني ٩: ١٠٢ والشريشي ٢: ٢٤٥ والحصرى ٣: ٢٣٦ (٢) في
المسعودي أنها كانت من الرشيد بالمنزلة التي لا يتقدمها أحد من نظرائها ٢: ٢٢٧
(٣) ياقوت ٤: ٤٢١١ (٤) ابن خلكان ١: ١٨٩ والمستطرف ١: ٢٨٩
(٥) المسعودي ٢: ٤٠٢ وابن جبير ١٧٣ والشريشي ٢: ٢٤٥ (٦) ابن جبير ٢٧٦
(٧) المسعودي ١: ٣٠٦ (٨) المسعودي ٢: ٢٠٧ (٩) ابن خلدون ٣: ٢٢٣

خدم وحرس وغللمان ، والكاتب له زياد بن أبي الخطاب^(١) يقيم بمقربة من مجلس يوسف بن التماس صاحب ديوان الانشاء^(٢) ومن قام بين يدي الرشيد حين أخذت له البيعة ، وفي ذلك دليل على مكانه من الشرف وعلو المرتبة . ولا غرو فان له من نفوذ الكلمة ما ليس للأمرء والحكام مثله ، إذ كان سيد دور الخلافة والحارس لها لا يدخلها شيء ولا يخرج منها إلا بأذنه ورضاه ، وكثيراً ما رأيت الملوك يتزلفون بالهدايا إليه ليخاطب الرشيد في حاجاتهم ، إذ ليس في أهل بيته من يتجرأ عليه سواه^(٣) حتى كان إذا ركب الخليفة لا يجسر أحد على سؤاله إلى أين يذهب غيره^(٤) .

وإلى مسرور الأمر فيما يختص بالسراير والقيان وإنهن لكثير في دار الرشيد يبلغن زهاء ألفي جارية^(٥) يرفلن في أحسن زي من كل نوع من أنواع الجواهر والوشى المذهب ، غير أن المقدم عليهن جميعاً ثلاث أهداهن إليه الفضل بن الربيع . سحر . وضياء . وخت ذات الخال . أما حریم الخلافة فانه دوائر كبيرة لا اتصال لبعضها ببعض ولكل هاشمية من بنات الخلفاء دائرة منفردة عما سواها من الدوائر ، وأعظمها دائرة أم جعفر ، لها قصر السلام كله ، وهو أطرف القصور وأبهجها زينة وأجملها في العيون والقلوب موقعا يقول فيه إبراهيم النديم^(٦) .

سُقِيتَ الْغَيْثَ يَا قَبِيرَ السَّلَامِ فَنِعْمَ مَحَلَّةُ الْمَلِكِ الْهَمَامِ
لَقَدْ نَشَرَ الْأَلْهَ عَلَيْكَ نُورًا وَخَصَّكَ بِالسَّلَامَةِ وَالسَّلَامِ
ثُمَّ دَائِرَةُ أَوْلَادِ الْمَهْدِيِّ ، ثُمَّ دَائِرَةُ أَوْلَادِ الْهَادِي ، ثُمَّ دَائِرَةُ أَوْلَادِ الرَّشِيدِ

(١) الأغاني ٤ : ٩٩ (٢) المحاضرة ٢ : ١٣٢ (٣) الاتليدي ٦ : ٢

(٤) الأغاني ٩ : ٩١ (٥) الأغاني ٩ : ٨٨ (٦) الأغاني ٥٥ : ٨١

من غير زينة زوجه . ولهن جميعاً من الخدم والعلمان ما ينتهي إليه إسراف الملوك في السَّعة ويتجلى به جمال السلطان بالبهاء والاشراق . ولقد رأيت الجوارى من خدم الهاشميات يتقلبن في أطيب العيش والنعيم ويتخذن العصائب مكحلة بالجوهر اقتداءً بعُلَيَّةَ أختِ الرشيد إذ كانت أول من اتخذ العصابة لعب في جبينها فسترته بها فكان ذلك أحسن ما ابتدعه النساء^(١) . أما لباس الرشيد فهو لباس غيره من العباسيين السواد لا يتألق فيه إلا بما تقتضيه الرسوم المحفوظة ، وإنما ينصرف همه إلى لذة المطعم بالتألق في صنوف الألوان ، وقد جلست إلى طعامه^(٢) أكثر من مرة في مجلس كامل الزينة قد فرش به بالرخام الأخضر ولبس حيطانه بالوشى المنسوج بالذهب^(٣) فرأيت يفتن في طعامه ولكن على غير شره في الأكل ، يبدأ بالمرق من السكباج وغيره تنشيطاً لجسمه ، ثم يأكل الفاتر^(٤) من الطعام من البقول وأشباهها ، ثم الدجاج وأنواع الطير ، ثم الشواء ثم أنواع السمك ثم ما يطبخ بالتوابل من اللحم والبقول وغيرها حتى تكاد مائدته لا تخلو من السنبوسق^(٥) ، وهي رقائق تحشى باللحم والدهن عليه التوابل من الفلفل والزنجبيل ثم تقلى بالزيت وتطرف بالخردل ،^(٦) وهو يتخلل طعامه بتناول اليسير من التوابل التي تُشبهه إليه ،^(٧) فإذا اكتفى منه تناول الحلوى من الأسوقة والريكة واللوزينج والفالودج أو غيرها ، ثم الفاكهة بعدها ، ثم

(١) الأغاني ٩ : ٨٣ (٢) ذكر الأغاني ٥ : ٢٤ أنه ما كان يجلس الى طعام الخليفة غير أمير وعالم (٣) ذكر الوشى المنسوج بالذهب الأغاني ٣ : ١٨٤ (٤) المسعودى ٢ : ٢٢٠ (٥) المسعودى ٢ : ٤٢٦ (٦) الأغاني ١ : ٣٩٠ (٧) يبتدىء بالطعام الحار وينتهى بأكل البوارد المسعودى ٢ : ٢٢٠

الثقل^(١) وهو الذى يتناوله بعد طعامه للتعلى ، ولكن فى الصّحاف التى لم أرَ أظرفَ منها فى آنية الصين ولا أغلى ثمنًا وقيمة ، فكنت أحسب لشدة تأتقه فى فنون المطعم أنه لو لم ينه النّبي صلى الله عليه وسلم عن الأكل فى صحاف الذهب والفضة^(٢) لآخذها كذلك ونزل فيها اليواقيت والجواهر . فاذا اكتفى من التعلى جاءه الغلمان بماء الورد المسك^(٣) فى قماقم الذهب مع شيء من الريحان فيغسل يديه ويتبخّر ، فاذا انتهى من الغداء دخل مجده للقيولة ،^(٤) وإذا فرغ من العشاء جلس للمغنين والندماء . كذلك عادته من يوم وليّ الخلافة .

أما أولاد الرشيد فكلمهم مُترَف يتقلب فى النعمة والاسراف إلا أحمد^(٥) فانه يحاول العزلة ويقعد مقعد ضنّة ويتكسب يده فيما يقولون شيئًا ينفعه على نفسه مع مقدرة أيّيه كلّها ،^(٦) أمّا القاسم فانه ذو كبر شديد ونعمة بطائلة وبذخ زائد ، وإليه ينتهى جمال ولد الخلافة ،^(٧) وكان أبوه قد طوّقه أمر الفداء الذى وقع بين المسلمين والروم بعيد عودتى من خراسان فجرى ذلك على يده^(٨) وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة ، فزاحم ركب الملوك على بابه ، ومكّنه أبوه من بيوت المال فهو اليوم يتخذ القصور المزخرفة ويشترى الجوارى^(٩) والغلمان ، ويقيم المجالس للشعراء والمغنين والندماء ويقطعهم الضياع ويصلهم بما يشاء من الهبات^(١٠) إلى أن يصيب

(١) المسعودى ٢ : ٢٢٠ والابشهى ١ : ٨٤ (٢) الاتليدى ٩ (٣) الاتليدى ١١ (٤) الأغاني ٥ : ١١ والمستطرف ١ : ١٣٢ (٥) ولده من سرية لبعض نسائه العقد الفريد ٣ : ٥٦ (٦) ابن خلكان ١ : ٥٧ (٧) الأغاني ٣ : ١٥٩ و ٩٦ : ٩ (٨) ابن الأثير ٦ : ٥٧ (٩) الأغاني ٣ : ٥٧ (١٠) ذكر الأغاني ٣ : ١٦٨ و ٤ : ١١٦ عطاء أولاد الخلفاء .

بعضهم في ناحيته ما لا يضيبه من جوائر الخليفة من المال .
 أما الأمين والمأمون وليا العهد فانهما دونه في الاسراف ولا سيما
 الأمين فانه يؤهم أنه كثير العقل وإن كان ضعيفه^(١)، ويتخذ الوقار برقعاً
 لوجهه لما يحدث به نفسه من أمر الخلافة . ولأنه ابن هاشمي وهاشمية وذلك
 لم يتفق لغيره من خلفائهم ، فإن أبا العباس وأبا جعفر والمهدي والهادي
 والرشد كلهم أولاد سراري^(٢) وأما عبد الله المأمون فانه زينة أولاد
 الرشيد ، وسمته سمة خير وفضل وعفاف ، لم أرفى أيه خلّة من الخلال
 المحمود ولا خلقاً من الأخلاق الرضية إلا وجدتها في نفسه طبيعة تسمو به
 إلى أرفع مقام في أدب الدنيا والدين ، ولم أرفى أولاد الملوك غير البرامكة
 (أعزهم الله) من يتعشق العلوم الحكيمة^(٣) على حداثة سنه وقيم بين
 العلماء لمناظرتهم^(٤) في جميع أنواع العلوم مثله ، فما أذكر أني دخلت عليه
 مرة إلا ولقيته في مجلس من العلماء والأدباء وهو متوسط فيهم كالشمس
 من حولها الضياء .

ولقد قصدت بابه من عهد قريب مع أمير من البرامكة فألفيت
 بحضرته^(٥) جماعة من أئمة العلم ومنهم الخزيمي والعباس بن زفر ومنصور
 النمرى ، وهو السليم شعره من العيب لولا أن له طعناً في الشيعة يتغنى
 به مرضاة العباسيين ، ومحمد الراوية المسمى بالبيدق لقصره وهو المنشد
 للرشيد أشعار المحدثين^(٦) ، وفتى من أمراء آل نوبخت يقال له الفضل بن

(١) ابن الأثير والمسعودي والفخرى (٢) السيوطى (٣) المقدمة ١٨ (٤)

الدميرى ١ : ٩٨ والمسعودى ٢ : ٤٠٢ والعقد الفريد ٣ : ٤٣ (٥) الأغاني ٢ : ٢٢

(٦) الأغاني ١٢ : ٢٠

سهل وهو خليل المأمون^(١) وصديقه لا يصير على فراقه في نهار ولا ليل ،
وإذا ركب في موكبه أركبه معه على النجائب المخضوبة بالحناء وعليها
القطوع والديباج ،^(٢) وكان بجانب المأمون جماعة من النحاة قد أحدقوا
به إحداق الهالة بالقمر ، منهم الكسائي وأبو محمد مؤدباه^(٣) وهم يتباحثون
معه في مسائل نحوية وكنت أسمعه يقول لهم (زيد) على الرفع والكسائي
يقول بل (زيداً) منصوبةً بأن فتطرح العلماء الجملة الإعرائية التي دار
عليها كلامهم وهي « إن من خير القوم أو خيرهم نيةً زيد »^(٤) فأجمع رأيهم
على موافقة المأمون فتحققت فضله في ذلك اليوم وعرفت أنه يدخل العلوم
من أبوابها وليس تطفلا منه كما يتبادر إلى العقل عن آداب المترفين من
أولاد الملوك .

وكان هذا الأمير إذا جالس للاستراحة يثني انصبابه إلى ما يجد فيه
من التسلية أدباً وفائدة ، ولم يكن شيء من الملاهي أحب إليه من لعب
الشطرنج^(٥) يمارسه كأبيه^(٦) لاستنباط الحيل فيه ، حتى لم يكن في الناس
من يفضلُه فيه وهو القائل في الشطرنج^(٧) .

أرض مربعة حمراء من آدم ما بين إثنين موصوفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شَبهاً من غير أن يسعيا فيها بسفك دم
هذا يُغير على هذا وذاك على هذا يُغير وعينُ الحرب لم تم

(١) ابن الأثير وذكره الوطواط ١٤٢ (٢) ذكر زينة المراكب هذه الأغاني

٨٨ : ١ (٣) الأغاني ٧٢ : ١٨ والمستطرف ١٣ : ٢ والمسعودي ٢ : ٢١٣ (٤)

الأغاني ٧٧ : ١٨ (٥) العقد الفريد ٣ : ٢٥٤ (٦) لعب الرشيد بالشطرنج أمر معروف

(٧) المستطرف ٢ : ٣٠٦ والمسعودي ٢ : ٤٠٦

فانظر إلى الخيل قد جاشت بمركبة في عسكرين بلا طبل ولا علم
وأما لعبه بالأكرة والطبّطابة ورميه في البرّجاس النشاب . وكرة
بالصّوالجة في الميدان واقتناؤه ظرائف الطير والخيل^(١) والحيوان . واتخاذ
الديكة ليقاتل بعضها بعضاً والأكباش ليناطح بها بين يديه إلى غير ذلك
من ملاذ الملوك الذين يبلغون من الترف إلى أن يعدّوا أمثال هذه الملاهي
على سبيل المفاخرة والمباهاة ، فانه كان يتخذها لما يدعو إليه موضعه من
الملك المتّرف وهو غير غافل عن اتخاذ الأشياء التي تعود عليه من وراء
الزينة والمكاثرة بفوائد من الأدب والصناعة . فقد عُني بجمع آثار الملوك
من ثياب وسلاح وآنية ومتاع وغير ذلك حتى جمع من طرائفها القدر العظيم
التمين . رأيت في بعض مجموعاته صندوقاً أودعه خواتم الخلفاء جميعاً من
العباسيين والأمويين والخلفاء الراشدين ومن كان يقوم بدعوة الخوارج بعدهم

(١) من المعلوم أنه كان لأمراء العرب العناية التامة بتربية الخيل ووجدت في
العقد الفريد أن المأمون كان يتخذ خيلاً يسابق بها خيل أبيه وأقاربه في الحلبة قال في
الجزء الأول : ٦١ ركب الرشيد في سنة ١٨٥ إلى الميدان لشهود الحلبة قال الاصمعي
فدخلت الميدان لشهودها فيمن شهد من خواص الخليفة والحلبة يومئذ أفراس للرشيد
ولولديه الأمين والمأمون وسليمان بن جعفر ولعيسى بن جعفر فجاء فرس أدهم يقال له
الريذ لهرون الرشيد سابقة فابتهج لذلك ابتهاجاً علم في وجهه وقال علي بالاصمعي
فنوديت من كل جانب فأقبلت سريعاً حتى مثلت بين يديه فقال يا أصمعي خذ بناصية
الريذ ثم صفه من قونسه إلى سنبكه فانه يقال ان فيه عشرين اسماً من أسماء الطير
قلت نعم يا أمير المؤمنين وأنشدته شعراً جامعاً ما فيه من قول أبي حرزة : . . فأمر لي
بألف درهم . وذكر المسعودي ٢ : ٢٢٠ أن الرشيد أجرى الخيل يوماً بالركة وكان
في أوائلها سوابق من خيله يتقدمها فرسان في عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه
فتأملهما فقال فرسى والله وفرس ابني المأمون

وفي صدر الدولتين ، فكان جامعاً لجميع خواتمهم^(١) إلا خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكن ضاع من عثمان في بئر أريس كما تواتر في الأنباء^(٢) ما كفى عن طلبه حتى يجده ، وفي هذا المجموع وأمثاله من المجموعات أدبٌ مع الفكاهة والزينة . وهذا ما أذكره من فضائل هذا الأمير وليس هو إلا النزر اليسير في جانب الكثير الواسع من فضله وأدبه .

جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم

أما دور ملوكنا البرامكة (أعزهم الله) فانها في الجانب الشرقى بازاء دوز الخلافة ليس بينهما إلا عرض دجلة ،^(٣) وهى من الجمال والاشراق بمكان تُسامى^(٤) به قصور الرشيد ، لأنهم بنوها على السعة التى لم يبلغها أحد من الملوك فقد أنفق جعفر بن يحيى على دار بناها عشرين ألف ألف^(٥) درهم ، فهى مظهر الأنس والصفاء ، ومشرق الأنوار والسناء . مغطاة بالرسوم والزخرفة من الداخل والخارج ، وعلىها صور من الجص المجسم^(٦) ، وقد فرشت مجالسها بالوشى والبريسم وزينت بالمتاع الثمين والقمام الذهبية^(٧) والجامات المنقوشة^(٨) والقوارير الفرعونية^(٩) ولطائف الصين

(١) فى العقد الفريد والمسعودى والمقرئى والخيس وابن الاثير ذكر كثير من خواتم الخلفاء وما كانوا ينقشون عليها (٢) أبو الفداء ١ : ٧٧ وابن جبير ١٩٩ وتقويم البلدان ٨٧ وغيرهم (٣) الفخرى والاتلدى ١٦٧ والقزوينى ٢١٠ (٤) الديميرى ٢ : ١٥٤ (٥) ابن الاثير ٦ : ٦٢ (٦) كانت العرب تعرفه كما فى المقدمة ٣٥٧ (٧) الكنز ٣٦ (٨) الأغاني ٣ : ٢٧ (٩) الأغاني ٦ : ١٣٠ و ١٠٣

وعيرها من التحف التي تأتيهم من الملوك في سبيل المراضاة والاستمالة،^(١) ولُبِّست طيقانها بأستار من الديباج عليها أبيات مرسومة^(٢) مما قالته الشعراء في مدحهم، وهي تأتيهم من مصنوعات الفرس، لأن العرب لا يعملون الطراز منذ نهام عنه عبد الملك بن مروان،^(٣) ولا يكتبون على البسط والستور إلاّ كلاماً يُتبرَّك به، بخلاف الفرس فانهم يزینون نسيجهم بالرسوم ويكتبون فيها ما يطيب لهم من الشعر أو يتبركون به من الآيات.

وقد اتصلت عمارة البرامكة في حيّ لا يخالطهم فيه أحد، وهي من السَّعة بحيث تنتهي من الجنوب إلى شارع المدينة،^(٤) ومن الشرق إلى درّب دينار الصغير،^(٥) ومن الشَّمال إلى باب الشَّماسية،^(٦) وهو الموضع الذي فيه قصر يحيى المعروف بقصر الطين،^(٧) المسمّى بذلك معارضة لما أنفق عليه من الذهب واتخذ فيه من الزينة والزخرفة، وفي جوارهم موضع يقال له البردان.^(٨) يشترّون فيه الدور من الناس ويهبونها لمن هو طامع فيهم من أهل العلم والأدب،^(٩) لأنهم قد رفعوا بيوتهم على قواعد الكرم

(١) الفخرى ١٨٦ والمقدمة ١٤ وفي ابن الأثير ٥٨: ٦ أنهم كانوا من المنزلة الكبرى في عيون الملوك بحيث أن خاقان ملك الخزر حمل ابنته إلى الفضل بن يحيى تقريباً إليهم في المصاهرة (٢) رسم الآيات على الأستار مذكور في الأغاني ٥: ٨٦ و ١٠٠ (٣) الاتيديد ٢٧٢ (٤) ذكره الأغاني ٦: ٧٨

(٥) ابن خلكان ٣١١: ٢ (٦) الأغاني ٥: ٨ وذكره المسعودي ٣٨٥: ٢ وقال انه في الجهة الشرقية تلقاء قطربل وذكر ابن الأثير ٩٨: ٦ أنه نزل به جند المأمون يحاصر بغداد (٧) الأغاني ٥: ٨ وياقوت ٤: ١١٤ (٨) الأغاني ٥: ٨ وذكر المسعودي هذا الموضع ٢: ٢٦٧ (٩) الأغاني ٥: ٧٢

والسماحة، ^(١) وأصبحت أعطياتهم كأعظم ما يكون من أعطيات الملوك،
فان يحيى إذا ركب يُعِدُّ صُرَّاراً في كل صرة مائتا درهم، ويدفعها للمتعرضين
له في الأسواق والشوارع. ^(٢) وقد قالت الشعراء في ذلك.

يا سميَّ الحصور يحيى أتيت لك من فضل ربنا جنتان
كلُّ من مرَّ في الطريق عليكم فله من نوالكم مائتان
أما وقوف الملوك والأمراء على أبوابهم فما لا تحضرني عبارة تني
بالافصاح عنه، وإنما للعين أن ترى ازدحام الخيل في ساحات قصرهم واقفة
بالخدم والحفد والعلمان مما ليس على باب الرشيد مثله، وإنَّ إقبال المؤمنين
عليهم من جميع الوجوه وأبعد الآفاق يمتطون إليهم رجال الرجا ويستقون من
موارد احسانهم، نهلاً وعللاً لأشهر من أن أحاول نعته بالوصف الذي لا يعبر
عنه القلم، فكأنما ينتهم محطَّ الركاب يضعن فيه المدائح ويحملن منه المال.
ولقد رأيت من الأعراب من قصد الفضل من قضاة فسأله عن
حاجته فاستجده عشرة آلاف درهم فاستقل ذلك له وقال له قد ازدريت
بنا وبنفسك يا أخا العرب، وإنما تُعْطَى عشرة آلاف درهم في عشرة، فلما
أخذ المال انصرف وهو يبكي فقال له الفضل مم بكاؤك استقلالاً للمال
الذي أعطيناك؟ قال لا ولكنني أبكي على مثلك تواريه الأرض ويأكله
التراب وأنشد ^(٣).

لعمرك ما الرزية فقد مال ولا فرس يموت ولا بعير

(١) الأغاني ٥: ٧٢ والاتلیدی والابشبي والوطواط وأبو الفداء وابن خلدون
والفخرى وابن نباتة وابن خلكان وغيرهم (٢) ابن خلكان ٢: ٣٦٣ والفخرى ٢٤٠
(٣) الاتلیدی

ولكن الرزية فقد حرّ يموت لموته خلق كثير
فنظر إلى الفضل بعد انصرافه وقال لى إنّ مثل هذا يقصدنا من البلد
البعيد ليسترفدنا مرة واحدة في زمانه فيقوم بحرمة الصنيعة ، ومن الأمراء
من نغمّره باحساننا كلّ يوم^(١) ثم يغيّط النعمة ويدبّ فيه مرض الحسد
فيكون من أشد الناس بغضاً لنا وسعيّاً في فساد ملكنا .

وقد انفجر البرامكة بالكرم^(٢) حتى صار يضرب بهم المثل الأكبر
في سعة العطاء ، فيقال فلان من الملوك يتبرمك ، وقد أخبرني الخازن القائم
على بيت مالهم أنهم يغلّون في كل سنة عشرين ألف ألف دينار^(٣) فإذا
انقضى الحول لا يبقى منها في الخزائن دينار واحد ، فهم يتخذون الكرم قاعدة
في الحالين من نعيم الدنيا وبؤسها . يقول أبو الفضل^(٤) (أيد الله ملكه)
إذا أقبلت الدنيا فأنفق فانها لا تفتى وإذا أدبرت فأنفق فانها لا تبقى .
وقال أبو نواس في مدحهم^(٥) .

إنّ البرامكة الكرام تعلموا فعل الجميل وعلموه الناس
وإذا هم صنعوا الصنائع في الورى جعلوا لها طول البقاء أساساً
وقال فيهم نصيب^(٦) .

عند الملوك مضرّة ومنافع وأرى البرامك لا تضر وتنفع

(١) الفخرى ٢٤٠ والطواط ٢٤٩ والعقد الفريد ٣ : ٣٤ والمستطرف ٢ : ١٩٢
والأغانى ٥ : ١١٩ (٢) الأغاني وابن خلدون وابن الأثير وأبو الفداء والمسعودى
والعقد الفريد والمستطرف والاسحاقى والاتليدى والفخرى والسيوطى وابن خلكان
(٣) العقد الفريد ٣ : ٢٨ (٤) الاتليدى فى كتاب اعلام الناس
(٥) الأغاني ٥ : ١١١ و ٣٤ : ٢٠ والحصرى ١ : ٣٧٥ (٦) الأغاني ١٠ : ١٠٠

إنَّ العروق إذا استسرت بها الثرى
فاذا جهلت من امرئ أعراقه
وقال أبو النضر البصرى :

إذا كنت من بغداد منقطع الثرى
وقيل فيهم وهو منتهى المديح .

أنا بنو الآمال من آل برمك
لهم رحلة في كل عام إلى العدا
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت
فتظلم بغداد وتمحو لنا الدجى
فما خلقت إلا لجود أكفهم
إذا راض يحيى الأمر ذلت صعابه
فياطيب أخبار ويا حسن منظر
وأخرى إلى البيت العتيق المستر
يحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
بمسكة ما تمحو ثلاثة أقر
وأقدامهم إلا لأعواد منبر
وناهيك من راع له ومدبر

وقال سلم الخاسر في يحيى ^(١) أعزه الله تعالى

يا أيها الملك الذى أضحى و همته المعالى
أنت المنوّه باسمه عند الملقات الثقال
لله درك من فتى كم فيك من كرم الخصال

وقال فيه أبو نصر ^(٢) وأنا أستحسن البيتين وأرى لهما وقعا لطيفا

فى القلوب .

نام الخليئون من هم ومن سقم وبت من كثرة الأحزان لم أنم

(١) الطواط ٢٤٩ (٢) الأغاني ٥ : ١٣ والاتليدى ٢٣٨

بر غالب الجود والمعروف مجتهداً
وقال فيه آخر^(١) اعمد ليحيى حليف الجود والكرم

سألت الندى هل أنت حرفقال لا
فقلت شراء قال لا بل وراثة^(٢)
وقال غيره

لا ترانى مصافحاً كفو يحيى
لو يمس البخيل راحة يحيى
وقال غيره فى كرم الفضل^(٣) رعا الله تعالى .

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالد
إليه يسير الناس شرقاً ومغرباً
فأرادى وأزواجاً كأنهم نحل
واعترضه وقت خروجه إلى خراسان فتى من التجار كان قد شخص
إلى الكوفة فقطّع عليه الطريق واخذ جميع ما كان معه ، فأخذ بعنان
دابة الفضل وقال^(٤)

سأرسل يتناً ليس فى الشعر مثله
أقام الندى والبأس فى كل منزل
وقال آخر من شعراء البادية^(٥)
يقطّع أعناق البيوت الشوارد
أقام به الفضل بن يحيى بن خالد

قد كان آدم حين حان وفاته
بينيه أن ترعاهم فرعتهم
أوصاك وهو يجود بالحوباء
وكفيت آدم عيلة الأبناء

(١) أعلام الناس والعقد الفريد ١ : ١٠٠ (٢) الفخرى ٢٣٦ (٣) أعلام الناس

(٤) العقد الفريد ١ : ١١٩ (٥) ذكر فى العقد الفريد ١ : ١١٤ أن

البيتين قىلا فى الحكم بن حنطب

وقال فيه أشجع السُّلبي الشاعر^(١).

وما قدّم الفضل بن يحيى مكانه
لقد أَرهَب الأعداء حتى كأنما
وقال أبو النضر البصري^(٢)
على غيره بل قدّمته المكارم
على كل ثغر بالمنية قائم

ويَفْرَحُ بالمولود من آل برمك
وتبسط الآمال فيه لفضله
وقال غيره^(٣)
بغاة الندى والسيف والرمح والنصل
ولا سيما إن كان من ولد الفضل

ولائمة لامتك يا فضل في الندى
أرادت لتثني الفضل عن سنّ الندى
مواقع جود الفضل في كل بلدة
كان وفود الناس لما تحملوا
وقال آخر^(٤)
فقلت لها ما يقدح اللوم في البحر
ومن ذا الذي يثني السحاب عن القطر
مواقع ماء المزن في البلد القفر
إلى الفضل لأقوا عنده ليلة القدر

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة
وقال ابن الخياط المكي^(٥)
رأيت بها غيث السماحة يُنبِتُ

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى
وذلك أن الفضل أمر له ذات يوم بخمسة آلاف درهم فاستأذنه في
ولم أدر أن الجود من كفه يُعدي
أفدت وأعداني فأتلفت ما عندي

(١) الأغاني ١٧ : ٣٤ (٢) الأغاني ٥ : ١٤ و ١٠ : ١٠٠ (٣) أعلام الناس
والعقد الفريد ١ : ٢٩٨

(٤) المستطرف ١ : ١٩٦ (٥) حلبة الكميت والوطواط ٢٥٠ والأغاني
١٨ : ٩٤ وهو يقول انه أنشدهما في المهدي

تقبيل يده فأذن له فما انتهى إلى الباب حتى فرق المال بأسره ، فعوتب على ذلك فقال البيتين المذكورين ، فبلغ ذلك الفضل فأعطاه عشرين ألف درهم . وقال بمضمونهم ^(١) وهو أمدح بيت في الكرم .

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء
وقال مروان بن أبي حفصة في جعفر وهو صبي ^(٢) .

بنى لك خالد وأبوك يحيى بناء في المكارم لن ينالا
كان البرمكى لكل مال تجود به يداه يفاد مالا
وقال فيه أيضاً ^(٣) .

أفى كل يوم أنت صب و ليلة إلى أم بكر لا تفيق فتقصير
أحب على الهجران أكنافيتها فيالك من بيت يحب ويهجر
إلى جعفر سارت بنا كل حرة طواها سراها نحوه والتهجر
إلى واسع للمجتدين فناؤه تروح عطاياهم وتبكر
وقال فيه ^(٤) .

لدولة جعفر حمد الزمان لبابك كل يوم مهرجان
جعلت هديتي لك فيه وشياً وخير الوشى ما نسج اللسان

(١) ابن خلكان ١ : ٥٨٦ (٢) هما من بحر القصيدة التي رثى بها معنا ولم يثبه عليها أحد من أولاده وقد قالها في مدح جعفر البرمكى وألحق بهما بعض أبيات . وما قاله مروان في هذه القصيدة في ثاء معن

كان الشمس يوم أصيب معن من الاظلام ملبسة جلالات
هو الجبل الذي كانت معد تهد من العدو به الجبالا
أقنا باليمامة بعد معن مقاماً لا نريد به زيالا
وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

وهي من جيد الشعر . الاغانى ١٨ : ١١٦ والحصرى ١ : ٣٧٧

(٣) الاغانى ٥ : ١٥ (٤) العقد الفريد ٣ : ٣٧٧ .

وقال العتّابي ، وكان في نفس الرشيد عليه مَوْجِدَةٌ واستعطفه جعفر عليه ، فقال فيه ^(١) .

ما زلتُ لى غَمَرَاتِ الموتِ مُطَرَّحًا قد ضاق عني فسيح الأرض من حيلي
ولم تزل دائماً تسعى بلطفك لى حتى اختلست حياتي من يدي أجلى
وقال فيه أشجع السُّلَمَى ^(٢) .

يريد الملوك مدى جعفر ولا يصنعون كما يصنع
تلوذ الملوك بأبوابه إذا نابها الحدث الأظع
وقال فيه ^(٣) .

ذهبت مكارم جعفر وفعاله في الناس مثل مذهب الشمس
ملك تسوس له المعالي نفسه والعقل خير سياسة النفس
فاذا تراءته الملوك تراجعوا جهر الكلام بمنطق همس
ساد البرامك جعفر وهم الألى بعد الخلائف سادة الإنس
ما ضر من قصد بن يحيى راغباً بالسعد حل به أم النحس
إلى غير ذلك من الأشعار التي لو حاولت تقييدها في هذا الكتاب
البلغت أكثر من عشرة آلاف بيت من الأبيات الجيدة ليس فيها بيت
سخيف بارد . وقد وجدت للرقاشي ^(٤) وحده ديواناً يحوى أكثر من ألف
بيت في مديحهم ، وهي من البلاغة بحيث إن البرامكة (أعزم الله)
يروونها لأولادهم تفضيلاً لها على شعر غيره من المحدثين .

(١) الاغانى ٧: ١٢ (٢) الاغانى ٣٤: ١٧ (٣) الاغانى ٣٣: ١٧

(٤) الاغانى ٣٥: ١٥ ويظهر من كلام ابن الاثير ٦: ٦٤ ان الرقاشى كان
شاعر البرامكة .

الدولة في خلافة الرشيد

نعود إلى ما نحن آخذون به من ذكر مملكة الرشيد وسياسته ، فقد سبق القول بأن دولته من أوسع دول الاسلام بل دول العالم رُقعة مملكة ، فانها تنبسط من الهند وفرغانة في الصين إلى طرف المغرب الأقصى من ناحية الزقاق ، كذلك كان امتدادها في أيام أييه فيما عدا البلدان التي غلب عليها الروم في حروب متوارة قد استمرت بينه وبينهم على غير انقطاع كما كان شأن الخلفاء في رفع السيوف عليهم منذ صدر الاسلام ، فان الدولة الأموية قد حملت عليهم المرة بعد المرة وحملتهم خسائر عظيمة من الرجال والمال ، وكذلك العباسية بعدهم قد ساقوا إليهم الجيوش ، ولم يزل أبو جعفر في مغالبتهم حتى أذاقهم مرّ البلاء ، وكانوا مع ذلك لا يفترّون عن الثورة ويأبّون إلا نكث العهود وتنقض العقود المبرمة ، فلما ولي المهدي أخرج إليهم الرشيد^(١) وهو فتى بقيادة يحيى وزيرنا ، فركب في عُدّة وأهبة لم يكن مثلها في الاسلام ، وتحركت في نفسه نخوة الجهاد حتى اتسم بِسِمَةِ المحاربين في الجيش ، وحمل الرمح في يده^(٢) . وكان على القسطنطينية ملكة يقال لها ريني لم تُطِقْ مقاومته ، فهزم جندها وتفرق المسلمون في البسائط^(٣) يُعَفُّون الآثار ويبيحون الدمار ولا يبقون على أحد من الروم ، حتى إذا نزل بجوار القسطنطينية ونصب على أسوارها المنجنيقات خافت عليها من الحريق فصالحته على كيليكية ، وحملت إليه الجزية التي كان يحملها

(١) أبو الفداء ٢ : ١٠ والخميس ٢ : ٣٣١ وابن الاثير (٢) الاغانى ١٧ : ٤٨

(٣) ابن الاثير ٦ : ٧٠

أسلافها إلى الخلفاء، وتلك أحسبها للروم من حيل السياسة في إيجاد الهدنة بالجزية فيما بينهم وبين المسلمين، ففي -نفسى أنه لو لم يتهاون الخلفاء في أمرهم ما بقي لهم مُلكٌ تجاه دول الاسلام العظيمة .

ثم إنه بعد أن ولي الرشيد وقع في نفوس الروم أن يتقاعدوا عن حمل الجزية إليه؟ فعَبَّأَ لهم العساكر وشحنها في أسطول يسوقه حميد بن معيوب أمير الأساطيل بسواحل الشام، ^(١) وسير الفرسان من ناحية البر يحرقون المدن ويُبْثُون الخراب، ففتحوا وغنموا ^(٢) وأثخنوا وأوغلوا حتى انتهوا إلى جوار القسطنطينية وأطافو بمعاقل الروم وأخذوا عليهم مهابهم، فلما أدركت الملكة العجز عن دفاعهم، ورأت الجند بين يديها وهوشيت، صالحتهم على الجزية وراحت تحملها إلى بغداد وهي صاغرة إلى انقضاء ملكها بعد أن نال المسلمون غنائمهم أعظم النيل واستشعروا من عزة الاسلام في غزوتهم تلك ما أفاضوا في التحدث به إلى هذا اليوم . والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات، وتصدر رايات الاسلام راويات .

ولما هلك ريني نصب الروم عليهم نقفور وكان ملكا شديدا البأس إلا أنه قليل الخبرة بامور السياسة غير عارف بمكان الاسلام من الصولة والدولة، بل كان يظن في المتمصرين من العرب فتورا في العزيمة وتشاغلا عن أمر الجهاد بما ركنوا إليه من دعة العمران . فكتب إلى الرشيد في مُنتَصَف هذه السنة كتابا بنفض الهدنة التي كانت بينه وبين ريني يقول فيه « من نقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب . أما بعد .

(١) ابو الفرج : وذكر امارة الاساطيل بسواحل الشام ومصر ابو الفداء ١٩: ٣

(٢) نزل حميد بن معيوب قبرص وسي من اهلها ستة عشر ألفا ابن الاثير ٦ : ٧٠ .

فان الملكة التي كانت قبلُ كانت أقامتك مُقام الرُخ وأقامت نفسها مُقام
البيدق ، فحملت إليك من أموالها أحمالا ، ^(١) وذلك لضعف النساء
وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي فاردُد ما حصل قبلك من أموالها وإلا فالسيف
يبنى وينك « فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبا حتى لم يجسر أحد
أن ينظر إليه ، فدعا بدواة وكتب على ظهر كتابه « بسم الله الرحمن الرحيم
من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن
الكافرة والجواب ما تراه لا ماتسمعه » ^(٢) ثم حشد الجنود ليومه ، وركب
في صفوف المترجلين والفُرسان ، وحمل القوات والاقوات استظهارا على
نفوذ العزيمة ، ولم يزل حتى وافى مدينة هرقلَة ^(٣) ونصب عليها القتال ،
وهي مدينة للروم لم يطمع أحد من ملوك الاسلام في الوصول إليها
لخشونة مكانها ، فدك أسوارها بالمنجنيق ومنحه الله أكتاف الروم فنقلهم
رقابهم وأموالهم وفي ذلك يقول الشاعر المكسي ^(٤)

هوت هرقلَة لما أن رأت عجبا حوائما ترتقى بالنفط والنار .

كأن نيرانا في جنب قلعتهم مُصبغات على أرسان قصار

وهذا كلام ضعيف لئلا ولكن قدره عظيم في ذلك الموضع والوقت ، ^(٥)
ولم تقف هزيمتهم على هرقلَة فقط بل كانوا يسلمون كثيرا من المعقل

(١) في تاريخ أبي الفداء انه قال فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل
أضعافه اليها لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن الى آخر الكتاب (٢) الاغانى
١٧ : ٤٥ والطبرى وابن خلدون والسيوطى والمسعودى ١ : ١٥٨ وأبو الفداء
٢ : ١٨ (٣) أبو الفداء ٢ : ١٩٠ (٤) الاغانى ١٧ : ٤٧ والمسعودى
(٥) الاغانى ١٧ : ٤٧

والبُلدان ، فكان ذلك الفتح فتحاً عظيماً لا كِفَاءَ له . وهنأت الشمرء
الرشيء . قال أبو العتاهية في ذلك^(١) .

قضى الله أن صفى لهرون ملكه وكان قضاء الله في الخلق مقضياً
تحببت الدنيا لهرون بالرضا وأصبح يتقور لهرون ذمياً
فلما ضاقت بهم الحيل ولم يكن لهم بالمسلمين قبل رغبوا في المسألة
والموادة ، وأوجبوا على نفوسهم إعطاء الجزية وهم صاغرون . ولست
أقول إن هذا الفوز كان سهلاً على الرشيء فانه قد طوح من الرجال وأنفق
من الأموال ما هو حقيق بأن يُنظر فيه ، فان الروم أهل بأس ومراس
شديد ، وهو يقاسى^(٢) معهم الحروب الصعاب ، ولم يكن في شأنه معهم
حيلة ولا سياسة ، وانما هي حروب تواصلت تباعاً وأخذ بعضها برقاب
بعض لما يروم من تفوذ السلطان حتى يركب عليهم سيف الاسلام ، وإلا
فان الجزية التي يُطمع فيها لا تفي بالقليل من الأموال التي تنفقها الدولة ،
وهي بمكانها من المهاجمة ومكان الروم من المدافعة في ظلال الأسوار ، وفي
ذلك تفاوت بعيد في خسائر القتال ، والذي يدلُّك على قوة الاسلام أنه غزاهم
غزوات كثيرة ما أخفق في واحدة منها كما رأيت .

(١) المسعودى ١ : ١٥٨ (٢) ذكر الاغانى ١ : ٣٨ أن الرشيء قال
للاصمعي عقب قدومه من بلاد الروم أنشدني أحسن ما قيل في رجل لوطحه السفر
فأنشده قول عمر بن أبي ربيعة

رأت رجلاً أما اذا الشمس عارضت فيضحي وأما بالعشى فينصر
أخا سفر جواب أرض تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر

وفي العقد الفريد ٣ : ١٧٨ تكملة هذه الايات . وهي قصيدة مشهورة يستحسن الظرفاء
طريقة نظمها لكن ربما وقع فيها تحريف من الناسخين .

هذا كان شأن الرشيد مع صُهب السُّبال ، أما السياسةُ التي اتَّعبت
خاطره فكانت منصرفة إلى اذلال العلويين في المغرب قبل أن تسود بهم
الحال ، وتسودَّ عندهم جموع الرجال . لأنه تعذر عليه محاربتهم مثل الروم
لتجافى عظماء دولته من أهل الرأي والتدبير عن قتال المسلمين على غير فائدة
إلا ضياع المال وضيعة الرجال ، ولذلك جعل الملك في إفريقية لآل ابن
الأغلب حتى يقاوموا جندهم فلا يتمكنوا من إقامة مملكة تنهال من
المغرب فتطمو على المشرق كله ، فكأنه وقع بين أمرين مخوفين فاختار
ما هو أقرب إلى النجاة بأن يملك الأغلبة المغرب حتى إذا قامت دولتهم
رسخت في مكانها ولم تتجاوز الرمال التي بين إفريقية ومصر .

على أن العلويين مع ذلك كله قد ملكوا البلاد إلى طرف المغرب ،
ولم يألُ ابن الأغلب في مناوأتهم جهداً وهو لا يبلغ الغاية التي يرومها من
إذلال مُلكهم وتضييع نفوذهم في المسلمين ، لأن جندهم مطيع لهم فيما
استقروا فيه من تلك الأقاليم ، وكلُّهم صادق الحملة مدرَّب على القتال
ولا سيما قبائل صنهاجة من بطون خيبر ،^(١) وهم أمتع الناس ذماراً ، وأبعد
الفرسان مُغاراً . وذلك أمر طيب مني النفس لا بغضاً في آل العباس لأنني
لا أريد بهم مكروهاً ، وإنما العلويون هم أهل البيت الكريم وفيهم
الأجباب الذين تعرف البطحاء وطأتهم والبيت يعرفهم والحل والحرم^(٢) كما
يقول الفرزدق الشاعر في مدحهم . فلعمري إنهم أحقُّ من الأغلبة بهذا
الملك الذي أراه اليوم يثبت في أيديهم إلى ما شاء الله من الزمان لا تجاههم إلى

(١) ذكرهم ابن خلكان ١ : ١٢٢ (٢) الأغاني ١٤ : ٨٧ والاتليدي ٥٤

والشبلنجي ١٧٠

غاية واحدة وسياسة راشدة ، فقد عرفت أن تمزقهم فيما مضى إنما حصل بتفرق دُعائهم على أغراض لم تجمع بينهم إلى الوحدة . وفيما تقدم من الكلام عن أبي جعفر ما يُبين لك أنهم لو لم يفترقوا لظفروا . أما اليوم فانهم مجتمعون إلى إدريس بن إدريس ، وله دون غيره من أهل البيت « السلام عليك يا ابن رسول الله »^(١) .

وانما سار العلويون إلى المغرب وأقروا فيه مملكتهم بايعاز البرامكة الأمجاد ، وهم الآخذون بنصارهم والمتغرضون معهم^(٢) والمقلدون الولايات لكثير من أهل الشيعة^(٣) إلا أنهم لا يتعمدون في ذلك ضرر الرشيد وهو المؤتمن لهم على مملكته ، لأن المغرب فيما يرون إذا انسلخ عن بغداد لا يحدث في الخلافة ضرراً لعظم الممالك الإسلامية ، وإنما يضر التجزؤ بالدول إذا كانت الدولة منحصرة في إقليم غير متسع إلى طرف العالم وكان في جوارها أمة ثانية متغلبة فانها تسطو عليها شيئاً فشيئاً إلى أن تلتهمها جملة واحدة ، كما رأينا في سير الأمم الماضية ، أما الخلافة الإسلامية فإنَّ الجهاد في الأعاجم يعمل على استمرار ملكها ووقايتها ، ويعود عليها من استقلال بعض الملوك في أطرافها أنهم يمنعون عنها عدوها من قبل أن يصل إليها فتحفظ خزائنها من إنفاق المال ، ورجالها من تغرير القتال . وتبيت

(١) بن خرداذبه ٧٩ (٢) في تاريخ أبي الفداء ١٢٠٢ ان الرشيد لما جهز الفضل بن يحيى الى قتال يحيى بن عبد الله كتب اليه الفضل وبذل له الأمان وربما جعل الرشيد نفسه يحسن اليه ويكرم وفادته عليه وفي ذلك دليل واضح على محبة البرامكة لاهل البيت . وذكر ابن الاثير ان الفضل بن سهل الملقب بذي الرياستين كان يتشيع وان البرامكة هم الذين اختاروه لخدمة المأمون ٧٠ : ٦ (٣) المحاضرة ٢ : ٨

في شئونها آمنة بحراستهم . اللهم إلا أن يكون فيهم من هو أشد سلطاناً ، وأكثر جنوداً وأعواناً ، وهذا بعيد عن أن يكون في دولة متجزئة من الخلافة ، ولو انضمت جميعاً إلى قيادة واحدة ما ناوأَت الرشيد وانتزعت الخلافة منه وهو بموضعه من عظم الشأن وضخامة الملك ، وله الهند والسند وأرمينية وكرمان ومصر والشام ونجد وتهامة واليمن والحجاز وفارس وخراسان ، فهذا معظم الدنيا المعمورة وأوفر بلادها ثروة وأطيبها تربة وغلة ، حتى لقد يجبى إليه من إقليم واحد من هذه الأقاليم كمصر مثلاً ما لا يجبى إلى غيره من سائر أقاليم الأطراف .

فكان ملوكنا البرامكة (أعزم الله) يرون أن قيام الدولة العلوية في المغرب داع إلى صلاح الرشيد ، وأنها تكون حجة للخلافة بما تجاهد لها في رد الأمم النصرانية . وكان جعفر يقول لى إنه لو لم يكن للرشيد في هذه البلاد النائية إلا قضاة حاكمون كما كان للملك بنى أمية في الأندلس ماظهروا على الفرّنجة والجند بين أيديهم قليل ، ولو أنه ائتمنهم لاستنفدوا ماله ، أو استنصحوهم لكانوا عليه لاله ، فيثبت بعد ذلك أن حبه وآل بيته للعلويين يعود بالمنفعة على الرشيد والمصلحة على جميع المسلمين ، لأنه إذا قامت دولتهم في المغرب كان ذلك أثبت لبقاء الأندلس في يد المسلمين .^(١) وربما أعاد الله سبحانه على يدهم ما استعاده الفرّنجة من البُلْدان التي فتحها طارق بن زياد والله يُبيد أمماً ويُنحي أمماً لا إله إلا هو ذو الملك والسلطان .

(١) نذكر هنا أنه قامت في المغرب بعد ذلك إلى وقت الدول العظيمة التي فتحت الفتوح وأعزت الإسلام

عمران بيت المال

لم يبق علينا لبيان عظم دولة الرشيد إلا أن نذكر قدر المال الذي يحمل إليه من جميع الممالك والبلدان ، فانه لم يُسمع عن دخل دولة من دول الخلفاء أنه تجاوز القدر الذي يحمل إلى بيت المال في زمانه ، مع أنه يسلك مع الملوك مسلك الحلم ، ولا يضرب عليهم الخراج إلا على قدر ميسرتهم . وان كان قد زال عنه القليل مما يحمل إليه من المغرب فقد استعاض عنه بالكثير مما فرض على بلدان النصرانية التي غلب عليها الروم من الأموال التي لا يصح أخذها ^(١) من المسلمين كالخراج والعشور التي تؤخذ على جميع غلاتهم ، ^(٢) فقد بلغ المحمول إليه في كل سنة نحواً من خمسمائة ألف ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب ، ما عدا الغلال والمصنوعات كما ستراه . فحمل الناس كثرة هذا المحمول على أن يعدّوه بالوزن لا بالعدد ، فيقولون إنه يبلغ ستة أو سبعة آلاف قنطار من الذهب ، ^(٣) إلا أن ذلك غلو وإفراط في تعظيم الشيء ، فمن المعروف أن القنطار إنما هو زنة ثلاثين ألف دينار؟ ويبعد أن يكون في العالم ألفا ألف ألف دينار من الذهب ، ولو جاز وجودها ما صح أن تُحمل كلها إلى بيت المال ولا يبقى منها شيء في أيدي الناس لمعاملاتهم . وتقديرهم هذا وان كان بعيداً عن الصحة يدلُّ على الكثرة وأنَّ المال يحمل إلى بغداد بالصبر ^(٤) لوفور الخيزر .

وعندى أن ما يحمل اليوم إلى بيت المال لم يكن يحمل نصفه إلى

(١) ابن جبير ٧٦ (٢) الزرقاوى (٣) مقدمة ابن خلدون (٤) القزوينى ١٠

خزائن الأمويين ولا الخلفاء الأولين من بني العباس، ولا يبعد أن عمالهم كانوا يحجزون من مال الجزية قدرًا لا يحملونه إليهم لاختلاف تقدير الجزية على أهل الذمة بين ثمانية وأربعين درهماً تؤخذ من ذوى اليسار وأربعة وعشرين من الصناع وأهل الحرف واثنى عشر درهماً من ذوى الفاقة والاعسار^(١) : دون أن يكون فى الدواوين عملٌ لذلك . ولما قام وزيرنا^(٢) : أيدى الله بأعباء الدولة فرض على العمال ما هو مفروض على ناحيتهم من جزية وخراج وغير ذلك حتى صار يُقرَّر الدخل فى السجل من قبل أن يحصل فى يديه ، فلم يبق سبيل إلى نقص الأموال إلا فيما يؤخذ من المكوس على السلع وما يتصرف به العمال من نفقات^(٣) ولاياتهم وليس هو إلا القليل فى جانب الكثير من دخل الدولة .

ولا يطرأ على تقدير هذه الأموال شيء من الزيادة والنقصان بتقل البلاد من حال إلى حال . وربما غلبت عليها الزيادة لوفور الخير والعدل . فقد كان حاصل السواد وهو أرض^(٤) ما بين الموصل وعبادان فى الطول وما بين عذيب بالقادسية إلى خلوان فى العرض عشرين ألف ألف درهم فى زمن الحجاج^(٥) لكثرة الظلم ، فلما ارتفع عنها الجور ساد فيها العمران^(٦) حتى صار يُحمل منها اليوم نحو ستين ألف ألف درهم . وكان حاصل فارس وأصبهان وكرمان فى عهد الأمويين ثلاثين ألف ألف درهم . فلما انتظمت فيها الأحكام وانتشر فيها العدل حمل منها البرامكة خمسة

(١) المقرئى والمستطرف ١ : ١٣٨ (٢) هو جعفر بن يحيى البرمكى

(٣) ذكره المقرئى ٢ : ٩٧٠ (٤) الماوردى ١٩٩ (٥) المستطرف وابن

خر داذبة ٣٦ (٦) المستطرف ١ : ١٢٥

وأربعين ألف ألف درهم . وكذلك عهد الخلفاء بمخراج مصر « بعد ما جباها عمرو بن العاص في زمن الخيراتني عشر ألف ألف دينار »^(١) تدلّى إلى ألف ألف وتسعمائة ألف دينار ، وذلك لاختلال أمرها وسوء سياسة العمال ، فلما تولّاها البرامكة جَبَوْا منها للرّشيد ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ،^(٢) واستمرت على ذلك إلى هذا اليوم .

ويُحْمَلُ إلى بغداد غير هذه الأموال المقررة والغلال الكافية لارزاق الجند وعَلَفَ خيلهم قدرٌ من المصنوعات والغلات التي تكون في البلدان فيحمل من السواد مائتا حُلَّةً من الحلل النّجْرانية ومائتان وأربعون رطلا من طين الختم الأحمر الذي يطبع به على طرف الرسائل السلطانية ، ويحمل من الأهواز ثلاثون ألف رطل من السكر ، ومن فارس ثلاثون ألف قارورة من ماء الورد ، ومن أصبَهان عشرون ألف رطل من الزبيب الأسود . ومن مَكْران خَمْسُمِائَةِ ثوب من المتاع اليماني وعشرون ألف رطل من التمر ومائة رطل من الكمون ، ومن السُّند مائة وخمسون رطلا من العود الهندي . ومن سَجِسْتان عشرون ألف رطل من السكر وثلثمائة ثوب ، ومن خُرَاسان ألفا ثُقْرَةً من نِقار الفضة وأربعة آلاف برذون وألف رأس من الرقيق يُتَّخَذُونَ خُدَمًا في دور الخلافة ، ويكون لأمرأى بنى هاشم وغيرهم من عظماء الدولة نصيب وافر منهم ، وعشرون ألف ثوب من المتاع وثلثون ألف رطل من الإِهْلِيلَج وألف وثلثمائة قطعة من صفائح الحديد ، ومن جُرْجان ألف شُقَّة من الإِبْرِيسَم .

ومن قُومَسَ خمسمائة نُقْرَة من تقار الفضة . ومن طَبَرِستان ونهاوند
ستمائة قطعة من الفرش الطبرى ومائتا كُسوة وخمسمائة ثوب وثلثمائة
ألف منديل وثلثمائة جام . ومن الرّىّ وقزوین عشرون ألف رطل
من العسل ، ومن همّذان ألف رطل من ربّ الرمان واثناعشر ألف
رطل من التين ، ومن الموصل وما إليها وأعمال نِدَوَى عشرون ألف رطل
من العسل الأبيض . ومن الجزيرة وأعمال الفرات ألف رأس من الرقيق
واثنا عشر ألف زقّ من العسل وعشرة بُزاة مُرَبّاة لصيد الملوك وعشرون
كُسوة من الحرير للبيت الحرام ، ومن أرمينية قَدَر من البُسْط ومن
قَسْرين والجُنْدُألف حمل من الزيت ، ومن جُنْد فِلِسْطِين ودِمَشْق قَدَر
كبير من الفاكهة اليابسة وثلثمائة ألف رطل من الزيت ، ومن إفريقية
مائة وعشرون بساطا ، ومن اليمین شىء كثير من المتاع ، وكذلك من نجد
وعُمان واليمامة والحجاز وكنكُور وحُلُوان ومِهْرَان وشَهْرَ زُور
وأذربيجان ومصر وجند الأَرْدُن يحمل كثير من الحبوب والمصنوعات التى
تصرف على الجند وتنفق فى مصالح الدولة^(١).

وهذا المال كلّه يتصرف فيه الخليفة دون أن يعارضه فيه أحد من
أرباب الدولة إلاّ فيما يعرضه عليه البرامكة من دفاتر الدواوين الموازنة بين
دخل الدولة وخزجها . وقد تجمع كثيره فى بيت المال منذ صدر هذه
الدواة حتى إن أبا جعفر (غفر الله له) ١١ أدركه الموت قال للمهدى فى وصيته
إنه خلّف له من الأموال ما إن كُسِرَ عليه الخراج عشرين كفاه لأرزاق

(١) مأخوذ من مقدمة ابن خلدون ٢١٤ وكتاب قدامة ورسالة ابن خرداذبه

الجند ومصلحة البعوث وغير ذلك .^(١) ولقد أخبرني يحيى (أعزه الله) عن خالد أبيه وكان قائماً على بيت ماله أنه بلغ ما خلف من المال أربعة عشر ألف ألف دينار وستمائة ألف ألف درهم ،^(٢) فلو لم يكن إلا هذا في خزائن الرشيد^(٣) لكفى دولته فخراً على دول الخلفاء ، وبهاء ليس مثله من بهاء . فأما الفخر فيكون لها من حيث المنعة لأنه ما دام بيت مالها عامراً فلا تزال ممتنعة على العدو ، وأما البهاء فيأتيها من المال وإتقاه في الوجوه التي ترفع الدولة وفيما يدعو الملوك المترفين الذين يتوسعون في نعيم العيش إلى تزيين دولهم برواج الأدب كما رأينا من إقبال الرشيد على تقريب العلماء إليه وانتفاعه بعلمهم في دينه ودنياه .

مجلس الغناء بدار الرشيد

كان الرشيد يتخذ للعلماء والندماء والشعراء مجالس مناظرة وعرض أدب وصناعة كما كان يصنع أبوه (رحمه الله) ثم يجيزهم على موضعهم من العلم بما لا يكاد يُحصى من الجوائز ، وإن الذي كنت أرتاح إلى شهوده من المجالس بداره إذا حضر وقته هو مجلس الغناء ، على أنى لم أره في السنين الماضية أحفل منه في هذه السنة ، وكان الرشيد قد نشط له وقام بلُبُسَته التي يلبسها في الصيف ، وهي غلالة^(٤) رقيقة يتوشح عليها بازار رشيدى عريض العلم مخرج ، وكان بين يديه جامات ذهب فيها دنانير^(٥) يُجيز بها

(١) ابن الاثير ٦ : ٧ (٢) المسعودى ٢ : ١٩٤ (٣) ذكر ابن الاثير ٦ : ٧٦ انه كان في بيت المال لما توفي الرشيد تسعمائة ألف ألف ونيّف (٤) ذكرها الاغانى ٥ : ٣٣ (٥) الاغانى ٩ : ٥٨

من يطيب منه المسموع وتصلح عنده الصنيعة ، ومن حوله جماعة من بني هاشم والفضل وجعفر من البرامكة (أعزهم الله) ، وهما جالسان محانه على سرير الخلافة .

ولما اجتمع المغنون جلسوا في صفوفهم بناحيتين من المجلس للمناظرة^(١) بينهم في الغناء . فمنهم المتعصبون للغناء القديم وهم جماعة إسحق النديم ، ومنهم المقصرون عن أدائه والمغيرون له وهم جماعة إبراهيم بن المهدي . وكان سبب هذا النزاع بين إبراهيم وإسحق أن إبراهيم تنفى بلحن قديم أصنع صناعته فرد عليه إسحق وعاب عليه تغييره فقال أنا ملك وأبن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ما ألتذ ، فتخالفا في ذلك فانضم إلى غرض إبراهيم إسماعيل بن جامع وفليح بن العوراء ويحيى المكي وعمرو بن بانة وشارية وزيق وبنو حمدون وحسين بن محرز والهدلى وغيرهم ، وبقي مع الموصلى المترفعون عن الأغراض والآخذون بمحاسن الغناء من حيث طرائق الصناعة مثل مخارق وعلويه وعريب وبذل وسليم بن سلام ومحمد الرف وزير بن دحمان وأحمد بن يحيى المكي ومحمد بن حمزة بن الوصيف وغيرهم^(٢) وكان قوم إبراهيم بن المهدي قبل وزارة جعفر (رفع الله قدره) أكثر عدداً من حزب إسحق ، لأنهم كانوا يتقربون بكفالاته إلى الرشيد فلما أخذ البرامكة بناصر إسحق وجهروا بتفضيله رجع الى غرضه كثير من المجيدين ، ولم يزل المغنون في أهل البيوتات مثل البرامكة وآل هاشم وآل الربيع يتمسكون بالغناء القديم ويحملونه كما يسمعون ، فلم يكن من مفسد له إلا الذين تقدمت

(١) ذكر هذه المناظرة الأغاني ٥ : ٢٦ بين الموصلى وابن جامع

(٢) من كتاب الأغاني

أسماءهم وجماعةٌ من أولاد العباسيين مثل إبراهيم وأخيه يعقوب وإختهما عليّة وعبد الله بن الهادي وعيسى بن الرشيد وغيرهم^(١) ممن يترفعون عن أن يُقيد غناؤهم بالمحفوظ من أصوات المتقدمين وإن كانوا بموضع جليل من هذه الصناعة . فهذا إبراهيم ليس في الناس أعلمُ منه بالنغم والوتر والايقاعات ولا أطبعُ على الغناء . ولقد رأيته إذا غنى بمجلس الرشيد قَرُب كل من في دور الخلافة من أقرب موضع يمكنهم أن يسمعه فيه لحسن صوته ، وقليل ما كانوا يسمعونَه إذ كان لا يغنى إلا على حال تصوُّنٍ عن الغناء وترَفُّعٍ إلا أن يدعوَه إليه الرشيد في خلوة أو إذا كان عنده جعفر فيقول له أحبُّ أن تُشَرِّف جعفرًا^(٢) بأن تغنيه صوتًا فيغنى . ولقد كنت ذات يوم في خدمة أميرنا (أعزه الله) فغنى إبراهيم على أبيات لمروان بن أبي حفصة يقول فيها^(٣) :

طرتك زائرةٌ فحَى خيالها زهراء تخطِط بالجمال دلالها

-
- (١) أنظر أخبار من غنى من أولاد الخلفاء في الكتاب التاسع من الأغاني
(٢) كذا في كتاب الأغاني وربما قال الخليفة هذه الكلمات تحباً لأخيه وهي « لا تنقص من قدر جعفر شيئاً فقد ذكر ، صاحب العقد ١ : ١٠٠ أن منزله كانت عظمة حتى إذا دعا إبراهيم بن المهدي لجعفر قال له إبراهيم جعلني الله فداك إنما أسعد بمساعدتك وآنس بمخالاتك وأعاد القصة نفسها في الكتاب الثالث صحيفة ٣٤ وذكر في الكتاب الأول صحيفة ١٦٧ أنه لما زار جعفر سليمان صاحب بيت الحكومة قبل سليمان يده وقال له بأبي أنت ما دعاك إلى أن تحمل عبدك هذه المنة التي لا أقوم بشكرها ولا أقدر أن أكافئ عليها . وذكر صاحب مروج الذهب ٢ : ٢٢٧ عن مسامرة الرشيد لجعفر أنه كان إذا انصرف من مجلسه خرج الرشيد حتى يركب مشيعاً له
(٣) الأغاني ٩ : ٧٢ والالتلیدی ٢٨٧

هل تطمِسُون من السماء نجومَها بأَكْفُكم أو تستُرُون هلالَها
أو تدفعُون مقالةً من ربكم جبريلُ بلغها النبيُّ فقالها
فلما بلغ قوله «جبريل بلغها النبي فقالها» هزَّ حلقه فيه ورجعه ترجيعاً
زُلْزَلَتِ الأرضُ منه ، فما أظنُّ أحداً يقدر على أداء الأصوات مثله إلا اسحقَ
المخالفَ له على هواه والمقرَّ بما له من جميل الصناعة لولا أنه أفسد الغناء
القديم وجعل للناس طريقاً إلى الجسارة على تغييره .

وأول من غنى في ذلك اليوم إبراهيم أبو اسحق وكان ذلك بإشارة
مسرور العبد اذ كان أمرُ المغنين مفوضاً إليه ،^(١) وإذا أحبَّ الرشيد أن
يسمع صوتاً^(٢) أشار إليه فأشار هو إلى المغنين فغنى إبراهيم .

ولى كبد مقروحة من يميني به كبداً ليست بذات قُروح
أباها على الناس لا يشترونها ومن يشتري ذاعلة بصخيخ
واللحن فيه ما خورى^(٣) لا يعرفه أحد مثله . ثم غنى على أبيات قالها في
بعض قرى الرِّيِّ

أنا في الرِّيِّ مقيمُ في قرى الرِّيِّ أهيمُ
ربما نبهني الإخوانُ والليلُ بهيمُ
حين غارت وتدلَّت في مهاويها النجومُ
للتى تُعَصِّرُ لما أينعت منها الكُرومُ
ولحنها من الثقيل الأول باطلاق الوتر في تجرى البنصر^(٤) ثم غنى .
ألا يا اسلمى يادار مى على البلى . ولا زال مُنْهَلًا بجَرَ عاتك القطرُ

(١) الأغاني ٦ : ٧٤ والمسعودي ٢ : ٢١٩ (٢) العقد الفريد ٣ : ٣٤٢

(٣) الأغاني ٥ : ٣٦ (٤) الأغاني ١ : ٢

الشعرُ لذي الرُّمة والغناء له بلحن خفيف الثقيل الثاني ^(١). ثم غنى
وقفتُ على ربع لمةً ناقتي فما زلت أبكي عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أثبته تكلمني أحجاره وملاعبه

الشعر لذي الرُّمة أيضاً والغناء ثانی ثقيل مطلق في مجرى البنصر، ^(٢)
تفاجاد إبراهيم حتى كأنَّ كل ما في المجلس يجيبه ويردُّ الصوت معه لحسن
غناؤه، فطرب الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ولا سيما من اللحنين اللذين
سمعهما في شعر ذي الرمة لأنه كان يحفظ أبياته كلها في صباه، فكان إذا
غنى فيها صوت أعجبه أكثر من جميع الأصوات التي يصنعها المغنون فيما
لا يحفظه من الشعر، ففطن إبراهيم لذلك وطلب إليه أن يقطعه شعر ذي
الرمة ويحظر على غيره من المغنين أن يداخلوه فيه فأجابه إلى ذلك فأصاب
إبراهيم عليه من الجوائز ما يتجاوز التقدير ^(٣).

ثم أشار مسرور إلى إسماعيل بن جامع القرشي وهو من المتعصبين
على إسحق فغنى .

لم تمس ميلا ولم تركب على قتب ولم تر الشمس إلا دونها الكليل
تمشى الهويني كأنَّ الريح ترجعها مشى العافير في جيئاتها الوهل
الشعر للأعشى ^(٤) والغناء الأول لابن فيه سريج بلحن الرمل بالبنصر ^(٥)
ثم غنى بلحن خفيف الثقيل الأول بالوسطى ^(٦) على أبيات عمر بن أبي ربيعة .

(١) الأغاني ٥: ٣٩ (٢) الأغاني ١٦: ١١٦ (٣) الأغاني في
الكتاب الخامس (٤) العقد الفريد ٣: ١٧٣ (٥) الأغاني ٦: ٨٢
(٦) الأغاني ٦: ٨٢.

كَأَنَّ أَحْوَرَ مَنْ غَزَلَ لَنْ ذِي بَقَرٍ أَعَارَهَا شَبَهَ الْعَيْنِينَ وَالْجِيدِ
أَجْرَى عَلَى مَوْعِدٍ مِنْهَا فَتُخَلِّفُنِي فَمَا أَمَلْتُ وَلَا تَوَفَى الْمَوَاعِيدِ
كَأَنِّي حِينَ أُمْسَى لَا تَكَلُمُنِي ذُو بَغْيَةٍ يَتَغْنَى مَا لَيْسَ مَوْجُودِ

ثم غنى بلحن الهزج بالوُسْطَى^(١) على هذين البيتين .

شَكُونَا إِلَى أَحِبَابِنَا طَوَلَ لَيْلُنَا فَقَالُوا لَنَا مَا أَقْصَرَ اللَّيْلَ عِنْدَنَا
وَذَاكَ لِأَنَّ النَّوْمَ يَغْشَى عَيُونَهُمْ سِرَاعًا وَمَا يَغْشَى لَنَا النَّوْمُ أَعْيُنَا
فَأَجَادَ إِجَادَةً يَرْتَاحُ إِلَيْهَا أَهْلُ الطَّرَبِ^(٢) مِمَّنْ يَحِبُّ الْخِلَاعَةَ فِي
الْأَصْوَاتِ ، فَهُوَ يَمِيلُ إِلَى ظَرْفِ الْغَنَاءِ وَالنَّغَمِ الْكَثِيرِ الْعَمَلِ^(٣) كَمَا يَمِيلُ
إِلَى ظَرْفِ الْمَعَاشِرَةِ وَالْإِفْتِنَانِ فِي خِلَاعَةِ الْمَلْبَسِ^(٤) .

ثم أشار صاحب السِّتَارَةِ إِلَى إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ صَاحِبِ هَذَا الْفَنِّ
بِفَجَاءِهِ غَلَامٍ مِنْ غُلَامَانِ الدَّارِ بِعُودِ هِنْدِيٍّ^(٥) كَانَ مَوْدَعًا لَهُ فِي خِزَانَةِ
الْمَجْلِسِ^(٦) قَدْ أُصْلِحَتْ أَوْتَارُهُ قَبْلَ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، لِأَنَّ الْعِيدَانَ لَا تُصْلَحُ
فِي مَجَالِسِ الْمُلُوكِ ،^(٧) فَضَرَبَ عَلَيْهِ نَغَمَاتٍ صَاحٍ لِأَجْلِهَا الْقَوْمَ جَمِيعًا ثُمَّ غَنَى
قَلَّ لِمَنْ صَدَّ عَاتِبَا وَنَأَى عَنْكَ جَانِبَا
قَدْ بَلَغْتَ الَّذِي أُرِدَ تَ وَإِنْ كُنْتَ لَاعِبَا

الشعر والغناء له ولحنه من الثقل الثاني بالسبابة في مجرى الوُسْطَى^(٨) ،

(١) الاغانى ٦ : ٧٧ و ٨٢ (٢) المستطرف ٢ : ١٨٨ والاعاني ٤ : ٩٨

و ٦٥ : ٦ (٣) ذكر ابن جامع هذا صاحب العقد الفريد ٣ : ٢٣٩ وقال أنه

أحلى المغنين نغمة (٤) الاغانى ٦ : ٩٦ (٥) ذكر العود الهندي الاتليدي ١٣٠

(٦) الاغانى ٥ : ١٠٩ (٧) الاغانى ٥ : ٥٨ (٨) الاغانى ٥ : ٧٥ و ١٢٦

و ٩٠ : ٥٤ و ٥٧ والشريشي ١ : ٣١٢

ثم غنى بلحن وضعه مَعْبَدٌ في أبيات لأبي صخر الهُذَلِيّ^(١) وهي
 عجبت لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
 فباحبها زدني جَوِّى كل ليلة وياسلوة الأيام موعِدُك الحشر
 وإني لتعروني لذِكرِك هِزَّةٌ كما انتفض العصفور بالله القطر
 هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر
 فطرب الرشيد وقال له زدنا يا أبا صفوان من غنائك ، وأبو صفوان
 كنية ياقبه بها عند التجبُّب^(٢) فغنى بهذين البيتين .

الطلول الدوارسُ فارقها الأوانس
 أوحشت بعد أهلها فهي قفر بسابس

غناء لم أجد أحسن منه موقعاً في القلوب ، وكنت في ذلك الوقت
 جالساً بمقرُبة من أبيه فقال « لو لم يكن من بدائع إسحق غيرُ هذا لكفى » .
 « الطلول الدوارس » كلمتان و « فارقها الأوانس » كلمتان أيضاً وقد
 غنى فيهما استهلالاً وصاح وسجع ورجع النعمة واستوفى ذلك كله في
 أربع كلمات وأتى بالباقي مثله . فمن شاء فليفل مثل هذا أو ليقاربهُ » . ثم
 قال « والله ما في زماننا فوق ابن سُرَيْج والغريض ومَعْبَد ، ولو عاشوا حتى
 رأوه لعرفوا فضله واعترفوا له »^(٣) والغناء لاسحق خفيفٌ ثقيلٌ
 بالبِنْصر . ثم وجد في نفس الرشيد إقبالا عليه وطرباً من صناعته فغنى لحناً
 صنعه في شعر للمنخل البشكريّ يقوله في بعض بنات الملوك المناذرة^(٤)

(١) الاغانى ٥: ١٦ والطواط ٩٠ والاتليدى ١٤٣ (٢) الاغانى ٥: ٥٢

(٣) الاغانى ٥: ٨٧ و ١٢٨ (٤) الاغانى ٩: ١٦٦ و ١٨: ١٥٢

ولقد دخلتُ على الفتاة . عِ الحِذرَ في اليومِ المطيرِ
فدفعْتُها قدافعت مشى القِطاةِ إلى الغديرِ
فلثمتُها فتَنفست كتنفس الظبي الغريرِ
فأجاد في الغناء إلى ما وراء الغاية ، وقال الرشيد وقد كاد يخرج من
ثيابه لشدة الطرب « والله ما الغناء الذي يُلين العريكة ويُفسح في الرأي
والصدر ويحدث في النفس طرباً إلا غناء هذا الرجل » .
ثم أشير إلى فليح بن أبي العوراء فقضى على لحن صنعه في يَتِينٍ لَعْدِيٍّ
ابن الرِّقَاعِ العامليِّ^(١)

وكأنَّها بين النساءِ أعارها عينية أخورُ من جاذِرِ جاسِمِ
وسنانُ أقعده النُّعاسُ فرنقت في عينه سِنَّةٌ وليس بنائمِ
ثم أتبعه بلحن من الثَّقیلِ الأولِ بإطلاق الوتر في مجرى البِنْصرِ صنعه^(٢)
في يَتِينٍ للمؤمِّل من شعراء الدولة الأموية .

ألا يا ظيئةَ البلدِ براني طولُ ذا الكمدِ
فردِّي يا معذبتِي فَوَادِي أَوخَذِي جَسَدِي^(٣)
وهو يعارض فيه اللحن الذي صنعه أبو اسحق فأجاد ولكنه قصّر عن
أن ينحو نحو صناعة المَوْصِلِيِّ ، وإن كان قد مضى في بعض كُتُبِ السالفة
ما يشهد لموضعه الجليل من هذه الصناعة ،^(٤) إلا أنه قد وجد اليوم من

(١) المستطرف والشرشي ٢ : ٢٨٠ (٢) الأغاني ١٩ : ١٤٧

(٣) في قول الشيخ ابن الفارض

أخذتم فَوَادِي وهو بعضي فما الذي يضركم لو كانت عندكم الكل

التفات إلى هذا البيت (٤) ذكر مثل هذا الأغاني ٤ : ٩٨ و ٩٩

برعه وبرع الناس كلهم^(١) في طيب المسموع ومحاسن الصنعة .
ثم أشير إلى مخارق^(٢) من حزب إسحق ، وهو طيب الصوت يعد
هو إبراهيم بن المهدي وابن جامع وعمر بن أبي الكنات من أجسن الناس
صوتاً^(٣) فغنى بصوت رخيم .

ياربع سلمى لقد هيجتلى طرباً زدت الفؤاد على علاته وصبا
فكنت أحسب أن الدنيا قد صارت أحراناً^(٤) ليا لم في غنائه من إبراز
معنى البيت وما وراءه من توجع العاشقين ، ثم غنى :

إني استحييتك أن أفوه بحاجتي فاذا قرأت صحيفتي فتفهمني^(٥)
وعليك عهد الله إن أخبرته أحداً وإن أظهرته بتكلم

الشعر لابن هرمة والغناء لعبادل من منى الحجاز ، ثم غنى :

فبت فيما شئت من نعمة يمنحنيها نحرها والفم

حتى إذا أصبح بدا ضوءه وغارت الجوزاء والمرزم

خرجت والوطء خفي كما ينساب من مكنه الأرقم

الشعر لاسماعيل بن يسار والغناء له بلحن الرمل^(٦)

ثم غنى يحيى المكي بلحن صنعه في بيتين لمحمد بن أمية من كتاب

إبراهيم بن المهدي^(٧)

أحبك حباً لو يفيض سيره على الناس مات الناس من شدة الحب

(١) الأغاني وابن خلكان والاتليدي وحلبة الكيت (٢) ضبطه ابن خلكان

١١ : ١ بضم الميم (٣) الأغاني ٩ : ٣٥ (٤) الأغاني ٢ : ١٨٩

(٥) الشعر مذكور في الحصري ٣ : ١٨٣ (٦) الأغاني ٤ : ١٢٣

(٧) الأغاني ١١ : ٢٤

وأعلم أنى بعد ذاك مُقَصِّرٌ لأنك فى أعلى المراتب من قلبى
ثم غنى بلحن خفيف الرَّمَلِ^(١)

طَرَقْتُ زَيْنَبَ وَالْمَزَارُ بَعِيدٌ بِنَى وَنَحْنُ مُعْرِسُونَ هُجُودٌ
فَكَأَنَّمَا طَرَقْتُ بَرِيًّا رَوْضَةً أَنْفٌ تَسْحَسِحُ مَرْزُهَا وَتَجُودُ
فَكَانَ لَحْنُهُ كَثِيرَ الْعَمَلِ حُلُو النِّعَمِ صَحِيحِ الْقِسْمَةِ مُحْكَمِ الصَّنْعَةِ وَلَوْلَا
ذَلِكَ مَا أَطْرَبَ النَّاسَ غَنَاؤُهُ وَهُوَ شَيْخٌ مُسِنَّ

ثم غنى سليم بن سلام من جماعة إسحق^(٢)
أَفَاطِمُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَزْمَعْتُ صَرْمِي فَأُجْلِي
أَغْرَكَ مِنِّي أَنْ حَبَّكَ قَاتِلِي وَأَنْتَكَ مَهْمَا تَأْمُرْنِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ
ثم غنى^(٣)

أَتَيْتُكَ عَائِذَا بِكَ مِنْكَ لَمَّا ضَاقتِ الْحِيلُ
وَصَيَّرَنِي هَوَاكَ وَبَنِي لِحَيِّينِي يُضْرَبُ الْمَثَلُ
فَإِنْ سَلِمْتَ لَكُمْ نَفْسِي فَمَا لَا قِيَّتُهُ جَلَالُ
وَإِنْ قَتَلَ الْهَوَى رَجُلًا فَإِنِّي ذَلِكَ الرَّجُلُ
الشعر لمحمد بن أبي محمد اليزيدى وَيُكْنَى أبا عبد الله ، والغناء له
ثَقِيلٌ أَوَّلُ بِالْبِنْصَرِ إِلَى أَنْ قَالَ .

وَقَفْتُ عَلَى رُبْعٍ لِسَلَمَى وَعَبَّرْتَنِي تَرَقَّرَقُ فِي الْعَيْنَيْنِ ثُمَّ تَسِيلُ
أَسْأَلُ رَبِّعًا قَدْ تَعَفَّتْ رُسُومُهُ عَلَيْهِ لِأَصْنَافِ الرِّيحِ ذُيُولُ
وَاللَّحْنُ لَهُ هَزَجٌ خَفِيفٌ بِالسَّبَابَةِ ،^(٤) فَطَرِبَ الرَّشِيدُ وَقَالَ لَوْ كُنْتُ

(١) الأغانى ٦ : ٢١ (٢) ذكر المسعودى ٢ : ٢٩٦ غناء بهذين البيتين

(٣) الأغانى ١٨ : ٨٣ (٤) الأغانى ٦ : ١٢

سَكَمَ الوادى ما زدت على هذا الاحسان فى هزجك^(١).
ثم غنى حسين بن مُحَرِّزٍ عن صنعة يحيى^(٢) المقدم ذكره فى
هذين البيتين .

هل هيجتك منانى الحى والدورُ فاشتقت إن الغريب الدار معذور
وهل يحلُّ بنا إذ عشنا أنقُ بيضُ أو انسُ أمثالُ الدُّمى حُور
ثم غنى .

خمس دَسَسُنْ إلى فى لطف حُورُ العيون نواعمُ زُهرُ
فطرقتهن مع الجرى وقد نام الرقيب وحلق النسر
الشعر للاخوص والغناء لمعبَّد رَمَلُ بالسبابة فى مجرى البِصَرِ^(٣) ،
فأجاد لكنه لم تظهر له صناعة يسمونها إلى مقامات المتقدمين فى الغناء ،
وكذلك جميع من غنى بعده فى ذلك اليوم إلا الزير بن دُحمان فانى وجدت
لغناؤه موقعاً حسناً فى النفوس وكنت أرى الرشيد يتمايل طرباً من غناؤه
إذ غناه .

رَضِيتُ الهوى إذ حل بى متخيِّراً نديماً وما غيرى له مَنْ ينادمه
أعاطيه كأس الصبر بينى وبينه يقاسمُنيها مَسْرَةً وأقاسمه
الشعر لبشار بن بُرْد والغناء له هَزَج بالوسطى^(٤) ثم غنى .
أسرى بخالدة الخيال وما أرى شيئاً ألدَّ من الخيال الطارق^(٥)
أهوالك فوق هوى النفوس ولم يزل مذ بنتِ قلبى كالجنَّاح الخافق^(٦)
الشعر لجرير والغناء لابن عائشة رَمَل بالوسطى ثم غنى .

(١) الأغانى ٦ : ١٣ (٢) الأغانى ٦ : ١٩ (٣) الأغانى ١٦ : ٩٢
(٤) الأغانى ١٧ : ٧٣ (٥) العقد الفريد ٣ : ٢٣٦ (٦) الأغانى ٩ : ٥٠

حيّيا - خولة منى بالسلام دُرّة البحر ومصباح الظلام
لا يكن وعدك برقاً خلّباً كاذباً يلمع في عرض الغمام
واذكرى الوعد الذى واعدتنا ليلة النصف من الشهر الحرام
الشعر لأعشى همّذان والغناء لاحمد النصيبى ولحنه من القدر الأوسط
من الثقيل الأول باطلاق الوتر فى مجرى البصر وعروضه من الرمل^(١)
فأجاد فى هذا الصوت الأجاذة التامة حتى ايس فى المغنين من يقاربه
بلحن الثقيل .

ثم تعاقب المغنون على طرح الأصوات فى نوباتهم فلم أستحسن منها
إلا صوتاً لعبث صناعه فى ييتين لابن الدُمينة^(٢) :

وأذكر أيام الحمى ثم أنتى على كبدى من خشية أن تصدّعا
وليست عشيّات الحمى برواجع عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا^(٣)
ولحناً واحداً صنعته فى شعر وضاح اليمين .

إنّ الوُشاة إذا أتو كِ تنصّحوا ونهوكِ عن
إنّى تهيجنى السيكِ حمامتان على فئن
فاسقى خليلك من شرا ب لم يكدره الدّرّن
الريحُ ريح سفرجل والطعم طعم سلاف دّن
حتى إذا ظن فى نفسه اقتداراً على الصناعة وأراد أن يعارض اسحق
باللحن الذى صنعته فى شعر العباس بن الأحنف وهو .

لاجزى الله دمع عيني خيراً وجزى الله كلّ خير لسانى

كنتُ مثل الكتاب أخفاه طيًّا فاستدلوا عليه بالعنوان
سُقِطَ في يده وقصّر دون بلوغ المرام . وكان في جملة المغنين رجل
أعْمى يقال له أبو زَكَار وهو شديد التعصب للغناء القديم وكان آخرَ من
غنى في ذلك اليوم بدأ بلحن صنعه في هذا البيت .
يا راكب العيس التي وفدت إلى البلد الحرام
وثنيّ بأخرا لإبراهيم الموصلي صنعه في بيتين لعمر بن أبي ربيعة^(١)
وهما قوله .

ليت هندا أنجزتنا ما تعدّ وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدّت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد
فلم تظهر له بهما صناعة إلى أن تغنى بهذه الأبيات .
يا أيها القلب المطيعُ الهوى أننى اعتراك الطربُ التارحُ
تذكرُ جملاً فاذا ما نأت طار شعاعاً قلبك الطامح
هلا تناهيت وكنت امرأ يزجرك المرشد والناصح
مالك لا تترك جهل الصبّا وقد عسلاك الشَّمَط الواضح
ولحنها ثانی ثقیل بالسبابة في مجرى الوُسْطَى^(٢) فأحسن كلّ الاحسان
في تأدية النغم كأنّه لا تظهر صناعته إلا بغناء ما في معناه زجرو وتذكير من
الأبيات^(٣)

(١) الأغاني ٦ : ١٥٠ وذكر ابن حلدون في المقدمة أنه غنى الرشيد بهذين البيتين
ليوعر صدره على البرامكة . وقد أنكر ذلك ١٥ (٢) الأغاني ولكن لم يذكر
لأن زكار صناعة بها (٣) إنما نسبت لأنى زكار صناعة النغم المحزن لأنى طالما
ذكرت البيتين اللذين غنى بهما جعفرأ قبل أن ينكبه الرشيد وهما قوله

ولما تولى النهار أوماً الرشيد إلى المغنين بأن يحلوا صفوفهم، ثم فرق فيهم الجوائز بقدر أهليتهم من الصناعة، فمن مصيب ألف دينار ومن مصيب خمسمائة، ومن مصيب دون ذلك. ثم فرق فيمن يتخلل الفناء بضرب المعازف دون ما فرقه على المغنين من المال، فأصاب الجوائز السنية أربعة منهم وهم منصور زلزّل^(١) وكان يضرب على عود من العيذان التي صنعها معارضةً لعيذان الفرّس وهي غجب من العجب،^(٢) وكأثما تُزلل المجالس بحسن نغمها،^(٣) وبرُصوم الزامر^(٤) وهو أحسن الناس زمراً بناي، كان إذا زمر فيه يحدث النغم الذي يريده مع صحة المقاطيع والتقسيمات حتى كأنه ينطق بين يديه بلسان آدمي. وجعفر الطيّال وهو يحسن التوقيع على الطبل^(٥) وكان يضرب بالكوبة^(٦) في ذلك اليوم، ورابعهم الفريض وهو مشهور بضرب البغود والتوقيع بالقضيب والنقر على الدف. ^(٧) ولما انصرف المغنون لم يبق في مجلس الخليفة إلا إسحق النديم وجعفر والفضل من البرامكة، وقد طلع علينا من هواء دجلة في ذلك الوقت نسيم طابت النفوس به انتعاشاً بعد هاجرة أصابنا بالنهار حرّها، حتى إذا رفعت أستار الطيقان التي تطل على حدائق القصر وقعت في

فلا تبعد فكل قى سياتى عليه الموت يطرق أويغادى

وكل ذخيرة لا بد يوماً وان كرمت تصير الى نفاد

فلم تمثل لى صناعته الا بمثل ما ذكرته لك بلسان الراوية (١) ذكر صاحب العقد ٣ : ٢٣٩ أنه مغن من الطبقة الثانية ولكنه قال بعد ذلك انه كان أضرب الناس للوتر (٢) الأغاني ٥ : ٢٤ (٣) ابن خلكان ١ : ١١ (٤) ذكره الأغاني ٦ : ١٢ في غير موضع والعقد الفريد ٣ : ٢٥٩ وقال انه كان مغنياً (٥) الأغاني ١٤ : ٥٤ (٦) ذكرها القناوى ٢١ (٧) الأغاني ٢ : ١٢٩

موضعا شمس الغروب وهي ترسل علينا شعاعاً متناثراً كالذهب يهتز في
نواحي المجلس باهتزاز الفصن الرطيب تحت خطرات النسيم حتى كأن القصر
يرقص بنا سروراً بأهله وعزة بمقامهم الرفيع .

هذا ما أذكره لك عن المغنين وليس هو إلا المحفوظ في ذهني من
غنائهم مجرداً عن بيان طرائقهم في الأصوات وصناعاتهم في وضع النغمات ،
لأنني لو أخذت في ذلك ما وعته الصحف الكثيرة الواسعة^(١) . وقد وقع
تدوين هذه الرسالة في غرة المحرم من السنة الخامسة والثمانين بعد المائة
من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أشرف الصلاة وأزكى التحية

الرسالة السابعة

في ذكر آداب العرب

هذه رسالة إليك أفردتها لذكر آداب العرب وعلومهم ، فقد طالما
شهدت مجالسهم بدار الرشيد في محاوره فقهاء ، وحلق علماء ، ومنادمة
أدباء . ومناظرة جدليين ، ومراواة رواة ، ونوب مغنين .^(٢) وذلك من
الحظوظ التي لا يتفق مثلها لغيري من المتصلين بالملوك ، لأنني كنت أقرب
الناس مكاناً إلى الرشيد تحت ظل البرامكة ، وكنت من الحظوة لديه بحيث

(١) راجع كتاب الأغاني ان شئت فيها مطولا (٢) واحدها نوبة وقد
ذكرها الاغاني ٢٠ : ٦٤ بمعنى الاسم من المناوبة والناس اليوم يطلقون اسم النوبة على
ضرب المعازف وآلات الطرب

إذا جلست إلى منادته عدل عن جلال موضعه من الخلافة ورجع إلى محاسن المناداة من اطلاق النفس على صفاء الأخوان ، فكان يعمد إلى نخدة ^(١) يجعلها تحت نخذه ويمكن منها جلوسه ثم يقول هلمَّ بحديثك ، ^(٢) وهذا غاية ما يكون من الملوك إذا طابت نفوسهم بمناداة الجلساء . وكنت إذا انقردت بمجلسه دون أحد من المقربين إليه أخرج جواريه على غير ستارة فيجلسن مكللات بالأزهار ^(٣) مزيئات باللؤلؤ والزبرجد ^(٤) وأفخر أنواع الجوهر فينزين ويضربن بالملاهى إلى هُدء من الليل ، فاذا أتاه من الحرم ^(٥) التفاح ^(٦) المنقوش المطيب ^(٧) وغيره من الفاكهة وأنواع الحلوى عزم على أن أجلس إلى طعامه ، ^(٨) وكان يجب أن أحدثه عن علوم الفرس وصنائعهم لما طبع الله فيه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الوقوف على أخبار الماضين من الأمم ، ولذلك كانت دولته تزداد خيراً وصلاً ، وينعم فيها العلم روحاً واسترواحاً . حتى إذا أقبل إليه العلماء من جميع الوجوه يستمطرون غيث نداءه حقق لهم جميل أملهم فيه ، وبسط يده لإقطاعهم الضياع المأمرة ، وصلتهم بالهبات الوافرة .

وكانت همة الرشيد مصروفة إلى ترجمة كتب الفلاسفة من يونان وغيرهم ، بعد أن رأى جعفرًا وزيره يتتاع من صحفهم ما يأمر الترجمة

(١) الاغانى ٥ : ١٢٢ (٢) الاتليدى ١١١ (٣) الاغانى ٧ : ٣٦

(٤) الاغانى ٤ : ٦٢ (٥) المسعودى ٢ : ٥٦ (٦) وجدت في بعض الكتب .

أن الرشيد كان يحب التفاح ويقول هو أحسن الفاكهة لأنه اجتمع فيه يياض الفضة ولون التبر ويلذ به من الحواس العين يبهجته والانف بريحه والفم بطعمه . العقد الفريد

٣ : ٣٧٥ (٧) الاغانى ١١ : ٣٥ (٨) العقد الفريد ٣ : ٣٠٠

بتعزية^(١) ثم يعطيهم زنة الكتاب المعرب ذهباً ، (لأن سوق العلم نافقة عند البرامكة^(٢)) (أعزم الله) وهم الذين استنهضوا هم العلماء إلى تعريب صحف الأعاجم ، وأشاروا بعمل الكاغد لنسخ أسفارهم ، وقد رأوا الرقوق التي تستعمل في الشكوك ورسائل السلاطان لا تكفيهم في تدوين مصنفاتهم ومعرباتهم فأرأوا من عمل الكاغد^(٣) ذريعة إلى نشر العلم الذي غنوا برفع مناره بحيث لم يدعوا سبيلاً إلى ارتفاع الأمة به إلا سلكوه ، وقد أغقبهم هذا المسلك فخراً تتناقله الألسنة عنهم بطيب الأُحدوثة فحسدهم الرشيد على ذلك ، وفي نفسه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الاطلاع على كنوز الحكمة ما قد رأيت في كتب السالفة إليك ، فأنفذ رسله في إحراز الأسفار القديمة ، وكتب بإشخاص الترجمة الذين يحسنون العربية من الروم وغيرهم من أمم النصرانية ، وتقدم إليهم بتعريبها إلى اللغة السهلة التي تفهمها العامة وترضى بها الخاصة .

فلما تناول العرب هذه الأسفار مهروا في استخراجها ووقفوا على أغراض الحكماء منها ،^(٤) فرقوا من الأدب المقام الذي لم ترقه أمة قبلهم في المشرق . وهذا من الأمور التي تدل على ذكاء العرب^(٥) ونبل الهمة عندهم وأنهم يبلغون الغاية التي يرومونها من جميع المطالب في برهة يسيرة من الزمان ، فانا لا نجد في أخبار الأمم السالفة من حاز من أطراف الدنيا مثل ما حازه المسلمون في مثل المدة التي وقعت فيها الفتوح ، فقد كان من شأنهم عندما صار الأمر إلى بني أمية أن حازوا أكثر الأقاليم وابتزوا

(١) ابن خلكان ١ : ٢٣٦ (٢) الفخرى ٢٣٥ وابن عبد ربه

(٣) المقدمة ٣٦٨ (٤) راجع المقدمة وكتاب حاجي خليفة (٥) المسعودي ١ : ٢٣٦

الأعاجم سلطانهم ، ووصلوا من الشرق إلى السند والهند وتجاوزوا المغرب إلى أبعد من الأندلس شمالا . وما مثلهم في سرعة هذه الفتوح إلا مثلهم في سرعة تحصيل العلوم وبلوغهم من المدنية ، على قرب عهدهم بها ، ما لم تبلغه أمم العلم من قبلهم . فن الغريب الذي ينطق بما عندهم من الهمة والفتانة أنهم لم يقتصروا من الحكمة على نقل فلسفة اليونان بل وجدناهم يرمون إلى أغراض من الفلسفة بعيدة ، ويضعون على قواعد اليونان شرحاً^(١) أصابوا الرأي بالزيادة فيه بعد البحث والتحصيل ،^(٢) وذلك غير ما فتحوا من الأبواب الواسعة للنظر في العلوم الرياضية وتحريرها وإصلاحها وغير ذلك .

وكان أول عهد العرب بالعلم في خلافة أبي جعفر^(٣) لأنه كان يعزّز جانب الحكمة ويبحث عن مكان العلم للوقوف على آداب الأولين ويعزّز على أهل الكتابة أن يدوّنوا الأسفار الكثيرة لاداعة العلوم بين الناس ، إذ لم يكن معروفاً عندهم من قبله إلا علم الرواية وأخبار العرب وعلم الأحكام الشرعية واستنباطها من القرآن والحديث وعلم العروض الذي وضعه الله تعالى في صدورهم وبضاعة مزرّاة من النّجامة وعلم الأفلاك مما اقتبسوه من الفرس والهنود ، فلما جاءت هذه الأيام تسحب عليهم أذيال الدّعة والنعيم بعد أن فرغوا من أعمال الحروب التي وقعت في صدر هذه الدولة وجهوا همّهم إلى النظر في فنون الأدب لتجديد ما طمس من معالم العلم ، فكتبوا في جميع فروعه وفنونه بحيث إنه لو جمعت كتب أمة قديمة

• (١) حاجي خليفة ٣ : ٩٢ (٢) ابن خلكان ١ : ٢٦٣ (٣) السيوطي

عهدٍ بالمران ما وُجد ما تحويه من العلم أعظم مما تحويه كتب العرب .
وإني أذكر أن الرشيد لما ركب إلى الرقة في بعض أسفاره حمل معه ثمانية
عشر صندوقاً من أسفارهم^(١) ليقطع بمطالعتها زمانه مع أنه لم يأخذ منها الا
نخبة مما في خزائنه وقد وجدت في قصره بناءً بالقاطوا، ليخرج إليه
للتنزه^(٢) خزانة كتب تحتوي على أكثر من ألف كتاب : وحسبنا
ذلك شاهداً على ما نروم ذكره من كثرة الصحف التي دونها العرب بين
تعريب وتصنيف .

الطب والاطباء

كان أبو جعفر (غفر الله له) يوجه عنايته إلى علم الطب من بين العلوم
فبنى تعليمه حلقة كبيرة فوَّض أمرها إلى طبيب أعجمي يقال له « فرات
ابن شحتانا » وهو من تلاميذ تياذوق^(٣) الذي كان طبيباً بدار الحجاج أمير
العراق ، فتخرج عليه طائفة من النصاري^(٤) دون المسلمين ولست أحسب
السبب في إعراضهم عن هذا العلم إلا ظنهم كفاية ما لديهم من المخرَّبات
التي توارثوها من مشيخة الحنابلة وعدم حاجتهم إلى مثل هذه الصناعة في
كسب الرزق وترفعهم عنها كغيرها أنفة . وذلك خطأ عليهم شينه
وخسرانه ، إذ قد خلت منهم في دور الخلافة مراتب أُسندت إلى أطباء
النصرانية فبرعوا عليهم في هذا العلم وعربوا كتب جالينوس وأبقراط من
حكايا اليونان وأضافوا إليها كثيراً مما عرفوه من علم الحيوان بعد وقوفهم

(١) الأغاني ٥ : ٦٧ (٢) ابن الاثير ٦ : ١٦٦ (٣) أبو الفرج ٢٠٠

(٤) في الأغاني ومقدمة ابن خلدون ذكر كثير من أطباء النصاري دون المسلمين

على مقالات ارسينخاس^(١) وديمقراطيس^(٢) وغيرهما من العلماء الذين يُرجع إلى كلامهم في طبائع الحيوان وخواصه ومنافع النبات ومضاره .

ولقد كان مظهر الطب في النصرانية رجل^٣ يقال له ماسويه أبوحنا وكان أمياً لا يعرف القراءة إلا أنه تلقى الطب من أفواه اليونان وطالت به المراتة له والتجربة فيه إلى أن بلغ منه المكان الذي لا يدفع، وكان له ولدان يقال لهما يحيى ويوحنا فتخرجا عليه في علمه ومعهما ثالث يقال له جبريل ابن بختيشوع فبرعوه في شفاء الأمراض .

فأما يوحنا فانه صار طبيباً بدار الخلافة ودون رسالة طويلة أودعها ما عرض له من التجربة في معالجة أهل السقام، واتخذ مجلساً أفردته للنظر في استنباط طرق العلاج باجتماع الرأي مع غيره من الأطباء، وكان الرشيد قد ولاه ترجمة الكتب^(٣) التي وصلت إليه من مدونات الأطباء والحكام مثل أبقراط وجالينوس وغيرهما فأحسن تعريبها كل الاحسان مع ما وجد فيها من الصعوبة التي نال منها مشقة عظيمة . وذلك بخلاف الكتب التي عرّبت في خلافة المهدي وأبي جعفر فانها لم تكن جديرة بالثقة بها ولا الالتفات إليها، إذ كانت عارية من القواعد التي وضعها الحكماء وليست تحوى سوى طرق من العلاج أشار بها ضعفاء العقول من الأطباء، وكانت إلى الجهل والخرافة أقرب منها إلى العلم والحقيقة، فلم يجد الترجمة في تعريبها عناء يُجهد النفس . أما الكتب التي عربها ابن ماسويه فانها من أصح ما صدرت به أقلام اليونان وأنفسيه .

وأما جبريل بن بختيشوع فانه تبخر في جميع العلوم الداخلة في علم

(١) المسعودى ١ : ٩٢ (٢) حاجى خليفة ٣ : ١٢١ (٣) أبو الفرج ٣٧٧

الطب ، وكتبَ في حياة الحيوان رسائل^(١) تدلّ على سعة إطلاعه ، وكان جعفر^(٢) (أعزه الله) شديد الحب له والاحتفاظ به ، حرصاً على ما وسع صدره من العلوم ، فقرّبه الرشيد إليه برأى البرامكة واتخذَه في دور الخلافة بدل صالح الهندي الذي كان مقدّمًا^(٣) من قبله على أطباء بغداد ، فلما صار إلى هذا المقام الجليل ورأى الناس يرجعون إلى رأيه فيما يُشير به من هذا العلم حملهم على الاعراض عن الدجّالين ، وهم الشيوخ الذين بعدت المهابة عنهم ودل ما بلغوه من الشيخوخة على بلوغ الخرف منهم فيزعمون أنهم يُطبّون الناس بالمواعظ^(٤) ليملكوا أفئدة العوام بما لا فائدة فيه من الخرافة ، فوفّق بعلمه إلى بلوغ الناية التي رامها من قطع السبيل عنهم دون الارتزاق بهذه الجهالة التي تميّت الأذهان الضعيفة .

ويأتى بعد جبريل بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه طبقة « ثانية من الأطباء كلهم من أمة النصرانية إلا عيسى أبا قریش الصّيدلانيّ ، وليس هو بطبيب ماهر ولكنه رُزق الشهرة بين الناس عن اتفاق وقع له بأن بشّر الخيزران في خلافة أبي جعفر بأنها تحمل مولوداً ذكراً يصير إليه أمر الأمة ، فلما ولدت وكان ما ولدته غلاماً أفرغت النعمة عليه واتخذته طبيباً في دار الخلافة ،^(٥) وقد سمعتُ من يقول إن الخيزران إنما قربته لمهارته في الحِجامة لا في الطب ، فإن صحت الرواية كان عندي أحقّ بالثقة فيه حجاماً من الثقة به طبيباً ، إذ لست أثق من الطب إلا بما يحفظ الصحة للصحيح ، أمّا وسائل العلاج التي يزعمون أنها تُبعد العلة عن العليل بعد تمكّنها منه

(١) حاجي خليفة ٤ : ١٢٥ (٢) أبو الفرج ٢٣٥ (٣) أبو الفرج ٢٣٨

(٤) المسعودي ٢ : ٥٨ (٥) أبو الفرج ٢٩

فأنا من الثقة بها على شيء، لأنني أحسبها من باب الغوص على أسرار الطبيعة، وطالما وجدت للأطباء في العلة الواحدة آراء متباينة، ومن المعروف، عند العقل أن الخلاف في الأمر الواحد لا يطابق الحق فيه إلا وجه واحد. أما الحجة فأنها على خلاف ذلك، والرأي فيها واحد يقضى بحذف الجزء الفاسد وفصله، وإني وإن كنت على بُعد من الطب لا أجد بدءاً من الاقرار بفضل العرب فيما استنبطوه من العلاج وما عرفوه من مركبات العقاقير التي لم يسبق إليها أحد من المتقدمين ولا المتأخرين، ولا غرو فان للطب صناعة لا تُبلَّغ الغاية منها إلا على طول التجربة والاختبار في الممارسة، ولذلك كان المتأخرون يفضلون فيها المتقدمين في كل عصر وأمة، وقد قال علي عليه السلام^(١)

ألا لن تنال العلم إلا بسة سأُنبيك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واصطبار وبلغة وارشاد أستاذ وطول زمان

النجامة وعلم الأفلاك

لقد سبق الالماع إلى ذكر النجامة وأنها من العلوم التي كانت معروفة قديماً عند العرب، غير أن الاجتهاد فيها كان محصوراً في نفر قليل من أتباع الأقبال الذين تداولوا ملكهم قبل الاسلام، فلما جاء أبو جعفر قرَّب إليه المنجمين وقدم عليهم نوَّ بخت^(٢) المنجم المشهور عندنا بين أعظم المجوس وفضلائهم ومن له كبير علم وجزيل فضل، فاتخذ في الزوراء حلقة شهدها

(١) الكنز ١٣٩ والشبلنجي ١٠٢ (٢) ذكره القزويني وابن الاثير

وغيرهما في استشارة أبي جعفر اياه في بناء الزوراء

كثير من الناس ، إلا أنه لم يخلفه في علمه كالأوصلي المنجم ، فانه كتب في الأسطرلاب سِفْراً أودعه من علم الكواكب وسيرها وحركاتها أصولاً يُعيرها العلماء جانب الثقة والاعتبار ويرجعون إليها في علم النجامة والأفلاك ثم نجم بعده في المسلمين علي بن عيسى الأسطرلابي ^(١) وإبراهيم الفزاري المنجم ومهرا في استخراج النجامة من كتب الفرس ، وقد عثرت في خزائن البرامكة (أيد الله دولتهم) على أرجوزة في علم الأفلاك وهيئتها نظمها إبراهيم هذا المنجم ^(٢) فجاءت ناطقة بحسن نظره ولطيف مأخذه وجيل موضع من هذا العلم . وله كتاب مشهور في الزيج ذكر فيه من غير حركات الكواكب جوامع من مساحات الممالك والبلدان أذكر مما قيده في أقاليم الاسلام أن عمل أمير المؤمنين من فرغانة وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ٣٨٠٠ فرسخ والعرض من باب الأبواب إلى جدة ٦٠٠ فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ٣٠٠ ، ومن مكة إلى جدة ٣٢ ميلاً ^(٣) ، وعمل الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية ٣٠٠ فرسخ ، وعمل إدريس ١٢٠٠ في ١٢٠ فرسخاً ، وعمل فاس لأبي المنتصر ٤٠٠ فرسخ في ٨٠ فرسخاً ^(٤) . ثم نبغ بعدهما تيوفيل بن توما الرهاوي ^(٥) وكان المقدم على جميع المنجمين في خلافة المهدي (رحمه الله) ، وكانت له معرفة تامة باليونانية حتى سما إلى ترجمة كتاب شاعر يقال له أميروس عن فتح مدينة إيلون في العصر الخالية إلى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة ، ^(٦) وأميروس هذا شاعر مجيد

(١) المسعودي ٢ : ٤٠٠ (٢) المسعودي ٢ : ٤٠٠ (٣) المسعودي

(٤) ذكر ابن خلدون في المقدمة منجماً من الروم يقال له توفيل الرومي وأنه كان

في أيام بني أمية (٥) أبو الفرج ٢٢٨ (٦) المقدمة ٥٣١

كان يفترف المعاني من بجان التصوّر ويبرزها في الصورة التي يعجز عن مثلها الشعراء ، فوقف نظمه بين الحكمة والإجادة موقفاً لا يسمو إلى متناوله إلاّ العقول النيرة والأذهان الثاقبة ، وقد أثنى عليه أرسطو^(١) في كتابه بمديح يرفعه إلى أسامي مقامات العقول .

أما المنجمون في هذه الأيام فهم اثنان مشهوران ما شاء الله اليهودي وأحمد بن محمد النهاوندي ، ودونهما في الشهرة ثالث يقال له محمد بن موسى^(٢) المنجم . فاما ما شاء الله فيقال إن له حظاً في علم الغيب ،^(٣) وكان في جملة المنجمين الذين اتصلوا بأبي جعفر بعد توبّخت وكسبوا الانعامات منه ، وهو اليوم بدار الترجمة أخذ عن أمر الرشيد بتعريب الكتب التي تبحث في علم الأفلاك . وأما أحمد النهاوندي فانه في الموضع الأجل من علم الرصد ألف فيه كتاباً سماه المستمال وأودعه من تحقيق النظر وتعميق الفكر فيما عرّض له من أمور الفلك بما رصد في مدينة جنديسابور ما لم يسبق إليه أحد من المنجمين ، ودوّّن في الموازنة بين علوم الفرس والهند واليونان فيما عرفوه من النجامة وسلكوا طريقته إلى آخر زمانهم كتاباً آخر صور فيه الدنيا كلّها للرشيد بيحورها وجبالها وأوديتها وأقاليمها وبلدانها وسائر أماكنها ، وجعل الدرجة خمسة وعشرين فرسخاً والفرسخ اثني عشر ألف ذراع والذراع اثنتين وأربعين إصبعاً ، والأصبع ست جسات وتسعين مصفوفات بعضها إلى بعض ،^(٤) وهذا مما يحتاج إلى دقة النظر في معرفة عرض الأرض وطولها ومناسبة الأقاليم فيما بينها وغير ذلك .

(١) الأغاني ١٥ : ٨١ (٢) أبو الفرج ٢٤٨ (٣) ذكرها المسعودي

وقد أهداني هذا المنجم نسخة مصورة من كتاب المستمال في السنة الرابعة والثمانين بعد المائة من الهجرة ، ولكنه أخبرني أنه لم يرسله بين الناس لما يحتاج إليه من المراجعة والاصلاح بسبب ما يعرض له من أمور الفلك الذي يباشر رصده في هذا الوقت .

ولقد مضى في كلامنا عن الطب أن النصارى برعوا فيه على المسلمين وكذلك نقول في هذا الباب إنَّ الفُرس برعوا في النجامة على العرب ، لأنني رأيت هؤلاء يتجافون عنها ويعُدُّونها هي والسحر^(١) الذي ينهى الشرع عنه علماً واحداً ، بخلاف جماعتنا من الفرس فانهم يوجهون عنايتهم إلى العلا في مباحثهم ومناظراتهم ، ولذلك تجد انصبابهم إلى الرصد وما يُنبئ عنه من إشارات النجوم والكواكب أعظم من انصبابهم إلى ما سواه من العلوم ، وكان المقرَّب لهم في الاسلام أبو جعفر المنصور^(٢) كما ذكرت ذلك في مواضع من الكتاب لأجل أن يُطلعوهُ على طواريء الجو وحدوث الأنواء وانتقال الشمس والقمر والكواكب في بروجها وينبئوه عن جذب الأرض وخصبها لما يكون من معرفة ذلك قبل أوانه من المنفعة العظيمة للملوك ، ثم قرَّبهم البرامكة (أكرمهم الله بأكرم الكرامات) لاستشارة الاصطربلاب^(٣) في جلوسهم وركوبهم وما يباشرون من جميع الأعمال ولينظروا في النجوم ويدركوا علم الأبعاد ويوقعوا زمن الكسوف^(٤) وعقدوا لهم مجلساً يتناظرون فيه لتحقيق ما يستنبطونه من حركات

(١) القناوى ١ هـ (٢) السيوطى (٣) ذكر صاحب الأغاني والالتلیدی

أن جعفرًا استشار الاصطربلاب يوم نكبه الرشيد (٤) العقد الفريد ٢ : ٧٨٥

الكواكب المتحركة والمتحيزة وأسبابها بطرق هندسية ، وما يرون من
الأفلاك التي تختص بالكواكب الثابتة وغير ذلك . وتقدموا الى مَنْ له علمٌ
بالنجوم أن يُعَرِّب كتاب المجسطي لبطليموس من حكماء يونان واتخذوا آلة
للمرصد تعرف بذات الحلق ، ^(١) فكان يجتمع عليها المنجمون وفيهم جماعة
من أدباء العرب الذين لم يشاركونا في هذا العلم إلا بما يلتبسون من معرفة
الأيام والشهور والسنين من طريق حركة كل كوكب وهو الفرع الذي
يسمونه بعلم الأزياج ^(٢)

الحديث وعلوم الشرع

الحديث هو العلم الذي هوت إليه أفئدة المسلمين ، وكان شأن العرب
فيه في صدر الاسلام أن يرحلوا من بلد إلى بلد ليسمعوه من الصحابة ثم من
التابعين ثم ممن سمع من التابعين من غير أن يدونوه في الصحف ، فلما أسرع
الموت في العلماء وكانوا كلهم شيوخاً فزِع أهل العلم إلى الطروس وأخذوا
يدونون ^(٣) الحديث مثل ما وجدوه في الناس محفوظاً بطريق الاسناد
ولكن من غير أن ينظروا في الرواية النظر الجلي ولا أن يعتمدوا في النقد
الأصل المرعى . فكتب ابن جريج بمكة ، ^(٤) ومالك بن أنس بالمدينة ،
ومعمر باليمن ، وسفيان الثوري بالكوفة ، وهشيم بن بشير ^(٥) بالعراق ،

(١) وقال ان المأمون أول من اتخذها في الاسلام وانها كانت معروفة عند

اليونان كما يستدل على ذلك من العقد الفريد (٢) المقدمة ٤٢٧ وحاجي خليفة ٣ : ٥٦

(٣) الزرقاني ٥١ : ١٠ (٤) الزرقاني ١ : ١٠ (٥) ابن خلكان ١ : ٥٢

والأغانى ٥ : ٥٤

والأوزاعي بيروت^(١) من ساحل الشام ، وحماد بن سلمة وشعبة بن الحجاج وابن أبي عروبة بالبصرة ، وذلك كله في خلافة أبي جعفر^(٢) رحمه الله . وكان أصحابهم حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن أنس وهو رأس المحدثين ،^(٣) رأيته إذا أراد أن يحدث تواضعاً وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وتهيبة ثم حدث ، فقلت له في ذلك ، فقال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدث به إلا متمكناً على طهارة ، وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائماً أو مستعجلاً ، ويقول أحب أن أتفهم ما أحدث به عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه لما جاء هذا العصر والناس مطلعون على حكمة الفرس واليونان وما في أنواعها من الخروج عن الملة ، أخذ الأئمة في وضع علم الكلام صيانة للدين أن تخالطه البدع ويقع فيه التخالف ، ثم أخذوا في تمييز المحفوظ من الحديث كله لمعرفة الصحيح من الفاسد الموضوع ، وكان أول من أخذ في ذلك فقيه الإسلام أبو يوسف ، وكان من عليّة أهل الحديث وهو الذي أخذ الناقلين بأغلاطهم^(٤) ونبذ الموضوع من أحاديثهم ، وكان يقول اثنان لا يسلمان من اثنين من طلب النجوم لم يسلم من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب ،^(٥) ثم أخذ أخذ العلماء المجتهدون من بعده ، ومنهم أبو اسحق الفزاري وعبد الله بن المبارك وهما أشهر الأئمة لأيماننا

(١) حاجي خليفة ٣ : ٢٨ وذكر ابن الاثير وأبو الفداء وفاته سنة ١٥٧

(٢) السيوطي (٣) ابن خلكان ١ : ٦٢٦ (٤) ابن خلكان ١ : ٢٧٦

(٥) العقد الفريد ١ : ١٩٩ و ٢١٣

هذه ، والرشيذ لا يسمع الحديث إلا عنهما . ولا يلتصق الرد على الزنادقة إلا منهما . فكان إذا أخذ على الزندقة جماعة يقولون له وهو يضربهم الحدود أين أنت يا أمير المؤمنين من ألف حديث وضعناها عن النبي صلى الله عليه وسلم ما فيها حرف نطق به ؟ فيقول لهم وأين أنتم يا أعداء الله من أبي اسحق وابن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً^(١) .

ولقد أخبرني هذان الامامان أنهما يؤلفان في فقه الدين وعلم الكلام رسائل يذكران فيها مذاهب الأئمة ثم يتطرقان منها إلى الرد على الذين يقولون بمخلوق القرآن ويزعمون أنه يحوى غير العربي الفصيح من الكلام ، وهذان المذهبان^(٢) فاشيان اليوم بين الناس ، والأول منهما أشد خطراً على الاسلام لأن زعم الخروج عن اللغة ضعيف الحجة واهى الدعاة بما يُعلم عن العرب أنهم خالطوا الأمم في تجاراتهم وأسفارهم وعلقوا من لغاتهم ألفاظاً استعملوها في أشعارهم ومحاوراتهم حتى جرت مجرى العربي الفصيح ، فما ورد في القرآن من الألفاظ الأعجمية إما دخل في العربية الفصحى بطريق الاستعمال والتعليق^(٣) بحيث إنه لا يكاد يرى فيه من هذه الألفاظ ما لم يرد في شعر البلغاء من الجاهليين ، وفي هذا القدر كفاية للرد على هؤلاء المفترين فيما يزعمون . أما الذين يذهبون إلى أن القرآن مخلوق فللعلماء من أهل الاجتهاد حجج قائمة لا فرائهم على الله مخمدة لنار الفتنة التي كنت طي مذهبهم ، وهذا من الأمور التي ينبغي أن ينظر فيها الأولياء بعين الحذر ، لأن الفتنة لا تؤمن غائلتها بعد فساد الدين ، ويكون

(١) السيوطي (٢) الدميري ١ : ٩٨ والكشكول والاتقان ١ : ٦٨ أو

ابن الاثير والاتليدي ٢٤١ وغيرهم (٣) الاتقان في تفسير القرآن ١ : ١٤٩

آخر أمرها بواراً على الدولة ومدعاة لسقوط العرب الذين ما فتحو البلدان وحازوا سلطان الأعاجم إلا بنخوة الدين وفتوة الاسلام .

ولقد عثرت في مدونات الفقه على كتب جليلة أجلتها كتاب لأبي حنيفة في الكلام^(١) اسمه الفقه الأكبر، وله في هذا العلم الشايف الذي لا يدرك، وكتاب لمالك بن أنس سماه الموطأ، وذهب في استنباط الأحكام الشرعية من القرآن والحديث إلى مذهب ينفر به عن مذهب أبي حنيفة، وهو الكتاب الذي يقرؤه الرشيد ويحفظه في صدره^(٢) تفضيلاً له على غيره من كتب الفقه . وعثرت أيضاً على كثير مما دونه العلماء فيما يُشتق عن الفقه من علوم الأحكام، منها لأبي حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله، ومنها لابن شبرمة وابن أبي ليلى،^(٣) وقد أفردا نظريهما في علم الفرائض . ومنها كتاب لفتى يقال له يحيى بن أكثم جمع فيه ما استحسن من آراء أصحاب المذاهب، وهو الكتاب الذي أصبو إلى مطالعته من بين هذه الصحف الشرعية، لأني وجدت قبلاً صاحبه من قوة الفطنة^(٤) وصدق الحدس ما يؤكد لي أنه إن مدّ له في العمر فسيبهر الفقهاء .

أما الكتب التي وقفت عليها في علوم الحديث فانها أكثر من أن يأخذها الاحصاء،^(٥) غير أن الإفادة منها كانت محصورة فيما جمعه كبار العلماء وبقى أن جملة ما في غير كتبهم مراجعة وإعادة لما سبقوا إلى تدوينه، فكان أنفع للعلم لو صرف الباقون عنايتهم إلى النظر في غير ذلك من العلوم ولم يضيعوا العمر في نقل ما سبقهم إليه العلماء .

(١) حاجي خليفة ٤ : ٤٥٧ (٢) الزرقاوى ١ : ٩ (٣) حاجي خليفة

٤ : ٣٩٣ (٤) ابن خلكان ١ : ٩٢ (٥) كتاب حاجي خليفة

في تدوين اللغة

أما اللغة فإن العلماء قد وضعوا قواعدها على أصول وقفت عندها الغاية في الإصلاح وتدقيق النظر، لأنه قد سبق اهتمامهم بها اهتمامهم بما سواها من العلم اضطراراً إلى تفسير القرآن، إذ كانت الكتابة مجهولة عندهم في صدر الإسلام ولم يكن يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنساناً^(١) وكانت ألفاظ العرب بعضها محفوظ في صدور الرجال، وكثيرها ضائع بين الرمال، فبادروا إلى التقاطها من البادية يطرقون منازل أهلها ويشهدون محاوراتهم ويتبعون آثارهم ويستنطقون أطلال ديارهم حتى وقفوا على ما كان متفرقاً من لغاتهم، وقيدوها في الصحف بطريق الرواية والإسناد.

وكانت حروف الكتابة في أول الأمر موضوعة بغير علامات^(٢) وظل الناس يقرءون في مصحف عثمان وهو بتلك الكتابة نحواً من أربعين سنة حتى كثر التصحيف لوجود الحروف المتشابهة،^(٣) وما أستغرب أن يقرأ بعض الناس وما يحدد بآياتنا إلا كل جبار والأصل ختار، وعذابي أصيب به من أساء والأصل أشاء، وهم أحسن أثاثاً وزياً والأصل ورثياً، والذين كفروا في غرة وشقاق والأصل في عزّة إلى غير ذلك، فوكل عبد الملك بن مروان إلى النضر بن عاصم أن يضع علامات لهذه الحروف المتشابهة فوضعها لها أفراداً وأزواجاً فتميز بعضها عن بعض ومحيي التصحيف في القراءة.

(١) العقد الفريد ٢: ٢٠٦ (٢) حاجي خليفة ٣: ١٥٤ (٣) ابن

خلكان ١: ١٥٧

وضبطُ اللغة كان لما يحتاج إليه العلماء من حفظ الحديث وتفسير القرآن الكريم بما دونوه من لسان قریش وغيرهم .
وأول من دوّن اللغة مجموعةً في كتاب واحد الخليل بن أحمد الذي تقدّمتُ لك في الكلام على البصرة ذكره ، وقد ضمن كتابه ^(١) أصول اللسان العربي وقيد ألفاظه في مواضعها من الاشتقاق إلا ما كان دخيلاً عليه من كلام الأعاجم فإنه اكتفى من ذكره بالإشارة إلى عجميته ، وأسند روايته في ذلك كله إلى أكابر الحفاظ ولذلك صار قوله حجة يرجع إليها ، ثم دونها بعده كثير من العلماء منهم أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي مؤدب الأمين والمأمون ^(٢) من أولاد الرشيد ، ومنهم سيبويه ^(٣) والفراء والأخفش وعلمهم النحو فقط إلا الفراء فإنه كثير الفضل على العربية بضبطها وتخليصها ، ^(٤) وقد بلغت جلالته في العلم ولكن لم يجمعني وإياه مجلس إلى هذا اليوم ^(٥) ومنهم أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري وقد وقع إلى كتاب له في فقه اللغة لتعليم الرشيد ^(٦) قبل تشرفي بتأديبه ، وقد أودعه كلام العرب وقيود لغتهم وذكر المترادفات التي وردت لهم في

-
- (١) هو أول قاموس كتب في اللغة العربية (٢) المسعودي ٢ : ٢١٣ والابشهي ٢ : ١٣ (٣) وقت أبو الفداء ٢ : ١٦ وفاة سيبويه سنة ١٨٠ للهجرة وقال أنه كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو . وجرى له مع الكسائي البحث المشهور في قولهم « كنت أظن لسعة العقرب أشد من لسعة الزنبور » قال سيبويه فإذا هو هي وقال الكسائي فإذا هو أياها وانتصر الخليفة للكسائي فحمل سيبويه من ذلك هما وترك العراق وسافر إلى شيراز وتوفي هناك . (٤) ابن خلكان ٢ : ٣٣٨ (٥) ذكر أبو الفداء أنه ولد في أيام يزيد بن عبد الملك وتوفي سنة ١٨٧ بعد البرامكة (٦) ابن خلكان ١ : ١٥٢

جميع الأسماء والأفعال والأوصاف مشيراً إلى صحة استعمالها في مواضعها من الكتابة ، وأتى على متابعة الألفاظ التي تصف الأشياء على ازدياد في معناها أو نقص يبعدها عن الكناية

وهذا الكتاب يفتقر إليه كل كاتب من أبناء العرب الذين ينزلون الأمصار وينقطعون عن أهل البادية الذين يحافظون على قوام اللسان العربي ،^(١) لأنني قد وجدت مبانة بين كلام العرب واصطلاحات المتصرين حتى تكون اللغة عند هؤلاء غير اللغة عند أولئك ، فأما إذ انقسمت قسمين فيكون القسم البدوي هو الحافظ لمحاسن اللغة التي كان ينطق بها البلغاء والشعراء ، ويكون القسم الحضري قطعة من كلام العرب يخالطها كلام السوق^(٢) وألفاظ المعربين فيما ينقلونه من كلام الفرس واليونان مما لا نجد له مسمى في لسان العرب ، لأن لغتهم إنما وضعت للبادية حيث لا تكون هذه الأشياء التي نجد أسماءها في كتب الأعاجم ، كما أن في لغات الأمصار إضراباً عن تسمية الأشياء التي لا توجد إلا في بادية العرب ثم اني وجدت عند أهل اللغة قصوراً تسامحوا فيه وتغاضوا عنه ، وذلك أنهم عند ما يصرّفون الكلام يسردون لغة القبائل فيه من غير أن يشيروا إلى ما كانت تختلف فيه لغة قوم عن آخرين ، ولقد ذكروا للأسد نحو ألف اسم ولكن من غير أن يذكروا الاسم أو الأسماء التي كانت تسميه

(١) يظهر هذا مما نقله الاصمعي وغيره من كلام العرب (٢) ذكر الأغاني

كلام السوق في زمن الرشيد ٣ : ١٧٣ في غير موضع أما ابن خلدون فيقول في المقدمة ١٥ أن ملكة اللسان كانت محفوظة في الأمصار إلى عهد الزمخشري وأمثاله من فرسان الكلام

بها عرب كذا وكذا ، وذكروا للبعير والحية وسائر الحيوانات والأشياء والأوصاف مثل ذلك مع إغفالهم ما نحن نؤاخذهم به ، حتى لقد نجد في تصريف الأسماء إلى ما يُشتق منها من المعاني مضادة أغفلوا ذكر استعمالها بين العشائر كاستعمالهم وثب بمعنى جلس وطفر وذلك من الأضداد التي لا أظن أنها تجتمع في كلمة واحدة عند قوم من العرب ، فان الوثوب بمعنى الجلوس في لغة حمير ، وبمعنى الطفر في لغة قريش ^(١) . إلى غير ذلك ^(٢)

الشعر في البداوة

العروض علم وضعه الله سبحانه في صدور العرب حتى لا يوجد أحد منهم إلا وهو يقدر على قول الشعر طبعاً رُكِّبَ فيهم قلّ القول أو كثر ^(٣) ، وكان أهل الجاهلية ينطقون به عن بلاغة لا يقصدون بها إلا المفاخرة بين الأقران كما سمعت الأصمعي يقول « الشعر جزل من كلام العرب تقام به المجالس وتستنجح به الحوائج وتشفى به السخائم » بخلاف ما نجد في شعراء هذا الزمان فانهم يغضبون أنفسهم على الانشاد بما يستميتحون الملوك

(١) في القاموس الوثب الطفر والقعود بلغة حمير (٢) قيد العلماء في كتب اللغة كثيراً من الأفعال التي تشترك في معنى الشيء الذي له تقيض من نفسه مثل الهزال والسمن والصعود والانحدار والحضور والغياب وغير ذلك فرموا عن الشيء وتقيضه من هذه الأسماء والأفعال والأوصاف بلفظة واحدة مشتركة بين المعنيين باعتبار أن الجبل مثلاً لا ينحدر منه الرجل إلا أن يكون قد صعد إليه ثم لا يعقب الصعود إلا الانحدار وكما أن الرجل لا يغيب إلا بعد أن يكون حاضراً فانه لا يحضر إلا بعد أن يغيب وهذه هي الألفاظ التي يصح أن تسمى بألفاظ المشاركة وانها لكثيرة في كلام العرب (٣) الأغاني ٢٠ : ٥١

من الأرفاد . وعندى أنه كلما تباعدت أجيال الأعراب . وامتزجت بهم الأعراب . وتجاؤا عن سكنى البادية إلى حيث لا يكون لهم مجالس للمناشدة كدأبهم في سوق مجنة وسوق عكاظ وسوق ذى المجاز^(١) فقدوا كثيراً من بلاغة الشعر وضاق مذهبهم به على اتساع الحضارة فيهم إلى أن يكلفوا طبيعتهم شيئاً لا يقدرّون عليه فيقولون البيت ويحكّونه أياماً^(٢) وإنما سهل على المتقدمين الإجابة في هذا الفن أن شاعرهم كان ينفرد بمذهب واحد من المذاهب المعروفة عندهم بين فخر ونسب ومدح وهجاء من غير أن يكون نابتة فيما سواه ثم إن كلام العرب^(٣) كان سائراً في أيامهم على الألسنة فلم يعانوا إلى البلاغة تكلفاً^(٤) فيما قصدوا من المذاهب التي كانوا يفردون فيها القول بطرائق انقطعوا إليها وكانوا بها موصوفين ، كاسترسال امرئ القيس في ملاذ الشباب بحيث أتى في نعت محاسن النساء بما ليس لقول غيره موقع مثله من القلوب ، وإن هو إلا أرق المتغزلين حيث يقول .

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجلى
أغرّك منى أن حبك قاتلى وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل ؟
وكجِدِّ عنتره بن شداد في الفروسية إذ أتى في الحماسة^(٥) بما لم

(١) هي الأسواق الثلاث المشهورة عند العرب وأعظمها سوق عكاظ وكان يقام بين نخلة والطائف في موضع لا يبعد عن الطائف أكثر من عشرة أميال وذلك في أول يوم من ذي القعدة الذي هو أول الأشهر الحرم وكانت العرب تجتمع فيه للتجارة والتهيب للحج فيؤمن بعضهم بعضاً ويتناشدون ويتفاخرون ويتسوقون إلى حضور الحج ثم يحجون (٢) الأغاني ٣ : ٢٥ (٣) الأغاني ٥ : ٢٥٢ (٤) الأغاني ٣ : ١٦١ والموازنة والمستطرف ١ : ٧٧ (٥) الأغاني ٣ : ١٨٨

يأت به أحد مثله كقوله .

لو سابتني المنايا وهي طالبةٌ قبضَ النفوس أتاني قبلها السبق
وكفتح حاتم الطائي يده في سعة العطاء بحيث إنه يتهلل بذكر الساحة
والمكرمات في جميع شعره ويقول ^(١)
أماوى إن المال غادر وأضح ويبقى من المال الأحاديثُ والذِّكرُ
أماوى أن يصبح صدأى بقفره : من الأرض لأماء لدى ولاخر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضائرى وأن يدي مما بخلت به صفر
وكارتفاع السموأل بن عادياء في درجات المحاسن الشريفة بحيث إنه
أتى من ذكر الوفاء والمفاخرة به بما يرفعه إلى أسمى طبقات الشعر وهو
الذى يقول

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يزنيه جميل
تعيّرنا أنا قليلٌ عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل
وما مات منا سيد حتف أنفه . ولا طُلَّ يوماً حيث كان قتيل
وكانقطاع أُميّة بن أبي الصلت إلى العبادة بحيث إنه أتى في ذكر
أحوال الآخرة بما لم يشاركه فيه متقدم ولا متأخر ^(٢) وإن قوله
يوشك من فرّ من منيته في بعض غرّاته يوافقها
من لم يمت عبطةً يمت هرباً للموت كأس والمرء ذائقها
لأحكم ماقاتله العرب في وصف الموت ^(٣) إلى غير ذلك مما لا يتسع له
المجال فنقف منه عند هذا الحد .

(١) الاغانى ١٦ : ٩٦ والعقد الفريد ١ : ١٠٨ (٢) الاغانى ٣ : ١٨٨

(٣) العقد ١ : ٣٧٥

وقد انتهت بلاعة الشعر إلى المملقات السبع وهي أصدق شاهد على فضل المتقدمين بما قصدوا من انسجام القول ونعت ضروب الوجدان التي تدل على أنفة النفس وعلو الهمة على غير تكلف البلاغة، بما نعلم من إنشادهم إياها ارتجالاً بين العشائر فان الحارث بن حلزة لما أنشد عمرو بن هند معلقته توكأ على قوسه وأنشدها واقتطم كفه وهو لا يشعر من الغضب حتى فرغ منها، ^(١) فيظهر من ذلك أنه كان لهم في الشعر سر ضاع عن المحدثين سره لا نقلا به فيهم من الطبيعة إلى الصناعة، لأن العرب كانوا شعراء جميعاً وكلهم يرتجز في حرب أو استجداء أو مفاخرة، ^(٢) وكانت الحكمة سائرة على ألسنتهم كما شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك حتى إذا أنشدوه قول طرفة من أصحاب المملقات

سنبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
قال هذا من كلام النبوة، ^(٣) ثم إن النساء كنَّ يقلن الشعر أيضاً في أيامهم حتى إن بعضهن قد فضلن كثيراً من الرجال مثل ليلي والخنساء وكتاتهما شاعرة فصيحة، ولقد وجدت من كلام ليلي في وصف الشجاعة ضروباً من الابداع كقولها ^(٤)

مهفهم الكشح والسربال منخرق عنه القيص لسير الليل محتقر
لا يأمن الناس مُمساة ومُصبحه في كل فج وان لم يغز يُنتظر
ووجدت في تأيين الخنساء لصخر توجعاً كثيراً بالبكاء عليه حيث تقول
يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل مغيب شمس

(١) أبو عبيدة والإغانى ٩: ١٧٨ (٢) الإغانى ١٨: ٦٤ (٣) العقد

الفريد ٣: ١٢٢ (٤) الإغانى ١١: ١٧

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخى ولكن . أعزى النفس عنه بالتأسي
وتقول في رثائه وهي تصف محاسنه

إذا القوم مدّوا بأيديهم إلى المجد مدّ إليه يدا
فقال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مُصْعِداً
وتقول وهو أفرخيت قالتها العرب

وإنَّ صخراً لتأتم الهداة به كأنه علّم في رأسه نار
ولها من أمثال هذا الكلام شئ كثير^(١) يرفعها الى مساماة البلغاء
من الرجال

وقد أجاد المتقدمون في براعة الاستهلال إلى حيث يقف حد البلاغة،
وهم يصفون الرُّكبان والطيف ويذكرون ربوع الأحباب وتعفية الرياح
رسومها ومخاطبتهم إياها فيما مضى لهم من عهود الأُنس ويصفون ألم
الفراق ووحشة الديار وما يخالج قلوبهم من الصبابة في وقوفهم بالعيس على
اطلال الديار^(٢) إلى أن يتخلصوا من هذا الاستهلال إلى ما يرون إنشاده فيما

(١) الاغانى ٦: ٨٣ و ٩: ١٦٣ و ١٤: ١١٦ والعقد ٢: ٢٣ وديوان الحماسة

والأتلدى ٢٥

(٢) انما ابتدأ الشاعر بوصف الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب
الربع واستوقف الرفيق ليجعل من ذلك سبباً لذكر أهله الطاعنين من ماء الى ماء واتجاعهم
الكلاً وتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم فصل ذلك بالنسيب وأبدى شدة الوجد
والم صبابة والشوق لتميل نحوه القلوب وتتصرف اليه الوجوه ويستدعى اصغاء
الاسماع فاذا استوثق من الاصغاء اليه والاستماع له وعقب بايجاب الحقوق ودخل

يأخذون به من المذاهب ، ولكن على انحطاط يقع فيه الكثير منهم بعد
بلاغة /الابتداء / ، إلا الذين يتوسطون بالبلاغة في مطلعهم فيستمرون إلى
آخر بيت على استواء ، أو الذين يعلنون علواً حسناً ثم لا يزالون صاعدين في
بلاغة تعجز الفصحاء ، ولكنهم تفر قليل مثل امرئ القيس وزهير بن أبي
سأى والناطقة الديباني وهم المقدّمون على جميع الشعراء ، وموضعهم من
البلاغة واحد ، ^(١) إلا أنه غلب على ذى القروح التجميل بالمعاني وبديع
الوصف ، وعلى النابغة الاسترسال في البراعة ، وعلى زهير العناية بتقويم
الألفاظ . وقد سمعت الأصمعي يقول وقد سئل من أشعر العرب ، الذين
شرق شعرهم وغرب ؟ فقال « زهير إذا رغب ، والناطقة إذا رهب وامرؤ
القيس إذا طرب . وعنترة إذا ركب . والأعشى إذا شرب ، ^(٢) ولئن يكن
في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض عسر لا يؤمن معه الزلل ما أنا براء
في آياتهم ما يسمو إلى كلام النابغة في الفخر حيث يقول ^(٣)

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
ولا إلى براعة زهير في المديح وقد ألقى عن المادحين فضول الكلام
بقوله ^(٤) .

وإن يك من خير أتوه فاعما توارثه آباء آبائهم قبل
ولا إلى جمال الوصف الذي نظمه امرؤ القيس في معلقته نظم الآلى

في شعره وشكا السهر والتعب وسرى الليل وقرر ما ناله من المكارة في المسير بدأ في
المديح فبعث في ممدوحه الميل إلى المكافأة وفضله على الأشياء وصغر في جنب قدره
الجزيل وهزه إلى الفعل الجميل ، الجصرى ٢ : ٢٧٤ (١) الاغانى وكتاب الموازنة
(٢) الاغانى (٣) خزانة الادب ٥١١ والاعغانى ٩ : ١٥٨ (٤) الاغانى

في شذور الذهب فقد لا تحضر البلفاء أنفسهم عبارات^١ يفصحون بها عن محاسن كلامه الذي ذهبَ مذهب المعجزات ، فان العرب لم ينفكوا عن الإعجاب بها وهي معلقة في الكعبة إلى أن ظهر الاسلام وذهبت فصاحة الشعر بما نزل من كلام الله تعالى على سيد ولد آدم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الذين دونَ طبقة هؤلاء من الجاهليين فان لهم من محاسن الشعر موضعاً لا يتعدونه إلى التصرف في المذاهب الواسعة كاتقرا^٢ أبي داود بوصف الخيل ، وعلقمة بوصف الوحش ، وأوس بن حجر بوصف الحجر إلى غير ذلك ،^(١) وليس فيهم أقرب إلى طبقة الثلاثة المتقدمين من الأعشى بن جندل الأسدي^(٢) فان له أبياتاً حسناً ذكر منها هذا البيت الذي هو أشجع بيت قالته العرب .

قالوا الطَّمان فقلنا تلك عادتنا أو تنزلون فاننا معشر نزل
ولكني وجدته إذا تعالى في شعره كثيراً لم يؤمن وقوعه في الانحطاط ،^(٣)
وربما أتى من الألفاظ بالغريب الذي يبعد عن الأذهان ، وهذا شيء يصح أن نعيبه عليه وعلى غيره من الجاهليين وإن كان بعض الناس يجدون له مخرجاً إلى السلامة من العيب إذ يجوزون للمتقدمين ما لا يجوزونه للمتأخرين .

(١) الاغانى ١٥ : ٩٠ و ٩٦ (٢) الاغانى ٩ : ١٤٠

() الموازنة والاعان .

الشعر في الحضارة

ولقد وجدت في شعر الاسلاميين المتقدمين علوًا كادوا يسامون فيه أهل الجاهلية ، ولذلك يصح أن نعترف لهم بمحاسن البلاغة مثل الأخوص وذى الرثمة وحسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والقطامي وجريروالفرزدق والأخطل وجميل وكثير وكثير غيرهم ، فإن لشعرهم من رقة الديباجة والرونق والحلاوة ما لا نبجده إلا في شعر البلغاء من الجاهليين ، وربما انتهى بعضهم في المذاهب التي كانوا بها آخذين إلى حيث تقف بلاغة الشعر كذكر الحماسة في كلام حسان بن ثابت حيث يقول .

لنا الجفّات الغرّ يلمعن في الضحا وأسيفنا يقطرن من نجدة دما
وكلاستشار بالفخر في شعر الفرزدق الذي يقول فيه ^(١) "

ترى الناس إن سرناسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
وكالتوجع في الرثاء في قصيدة الهذلي التي يجزع فيها على فقد أولاده إلا طفلا صغيراً بقي له ومن جعلها البيت المشهور ^(٢) .

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا تُزددُ إلى قليل تقنع
وكالتشبيب في شعر جميل وذى الرمة . وعمر بن أبي ربيعة ^(٣) بحيث إن لهم في ذكر محاسن النساء من الأوصاف البارة مع عذوبة الألفاظ وجودة السبك لا ما يوجد مثله لأحد من شعراء العرب غير الثلاثة المتقدمين إلى غير ذلك .

(١) العقد والأغاني والكشكول (٢) العقد والأغاني (٣) صاحب الأغاني يفضله على شعراء زمانه وربما فضله في النسيب على شعراء الجاهلية

ثم إن الشعر يقع في الحضارة بعد هؤلاء المجيدين ويفقد كثيراً من البلاغة التي كانت في لسان الجاهليين لابرار المعاني في فصيح كلامه إلا أنه لا ينحط عنه في الأوصاف البارة وتناول المعاني من حيث الشعر نفسه ، فلقد نجد لبعض المحدثين من سعة التصرف فيه وسرعة الخاطر إلى النظم ما يجعلهم لولا تأخر أيامهم في طبقات المتقدمين ، على أن كلامهم ليس من الفصاحة بالموضع الذي كان للجاهليين ، والعذر لهم في ذلك أن شاعر البادية إنما كان يلتمس الفصيح من الألفاظ ليسمو كلامه على كلام غيره من الشعراء ، واللغات إذ ذاك كثيرة في عشاثرهم ، أما اليوم فإن اللسان الذي نزل به القرآن معروف لدى كل انسان فلا يضطر الشاعر إلى التماس ألفاظ يفضل بها لسان غيره لتوحد لغة قريش في الامصار كافة . وإنما وجب عليه أن يبتدع المعاني التي لم يسبق إليها غيره دون تكلفه إلى تناول الغريب من الكلام ، ^(١) لأن الألفاظ السوقية لا تمنع ^(٢) أن تكون القصيدة جيدة .

ولقد ينقسم الشعر في الاسلام ^(٣) إلى طبقات ثلاث أقربها إلى فصاحة البداوة أبعدها عن حضارة الاسلام . أولها عصر عبد الملك والشعر إذ ذاك في ثلاثة من تميم ^(٤) وهم جرير والفرزدق وهو من نبتة ^(٥) الشعراء والأخطل النصراني وهو المجيد في مدح الملوك ^(٦) ووصف الخمر ، وكان المقدم عليهم

(١) ذكر الاغانى ٣ : ١٤٥ أن الشعراء يستعملون الغريب من الالفاظ (وذلك في زمن الرشيد) (٢) الاغانى ٣ : ١٣٣ و ١٧٣ (٣) أى في المتصرين من الشعراء دون أهل البادية (٤) الاغانى ١٩ : ٦ (٥) الاغانى ٩ : ١٤٧ (٦) الاغانى ٩ : ١٤٧

جريرٌ وقد فضل الشعراء^(١) بقوله في المديح .

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحٍ
وقوله في النسب^(٢) .

إِنَّ الْعْيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا
يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَاءَ بِهِ وَهْنٌ أَوْضَعُ خَلَقَ اللَّهُ إِنْسَانًا
وهذا من الكلام الذي تنهاه إليه رقة أهل الصبابة ، ولم نجد من بعده مثله إلا في شعر جميل وكثير وقد استرسلنا في وصف حياة الشباب وانقطعا إلى النسب^(٣) من مذاهب الشعر ، يقول كثير^(٤) .

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تُمَثِّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلٍ
ويقول جميل

وَمَا زِلْتُمْ يَا بُتْنُ حَتَّى لَوْ أَنِّي مِنْ الشُّوقِ أَسْتَبْكِي الْحَمَامَ بِكَيْ لِيَا
وَمَا أَحْدَثَ النَّأْيُ الْمَفْرَقُ بَيْنَنَا سُلُوءًا وَلَا طَوْلُ اللَّيَالِي تَقَالِيَا
عَلَى أَنِّي رَاضٍ بِأَنْ أَهْمِلَ الْهَوَى وَأَخْلَصَ مِنْهُ لَا عَلَى وَلَا لِيَا
ومن كلامه^(٥)

خَلِيلِيَّ فِيمَا عَشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا قَتِيلَا بِكَيْ مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي ؟
وأول الأبيات قوله .

لَقَدْ فَرِحَ الْوَاشُونَ أَنْ صَرَمْتَ حَبْلِي بُيُوتُهُ أَوْ أَبَدْتَ لَنَا جَانِبَ الْبُخْلِ

(١) الاغانى ١٠ : ٢ وفي غير موضع والوطواط ١١١ وابن خلكان ١ : ١٤٣
والعقد الفريد ١ : ١٥١ (٢) الموازنة ٤ (٣) الاغانى ٤ : ٥٨ والكشكول
والعقد الفريد ٣ : ١٧٢ (٤) الاغانى وتزيين الاسواق وابن خلكان والمستطرف
(٥) الاغانى والعقد الفريد ١ : ١٤٦ والحصرى ٢ : ١٦٣

يقولون مهلاً يا جميل وإننى لأقسم ما بى عن بثينة من مهل
والناس يستحسنون ذلك . ولا يقاربه في النسب إلا قول الأَحوص^(١)
إذا قلت إني مشفق بلقاءها فحَمَّ التلاقى بيننا زادنى سقما
وأما الطبقة الثانية فانها عصر أبي جعفر (رحمه الله) وشعراؤه من تقدم
لك ذكرهم . والطبقة الثالثة هي زمن الرشيد والبرامكة وشعراؤها أكثر من
أن يأخذهم الإحصاء ولكنى لا أرى فيهم إلا أبا العتاهية وأبا نواس ومُسلم
ابن الوليد وهم أشعر أهل هذا الزمان كما ستراه .
فأما أبو العتاهية فانه انقطع في شعره إلى ذكر أحوال الآخرة^(٢)
وله أرجوزة حوت أربعة آلاف بيت أودعها من المعاني الجليلة ما أبرزه في
أحسن صورة . من ذلك قوائمه « روائح الجنة في الشباب » وهو قول يقبله
القلب ولا يفسره اللسان ،^(٣) والناس يقولون إنه خرج عن العروض
بوزن لم يذكره الخليل بن أحمد ولكنى لا أرى ذلك خطأ يعاب به كمن
يتناول على قواعد العلوم ، لأن الخليل لم يستوف الكلام في هذا العلم
الذى وضعه ولا سيما في بحر المتدارك ، فإن من العَرُوضيين من زاد فيه
على ما ذكر ،^(٤) وقد كان أبو العتاهية من الحُطوة عند الرشيد بحيث لم
يفارقه في حَضَر ولا في سفر ،^(٥) ثم آل أمره إلى الزهد^(٦) فلبس الصوف
وعزفت نفسه عن الدنيا وكان يقول^(٧) .

كانَ كل نعيم أنت ذائقه من لذة العيش يحكى لَمعة الآل

(١) الاغانى ٤ : ٥٧ (٢) الاغانى ١١ : ٣٢ (٣) الاغانى ٣ : ١٤٣

(٤) المسعودى ٢ : ٢٦٥ (٥) الاغانى ١١ : ٣٢ (٦) الاغانى ١١ : ٣٢

(٧) الاغانى ٢ : ١٦٢

فصار إذا دعاه إليه ليصف له ما هو فيه من زخارف الملك يبادره بالتذكير والموعظة ^(١) فيبكي الرشيد من ذلك فيهم الجلّاس إلى معاتبته فيقول لهم الرشيد دعوه إنه يرانا في عمى فيكره أن يزيدنا منه .
وأما أبو نواس فإن مذهبه في الشعر مُضادٌ لمذهب أبي العتاهية وأكثر ما يتضمن شعره الغزل والزهو وذكر المنادمة والخمر تبعاً لما نعرف له من ممازحة الملوك ، ^(٢) فهو يذكّر إبليس والخمر في شعره كما يذكّر أبو العتاهية الآخرة والجنة .

ومن استعاراته الفائقة قوله

بسم الصباح لأعين النَّدْماء وانشق جيب غلالة الظلّماء

وله في صفاتها ونعت طعمها وريحها ولونها وشعاعها وحال المنادمات عليها والاصطباح والاعتباق ^(٣) ما توسع فيه إلى أدب ليس للشعراء حظ منه ، وهذا مما يدل على اقتداره في الشعر وإن كان مذهبه غير محمود عند أهل الصلاح ، وهو عندي شاعر الشعراء حقيقة ، ^(٤) وإني أفضّل شعره على شعر أبي العتاهية لأن قصائده كلّها سالمة من العيب ، ^(٥) أما أبو العتاهية فإنه وإن كانت له استخراجات لطيفة ومعمان ظريفة يقول البيت النادر ثم يتبعه بالبيت السخيف البارد ، ^(٦) وقد ذكر لي وراق في درب القراطيس ^(٧) كنت آلف حانوته أنه مرّ به أبو العتاهية يوماً وعنده ديوان

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٩ والفخري ٢٣٠ والطرطوشي ١٧ والكشكول

(٢) الاتليدي وحلبة الكميّة وتزيين الاسواق (٣) المسعودي ٢ : ٤٢٢

(٤) ذكر صاحب العقد الفريد في باب من الرقائق من المجلد الثالث أن أبا نواس من

أقدر الناس على الشعر وأطبعهم فيه (٥) القيرواني وابن خلكان (٦) الأغاني

٣ : ١٨٠ (٧) من شوارع بغداد ذكره ابن خلكان ١ : ١٦٥

لأبي نواس فوق نظره على هذا البيت^(١)
 إن ترجع الأنفس عن غيرها ما لم يكن منها لها زاجر
 فسألني لمن البيت فقلت لأبي نواس فقال والله إني أحب أن يكون
 لي هذا البيت بنصف شعري،^(٢) وأظن أنه لو وقف على قوله .
 ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد^(٣)
 أو قوله وهو أمدح بيت للمحدثين
 وكنت بالدهر عيناً غير غافلة بجودك فك تأسوكل ما جرحا
 لقال فيهما مثل ذلك . ولقد لقيت اسماعيل بن نوبخت في مجالس البرامكة
 وقد جرى الحديث بحضرتهم عن الشعراء فقال سمعت بعض الناس يقول
 إن الأصمعي أعلم الشعراء وأشعر العلماء ، فوالله ما رأيت أحق بهذا الوصف
 أن يقال فيه من أبي نواس ، لأني ما رأيت في أهل الأدب من هو أوسع
 علماً في كل شيء منه وليس له في الشعراء من مَبَار ، يملق له بغير . وكفى
 في تحقيق فضله عليهم أن كلامه كله موزون^(٤) فإن الشعر رسخت في
 صدره ملكته وصار في نفسه طبيعة ترفعه على جميع الشعراء . وأما مسلم بن
 الوليد الملقب بصريع الغواني فانه أرق الشعراء غزلاً وألطفهم صنماً وأكثرهم
 من المعاني حظاً^(٥) إلا أن ميله مع أهل البيت وقوله الشعر في مدحهم هو

(١) ذكر صاحب العقد الفريد هذا البيت في الأمثال السائرة وأبدل بالشرط
 الثاني قوله « حتى يرى منها لها واعظ » (٢) الطرطوشي ١٠
 (٣) لاغاني واليتمة ١٠٢ وخزانة الأدب ٥٠٠ (٤) ابن خلكان
 (٥) ذكر له ابن الأثير ٦ : ٥٢ بعض أبيات في عرض التاريخ وقال انها حسنة
 جداً وذكر الحصري أيضاً جملة أبيات وقال ان الطائي كان يعول عليه وعلى أبي نواس
 وان مسلماً أول من لطف البديع . وكسا المعاني حل اللفظ الرفيع

الذي جماله مقصياً عن محاضرة الخلفاء ، بل جعل في نفوسهم موجدة عليه
لما كانوا يرون من استمساك الناس بشمره ، وقد أبدع مصاغه ورصمه بدرر
البلاغة ، ولقد ظفر به الرشيد فحمد الله على ذلك بمحضر من الجلساء كأنما
قد ظفر بملك من كبراء الملوك ، فلما أخذ يعاتبه قال إيه يا مسلم أنت القائل .
أنس الهوى يبنى عليّ في الحشا وأراه يطمح عن بني العباس
فأعمل فكرته أن يستبدل به مدحاً علّ يشفع له عنده ويكون
وسيلة لسلامته من القتل وقال بل أنا يا أمير المؤمنين الذي أقول .

أنس الهوى يبنى العمومة في الحشا مستوحشاً من سائر الأيناس
وإذا تكاملت الفضائل كنتم أولى بذلك يا بني العباس
فعجب الرشيد من سرعة بديته وقال له بعض جلسائه استبقه يا أمير
المؤمنين فإنه من أشعر الناس ^(١) وامتحنه فسترى منه عجباً فرق له الرشيد
وفي نفسه من الميل الى الأدب ما قد علمت ، ثم قال له أنشدنا أشعرييت
لك ، فقال يا أمير المؤمنين أفرخ روعي أفرخ الله روعك يوم الحاجة
إلى ذلك فاني لم أدخل على خليفة قط ، فأمره بالجلوس ثم شرع في الانشاد
وكما فرغ من قصيدة قال له التي تقول فيها « الوَحْل » فاني رويتها وأنا
صغير ، فأنشده شعره الذي أوله .

أديرا علىّ الراح لا تشربا قبلي ولا تطلبا من عند قاتلتى ذحلي ^(٢)
حتى إذا انتهى إلى قوله .

(١) كان مسلم ابن الوليد من أشعر الناس ولكن لم أر له ترجمة في الأغاني ولا
في ابن خلدون وما نقلته هنا مأخوذ من كتاب العقد الفريد ١ : ٩٠ (٢) في المجلد
الثالث من العقد الفريد ١٧٦ سبعة أبيات آخر من هذه القصيدة

إذا ما علت منا دُؤابةً شارب تمشت بنا مشى المقيد في الوحل
ضحك الرشيد وقال عليك ! أما رضيت أن تقيده حتى يمشى في
الوحل ؟ ثم أمر له بجائزة وخلق سبيله .

هؤلاء الثلاثة أشعر الشعراء وهم الذين زينوا الدولة العباسية كما كان
الثلاثة المقدم ذكرهم في الفصل السابق يزينون زمن الجاهلية ولقد لقيت
في بغداد كثيراً غيرهم من الشعراء مثل العُماني وأبي مُصعب وأبي الشيص
وأبي عبد الرحمن العطوى وغيرهم ، واتصلت في أخبار جماعة ممن يتصرفون
في فنون الشعر ويتدعون القول الذي لم يشرّكهم فيه غيرهم إلى أن ينظموا
القصائد التي ليس في أبياتها حرف معجم . إلا أنهم قد كانوا في أيام
أبي نُوَاس ومسلم بن الوليد فضاء بينهما فضلهم ولم يكن لهم ذكر في
مجالس الخلفاء وأهل الأدب .

الغناء وتحريره وإصلاحه

قد مضى في بعض كتبي السالفة من الكلام عن الغناء ما يقضى
بضحة ذوق العرب وحسن ما يصنعون من الأصوات ، وكان أصله عندهم
أربعة نفر^(١) ابن سُرَيْج وابن مُحَرَّز وهما مكيان ومالك ومعبّد وهما مدَنِيَّان ،
اذ كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً
وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة ، وهذه
البلاد مجامع أسواق العرب ،^(٢) وكانت النساء يشاركنهم في صناعة
الأصوات ، وقد نبغ فيهن عزة الميلاء في الغناء الموقّع إلى أن صارت أحسن

(١) الأغاني ١ : ٩٨ (٢) العقد الفريد ٣ : ٢٤٧

الناس ضرباً يعود،^(١) وكان لها أستاذة يقال لها رائقة فاحتدت فيها في تنسيق الأنغام، ثم قدم الحجاز سائب ونشيط وغنياً بالفارسية، فأخذت عزة عنهما نغماً وألفت عليها ألحاناً كثيرة لينة كما نجد في غناء النساء،^(٢) ثم ظهر طويس المغنى فصنع الرَّمْلَ والمَزَجَ^(٣) وأول ما غنى به على لحن صنعه قوله^(٤)

قد برانى الشوق حتى كدت من وجدى أذوب
ثم غنى ابن مسجح الغناء المنقول من الفارسي^(٥) وشهره بين الناس، وكان ابن سريج يضرب بالعود على غنائنا الى أن ظهر معبد في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية فصنع من الأصوات البديعة ما فضل فيه غيره من أهل زمانه المعاصرين له وقد كان الغناء قبل نقله عن الفارسية مأخوذاً عندهم عن الأذان،^(٦) فلما نقلوه عن قومنا واستعانوا بكتاب لبليموس في اللحن الثمانية^(٧) عربوه في خلافة أبي جعفر^(٨) أجادوا تأليف الأصوات إلى أن فضلونا اليوم في الغناء ونبغوا فيه النبغة التي ما كنت أحسبهم يصلون إليها في زمن من الأزمان، وما مكّنتهم من استكمال هذه الصناعة إلا أمران. الأول انفراد كل واحد منهم بلحن من الألحان يفتن فيه ويصنع فيه الأصوات الحسان حتى يفوق ألحان غيره من المغنين كانفراد معبد بالثقل،^(٩) وابن

(١) الأغاني ١٦: ١٣ (٢) الأغاني ٥: ٥٧ (٣) الأغاني ٤: ٣٨
(٤) الأغاني ٤: ٣٧ (٥) المستطرف ٢: ١٨٨ والعقد الفريد ٣: ٢٣٧
(٦) ابن خلكان ١: ٥٧١ (٧) الأغاني ٨٩٥ (٨) ابن نباتة
(٩) الأغاني ٦: ٦٦

سريج بالرمل ، وحكم الوادى بالهزج ^(١) وأحمد النصبى بالانصب ^(٢) وفليح
ابن أبى العوراء بلحن النواقيس ، والموصلى باللحن الماخورى ، أما خفيف
الرمل فانهم يشتركون فيه جميعاً بحيث لم أجد مغنياً إذا تغنى لنفسه يكاد
يفنى إلا خفيف الرمل ، ^(٣) والثانى ما كانوا يتناولونه من الخلفاء جوائز ومن
الأمراء وأهل النعمة أجرة واسعة على غنائهم ممن يستدعيهم إلى فرح أو
يجمعهم لمناظرات الصناعة ثم يخرج بدر الدانير لأجازه المحسنين ^(٤) منهم لم
ولقد مثل حنين المغنى وقد دعى إلى مأدبة لا يعهد فى صاحبها السباحة ،
لا ترضى بالأجرة اليسيرة ؟ فقال إنما هى أنفاسى أقسمها بين الناس ،
أفتلومونى أن أغلى بها الثمن ؟

ثم ظهر عصر البرامكة (أعز الله ملكهم) وهم محبوبون للعلم ومقربون
اليهم أهل الأدب ، فكان ممن قربوه من المغنين إبراهيم الموصلى وابنه
اسحق ، وهما بمكان جليل من الأدب إلا أنه غلب عليهما الغناء بما وضعاه
من الألحان فاشتهرا به كما رأيت . وقد وضع أبو اسحق اللحن الماخورى
الذى لم يشرَ كه فيه أحد من المغنين ، وكان يظن لصعوبة المأخذ فى ابتداعه
أن إبليس هو الذى ألقاه عليه فى المنام ، فلقد طالما تهوَّس بالغناء وأمعن
فى تنسيق الألحان على أتم ابداع وأحسنه موقعاً فى النفوس حتى توهم أن
الأرواح هى التى كانت تُظهره له وتعلمه الأصوات التى يعجز عنها غيره
من الأنس ، وقد قالت الشعراء فى مدحه على موضعه الجليل من الغناء

(١) الأغاني ٥ : ١٤١ و ٦ : ١٣

(٢) الأغاني ٥ : ١٦١

(٤) الأغاني ١٤ : ٥٥

(٣) الأغاني ٧ : ٣٦

ما لإبراهيم في العِلم بهذا الشأن ثانی
إنما عُمر أبي اسحق زینٌ للزمان
جنة الدنيا أبو اسحق في كل مكان
منه يُجَنَّى ثمرُ اللهو وريحان الجنان

وكذلك كانت إجابة ابنه اسحق وقد وضع الحاناً لا يقدر شعبان
ممتلئ ولا سقاء يحمل قربة على الترم بها ، وصنع غيرها مما لا يقدر المتكى
أن يترنم به إلاّ قعد مستوفزاً ، ولا القاعد حتى يقوم ،^(١) لأنه سما في
اقتداره على الغناء إلى أن يجعل في نفس السامع تحركاً لما يُغنى بمغناه من
الأشعار ، فيحملها على الكبر في معرض المديح ، وعلى الحماسة والاعجاب في
مجال الفخر ، وعلى الزفة والصبابة في استرسال الهوى ، وعلى البكاء
والغصة في موقف التذكير والوحشة ، وذلك فضلاً عن إجادته في ضرب
العود ، ولقد كنت يوماً بدار الرشيد وفي مجلسه عشر جوار يضربون على
العيدان فوق خلل في مجرى إصبع على بعض الأوتار فعرفه من بين أربعين
وتراً^(٢) تتحرك بين أناملهن ، فهذا اقتدار غريب على هذه الصناعة لا أظن
أن اليونان قد بلغوه منها مع اتصال مدتهم أجيالاً طويلاً يستعملونها
ويعارسون طرائقها .

(١) الاغانى ٣ : ٧٩ (٢) الاغانى ١ : ٢٠ وفي الحصرى ٢ : ٢٠٦ قال

اسحق انما يجيد الغناء من يقرع مسمع كل واحد من الناس بالنحو الذى يوافق هواه
ويطابق مغناه

وقد كتب إسحق رسالة مطولة في الغناء صحح فيها أجناسه وأنغامه وطرائقه وميزه تمييزاً لم يقدر عليه سواه^(١) حتى لقد خطأ يحيى المكّي فيما دون من الغناء ويونس الكاتب في الرسالة التي نسب فيها الأصوات إلى من ابتدعها من المغنين^(٢) إلا أنه كان يرى ليونس فيما سبق إلى تدوينه من الأغاني ونسبتها إلى أصحابها فضلاً أعظم من فضل يحيى فيما حاول تمييزه من الغناء على فساد جعل كتابه كالطروح لكثرة تخليطه في رواياته ،^(٣) لأن هذا هو المذهب الذي يتعصب له إسحق ويناظر فيه من يقول بضده من أولاد الخلفاء وغيرهم كما مرّ في موضعه من الكتاب .

ومن حذق إسحق في صناعة الأنغام أنه أقام طرائق الغناء من نفسه دون نقل عن كتب اليونان إلا فيما اقتبس منه من تقسيمات أقليدس^(٤) وما هو إلاّ النزر اليسير في جانب الكثير الواسع من علمه ، فقد ميز^(٥) أجناس الغناء كله ، وجعل الثقيل الأول أصنافاً ، فبدأ فيه باطلاق الوتر في مجرى البَنْصَر ثم أتبعه بما كان منه بالبَنْصَر في مجراها ثم بما كان بالسبابة في مجرى البَنْصَر ثم فعل هذا بما كان منه بالوَسْطَى على هذه المرتبة ، ثم جعل الثقيل الأول صنفين الأول ما ذكرناه والثاني القدر الوسط من الثقيل الأول وأجراه المجرى الذي تقدم من تمييز الأصابع والمجاري وألحق بذلك جميع الطرائق والأجناس وأجراها على هذا الترتيب وميزها على أكثر من عشرة آلاف صوت للمغنين لم يغير فيها لحناً واحداً ، وذلك بخلاف الذين دونوا

(١) الاغانى ١٨: ٦ (٢) الاغانى ٥ و ٦ (٣) الاغانى ١٧: ٦

(٤) الاغانى ٨: ١٥ (٥) الاغانى ٥٢: ٥

الفناء قبله وبعده فانهم أضاعوا صناعة الفناء القديم إلا أحمد بن يحيى المبكى
المقدم ذكره في كتاب له في الأغاني ونسبها يقال له المجرد،^(١) فانه أصل
يرجع اليه ويعول عليه، ولست أعرف كتاباً بعد كتاب إسحق يقارب
كتابه أو يقاس به، فكأنه قام على مخالفة أبيه ومن ذهب مذهبه في تغيير
أصوات المتقدمين، ورجع إلى الفناء القديم الذي سبق إلى التعصب له فمن
يقال له «سياط» وفد على المهدي رحمه الله وأنا مقيم في الرسالة بخراسان
فلم أوفق إلى الاجتماع به، ولكن حسبي من تقدير موضعه الجليل من
هذه الصناعة^(٢) أن إبراهيم وإسحق تلميذاه^(٣) وإليهما المنتهى في
إجادة الفناء.

لُـمَـعَة في علوم الفلسفة عند العرب

إن العلوم الفلسفية التي استخرجها العرب من كتب الأعاجم كانت
مجهولة عندهم في صدر الاسلام بل في صدر هذه الدولة كما تقدم لك من
الكلام إلا عند نفر قليل من أهل الشام ممن جاور الرهبان وتلقى عنهم^(٤)
حكمة اليونان التي كانوا يحفظونها في خزائهم بالأديار، أما اليوم فانا نجد
في سكان الأمصار من العراق ومصر والشام وبعض أهل الحجاز إلا أعراب
البادية لأنهم لا يوجهون عنايتهم إلى العلم، وانما همهم ارتياد المسارح
والمزراع لحيواناتهم كما سبق الالماع إليه في صدر الكتاب.
وهذه العلوم الفلسفية تنقسم إلى أنواع أربعة^(٥) رياضية ومنطقية

(١) الأغاني ١٥ : ٦٥ (٢) الأغاني ٦ : ٦٥ (٣) الأغاني ٦ : ٩

(٤) المقدمة ١٩ : ٤ (٥) حاجي خليفة : ٤٦٢

وطبيعية وإلهية . فأما العلوم الرياضية وهي النجامة والعدد والهندسة والغناء فانهم نبغوا فيها النبغة التي لم تكن المتقدمين من أمم الشرق ، وقد تقدم في الكلام على النجامة ما يقضى بفضل المنجمين من أهل الموصل وخراسان وغيرهم فيما وقفوا عليه من علم الأفلاك وأرصاها ، كما أنك رأيت في الكلام على الغناء أن لايراهيم وابنه اسحق فيما ابتدعا من الأصوات الحسان فضلا تزين به هذه الصناعة عند العرب . واعلم (أرشدك الله) أنه لم يكن موضعهم من العلوم العددية وما يتبعها من الجبر والمقابلة وهي صناعة استخراج العدد المجهول من قبل المفروض المعلوم ^(١) إلا موضعهم من النجامة والغناء في تحريرها وإصلاحها والاعتبار في الأقسام التي تلتحق بها من فن المناظرة والفرائض والمعاملات بتقدير الأوزان وغير ذلك ، وهذه هي العلوم التي يمتازون بها عن غيرهم من الأمم بما وضعوه لها من القواعد التي لا غاية بعدها في الإصلاح .

وأما علم الهندسة فقد كان مرجعهم فيه إلى كتاب لاقليدس المهندس من حكماء اليونان وكتاب آخر لبطليموس الذي أخرج الهندسة من القوة إلى الفعل ، ^(٢) وقد عُرِّبَت رسائلها في خلافة أبي جعفر ثم أعيد تعريبها في هذه الأيام بمناظرة مهندس يقال له أبو كامل ^(٣) جعل مقالات اقليدس في جلد كبير سماه كتاب الأركان ، ^(٤) وفيه خمس عشرة مقالة يبحث في الأربعة الأول عن السطوح ، وفي الخامسة عن الأقدار المناسبة ، وفي السادسة عن نسب السطوح بعضها إلى بعض ، وفي السابعة إلى التاسعة عن العدد ،

(١) المقدمة ٤٢٢ (٢) ابن نباتة (٣) هو مهندس ذكره الاغانى

١٩١ : ٦ (٥) المقدمة ٤٢٤

وفي العاشرة عن المنطقات ، والقوى على المنطقات ومعناها الجذور ، وفي المقالات الخمس الباقية بحث واسع في المجسمات ، ثم ألحق العرب بهذا العلم فن الهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية نقلا عن كتاين لميلاوش وتاودوسيوس من اليونان وفيها بحث مسهب في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات ، وألحقوا به أيضاً علم المخروطات نقلا عن كتاب لابولونيوس^(١) من اليونان أيضاً فعرفوا ما يقع من الأشكال والقطوع في الأجسام المخروطة وأفادوا النجارة والبناء^(٢) بما وقفوا عليه من كيفية رفع الأثقال وجرها وغير ذلك .

وأما العلوم المنطقية ومنها الشعر والخطابة والجدل والبرهان والمغالطة وغير ذلك^(٣) فإن اجادتهم فيها كانت دون اجادتهم في العلوم الرياضية ، لأن طبائعهم ما تهيأت للعناية إلا بقول الشعر كما رأيت ، وهو معدن حكمتهم وديوان آدابهم والمقيد لمحاسن كلامهم ، وقد بلغوا فيه الغاية التي لا مطمح وراءها الا ما كان من كلام النبوة ، وإن كان شعر الجاهلية جافياً لمكان أهله من الخشونة ومقامهم في القفر بين الابل والوحش والمنازل الخالية^(٤) فإن شعر المتصرين ليس بخال من رقة الألفاظ وجمال الصور وهم القاطنون بين فرش الحرير وأطباق الرياحين وآلات الطرب والقيان والندماء . ولقد نسمع عن أهل الأندلس أنهم يقولون شعراً أرق من النسيم^(٥) وذلك لغزارة المياه في أراضيهم ونماء الرياحين في جناتهم وظهور ريح الصبا عندهم ، حتى كان المرتحل منهم إلى المشرق إذا استقبل النسيم الذهاب إلى الغرب

(١) المقدمة ٣٥٩ (٢) المقدمة ٣٥٨ (٣) حاجي خليفة ٤ : ٦١

(٤) الكشكول والاغاني (٥) راجع كتاب المقرئ وغيره من تواريخ الاندلس

ذابت نفسه من الشوق إلى تلك الديار التي ينفح فيها الطيب على غصن
أندلسها الرطيب فيقول^(١)

وإذا ما هبت الريح صَبًا صحت واشرقى إلى الأندلس
وديار الأعراب قفر وإقليمهم محرق للأبدان وجفف للعقول وذلك مما
لا يولد فيهم من رقة القول وحلاوته ما نجده في شعر الأندلسيين .
أما علوم المنطق فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب في المنطقيات
لأرسطو الحكيم^(٢) عُرِّبَتْ في خلافة أبي جعفر^(٣) بمناظرة عبد المسيح
الحمصى وهو من أشهر النقلة بعد سلام الأبرش^(٤) وقد اشتملت على
رسائل ثمان ، أربع منها في صورة القياس وأربع في مادته^(٥) وربما زادوا
فيها بعض شرح وتفسير .

وأما علوم الخطابة والجدل والمغالطة فقد دونوا فيها مما استخرجوه من
كتب اليونان أسفاراً كثيرة ولكن من غير تمحيص يرجع بهم إلى محاسن
العلم إلا ابن العلاف^(٦) خطيب هذا الزمان في رسالة له في الخطابة بدأ فيها
بذكر سحبان وقس بن ساعدة وغيرهما من بلغاء العرب وخطبائهم في
الجاهلية والاسلام إلى أن أتى على بيان القواعد التي تلزم الأدباء في الخطابة
ليجدوا بلاغة القول مع تقويم الألفاظ واكتثار المعاني في قليل من الكلام

(١) المقرئ (٢) كتاب أرسطو الخاص بالمنطق يسمى النص يشتمل
على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته وهي كتاب المقولات
وكتاب العبارة وكتاب القياس وكتاب البرهان وكتاب الجدل وكتاب السفسطة
وكتاب الخطابة وكتاب الشعر ثم أن حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت
رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمسة المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تختص
بها فصارت تسعاً . المقدمة ٤٢٩ (٣) المسعودى ٢ : ٤٠٠ (٤) حاجي
خليفة ٣ : ٩٧ (٥) المقدمة ٤٢٨ (٦) ذكره ابن خلكان ٩٢

وأما العلوم الطبيعية وهى علم المبادئ وعلم السماء وما فيها وعلم العالم وعلم الكون والفساد وعلم المعادن والنبات والحيوان، وفيه علم الطب فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب الأعاجم كمرجعهم إليها في جميع ما لم يكونوا يتبرفونه من العلوم قبل أنى جعفر كما ترى، إلا ما وقفوا عليه بأنفسهم من حقيقة المعادن في علم الكيمياء وهو النظر في المادة التى يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة، فتوصلوا به إلى معرفة أمزجة المكونات وحقيقة المعادن والفضلات الحيوانية من العظام والريش والبيض وغير ذلك (١) وكان الناس من أهل الأدب يصبون إلى هذه الصناعة بما في منبجياتها وممزجاتها من تسلية خاطر مع تنوير العقل وتوسيع نطاق المعرفة، حتى إن الملوك أنفسهم كانوا يتهرون في استخراج المركبات ووزجها على غير ترفع عنها. فهذا خالد بن يزيد بن معاوية الاموى قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ودون فيها الرسائل الكثيرة حتى أفنى عليها عمره (٢) وهذا جعفر الصادق أحد الأئمة الاثنى عشر ومن سادات أهل البيت قد ترك فيها ترك أكثر من خمسمائة رسالة في علم الكيمياء إلا أن هذه الرسائل لم تنكسر طوية من الباب إلا ما وقف عليه أصحابنا بطريق التجربة والاختراع فبقيت الكيمياء مفرقة غير مجمعة حتى قام جابر بن حيان بالطريق السوسى (٣) تلميذ جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه فكتب بشفرة أجلى في علم المعادن (٤) ودون الكيمياء في سبعين رسالة ربطها بأصول العلم ونفذ في منبجيات المتقدمين ما لم يؤيده التحقيق في مجرباته، وقد قسم هذه الصناعة إلى قسمين

(١) الاغانى ١٦ : ٨٨ والعقد الفريد ٢ : ١٤٣ - (٤) ابن خلكان ١٤٦٧/٥

(٣) حاجى خليفه ٤ : ٢٤٦

منها القوة النفسية وهي السيميا: ، ومنها القوة العلمية وهي الكيمياء ، وأدخل العلوم السحرية في السيميا وذلك لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى صورة أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العلمية . وقد وضع القواعد على منهاج لم يشركه فيه أحد ولا قدر على مثله حكماء اليونان أنفسهم ، ولذلك نسب إليه هذا العلم وصار علم الكيمياء يسمى بعلم جابر^(١) أما الذين اشتغلوا فيها بعده فقد قصّروا دون الغاية التي بلغها منها ، وربما أكبَّ عليها جماعة بما طمعوا فيه من تكوين الذهب وإحرازة ولذلك لم يقيدوا مجرباتهم ومصطنعاتهم بالقواعد الثابتة بل جروا على مذاهب ضعفاء العقول من اليونان مثل طماوس وغيره ، وزعموا أن لهم طريقة لاستخدام الجن^(٢) في هذه الصناعة فلم يكن طائل فيما صنعوه . ولا فائدة مما دونوه ووضعوه .

وأما العلوم الألهية وهي السياسات والحرب والفلاحة وعلم الأخلاق وسياسة الأخلاق وغير ذلك فلم يكن للعرب نبوغ فيما تقلوه منها عن كتب اليونان والفرس ، وإنما ينفرد حسن نظرهم في علوم الدين كما رأيت وفي علم الكلام الذي وضعوه تحفظاً^(٣) من العلوم الحكمية إذ كانت تخالف الشرع الشريف^(٤) ، وقد رأيت لهم كتباً في السياسة المدنية^(٥) يذكرون فيها تدبير المنزل بمقتضى الحكمة ليحملوا العامة على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه ، وذلك أحسن ما لهم من التأليف التي فيها رأى ونصيحة ،

(١) المقدمة ٤٦٣ (٢) المقدمة لابن خلدون (٣) ابن خلكان

١ : ٦٨٧ (٤) حاجي خليفة ٣ : ١٠٠ (٥) ذكر هذا ابن خلدون في المقدمة

٣٢ وابن خلكان ٢ : ١١٢ و ١١٤

أما غير ذلك من السياسات فلم يكن لهم منها إلا بضاعة مُزجاة لأنهم لم يُعَنِّوا بها قبل هذا الزمان ، ولا نعلم إلى أين يبلغون منها ولا ما تقرّره في نفوسهم من الفائدة وفي معاشهم وآدابهم من المنفعة ، والله سبحانه وتعالى أعلم وهو وليّ المؤمنين لأرب غيره ولا معين سواه

أدب السير والحكايات

نُفِرد هذا الباب لذكر الحكايات والقِصص فانها فن بل أدب قد هوت إليه أفئدة العرب ، وأول من سبق إلى تدوينه عبد الله بن المقفع وهو الكاتب المشهور بالبلاغة^(١) والذي كان قائماً بديوان الانشاء في خلافة أبي جعفر ،^(٢) له كلام على الملوك يشهد بأنه كان عارفاً بالسياسة^(٣) ومقالات في البلاغة تُشير إلى أن الحكمة قد نطقت من نواحيه إلا أن أهل زمانه قد اتفقوا، وهم دونه في العلم ، على أن يقولوا إن كلامه كان أكثر من علمه ،^(٤) لأنهم ما أحبوا أن يرفعوا عقله إلى مساماة البلغاء الذين أوتوا الحكمة وانتهت إليهم البلاغة . وقد كان تدوينه له في تعريب كتاب هندي يقال له كيلة ودمنة^(٥) وهو يتضمن حكايات وضعت على لسان البهائم

(١) العقد الفريد في باب الكتاب وابن خلكان والمقدمة والمستطرف ١ : ١٥٩

(٢) المحاضرة ٢ : ١٣٢ (٣) الفخرى ٣١ (٤) ابن خلكان الأغاني ٨ : ٧٦

(٥) ذكره المسعودي ١ : ٣٨ والسيوطي وذكر المسعودي أن عبد الله بن المقفع كان عالماً باللغة الفهلوية وأنه ترجم منها إلى العربية غير كتاب كيلة ودمنة كتباً كثيرة

والطير وأشيرفيه إلى سلاستها من الحلم والمكر والجرأة والجبن والتيقظ والذهول والعقل والحق إلى آخر السلائق لتثقيف العقول ورياضة الأخلاق بهذه الطريقة من الفكاهة ، لأنه يستخرج من الأقوال الهزلية ضروباً من الحكمة البليغة ، وهو يشتمل على غرضين سياسيّ وأدبيّ ، فأما السياسيّ فانه داع إلى العدل وزاجر عن البغى ، وفيه بيان سلوك الملوك في آدابهم وتديريهم لأموالهم ومما يجب عليهم من العدول عن اللهو والغفول إلى التيقظ والسهر وأنّ الفاضل من الملوك حقيق بأن يعتبر بأقوال الحكماء ولا يُقَرَّب إليه أهل النيمة والفساد . وأما الأدبيّ ففي بيان المعاش في ظروفها وألوانها وسائر أحوالها والاقتصاد في تدبير المنزل والمعاملات بين الناس وما ينبغى لهم في سلوك الأمور من مراعاتها بعين العقل والبصيرة ، ولذلك يُعدّ كتابه من كتب الحكمة ، ونرى الفضلاء من الملوك قد أقبلوا عليه وطمحوا بأبصارهم إليه حتى إنّ كسرى أنوشروان أنفذ طيبيه برزويه إلى بلاد الهند لاستنساخه فترجمه إلى الفارسية ، ولم تزل الملوك تعظمه إلى هذا اليوم^(١)

وقد وضع ابن المقفع في أول ترجمته فصلًا سماه « باب غرض الكتاب » وأودعه من صنوف البلاغة والحكمة ما ضارع به سائر أبواب الكتاب ، وذكر أن أغراض واضعه « بيدبا » الفيلسوف تنقسم إلى أربعة

(١) ذكر الحصري أن سهل بن هرون ألف في زمن المأمون كتابه المسمى « ثلثة وعشرة » يعارض به كتاب كلية ودمتة وأنه كان ظريفاً عالماً حسن البيان له كتب ظريفة صنعها معارضا بها الأوائل في كتبهم بما لا يقصر به عنهم حتى قيل له بزر جهر الاسلام ٢ : ١٨٦

فأحدها ما قصد إليه من وضعه على ألسنة البهائم لبسارعه أهل الهزل إلى قراءته ، والثاني إظهار خيالات الحيوان بصنوف الاصباغ والألوان ليكون أنساً لقلوب الملوك ، والثالث أن يشتد الحرص عليه للنزهة في صورته فيتخذه الملوك والسوقة ويكثر بذلك استنساخه ولا يبطل ، والرابع وهو الغرض الأقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة .

ولقد قرأت هذه الترجمة أكثر من مرة بل أكثر من مائة مرة وأنا مشغوف بها لمكانها من البلاغة ،^(١) وعهدى بجميع الكتب الأعجمية إذا عُرِّبْتُ عُرِّيت إلا هذا الكتاب فاني رأيت في العربية أفصح منه في الفارسية ، وقد كان صبيّة البرامكة (حفظهم الله) يحاولون حفظه عن ظهر قلبهم ففطن لذلك أبان بن عبد الحميد^(٢) ونظمه لهم بالشعر حتى يسهل عليهم

(١) المقدمة ٢٥٧ (٢) ذكر في العقد الفريد ٢ : ٢٢٨ أن أبان بن عبد الحميد كان من ندماء البرامكة وله قصيدة أنشدها للفضل بن يحيى فيها حلالة شمائله وبراعة أدبه يقول : أنا من بغية الأمير وكنز من كنوز الأمير ذو أرباح كاتب حاسب أديب لبيب ناصح زائد على النصاح شاعر مفلق أخف من الريش إذا ما يكون تحت الجناح لي في النحو فطنة وتقاذ أنا فيه قلادة لو شاح لورمي بي الأمير أصلحه الله رماحاً صدمت حد الرماح ثم أروى عن ابن سيرين في الفقه بقول منور الإفصاح لست بالضخم في روائي ولا القدر م ولا بالمجمع الدحداح ؟ لحية كثة وأنف طويل واتقاد كشعلة المصباح وكثير الحديث من ملح الناس بصير بخافات ملاح لم وكم قد خبأت عندي حديثاً هو عند الأمير كالتفاح آمن الناس طائراً يوم صيد في غدو أو بكرة أو رواح

استظهاره ، يقول في مطلع ذاك الكتاب ^(١) .

هذا كتاب أدب ومحنه وهو الذي يدعى كليله دمنه
فيه احتيالات وفيه رُشد وهو كتاب وضعته الهند
إلى آخر الأبيات فأعطاه يحيى عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل
نصف ذلك جائزة على هذا الاستخراج ، لأنه كان بموضع جليل من البلاغة
التي ورثها عن أبيه . فقد كان عبد الحميد من فحول الكتاب الذين فتقوا
أكمام البلاغة وفكوا رقاب الشعر ، ^(٢) وكان نغراً للمسلمين بما آتاه الله تعالى
من البلاغة التي جمعت سحر البيان ، وأخذت بمجامع الجنان ، يقال إنه لما
ظهرت دعوة أهل البيت وكان عبد الحميد كاتباً في دولة الأمويين قال
لمروان سأصدر عنك كتاباً إلى أبي مسلم فإن قرأه حصل عندنا وجه من
الآمال وإن لم يقرأه ذهبت الدولة منكم ، فلما وصل الكتاب إلى أبي مسلم
(رحمه الله) وكان عالماً بمكان عبد الحميد من البلاغة قال « أبقوا الكتاب على
طية فأنما فيه سحر غالب » على أنني لو سئلت التفضيل بين هذين
الاستخراجين لقلت إن ترجمة ابن المقفع حقيقة بأن تكتب بماء الذهب
وتتخف بها خزائن الملوك .

ولما رأى الأدباء إقبال الناس على الكتاب تسارعوا إلى تعريب غيره
من كتب السِّير والخرافة ، فترجموا عن الهندية كتاب وزره وشماس ^(٣)

أعلم الناس بالجوارح والصيد وبالخرد الحسان الملاح
كل هذا جمعت والحمد لله على اتى ظريف المزاح

(١) الاغانى ٢٠ : ٧٣ (٢) العقد الفريد والمسعودى ٢ : ١٦٣ وذكر أنه
أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب واستعمل الناس
ذلك بعده . (٣) المسعودى ١ : ٢٩٦

وفيه أخبار ملوك الهند وبناتهم وما يتخاليها من الأمثال التي توسع العقول أدباً مع فكاهة وترويض أفكار، وترجموا عن الفارسية كتاب هزار أفسان وسموه ألف ليلة وليلة،^(١) ومعنى هزار أفسان ألف خرافة، وكان السبب في وضعه كما هو معروف أن ملكاً من ملوك الفرس كان إذا تزوج امرأة قتلها بعد يوم غيرة عليها من الرجال، فتزوج بجارية من بنات الملوك ممن لهن عقل ودراية يقال لها شهر زاد وفي بعض النسخ شيرزاد، فلما اتصلت به أخذت تحدثه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها وسؤالها في الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة وليلة، وإلى أن رزقه الله منها بولد طرحته إليه، ووقفته على حيلتها عليه. وكان للملك قهرمانة يقال لها رسازاد أو دينارزاد^(٢) كانت موافقة لها على ذلك، وفي هذا الكتاب دون المائتي سمر لأن كل سمر كان يحدث به في ليال عدة، وهي من أظرف الحكايات التي وضعها الفرس في غابر الدهر.

ولما راج سوق هذا الكتاب تداوله النساخ والكتاب وأضافوا إليه حكايات كثيرة وضعوها على سبيل الفكاهة بما يعهد فيهم من طول الباطل في وضع الحكايات ولا سيما ما يتضمن أخبار الجان ووصف مساكنهم تحت البحار وتزويجهم بناتهم من ملوك الأتس وقصص العفاريت والهواتف وغير ذلك إلى أن صار جملة ما في الكتاب حكايات عربية لا يخالطها من كلام الفرس إلا القليل، وهي وإن كانت بعيدة عن الصدق تظهر فضل العرب في أنهم يمتلكون فؤاد السامع برقة مأخذهم في تجميلها

(١) المسعودي ١: ٢٩٦ (٢) كتاب الفهرست

الرشيد وجعفر، أما ما ذكروه عن تطوائفهما^(١) مع مسرور ليلاً في الأسراق متكرين عن أن يعرفهم أحد فإن ذلك ليس بالموضوع، وقد ذكرت مثله في رسائل السالفة إليك غير أنني جردته عن المبالغة التي يزين الرواة بها أحاديثهم، كوقوف الرشيد في موضع الخطر أو ارتدائه بلباس الصياد على سبيل الفكاهة أو وقوعه هو وجعفر تحت سيف ذلك الرجل الذي كاد يقتلها لولا أنهما تداركا أمره بحيلة وجدا بها السلامة والنجاة.

وأما الحكايات التي زعموا أنها وقعت في قديم الزمان وسالف العصر والأوان فهي من الغرائب التي لا دلالة لها على الصدق وإنما أقبل خلق من العوام على تصديقها لا تقطاع أخبار الأمم عنهم بحيث كان يتعذر عليهم معرفة غشها من سميتها، ولأن ناقل الرواية كان يحدثهم بأن كذا وكذا من الأمور الغريبة جرى في كذا من البلدان البعيدة الشقة المتفاوتة السبيل، فلو حدثهم بأن في الشام مدينة من النحاس^(٢) أو بالعراق بلدًا صار غديرًا ثم انقلب ماؤه إلى عمارة وأسماءه إلى أناس ما صدقوا كلامه لأنهم يطرقون هذه البلدان كل يوم وعهدهم بها على غير انقطاع، وإنما نقل إليهم أن ذلك كله في جزائر الوقواق وما وراءها من بلدان العجائب فأوسعوا صدورهم لتصديق كلامه بما كانوا يتشوقون إلى الوقوف عليه من نعيم الناس وهم بمكانهم من عيش البداوة.

ومن أظرف ما ورد في حكاياتهم قصص العشق والغرام فيما أعربوا به عن محاسن النساء بين كاعب حسناء. وغانية هيفاء. وشاعرة فصيحة

(١) الاتليدي ١٢٦ والأغانى ٦: ١٣٧ وغيرهم (٢) المسعودي وذكرها ابن خلدون في المقدمة ٣٢ في معرض الانتقاد على المؤرخين

وعجوز ذات دهاء ، وما توسعوا به في كلامهم عن العشاق ووصف هنائهم في التلاق ، وتوجههم أيام الفراق إلى وضع الحكايات التي ترتاح إليها القلوب بما تصف من النعيم الذي يبعد عن أن يتمتع به الناس وإنما هو صورة تتمثل في الضمير على سبيل التخيل ، كالذي يحكونه عن فتى من أولاد الملوك أنه وقع إلى جزيرة كل من فيها نساء وتجارها نساء وجندوها نساء وكلهن آية من آيات الحسن والجمال ، وأنه قضى ينهن أياماً من النعيم أقل ما أصاب فيها أنه كان إذا طرح الشبكة في البحر على سبيل التسلية خرجت له من الاصداف صبية من بنات الجان ، كأنها حورية من حور الجنان ، إلى غير ذلك من الوصف الذي يحرك القلب ويملك الجنان .

وقد حلالي من حكاياتهم أيضاً حكاية السندباد^(١) وهي تشتمل على الحوادث التي وقعت له في أسفار سبعة أتى عليها جميعاً في طلب المال وفي كل سفرة عجيبة لم يسمع أحد بمثل ما فيها من المتالف التي وجد الكاتب مشقة عظيمة لاستنباط الحيلة فيها على وجوه تدفع الناس إلى ركوب الاخطار لنيل الملا والفخار ، بما تمتلك به أنفسهم من ذكر جبال المسام وعيون العنبر وعجائب البلدان التي نزل بها السندباد . وعلى بعض السنة الأدباء أن هذه القصة ليست من وضع العرب إنما نقلوها عن الهند واليونان وأضافوا إليها ما يحسن أن يكون في كلامهم حتى نفوا العجبية

(١) ذكرها المسعودي في موضعين من كتابه أحدهما في صحيفة ٢٩٦ من المجلد الأول ولم يذكر عنها شيئاً والثاني في صحيفة ٣٨ وقال انه كان في عصر كورس ملك الهند وذلك قبل زمن عيسى عليه الصلاة والسلام بثلاثمائة سنة سندباد دون له كتاب الوزراء السبعة والمعلم وامرأة الملك وهو الكتاب المترجم بالسندباد .

عنها . وهذا كلام فيه بُعدٌ عندي ، لأنني طالما سمعت رؤايتهم يحدثون بمثل ذلك ، وفي مطلع الحكاية أن الجمال اشتد به الحر فحط حمله على باب . التاجر في ظل يتردد اليه النسيم الرطيب ، وتقوح منه ريح العطر والطيب وأنه كان يرى عِزَّة ذلك التاجر في كثرة غلمانه ، ويسمع تغريد القمارى والشحارير في جنانه . وينشق من طعامه ريحا أحزنت منه النفس لا تقطاع أمله منه وهو بمكانه من التعب وشقاء الحال مما يستوقف الطرف ، ويشهد براءة الوصف فيما قصد اليه من بيان الفرق بين عيش الرخاء والنعمى ، وعيش الشظف والبلوى .

ولست أظن في هذه الحكايات السندبادية إلا أن واضعها رجل قد عانى الأسفار ، وتقلب على متون البحار ، حتى عرف ما بالأمصار ، من عجائب الآثار ، وغرائب الأخبار . وهذا شاهد على صحة ما ذكرناه من تقلب الكتاب في أيدي الأدباء الذين عز علم جميعهم عن أن يضمه صدر واحد من الرجال ، وإلا فإن في وصف الحروب من ذكر الكر والفر وحيل الفرسان ما لا يستنبطه إلا من طال وقوفه في ساحات القتال ، وكذلك في نوادر الزواج والطلاق من المعميات ما لا يستخرج فتواه إلا فقيه مجتهد في الأحكام الشرعية أيما اجتهاد ، ولولم يكن هذا الاستدلال صحيحا لوجدنا في اختلاف الأقلام دليلا واضحا على اشتراك الأدباء في تأليفه ، لأننا نجد فيهم من يسترسل في المغالاة إلى أن يذكر عن فارس من الفرسان أنه قتل في معركة واحدة كذا وكذا من الخلق مما ليس في الامكان إحصاء عددهم في يوم واحد فكيف يقتلهم ؟ ثم نجد من رسم قواعد الرواية على منهاج لم يتعدّه إلى ذكر المبالغة التي بعدت دلالتها عن الصدق ، وإنما ذكر الأخبار

للنظر في عادات الناس وأخلاقهم وكيف يتقبلون بالزمان أو يتقلب بهم الزمان ، وذلك مثل ما قصد الأدباء إليه في كلامهم عن العرب من ذكر المحاسن التي تفاخروا بها على جميع الأمم من الكرم والمروءة والعفاف ، والمساوى التي تفانوا لأجلها في طلب الثأر وإدراك الغنائم ، أو مثل ما قصدوا إليه في حوادث زماننا هذا من ذكر أخبار النساء كما هي ، إلى غير ذلك من وصف العادات المترفة التي وقعت في بغداد لهذا العهد ، وهذا هو النوع الخاص الذي أرتاح إليه من حكايات ألف ليلة وليلة لأنه ينبئ عن أخبار العرب الخاصة ، وفيه حسن وبراعة وصف لا مثيل لها في أدب الحكايات

تدوين الأخبار وأيام الناس

إنما وضع العرب هذه الحكايات بعد أن توغلوا بالأسفار في أطراف البلدان حتى تجاوزوا الصين إلى ما وراء فرغانة ،^(١) فاستفادوا بذلك غير ما كسبوه من الأموال أحرالاً شـاهـدوها وعادات جرّوا على سبيلها ومباني حاكوا منها الزينة والإحكام ، وشرائع تفقهوا في استخراجها للأحكام .

(١) يستدل على ذلك مما دونه رحالة العرب وعلماؤهم في الجغرافيا

وكانت عادة المسافرين بعد عودتهم إلى الديار أن يحدثوا الحى بفريب ما نظروه ، وعجيب ما سمعوه . فمن تلك الأخبار المنقولة ما اتصل بى من أن فى بعض الأمم رجالاً عراض الوجوه سود الجلود لا يزيد طول أطولهم على أربعة أشبار ،^(١) وفى جلودهم نُقْطَ حمر وصفر وبيض ، وأن منهم من له أجنحة يطير بها ، ومن رأسه كرأس الكلب ، ومن جسمه كجسم الثور أو الأسد ،^(٢) ولقد سمعت من يحدث أن من البلغار من طولُه أكثر من ثلاثين ذراعاً يأخذ الفرس تحت إبطه كما نأخذ الطفل الصغير ، ويكسر يده ساقه كما نقطع باقة البقل^(٣) إلى غير ذلك . واستأظن هذه الأساطير التى يتناقلها الأخباريون من أهل الأسفار إلا أنهم رأوا رسومها على الآثار التى خلفها الهنود والفرس والقبط السالفة من قوم فرعون وغيرهم من أهل الأعصر الخالية فحدثوا بها رجماً بالغيب ، أو تحصيلاً لليقين من الرّيب . ظناً منهم ان أمثال هذه الخلائق المشوهة عاشت فى قديم الزمان . أو أنها لا تزال فيما قصاً عنا من البلدان .

ولما دارت هذه الأساطير بين الناس ، وتناقلها الندماء والجلال ، أشفق العلماء على أخبار العرب وأيامهم من دخول الفساد عليها أو امتزاج الحكايات الباطلة بها فتسارعوا إلى تقييد التاريخ فى الأوراق حتى لا يتشوه على تمادى الأيام ، بتداول الرواية على ألسنة العوام . وقد كان شعر العرب محفوظاً فى صدور أهل العلم فنقلوه إلى الكتب للدلالة على ما يرومون إثباته من الأخبار مع بيان صحتها واستخراج الكثير من عقائدهم وعاداتهم من

(١) ابن خرداذبة ٦٣ (٢) القرمانى ٥ : ٥٤ (٣) المستطرف ٢ : ١٦٢

أمثال هذه الأسانيد المحفوظة ، وهم يوقتون وقوع الحوادث السالفة مثل
ما كان يوقته أهل الجاهلية بقولهم هذا جرى في أيام كسرى ، وهذا في
حرب البسوس إلى غير ذلك ^(١) وأما الحوادث التي وقعت في الاسلام
فقد أرخوها بالسنين والشهور والأيام وكانت أصح في النقل والرواية من
أخبار الجاهلية ، لأن شأن الرواة فيها من الخلاف والاختلاف والمخالفة
أشهر من أن يذكر ، والحوادث إذ ذاك محفوظة بالأنواء وطلوع النجم ،
ولم يسلم لهم من الفساد إلا علم الأنساب الذي حفظته فيهم العصبية ^(٢)
حتى اتصلت أنساب أشرافهم إلى أولاد ابراهيم (عليه السلام) مثل أنساب
قريش وثقيف وغيرهم من البيوتات .

وأول من سبق إلى تدوين التاريخ محمد بن اسحق ^(٣) في كتابه عن
المغازي والسير وأخبار المبتدأ ، ^(٤) ولم يكن التاريخ قبله مجموعا ولا معروفا
ولا مصنفا ، ^(٥) ثم أخذ أهل العلم في تدوينه بعد ذلك . ووضع محمد
المعروف بالواقدي كتابا في فتوح الشام ضمنه كثيرا من سير الخلفاء الراشدين
(رضي الله عنهم) وأتى على ذكر الحروب التي سمرت نارها على عمال
الروم ، إلا أنني رأيت يسوق الحديث في كلامه عن الجند والقتلى جزافا فيقول
إنه سار إلى قلعة كذا خمسون ألفا من المسلمين وإلى حصن كذا وكذا وكذا
رجلا وإلى البلد الفلاني كذا خلقا عظيما مما لو جمع إلى ما فرقاه على سائر
الحصون والقلاع لم نجد قدر نصفه في جنود المسلمين كما ثبت عند أئمة

(١) راجع كتاب الأغاني (٢) راجع مقدمة ابن خلدون والعقد الفريد

(٣) حاجي خليفة ٣ : ٦٤٣ وذكر أبو الفداء وابن الأثير أنه مات سنة ١٥٠

(٤) المقدمة ١٧٠ (٥) المسعودي ٢ : ٤٠١

النقل ، وكذلك أكثره في عدد القتلى من الروم كأن يقول إنه قتل منهم كذا وكذا من الآلاف مما لم يكن في جندهم مثله في جميع ما لهم من البلدان ، فربما انفرد الواقدي في علم الفقه والحديث ولم يكن له باع فيما سواه من العلوم .

وقد دوّن التاريخ بعده حمّاد الراوية وعبد الله الأصمعي وهما يعرفان أخبار العرب وأيامهم وأنسابهم ويعلّيانها عن ظهر قلوبهما إلا أن الخلل في رواية حمّاد أنه يقول الشعر على لسان المتقدمين ^(١) فيما يروم إسناده اليهم من نكتة أو من خبر ، فهو إلى المؤاخذه بما يُدخِل على التاريخ من الأخبار الموضوعة أقرب منه إلى الثناء على ما يضعه من الشعر الذي لا يفرق عن كلام الجاهليين . يقال إنه روى لهم ألفين وتسّمائة قصيدة ، لكل حرف من الحروف الأبجدية مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات ^(٢) . وأما الأصمعي فليس ثمة من الأمور التي ننتقدها عليه إلا أنه كثير الرواية واسمها حتى يكون فيها بعض المزية عند كثير من أهل العلم ، وليس ذلك لغرابتها أو لبعدها عن الصديق بل لكثرتها فيما نقل بمدونات ، وهذا لا ينقص فضله في العلم ، ولكنه من باب تعظيم الشيء الذي يزيد قدره على أن يكون مثله في صدر رجل .

ثم إنني وجدت الأصمعي وحمّادا كليهما قد وقعا في الخطأ والقصور اللذين وقع فيهما أهل الرواية قباهما وبعدهما . فأما الخطأ فهو إعراضهم جميعاً عن ذكر محاسن الأعاجم ممن هو خارج عن دين الاسلام حتى

لا يشغلوا كتبهم بذكر مذاهب كفرهم^(١) كما يقولون ، وأما القصور
فلكونهم يذكرون الحوادث من غير أن يستريحوا مبدأها وغايتها ولا أن
ينظروا في عللها وأسبابها ولا أن ينتقدوا على الملوك معايهم فيما سقطت
به دولهم بعد أن تسلموها بمكان عظيم من النفوذ والسلطان ليكون في
انتقاد الأشياء تذكرة للناس ، ويظهر فضل التاريخ على سواه من العلوم
الأدبية ببيان المحامد التي يسترشد بها والمساوي التي ينبغى الاستنكاف
منها والتنكب عن سبيلها .

هذا ما أعلقه في هذه الرسالة عن علوم العرب وآدابهم مما يشهد لهم
بالفضل الجزيل فيما تمهروا في استخراجهم من كتب الأعاجم ونظروا فيه نظر
بصيرة واجتهاد من جميع العلوم والفنون والصناعات ،^(٢) إذ كان لهم غير
من ذكرنا من العلماء كثير من النقاشين والمصورين والصناع مما يدل على
أن لهم صوراً على الورق الصقيل^(٣) تظهر خارجة وليست بخارجة ، وداخلة
وليست بداخلة وفيها كل غريبة من الأبداع ، ورأيت من رسومهم على
الآنية والأعمدة والقباب ما يبهر البشر في إحكام الصناعة مع الخلاوة وتمام
الزينة مع الحسن والطلاوة ، وهذا كله قد توصلوا إليه في عصر الرشيد
وملوكنا البرامكة (أعزهم الله) وقد سُمي بالعروس^(٤) لخصبه ونضارته
وكثرة خيره وانتشار علمه في جميع البلدان الإسلامية . ولعمري أن فيما
ذكرت بهذه الرسالة من آداب العرب لشاهداً ناطقاً يلوغ العناية من .

(١) المقدمة ٢٠٣ وابن حوقل وغيره (٢) راجع مقدمة ابن خلدون .
وكتاب حاجي خليفة (٣) كلیلة ودمنه (٤) المسعودی ٢ : ٤٠١ والشرقاوی .
١٢٢ وفي الحصری ٢ : ١٠٣ كانت أيام البرامكة روض الازمنة

ال عمران . إذ كان العلم مرآة يرتسم فيها حال الأمم في كل عصر ومكان .
وقد وقع تدوين هذا الكتاب في أول شهور السنة السادسة والثمانين
بعد المائة من هجرة نبينا المكرم (صلى الله عليه وسلم) والله نسأل أن
يُجَمِّلَ حالنا بالسَّتر الجميل ، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم ، لا ربَّ سواه .

الرسالة الثامنة

رسالتى إلى قيصر الروم

هذا تاسع كتبى إليك أفرده لذكر الرسالة إلى أنبرذور الفرنجة ، وأنا
أكتبه اليوم على متن السفينة فى البحر الفاصل بين الروم وإفريقية . كان
الرشيد يوم وصل رسول الأنبرذور إلى الحضرة ^(١) قد استدعانى إليه فأصبته
فى مجلسه متنقلا كأنه يريد أمراً عظيماً ، فاستدنانى ^(٢) إليه وقال إننا أتانا
من ملك الفرنجة رسول يُقرئنا منه السلام ويلتمس جميل رعايتنا بمن
يحجُّ إلى بيت المقدس من ملته ، فرأينا أن نوجهك إليه بلطائف نروم منه
أن يتقبلها فى سبيل المودة لغاية نرغب فيها إليه هى التعصُّب على بنى أمية
الذين يمزقون الأندلس فيما هو ناشب بينهم من الحروب ، ^(٣) فإذا وافقنا على

(١) هذه اللفظة لقب زوى للقيصرة وقد وردت فى كتب العرب ووجدت
فى ابن خلكان ١ : ٨٤ لفظه انبرور بحذف الذال وهى تشبه أن تكون منقولة عن
الفرنساوية (٢) فى الأغاني ٤ : ٨٤ أن الخليفة يستدنى من يحبه (٣) راجع
المقرئ وابن الاثير تجد كلاماً مطولاً فى هذه الحروب

ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من إنقاذك إليه في هذه الرسالة ، واجهّد في أن تسترقّ قلبه بخلاصة لسانك ، وتقدّم إليه بالوعد الجميل في أننا نوفيّه حقّه يوم الفتح ، ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا ، ونجري الأرزاق الواسعة على جنده ونقاسمه ما تحوى خزائن الظالمين من المال والجوهر ، واستصحب معك هذا اليهودي الذي جاء به رسوله فهو يترجم عنك إليه ، وخذه بالتعظيم الكثير لأنه شيخ مرفّ جليل القدر فيما نقل الرسول إلينا ، وقد قدّمنا إلى مسرور أن يُصحبك بالخدماء مع الدواب والخيام إلى بيروت من ساحل الشام ، فاذا عدت إلينا وأنت آخذ على مصر أمرنا الليث أن يوجّه معك طائفة من الحرس إلى عيذاب فتوافينا إلى البلد الحرام حيث توافقنا حاجّين ، فسر على بركة الله ، وإياه نسأل أن يتولاك بعين الحراسة ، ويهدي قلبك الصواب وهو وليّ التوفيق .

فلما أذن لي بالانصراف أتيت البرامكة لأستطلمهم رأيهم في المصلحة فلقيت جعفرًا منزهاً في البستان وبين يديه جماعة من الندماء . فلما أقبلت عليه قال اخرج عما بنفسك وحدّثنا عن سفر البحر ، فقلت وأنى ذلك ؟ فقال علم الله أني أنا الذي أشار على الرشيد بأن يوجهك إلى ملك الفرنجة رسول خير ومودة وسلام . ثم أوماً إلى الجلّاس فتحنّوا عن موضعنا فاستدنانى إليه وقال بم أوصاك ؟ فقلت بكذار كذا من الأمر ، فوجم ساعة ثم قال سبحان الله إلام يتمادى به تعريض القتال ؟ لقد أشرت عليه بأن يعدل عن مناجزة الأمويين ، لأن لنا في الشرق ما يشغلنا عن قتالهم ، وفي الخوارج الذين يقارعونه على الخلافة في كل حين ما انضعفنا عنهم مرة

واحدة فسدت دولته فساداً لا تقوم لها من بعده قائمة . وان يكن الرشيد عن
مرو عظمى غنياً بما عنده من العقل والسلم فإن الملك قد تطمح نفوسهم إلى ما
وراءه الشر من طمع الاستيلاء ، وقد قال الله تعالى « لا تسألوا عن أشياء إن
تبد لكم تسؤكم » ،^(١) فإلنا وللا مومين وقد كفانا الله شرهم ، فان كانوا
في شقاق فلندعهم ينادون بالويل والحرب الى ما وراء البحور ، وليس لنا
أن نلقى رجالنا في المواضع المحجفة ونوردهم موارد الهلاك ، فاني أرى
الجند يتفانون قبل الاشراف على تلك المتالف ، كما اني أحسب الأبرذور
على ما يؤثر عنه من إثارة الرفق ولزوم التؤدة بعيداً عن موافقته على ما يروم
من الايقاع بملوك أمية ، وهم مطمئنون في ديارهم معتصمون في قلاعهم وقد
عمرُوا أمصارهم ودوتوا دواوينهم وشكوا في حصونهم واتخذوا الأهبة لهم
والعدّة والكراع ، ودون الاستيلاء على ديارهم شيب الغراب ،^(٢) ولقد كان
أولى بالرشيد أن يرى دول الأندلس درعاً منيعاً للإسلام وسيوفاً مشهورة
على الروم ، لأنها لو دخلت في حوزته لم يأمن إن أرسل الجند أن يخونه
القواد أو مات الأبرذور عن خلف لا يرعى العهد أن يوجه من يقبض
على عمالها من لدنه ، وقد بدا لي أن أعاوده في هذا الشأن فان رغب عما
فرط منه وإلا فليفعل ما كان فاعلاً لبلوغ أمنيته .

(١) سورة المائدة (٢) قلت الأخبار السالفة عن ملوك أمية أنهم لما
هربوا من دمشق الى الأندلس ووجدوا الحماية فيها غير مدعنة لدولتهم قاتلهم قتالا
أحبوا معه الموت أو يحصلوا على لقمة تبقى الرمي وبلغ استقنائهم في سبيل الملك الى
أن يقتل أحد ملوكهم ابنه من أجل أنه تراجع عن العدو وقد هاله كثرة جموعهم فقال
لأحد أصحابه بعد أن ضرب عنقه اكسروا جفون السيوف فاموت أولى أو الظفر
« ابن الاثير ٦ : ٤ »

فلما كان الغدُ بكَّر جعفر إلى الرشيد وخلا به ساعة جيدة يقلب عليه الكلام وَيَحْضُهُ الرَّأْيَ والنصيحة ولكن من غير أن يقوم ما بنفسه من الميل ويعدل به عن ركوب هذا المركب الوعر. فاستدعاني إليه وسلمني كتابه إلى الأنبرذور وأمرني بأن أجتسَّ أخبار العمال وأتفقد أمورهم حيث مررت. وأوصاني برجل من الأمويين في دِمَشْق كثير المال كبير الجاه أن أتحقق حاله حتى إذا كان يُخَشَى منه استمالة أهل الشام إلى الفتنة رفعتُ ذلك إليه ليتدبر أمره،^(١) ثم قال وإذا مثلت بين يديه «يريد قيصر الروم» فقل له عن أُمِّيَّة إنهم قومٌ قد كفروا بالنعمة وتركوا فروض العبادَةِ وسعوا في الأرض فساداً وأنا أحق بالملك منهم لمكاننا من قرابة النبي صلى الله عليه وسلم. ثم أذن لي بالانصراف، وكان يظهر من الميل إلى وجميل العطف علىَّ بحيث كان يدعوني بلفظة الحبيب^(٢) كلما بدأ بالكلام بعد انقطاعه.

وكان في لطائف الخليفة إلى الأنبرذور فيلٌ عظيم أبيض كان عند المهديّ (رحمه الله) أرسله له بعضُ ملوك الهند،^(٣) وثياب فاخرة من الوشْي المنسوج بالذهب، وبُسْط ديباج من طَبْرِ ستان، وأعطار من اليمن

(١) ذكر الاتليدي ١٢١ والابشيى ١ : ٨٤ قصة ظريفة عن هذا الأموي فليراجعها هناك من أحب (٢) ذكر الأغاني ٦ : ٥٧ أن الخليفة لا يترفع عن أن يدعو بعض خواصه ياحبيبي ونقل صاحب العقد من نوادر اسحق انه لما دخل على المأمون استدناه اليه فدنا منه قال اسحق فرفع المأمون يديه فاتكأت عليه فاحتضنتي يديه وأظهر من اكرامى وبرى مالو أظهره صديق لى عواس لسرنى ٣ : ٢٤٠ (٣) ذكره الأغاني ٩ : ١٣٦

والحجاز، ومسك وصندل وأعواد نَدَّ من الهند، وسُرَّادق عظيم مجلَّل بأنواع الحرير وكلاييه من الذهب الملبَّس بالوشى، ومِزْوَلَة كبيرة تبدل على الأوقات في ليل ونهار، وهى من عمل صنَّاع بغداد، وشِطْرَيج بدیع الحسن قد اتَّخَذَتْ أدواته من العاج المنقوش، صنَّعه تقاش من النصارى اسمه يوسف الباهلى ورسم اسمه على الأداة التى تُثَلِّلُ الشاه، وهى من الحسن بحيث إن الناظر إليها يُكَبِّرُ صناعتها وقد مثل فيلًا يُلْفُ خُرْطومه على فارس وعلى رأسه جنديّ قد أخذ بزمامه ومن حوله ثمانية فرُسان يراد بهم الرمز إلى البيادق الثمانية الذين يناضلون عن الشاه وعلى ظهره هَوْدَج مزخرف بأنواع الرسوم قد استوى فيه ملك على رأسه تاج مثل تيجان ملوك حمير،^(١) وقد أظهر هذا الرسام فى تصويره من الحِذْق ما يستحق عليه الثناء، لأنه مثل أصحاب الفيلة كما هم، وجعل فى آذانهم أقراطا وعلى زنودهم أساور وعلى أبدانهم القراطى وهى لباس الهنود، واتَّخَذَ عُدَدَ الخيل مزخرفة وصنع لها السروج والأزمنة، وقلَّد الفرُسان شيئاً من السلاح ما عدا الجنديّ الذى أخذه الفيل بِخُرْطومه فانه يُعالج بنفسه للخلاص مما هو فيه، وقد طُرِحَ سلاحه على الأرض وعليه سِمَةٌ التوجع والانكماش^(٢) مما يشهد للممثل بأنه من مَهَرَّة الصنَّاع.

المروء بالكوفة وبلاد الشام

لقد رُسم لى طريق الوجهة بأن أسير إلى الكوفة ثم إلى دِمَشق ثم إلى بَیْرُوت على ساحل البحر، وكان مسيرنا فى غاية البطء رفقاً بالفيل

(١) ذكر تيجان ملوك حمير صاحب مروج الذهب ٢ : ٢١٥ (٢) هذه الأداة لم تزل الى هذا اليوم محفوظة عند الفرنجة وقد رأيت صورتها فوصفتها كذلك

والدواب المثقلة بالأحمال، فاجتزنا بعد الانفصال عن الحضرة بمدينة النيل التي مصرها الحجاج،^(١) وهي بمقتصف ما بين بغداد والكوفة،^(٢) ثم عطفنا إلى الأنبار،^(٣) ثم إلى مدينة الكوفة فنزلت بها في رَحبة خُنيس الأنصاري من أجداد أستاذي أبي يوسف رحمه الله^(٤)، وهي في مقابلة الباب الكبير المعروف بباب الفيل،^(٥) وقد طاب لي المقام بين أهلها لما وجدت فيهم من الحب لأهل البيت^(٦) (شرفهم الله) ولا سيما في قوم كِنْدَة من ملوك النصرانية، وهم من غلاة الشيعة^(٧) وأكثرهم عالمٌ وحكيم وأديب، كان يتهم معدن العلم ومظهر الحكمة، وقد لقيت منهم إسحق الكِنْدِي وهو عامل الرشيد على الكوفة، قلده الامارة بإيعاز البرامكة الذين يحافظون على تأييد الشيعة،^(٨) ويبنون من إلف الرعية فيما بينهم تعظيم الاسلام في انتفاعه بحكمة الأمم وعلومهم وصناعاتهم، وقد جروا في ذلك على سنة أبيهم خالد (رحمه الله) وهو الذي قرَّب بعض النصاري إلى أبي جعفر كما تقدم في موضعه من الكتاب.

ولقد وجدت الكوفة من أعظم مدن العراق،^(٩) وهي ذات ماء وشجر ونخيل،^(١٠) وقد رُت أن تكون في الكبر كنصف بغداد، فحق تسميتها بالكوفة لاجتماع الناس فيها، من قولهم تكوَّف الرمل إذا ركب

(١) القناوى ١٣٥ (٢) ياقوت ٢٤: ٨٨٣ (٣) المسعودى ٢: ١٤

(٤) ياقوت ٢: ٧٦٢ (٥) الأغاني ٥: ١٦٦ (٦) هذا معروف في كتب

المؤرخين وذكر أبو الفداء ٢: ١٤ أن كبير علماء الكوفة كان يميل مع الإمام على كرم

الله وجهه (٧) الطواط ١٢٥ (٨) المحاضرة ٢: ٨ (٩) ابن جبير ٢١٣

(١٠) القناوى ١٣٦

بعضه بعضاً، ^(١) وقد زارني فيها كثير من أدبائها المشهود لهم بالفضل والاجتهاد، ولكني لم يتهياً لي زيارتهم لقصر الوقت، ولقد وجدت إسحق أميرهم من العلم والعقل بالموضع الذي أكتفى من الدلالة عليه بأن آسف لبُعده عن الاسلام. وهو يسكن داراً مباركة تعزى إلى عقيل بن أبي طالب، ^(٢) وهي بازاء المسجد المبارك الذي قال فيه بعض الصالحين إن ركعتين فيه تعدلان عشرأ فيما سواه من المساجد، وإن البركة منه إلى اثني عشر ميلاً من حيث أتيتّه، ^(٣) وقد زرتة قبيل الانفصال عن المدينة ولم أر في عمدة المساجد كلها ما هو أطول من عمده ^(٤) ثم زرت مشهد علي عليه السلام ^(٥) وتبركت به وقرأت عنده شيئاً من القرآن.

ولما انفصلت عن الكوفة تخلفت عنى الدواب المحملة، فانقطعت في الفلاة مع جماعة من الحرس، ورحنا تقطع القفر بعد القفر، حتى إذا عظمت على مشقة السفر تذكرت طيب بغداد وظرائفها ^(٦) وحننت إلى مجالس البرامكة والدار عندهم جامعة، وأوقات الأُنس بها رائعة، فكنت أقول متمثلاً بكلام إسحق النديم ^(٧).

(١) تقويم البلدان ٣٠١ (٢) الأغاني ٤ : ١٨٢ (٣) ياقوت ٣٢٥ : ٤ (٤) ابن جبير ٣١٣ (٥) تقويم البلدان ٣٠١ (٦) القزويني والأغاني ٥ : ٩٤ و ١٧ : ٧ وفي غير موضع (٧) الأغاني ١٧ : ٧٥ وذكر ياقوت في صحيفة ٦٨٨ من المجلد الأول أن الرشيد أنشد البيت فربما لم يكن لشعر له بل كان من نظم إسحق لأنه كثير ما كان يذكر بغداد ويتشوق إليها وهو في أسفاره مع الرشيد ويقول

ذكر الأجابة فاستحنّ وهاجه للشوق نوح حمامة وحمام
لم يذفي الصدر إلا أنه حيا العراق وأهله بسلام

جلى أهل بغداد السلام فانى . أزيد بسيرى عن ديارهم بعدا
إذا ذكرت بغداد نفسى تقطعت . من الشوق أوكادت تذوب بها وجدا
ولم أزل مجدا في السير حتى بلغت دِمَشْقَ في اثنتى عشرة ليلة ،^(١)
ولو أنى سرت تحت جناح الليل لبلغتها في ثمانية أيام^(٢) فما دونها ، فنزلت
فيها عند قاضيها الامام عمر بن أبى بكر بن تميم القرشى العدوى^(٣) في دار
بناها عويمر أبو الدرداء ، وهو أول من ولي القضاء بدِمَشْق ، وكان القضاة
قبله يسكنون قصر الحجاج^(٤) المعروف بالقصر الكبير .

أما الشام فانها بلاد مباركة كثيرة الخيرات ، وفيرة الغلات ، إلا أنها
نكيدة الحظ في تغلب الأمم الغازية عليها ، ولذلك قلت عمارتها إلى هذه
الغاية بعد تغلب الكلدان عليها والفرس الأولى والفراعنة واليونان والروم
والفرس الثانية ولا سيما قبيل أن ظهر الاسلام ، وقد كانت تمزقها الحروب
التي تسعرت نيرانها بين بنى عامر المتغرضين للفرس وآل غسان المتغرضين
للروم ، فانتقض عمرانها ودرست سبلها وتداعت أحوالها إلى الانحلال
بعد أن كانت في عظمة لم يكن مثلها في الدول إلا قليلا ، وكانت فيها
التجارة كأعظم ما يكون من النفاق والعلوم والصنائع سوق رائجة
رائجة فدرست تلك المحاسن وتقلصت تلك الرسوم حتى لم يبق اليوم من
مصانعها غير رسوم شاخصة وآثار ناقصة .

وانما دعا أهلها إلى الفساد وجلب عليهم المذلة وطمح بأبصار الملوك
إلى التهامهم ما وقع بينهم من الشقاق وما كان في نفوسهم من التحزب

(١) الأغاني ٥ : ١٦٦ (٢) الاتليدى ٢٦٣ (٣) قضاة الشام

(٤) الاتليدى والمستطرف ١ : ٢٨٧

الذى هو أشدُّ من الفتنة، ^(١) فكان ظهور المرسلين فيهم سبباً لتعصب بعضهم على بعض وإن كانت مواعظهم داعية إلى المحبة والاتحاد. وهذا هو الأمر الغريب الذى لم يُسمع بمثله في البلدان، فلقد كانت الشام مهبط الوحى ومسقط النبين وموطن الأولياء الطاهرين الذين كانوا يتخذون الانصار لنفوسهم ويرومون إدخال الناس في شيعتهم ليجمعوا ما كان شتتاً من شملهم ومتفرقاً من كلمتهم وأغراضهم، إلا أنهم لم يبلغوا من ذلك الغاية التى كانوا يرومونها من أمرهم. فانما الواجب على أهل الوطن الواحد أن تكون فيهم جامعة الألفة وألا ينعصبوا بميولهم إلى غير ما يقصدون منه الوحدة فان عظمة الامم لا تحصل، إلا بالاجتماع والعصبة، سنة الله في خلقه. أنظر إلى الدول الرومية كيف عبت بها العدو حين وقع فيها الانقسام والتجزؤ. وانظر إلى الدولة الأموية لم يقارعها أبو مسلم على الخلافة إلا عند ما تخالف عليها صبيته ^(٢) فيما يرمون إليه من طمع النعيم، وانظر إلى أهل البيت السلالة الشريفة والذرية الصالحة كيف وقعت بهم الشدة يوم تفرقوا على أغراض لا تجمع بينهم إلى الوحدة، فلما اجتمعوا في المغرب إلى إدريس بن إدريس (رضى الله عنه) قام لهم ملك يرجف له الشرق،

(١) هكذا كانت الشام في زمن الجاهلية والاسلام فان مضعب بن الزبير لما خطب الناس قال بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين تلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين أشار بيده نحو الشام وهو يريد ان به الى يومه مثل ذلك (٢) ذكر صاحب العقد الفريد انه قيل لبعض بني أمية ما كان سبب زوال ملككم قال اختلاف بيتنا واجتماع المختلفين علينا.

فان تنظر الى ذلك كله وإني كثير مما وقع وما هو واقع في الممالك تجد أن الأسم لا تقوم دولهم إلا برابطه الاجتماع والمصيبة ، ومتى تسقط من روابطهم تلك الأوصال يُنذر أمرهم بالانحلال وتتداع أحوالهم إلى الاضمحلال .

وصف دمشق وأنها بهجة البلدان

ولما وفدت على دمشق وسرحت الطرف ناحية الغوطة امتلأت عيني من خضرة الأرض حتى تخيلت نفسي في جنة من جنات السماء ، ولا غرو فان مياهها وأشجارها ورياحينها لأفضل ما في الدنيا من المتنزّهات ،^(١) يسير الرجل في رياضها يومه لا تصيبه أشعة الشمس لالتفاف شجرها بعضيه على بعض ، وهي في أسمى مقام بين مدن الاسلام : بعد دار السلام . قد اشتبكت فيها العمارة^(٢) وتزهت عن المثل في النضارة . لكنها ليست بالمفرطة في الكبر ، وربما كانت إلى الطول أميل منها إلى العرض ،^(٣) وهي لا تخلو من السقايات^(٤) في أسواقها ولا بيوتها ، ومبانيها طبقات فوق طبقات^(٥) وتحتوي من الخلق على العدد الكثير ، والناس على مذاهب فيمن بناها من الأولين . فمنهم من يقول إن عاداً أول من نزلها من الناس وإنها هي إرم ذات العماد ،^(٦) ومنهم من يذهب إلى أن بانيها الغادر غلام

(١) تقويم البلدان ٣٥٣ وابن خرداذبة ١٢٤ وياقوت ٢ : ٥٨٩ (٢) القزويني

٢٦ (٤) ابن جبير ٢٨٥ (٤) المقرئ ٣٠ وابن جبير وابن بطوطة

وياقوت ٢ : ٥٩٠ (٥) ابن جبير ٢٨٥ (٦) ابن خرداذبة ٧١ القرمانى

١١٨ : ٥ والشريشي ٢٠٧ : ١

نمرود^(١) أو دمشاق بن كنعان ، ومنهم من يزعم أن الذي اختطها هو دمشق مؤلف الاسكندر الرومي ،^(٢) ومنهم من يرى غير ذلك . إلا أنه ليس فيما يقولون حجة ترجع بهم إلى محاسن التحقيق في وثائق الآثار ولا سيما عند الذين يعزّون بناءها إلى الروم ، فإن الرد عليهم واضح لا يحتمل التأويل بعد أن أتى موسى كليم الله على ذكر دمشق في غير ما آية من كتاب التوراة . ومهما يكن من اختلاف المؤرخين في ذلك فإن هي إلا مدينة أولية^(٣) قد صحبت الملوك من الكنعانيين والروم وآل بختنقة وبنى أمية دهرًا طويلًا ونالت من العزة والعمارة ما قل أن يناله غيرها من المدن ، ولو كان البناء الذي شاده فيها الملوك من الحجر الصلد ثم بقي ماثلاً إلى هذه الأيام لكانت دمشق زينة الدنيا ، ولكنه شيد من طين ولبن فأتى عليه الانحلال ومحت الأيام آثاره^(٤) فلم يبق منه إلا قلعة من الحجر تعزى إلى الروم^(٥) وقصره يقال له قصر جبرون عليه أبواب عجينة من النحاس^(٦) وبنائه يقال له البريص فيه كثير من العمدة ، وترعى العامة أنه كان يجرى منه الشراب في قديم الزمان إلا أن أركانه اليوم قيام وقعود . وحيطانه ركن وسجود^(٧) وقصران من الحجر لعمر بن عبد العزيز^(٨) وللوليد بن عبد الملك^(٩) وهما جميع ما تخلف عن ملوك بني أمية ، لأن ما نجا من معول الزمان لم ينبج من معول أبي جعفر ،^(١٠) كما مر في موضعه من الكتاب .

-
- (١) الكنز ٢٣ (٢) القرمانى ٥ : ١٩٣ (٣) تقويم البلدان ٣٥٣
 (٤) قلائد العقيان ٥ (٥) ابن جبير ٢٩٠ وتقويم البلدان ٢٥٣
 (٦) المسعودى ١ : ٢٤٢ (٧) المسعودى ١ : ٢٩٧ (٨) ابن جبير ٢٩٣
 (٩) المقدمة ١٥٤ (١٠) ابن الاثير والمسعودى ٢ : ١٤٣ والخميس ٢ : ٣١٤

ولقد وجدت أهل دِمَشْق أحسنَ الناسَ خُلُقًا وخلُقًا، يكرمون
 الفقراء ويتلمسون منهم أن يتقبلوا صدقتهم حتى يكونوا هم في صورة
 السائل،^(١) ولو أن فقيراً أَعْرَضَ عن كِسْرَتهم لقالوا ويحنا لو علم فينا خيراً
 لتناول من طامنا،^(٢) وقد بلغني عن فضلائهم أنهم يزهدون في الدنيا
 وينقطعون إلى الله تعالى متبتلين في جبل لُبْنان،^(٣) غير أني لا أطلق هذه
 الرواية إلا على فئة قليلة من الصالحين، لأن جمهورهم مائل إلى اللهو والطرب
 ولا سيما في يوم السبت، فانهم لا يشتغلون فيه إلا بالمجون والتهتك، لا يبقى
 فيه للسيد حَجَرٌ على المملوك، ولا للوالد على الولد، ولا للرجل على المرأة،^(٤)
 وهذا أمر غريب لم أَره في غير دِمَشْق ولا أعلم هل النصارى يشاركونهم
 في ذلك، لأنني رأيته منقطعين عن مخالطة المسلمين في المنازل والأحياء،
 قد تألبوا على كنيسة معظمة عندهم تعرف بكنيسة مريم،^(٥) ويقال إنها
 من أعظم بيعة بعد بيت المقدس.

وبقيت في دِمَشْق ثمانية أيام إلى أن وفد الغلمان بالدواب المحملة وكنت
 قد استقصيت البحث عن هذا الأموي الذي أتعب خاطر الرشيد أمره فلم
 أجده غرضاً في السياسة ولا هو طامح إلى ملك ولا إمارة ولا يحدث
 نفسه بشيء مما يُقلِق بالرشيد حتى يخافه على أمره، فأمسكت عن
 السّعاية به لأنني رأيته وهو خلّو من هذه الأغراض مثل التاجر الكثير المال
 والجاه ليس إلا، وقد تهيأ لي باستطلاع خبره أن أقف على سير غيره من
 أقارب الخلفاء متابعاً لما نُقل إليّ من خبره فوجدت في الأولين عقلاً وسياسة

(١) الابشهي ١: ١٢ (٢) ابن جبر ٣٨٨ (٣) ابن جبر ٣٨٩

(٤) القزويني ١٢٨ وابن بطوطة ٢: ١٩٧ (٥) ابن جبر ٣٨٥

إلا أنه لما صار الأمر إلى صبيبتهم المسترفين استرسلوا في القصف والنهت^(١)، وعكفوا على اللذات واستخفوا بأمر الرعية، وغفلوا عن مصالح الملك فأزاله الله تعالى عنهم وألبسهم ثياب الذل بذنوبهم.

وقد انتهى ترف ملوكهم إلى الوليد بن يزيد^(٢) وهو الذي أخذت الخلافة في الانحلال بين يديه، وتحرك الدعاة عليه في خراسان بما وجدوا فيه من قلة الخبرة بأمور الملك وعكوفه على اللهو والطرب^(٣) وقيام خلافته بين الكأس والوتر^(٤) وقد استرسل في التبذير حتى أنفق ما جمعه أجداده في بيت المال، لأنه أفرط في السكر افراطا فاحشا حتى إنه لم يقل « لا » في سؤال سئله^(٥) وكان إذا وصل الشعراء عدائياتهم وأعطاهم عن كل بيت ألف درهم^(٦) وكان يتألق في صنوف الملاذ من المطعم والمشرب والملبس فيقال إنه لبس القلنسوة من الوشي^(٧) مذهبة، واتخذ العقود من الجوهر كالنساء يغيرها في اليوم مرارا^(٨) لشغفه بها، وكان يتختم بالياقوت، ووقع من خواتيمه إلى بني العباس^(٩) خاتم يساوي أربعين ألف دينار، ويقال في حسنه إنه كان إذا أُخرج من محبسه أضواء المكان من شدة لمعانه. وكان يسترسل في الطرب إلى أن يوجه رسلا^(١٠) في طلب المغنين من الحجاز وغيره، فتجد أنه لم يثقل أمره على الرعية من وجه واحد، وإنما هناك وجوه قد ساقط عليه الفتنة فقام الناس عليه وقتلوه شر قتلة. هذه تُتف من أخباره.

(١) الأغاني ١٣ : ١٦٥ والمقدمة والعقد الفريد وابن الأثير وغيرهم

(٢) الدميري ١ : ٩٠ (٣) المسعودي ٢ : ١٤٦ (٤) ابن خاقان ٤٤ في

قصيدة ذكرها هناك (٥) أبو الفرج ٢١٠ (٦) الأغاني ٦ : ١٤٨

(٧) الأغاني ٦ : ١٤٦ (٨) الأغاني ٦ : ١٢٩ (٩) المستطرف ٢ : ٦٩١

(١٠) الأغاني ٦ : ١٠٧ والعقد الفريد جزء ٢ والمسعودي ٢ : ١٤٦

حدثني بها مغنية كانت له يقال لها بَرْقُ الأفق،^(١) وهي اليوم عجوز تكاد تنال الأرض بوجهها من الكبر. وقد أخبرني في بعض حديثها أن الجوهر كان في صباها متداولاً بين الناس، فلما جمعه الوليد بن يزيد من كل وجه وغالى به غلا ثمنه منذ ذلك الحين،^(٢) وهذا شيء من الإفراط في الترف لم نسمع بمثله عن أحد من الملوك المشرّفين. ومن نظر إلى ما كان عليه ملوك بني أمية من العزة والصولة وما صاروا إليه من الذلة علم أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بعده من نعمة حتى يغير العبد ما بنفسه بارتكاب المعصية.

ولما طال مقامي بدمشق تهياً لي أن أزور أماكنها المشهورة، فزرت موضعاً يقال إن هايل وقايل نزل فيه،^(٣) وموضعاً يقال له باب الساعات^(٤) يزعم أهل الأخبار أنه كانت فيه قارةٌ تقدم عليها القرابين فما يقبله الله منها تبثله نار من السماء وما لم يقبله يبقى في موضعه على الصخرة. وزرت مشاهد جماعة من أهل البيت المشرّفين والصحابة والتابعين والأولياء الصالحين^(٥) في جبل قاسيون ومقابر الشهداء^(٦) وجبانة الباب الصغير^(٧) وبينها قبور ملوك بني أمية^(٨) مهتمةٌ والرخام عليها متكسر،^(٩) وزرت قرية في سفح الجبل المذكور يقال لها بَرْزَة^(١٠) يزعم الناس أنها موله

(١) الأغاني ٣: ٨٧ (٢) الأغاني جزء ٦ (٣) القزويني ١٦٢
(٤) ياقوت ٢: ٥٨٨ (٥) ابن جبير والثريشي ٢: ٢٣٦ والطبقات ١: ٢٩
والمسعودي ٢: ٤٢ (٦) قضاة الشام (٧) ذكرها ابن خلكان
(٨) الخنيس ٢: ١٤ (٩) المسعودي ٢: ١٤٣ وابن جبير ٢٨٣ وابن الأثير
١٣٠: ٥ (١٠) ابن جبير ٢٧٥

الخليل إبراهيم (عليه السلام) ^(١) حُضِنَ الملائكة ، وإلى ما فوقها حجارة مصبوغة بشيء يشبه أن يكون أثر دم عتيق يقولون إنها الحجارة التي رُضَّ بها قايل رأس أخيه هايل ^(٢) ثم جره إلى مغارة هناك يقال لها مغارة الدم ، ^(٣) وفي حضيض الجبل مغارة أخرى تسمى مغارة الجوع يزعمون أن سبعين نبياً ماتوا فيها من الجوع . وإني لأستحي أن أنقل حديثهم كما قالوه فانهم يقولون سبعين ألف نبى ^(٤) كأن كل من عاش في الشام نبى أوولى ، وفي طرف الجبل مما يلي الغرب ربوة ^(٥) يقول المفسرون إنها هي المذكورة في قوله تعالى « وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين » ويرد عليهم آخرون أن المراد بها : ربوة في الإسكندرية ^(٦) من ديار مصر .

وهناك مسجد يقولون إن المسيح عليه السلام أوى إلى مغارة بجانبه ، وفيه حجر قد انفلق إلى شطرين ولم ينفصل أحد الشقين عن الآخر بل اتصلا كرمان مشقوق ، ^(٧) ولهذا المكان منظر حسن من البساتين والخضرة في جميع جوانبه ، ولا إشراق كاشراقه حسناً وجمالاً واتساعاً مسرح للأبصار . وفيه تنقسم مياه المدينة إلى أنهار سبعة ^(٨) أكبرها نهر يزيد ونهر ثورى ^(٩) وهما فيه نهر واحد يعرف بنهر بردى وهناك بعض قرى مثل نيرب ومنز ^(١٠) والسهم وسطرى ، ^(١١) وفيها الجوامع والمرافق والحمامات إلا أنه لا يظهر منها إلا ما سما بناؤه لتطول الشجر عليه ،

(١) ياقوت ٢: ٥٨٩ (٢) القزويني ١٢٦ (٣) ياقوت ٢: ٥٨٨
(٤) القزويني (٥) ابن بطوطة ١: ٢٣٣ (٦) المحاضرة ٢: ٣
(٧) ابن جبير ٢٨١ والقزويني (٨) تهويم البلدان ٣٥٢ (٩) ذكره ابن
خلكان ١: ٢٧٨ (١٠) ابن جبير ٢٧٩ (١١) كليات ٢٠٢

وفيهما من الفواكه والتفاح والخوخ وسائر الثمار ما ليس في البلاد مثله صحةً وطيباً،^(١) وإلى ما يابها من طرف الجبل موضعٌ يقال له عين برما^(٢) كان معموراً أيام معاوية بن أبي سفيان بجماعة من أهل خراسان ثم توالى عليه الخراب لظلم الخلفاء بعده حتى أصبح إلى هذه الغاية قليل العين، وبقي الأثر من عمارته وذهبت العين.

ولقد كانت دِمَشْقُ فيما خلا من الزمن الغابر ممزوجة بصنوف غير محصورة من فضلات العمران ويعيبها كثرة الوحول في أزقتها وتراكم الطين في ساحاتها، فلما أقام فيها الأمويون شرعوا في إزالة الأقدار^(٣) منها وقاية من الطاعون الذي كان يقع بها تباعاً في السنين السالفة،^(٤) وهذا هو الأثر الذي تشهد لهم البلاد به كما تشهد لهم الآثار الباقية عنهم بتشيدهم البناء على الهندسة التي لا نجد أعظم منها وقعاً في القلوب ولا أتم حسناً وجمالاً في العيون، كالذي يبلغنا عما بنّوه في الأندلس^(٥) من القصور التي حارت في جمالها عقول الفرنجة، فقد شاهدت دار الوليد بن عبد الملك من قصورهم في دِمَشْقُ فوجدتها بديعة الحسن مبنية بالججر والصفاح والأعمدة مفروشة بالرخام الأخضر،^(٦) وهي تتناهى في البهاء والأشراق إلى أن يضرب بها المثل^(٧) في احكام رسومها وجلالة بنيانها، ولو لم يكن من تمام زينتها إلا الأعمدة المزخرفة منصوبة في أروقها فرادى وأزواجاً لكفى البصائر روعاً

(١) الكنز ١٤٤ (٢) المسعودي ٢: ٨٣ (٣) أبو الفداء ١: ٢٠٧

(٤) راجع ابن الأثير والمسعودي والعقد الفريد. وفي مروج الذهب من كلام

عن الكوفة أنها ارتفعت عن البصرة وحرها وسفلت عن الشام ووبأها ٢: ١١٦

(٥) راجع المقرئ والعقد الفريد وابن الأثير (٦) الطواط ١١١ (٧) المقدمة

فوسع الأبصار ابتهاجاً . واذكر أنه لما أدخلني صاحب الوقوف رياضها لمشاهدة ما فيها من الأشجار الغريبة ^(١) لم يتحول نظري عن القصر لما راغني من حسنه المفرط وأعجبت به من الزينة التي يكبرها الناظر ويقف عندها وقفة الذاهل الذي به عقدة من السحر ، وهو بين أساطين دقيقة وقباب رفيعة ورواشن ^(٢) مخرمة وخرجات مزينة وطيقان مجسمة بالحص المنقوس وبينها من الرسوم العجيبة ما تجول فيه الأفكار فتجأه وتميل إليه الأبصار فلا تملئه .

جامع الوليد المعروف بالجامع الأموي

هو أفخر مأثرة لملك بني أمية ، بناه الوليد بن عبد الملك صاحب القصر المتقدم ذكره ، وكان ذا همة في تشييد السمات والمساجد ^(٣) والقصور ، وقد شملت عنايته جميع البلدان في تسهيل الشايات وحفر الآبار وإصلاح الطرق ، ^(٤) حتى كان الناس في أيامه إذا تلاقوا في الأسواق والمجالس تساءلوا عن العماره وعن أي بناء شرع فيه خليفتهم ، كدأبهم في التساؤل عن الخير والصلاة في أيام عمر بن عبد العزيز ، وعن الطعام في أيام سليمان ابن عبد الملك ، وعن اللهو في أيام الوليد بن يزيد ، وليس في بلاد الاسلام كلها مثل هذا الجامع حسناً وإتقاناً ^(٥) وجمالاً رسم وتماز زخرفة وزينة ، وهو مائل إلى الجهة الشمالية من المدينة وقد سمعت عن سفيان الثوري أنه قال الصلاة فيه ثلاثين ألف صلاة ^(٦)

(١) الوطواط ١١١ (٢) ذكرها الاغانى ٥ : ١٠ (٣) ابن جبير وياقوت ٥٩١ : ١ وابن الاثير ٥ : ٤ والفخرى ١٥١ وأبو الفداء ١ : ٢٠٩ والمقدمة ٣١٠ والقزويني ١٢٧ (٤) ٤ : ٢١٩ و ٢٢٠ (٥) ابن جبير ٢٦٣ والشريشي ١ : ٢٠٨ وتقويم البلدان ٢٣٠ وابن بطوطة ١ : ١٩٧ (٦) ابن بطوطة ١ : ٢٠٤ ابن جبير

كان موضعه قبل الاسلام يَبْعَةً للنصرانية تعرف بكنيسة مازيخنا،^(١) ومن قبل ذلك كان بيتَ عبادة لأهل جاهليتهم ، فلما دخل المسلمون المدينة عَنُوةً تَحْتَ قيادة خالد بن الوليد أخذوا نصف الكنيسة ، ثم دخل أبو عبيدة بن الجراح صلحاً فاتت إلى نصفها الآخر ، وقد وقع الصلح بينه وبين النصاري ، فَبَقِيَ نصفُها في أيديهم وقد كانوا يزعمون أن الذي يهدم يَبْعَتَهُمْ يُجَنُّ ، فلما صارت الخلافة إلى الوليد قال أنا والله أول من يُجَنُّ في سبيل الله ، ثم بدأ الهدم بيده^(٢) فبادر المسلمون وأكملوا تخريبها حتى هاجت النصاري وعلا صياحهم ، فعوضهم الوليد عنها مالا جسيماً وأرضاهم بكنائس عدة صالحهم عليها ،^(٣) ثم وجه إلى ملك الروم^(٤) في إشخاص اثني عشر ألفاً من العملة والصُّنَّاع والمرَّحَمين ، وتقدَّم إليه بالوعيد إن هو توقف ، ثم أكمل هدمها سوى حيطانها ، وأنشأ فيها القناطر وحلَّها بالذهب وعلَّق فيها الأستار من الوشي والإبريسم ، وبقي العمل فيها نحو تسع سنين ، وكان يعمل فيها ألف مرخم يُجَلِّب اليهم الرُّخام^(٥) والمرَّمَر من كنيسة أخرى لأُمم النصرانية بمدينة أنطاكية تعرف بمزور^(٦) .

وقد غرِمَ الوليد في هذا الجامع من الدنانير المضروبة زنةً مائة وأربعة وأربعين قنطاراً^(٧) بالدمشقي ، وذلك يعادل عشرة آلاف ألف دينار ،^(٨) وقرأت في بعض الكتب أن جملة المنفق عليه كان أربعاً مائة صندوق ، وفي كل

(١) ابن الاثير وأبو الفداء ١ : ٢١٠ وياقوت ٢ : ٥٩١ وابن جبير وابن بطوطة

١ : ١٩٨ (٢) ابن جبير ٢٦٤ (٣) الخنيس ٢ : ٣١١ (٤) المقدمة ٢١٠

(٥) تقويم البلدان ٢٣٠ (٦) للسعودي ١ : ٢٧١ (٧) الخنيس ٢ : ٣١١

(٨) ابن جبير ٢٦٣

صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار، ففي القدر الحاصل منه توافق بين الروايتين. وكان المتولى على النفقة عمر بن عبد العزيز^(١) قبل أن يلي الخلافة، وقد اتخذ في المسجد ستمائة سلسلة من الذهب^(٢) للقناديل والثريات، وزين جدرانه بفصوص من الذهب والفُسيفساء ممزوجة بأنواع من الأصباغ العجيبة تمثل أشكالاً من الرسوم لم ير أبهج منها في العيون، ورفع عمده من الرُخام المجزّع طابقاً فوق طابق،^(٣) واتخذ الأساطين الضخمة فيما يجاور الأرض، والسواري الدقاق فيما يعلو الحنايا والقباب، وفي خلال ذلك صور المدن والأشجار بالألوان والذهب، وكتب في حائط المسجد بالذهب على اللازورد «ربنا الله لا نعبد إلا الله، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين»^(٤).

أما طول هذا الجامع (وذلك من الشرق إلى الغرب) فهو مئتا خطوة أو ثلثمائة ذراع،^(٥) وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة. وأبوابه أربعة. أولها الباب الشرقي ويعرف بباب جثرون، وعليه عمودان من الحجر في غاية الإفراط في الطول والعرض، يقال إنهما من بقايا الكنعانيين،^(٦) إذ ليس في وسع أهل هذا الزمان قطعهما ولا نقلهما. ثم الباب الشمالي ويعرف بباب الناطقين، وكان مدخل الكنيسة قديماً. ثم الباب الغربي ويعرف بباب البريد، ثم الباب الجنوبي ويعرف بباب

(١) المسعودي ٢: ١١٩ (٢) ياقوت ٢: ٥٩٥ (٣) ١٢٧ وياقوت

٢: ٥٩٣ (٤) القزويني وياقوت والمسعودي (٥) ابن بطوطة ١: ١٩٩

(٦) القزويني ١٢٧

الزيادة وهو يُفَضَّى بالخارج منه إلى دار معاوية ^(١) المعروفة بالخضراء، وكان قد نزلها مروان بن الحكم بعد واقعة مرج راهط كما هو معروف. وفيه ثلاث مقصورات أشرفها المقصورة التي اتخذها معاوية (رضي الله عنه) عندما كان للمسلمين نصف الكنيسة، وتعرف بالمقصورة الصحابة، وهي أول مقصورة صنعت في الاسلام، ^(٢) بناها هذا الرجل العظيم وقاية لنفسه من الخوارج أن يقتلوه في أوقات الصلاة كما اغتالوا علياً عليه السلام، فكان إذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف، ^(٣) وإلى جانب هذه المقصورة خزانة منسأة بالنقوش فيها المصحف الكريم الذي وجهه عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الشام، ^(٤) وأخرج إلى منها صاحب الوقوف خاتماً من الفضة للوليد بن عبد الملك، قد نقش عليه «يا وليد إنك ميت ومحاسب»، وآخر لأخيه سليمان وكلماته «آمنت بالله مخلصاً»، ^(٥) فأخذتهما لأطرف بهما المأمون عند عودتي إلى بغداد ليضيفهما إلى ما لديه من خواتم الخلفاء، وعلى هذا الجامع قبة دورها ثمانون خطوة، عليها رصاص يمتد منها إلى أن يغطي سطوح الجامع كلها بالواح طولها أربعة أشبار في عرض ثلاثة، وربما اعترض فيها نقص أو زيادة. وهيئة السقوف من الخارج هيئة نسر قد نشر جناحيه، وكأنما القبة رأسه، وهي في سمو الارتفاع بحيث تراها من أي موضع استقبلت دمشق. أما صحن المسجد فانه من أجل المناظر، وعلى جدرانه آيات من القرآن الكريم، ورسوم بالذهب تدهش البصر والبصيرة وهناك

(١) أبو الفداء ١ : ٢٠٤ (٢) ابن جبير ٢٧٥ وأبو الفداء ١ : ١٩٩

(٣) الفخرى ١٢٩ (٤) ابن بطوطة ١ : ٣٠٣ (٥) المسعودي ٢ : ١١٩

والخمس ٢ : ٣١٤

يُجْتَمَعُ الدَّمَشَقِيُّونَ وَمُنْتَزِعُونَ لَا يَزَالُونَ فِيهِ بِكَرَّةٍ وَعَشِيَّةٍ يَقْرَءُونَ وَيَتَحَادَثُونَ .
ولهذا الجامع ثلاث صوامع ^(١) واحدة بالجانب الشمالي وهي مُذْهَبَةٌ
من أسفلها إلى أعلاها ، ^(٢) وفيها مقاعد ومجالس ، واثنان بالجانب الغربي
وإحدهما أكبر الصوامع الثلاث . وقد وجدت في أروقته ودهاليزه وصحنه
وفي المساجد المتشعبة منه ماءٌ يجري بلا انقطاع ، وشاهدت في البلاط
القبلي قُبَالَةَ الركن الأيمن من المقصورة الصحائية تابوتاً معترضاً من
الأسطوانة وفوقه قنديل موقدٌ أبداً في الليل والنهار يقال إنه مشهد رأس
يحيى بن زكريا عليهما السلام ، ^(٣) ومن حوله عمودٌ عجيبٌ قد ظهرت فيها
عروق أخرى من غير ألوانها تتخللها العين منزلةً فيها بأيدي الصناع ، إلى
غير ذلك من المحاسن التي حواها هذا الجامع المبارك ، وعظمت عن أن تحاط
بوصف ، فاني لأحسب الزائر لو تردد إليه زمانه لرأى كل يوم ما لم يكن قد
رآه قبل ^(٤) من جمال الرسم وإحكام الصنعة ، كما أحسب أنه لا يزوره أحد
إلا وهو يحدّد الدعاء لبانيه ^(٥) وإن لم يكن له ميلٌ في السياسة مع الأمويين

المرور ببلبك وركوب البحر من بيروت

رَجَعْتُ إِلَى اقْتِصَاصِ الرِّحْلَةِ : رَكِبْتُ مِنْ دِمَشْقٍ فِي غَدِ الْيَوْمِ الَّذِي
سَافَرْتُ فِيهِ الْعُلَمَاءُ إِلَى يَبْرُوتَ ، فَوَصَلْتُ فِي مَتَصَفِّ الطَّرِيقِ إِلَى بَلَدَةِ
غَنَاءِ ذَاتِ سَوْرٍ قَدِيمٍ يُقَالُ لَهَا بَلْبُكُ «ومنها إلى الزَّيْدَانِي وَهِيَ مَدِينَةٌ عَلَى
طَرَفِ وَادِي بَرَدَى ثَمَانِيَةَ عَشْرَ مِيلًا ^(٦)» وَهِيَ ذَاتُ أَشْجَارٍ وَأَنْهَارٍ وَعُيُونٍ

(١) ابن بطوطة ١: ٢٠٣ (٢) الشريشي ١: ٢٠٨ (٣) ابن جبير

٥٧٥ (٤) القزويني ١٢٧ (٥) ابن جبير (٦) تَقْرِيمُ الْبُلْدَانِ ٢٥٥

وخيرات كثيرة^(١) وفيها الكرم الخصب . ولقد لقيت فيها فيلسوفاً من
النصارى يقال له قسطا بن لوقا ، صاحبنى فى زيارة الآثار التى فيها وأخبرنى
عنها بأشياء كثيرة ربما أتيت على بعضها فى سياق الحديث .

وقد أخذت هذه الآثار العظيمة بمجامع قلوبى حيرة وإعجاباً ، وأعظمها
هيكلان كبيران أحدهما أعتق من الآخر^(٢) . وفيهما من النقوش العجيبة
المحفورة فى الحجر ما لا يتأتى حفر مثله فى الخشب ، مع ارتفاع جدرانها
وضخامة حجارتهما وطول أساطينهما وعجيب بنيانهما^(٣) مما يذهل العقول
تعجباً من اقتدار الرجال على مثل هذه العظام . وقد أخبرنى قسطا هذا
الفيلسوف أنه لا يرى إلا أن هذين الهيكلين من بناء أمة ماهرة فى فن
الهندسة ، كما أنه لا يرى الحنايا التى تقلبها إلا أعتق من الآثار الظاهرة ،
وفى ظنه أنها وضعت فى أيام سليمان بن داود عليهما السلام ، ولما جاءت
الروم الأولى هدموا المعبد العتيق ، ورفعوا الهياكل المائلة مكانه .

أما الحجارة الثلاثة العظيمة التى تعد من عجائب الدنيا فقد رفعها الروم
بأيدي عبيدهم على ما جرت به عادتهم من استخدام الأسرى فى البنيان ،
وليس كما تزعم العامة من أن الجن هم الذين بنوها لسليمان عليه السلام
كدأبهم فيما يحدثون عن كل أثر^(٤) من آثار الأولين فيه معجزة للآخرين .
وانما رفعها الروم بالحيل الهندسية والقوة الآدمية^(٥) ، يدلنا على ذلك ما نجد
فى أطرافها من النقر التى تقضى بأنها كانت تُرفع جراً بالأمراس بأن يمد

(١) ابن بطوطة ١ : ١٥٨ (٢) المقرئ فى ترجمة يعقوب الكندى

(٣) المسعودى ١ : ٢٩٦ (٤) المسعودى ١ : ٢٩٦ (٥) نجد فى كثير من

كتب العرب نسبة المباني العتيقة الى الجن (٦) المقدمة ٣٥٨

لها في الأرض سطح من التراب يرتفع شيئاً فشيئاً مع امتداده إلى أن ينتهي إلى حيث هي مرفوعة ، ثم تُجَرُّ بالسلاسل على عجلات لها بكرات من الفولاذ عريضة الأطراف حتى لا تنوص في التراب صغيرة الجرثم حتى تحمل الثقل ، وتكون أشد من البكرات الكبيرة التي لا بد أن تلتوى تحت هذه الحجارة الهائلة ولا تأتي بالمقصود من استعمالها لرفع الأثقال .

وقد كانت سياسة الروم مع الأمم التي يتغلبون عليها أن يأخذوا دينها بالتعظيم والتبجيل ليستميلوها إليهم ويبيتوا في أمن من تحركها للفتنة على غير اضطرار إلى حراستها بالجند ، إذ تنبئ الأخبار السالفة أنهم كانوا يملكون معظم العالم ، فلو دعاهم حفظ البلدان إلى إقامة الجند فيها للزمهم آلاف الألوف ، وهذا بعيد عن أن تقوم دولة من دول العالم بكفالاته . فلما دانت لهم الشام وكان بعل^(١) معبوداً فيها من الصابئة وغيرهم كما قال تعالى « أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ » بنوا لعبادته هذا الهيكل العظيم على شكل غريب يقصِّدون به الإعجاز ليظهروا ضخامة ملكهم لأهل المشرق واقتدارهم على عظام الأمور ، إذ ليس للظن بأنهم قصدوا إلى المنعة موضع في نظر العقلاء . فهذا أحد اللولين الذين يفضيان بالراق عليهما إلى سطح الهيكل قد اتُّخِذَ أعلاه بما هو زائد على النصف من حجر واحد فصلت منه الدرجات والسقف والحائط الدائر من جميع جهاته ، وكذلك الحجارة الثلاثة العظيمة قد أُتْخِذَتْ في أعلى الجدار لتظهر للوافد على بعلبك من حيث هو مستقبل للهيكل ، فلو أنه أريد بها المنعة لاقتضى ذلك أن تكون في أسفل الجدار لا في أعلاه ، كما أنه لو أريد ذلك من اللولب لكان

النصف المتخذ من قطعة واحدة قائماً فيما يدانى الأرض أو يماسها ، حتى إذا
وَهَى أعلاهُ بقى هو فى موضعه ، أو تداعى جدار السور بقيت الحجارة
الثلاثة مرداً لمهاجمة العدو

ثم إنه لما انقرضت الروم الأولى وانقرض ملك الروم الثانية بالقسطنطينية
وسائر المشرق وقد أخذوا فى تعظيم النصرانية رأوا أن بقاء هذا الهيكل محجة
للناس تنشغف أفئدتهم بما فيه من الغريب ولا يقصدون الكنائس وهى
دونه فى البهاء والاشراق مضرٌ بالنصرانية وحابس لها عن أن تعم الشام ،
فعمدوا إلى تخريبه ومحو الأثر الماثل منه . وكان فى القسطنطينية بطرك ذو
عقل ودهاء يقال له فم الذهب يحنا ، فأشار على القيصر أن يتخذ كنيسة
 لعبادتهم لتحصل المنفعة منه مع حفظ الأثر الجميل ، فاتخذ ذلك . وفى
رواية أنه أشار عليه بأن يُعمل فيها القُوس ففعل أو يقال إنه لم يفعل . فانظر
الى هذا الهيكل كيف تقلبت به أغراض الأمم فقد شاده الروم الأولى
لغرضهم فى الدنيا ، ثم خربته الروم الثانية لغرضهم فى دينهم ، ثم مثلت آثاره
لهذا الزمان ناطقةً بعزة الله شاهدة أن لا باقى سواه .

ولما انفصلتُ عن بعلبك مررت بسهل أفيح يقال له البقاع وعرجت
فيه على موضع يسمى بكرخ نوح^(١) يزعم أهله أن فيه قبر صاحب السفينة
عليه السلام . وكنت أرى بمقربة من كل قرية من قرأه ردوماً قد تراكت
أمثال التلال كأنها من بقايا أمة قد خلت ، وصرفت من بعلبك الى بيروت
يومين فى جبل لبنان لصعوبة مسلكه ، وكنت أميلُ الى عيون القرى لتنزيه
النفس وإرواء الظما ، وإنها لكثيرة فى هذا الجبل المبارك وهى تمذعُ فى

(١) ابن بطوطة ١ : ١٣٣

شَفَّاتَه . وأُقيمت في بَيرُوت حرسها الله ثلاثة أيام أنتظر هبوب الريح الموافقة ، رهي مدينة جليلة ، ^(١) على ضَفَّة البحر ، طيبةُ الاقليم ، عليها سور من حجارة ^(٢) تحفُّ بها عِمارة مشتبكة في سفح لبنان كان يستجيدها الوليد ابن يزيد المقدَّم ذكره فيقول ^(٣) .

ربَّ بيت كأنه مَتْنُ سهم سوف تأتيه من قُرَى بَيرُوت

ثم يقول ^(٤) والنفسُ تائقه إليها والقلب مشغوف بحماها

ألا يا حبذا شخصٌ حَمَى لُقياه يروت

وهي فُرْضة دِمَشقَ ومنعظم الشام ، وفي مَرَساها مجتمع كثير من سفن التجارة ، ويُجلب منها حديد ^(٥) لبنان إلى ديار مصر ، وفي شرقها نهر يغلظ في الشتاء قد بنى له قداماً أهلها قناة ^(٦) يجرون الماء فيها إليهم ، وإلى غربيها مشهد الأوزاعي (رحمه الله) ، وميلاده يعلبك ^(٧) وهو فخر المحدثين من أهل الشام ، وله في علم الحديث ^(٨) مدونات جمع فيها الصحيح المروى عن الصحابة والتابعين ومن سمع منهم واستخرج الأحكام الشرعية على مذهب انفرد به أهل تلك البلاد

وقد كان لبيروت شأن عظيم في غابر الأيام ، وكان عليها ملوك من الكنعانيين ومن قام بعدهم بأعباء الدول الجسام . وكان للعلوم فيها سوق ليس بعدها غاية في الرواج ، بحيث إنها دعيت بمدينة الحكمة . وكان للروم فيها منازلٌ وهياكل هجروها بعد الفتح وجلّوا عنها جلاء لم يرجعوا بعده .

(١) تقويم البلدان ٢٤٧ (٢) الادريسي (٣) الأغاني ٦ : ١٢٢

(٤) الأغاني ٦ : ١١٧ (٥) الادريسي وابن بطوطة ١ : ١٣٣ (٦) تقويم

البلدان ٢٤٧ (٧) أبو الفداء ٢ : ٧ والطبقات ١ : ٥٠ (٨) ابن خلكان

إلى أن عاد إليها العمران في الاسلام بقيام الخلافة في دمشق ، إذ كانت المدن لا تصالح إلا بقيامها بالملك أو قيام الملك في جوارها حيث تتوارد الخيرات وتتقاطر الوفود ويحصل الأمن للتجارة .

وإن كنت قد شهدت لهذه المدينة بطيب الهواء فاني لا أنكر ما في ريحها الشمالية من الرطوبة التي تحدث في الرأس الماء لا يشعر به إلا الغريب الزائر ،^(١) غير أن هبوبها فيها ليس بالمتواصل حتى نعدّه من عيوب الأقاليم . بل الغالب على بيروت ريح الصبا التي تنعش النفس ، تأتيها من ناحية الرمال المنبسطة على شاطئ البحر ، فربما وجدت هذا الموضع أصلح للسكنى من البلد العتيق . وفي ظني أنه إذا توافر العمران فسيضطّر الناس أن يحدّثوا بناءهم في هذا الموضع إذ هو أقرب وجهاً إلى نسيم الصبا منه إلى ريح الشمال .

وركبت البحر من هذا الثغر المحروم في أول يوم من شعبان ، وجري مركبنا بهواء شمالي لطيف ليس بالثقيل ولا بالخفيف ، أرسله الله إلينا بكرمه ولطفه ، واستمر سيرنا في البحر نحو عشرين يوماً إلى أن أقبلنا على مالطة ، وهي جزيرة في أول بلاد الفرنجة ، وبها كنائس معظّمة لأمم النصرانية ، فلبثنا يومين في مرفئها نتسوّق منها الزاد ، ثم غادرناها إلى مرسيلية في ساحل الديار الرومية إلى غرب اللبردية^(٢)

(٢) تقويم البلدان ٢١٩

(١) القزويني

لقاء القيصر والمنصرف من الرسالة

ولما أقبلنا على مرسيلية لم نر لها شيئاً من زخارف البنيان . ولا وجدنا في أهلها أثراً من محاسن العمران . لأنهم كانوا قبل دخولهم في ولاية هذا الأبرذور أهل جاهلية وخشونة ، تستعبد طائفة طاغية من أنفسهم ، تُجرى فيهم القضاء بحسب هوى النفس ، فلما استولى على ممالكهم أقام عليهم أميراً فوَّض إليه أمر الجند والقضاء وجباية الأموال ، وجعله بمنزلة الوزير في الأسلام ، وأقام تحت يده طائفة من العمال يتولون المناصب في ولايته ، ولهم ألقاب معروفة عندهم مثل المركيس وغيره . وليس في مرسيلية من البنايات المزخرفة سوى قصر مبنى على علواء تُشرف على المدينة ، يظهر أنه كان مسكناً لبعض أمراء الجاهلية ، وكنيسة عليها قباب مرفوعة نصَّبها هذا الأبرذور الذي نصرَّ أمته ونصرَ القسيسين والرهبان كما هو معروف ، وقد نظر بعين العناية اليهم وأحسن بالنعم الطائلة عليهم ، واتخذ منهم أولياء يستشيرهم في أموره ويرجع في السياسة إلى رأيهم ، اذ كان القوم من دولهم همجاً لا يعرفون القراءة ولا أميطت عن بصائرهم غشاوة الجهل ، ومعظمهم عبيد للمتموّل من التجار ، يموتون جوعاً بين يديه وهم يبللون أرضه بعرق نعيمهم وشقائهم ثم لا يحصلون على كسرة تُمسك رَمَقَهُمْ ، ، فأين هذا من حضارة العرب وصلاح أمرهم واتساع المعاش بين أيديهم واحتذائهم أشرف الشئ العادلة ؟ فكان الله تعالى قد خصَّ هذه الأمة من الفضل والنعم^(١)

بما حَرَمَ منه أُمَمُ المغرب . فإن العرب أحلى منهم وأحلم ، وأعلى وأعلم ، وأقوى وأقوم ، وأعطى وأعطف ، وأحصى وأحصف ، وأشرى للفخار وأشرف ، وأتقى للعار وآنف . وحسبي بما نقلت اليك من أخبارهم في هذا الكتاب دليلاً على ما ركب الله في طبائعهم من الأنفة وعزة النفس ، وما آتاهم الإسلام من المحاسن التي تشرفهم وتعلي ذكركم :

وقد شاهدت في ديار القوم كثيراً من الأمور التي أخاف إن أتيت على بيانها أن تجرّ الحديث إلى الخروج عما أنا بصدده من ذكر الرسالة . وقد وجدت عاداتهم غير منطبقة على عادات الشرقيين ، بل كثيرها مستهجن أوباق على خشونة جاهليتهم . ومن الغريب المألوف عندهم أن النساء يمشين في الأسواق بلا تقاب ، ويجلسن مع الرجال سافرات الوجوه ، وهذا استرسال لا أظن أن تصان معه الاعراض صيانتها في المشرق من وراء الحجاب . وقد وقع بيني وبين الأمير الذي صحبتني في مرسيلية مذاكرة في هذا الأمر ، وكان يظن أن المرأة ذليلة في ملتنا وأن منع ظهورها إلى الرجال ناشئ من جهة استصغارها وتحقيرها ، فذكرت له أن الله تعالى قد وفّاهن حقوقهن ^(١) في الدنيا والدين ، ووعد الصالحات منهن نعيماً مقيماً في الآخرة ، وأمر بأن تجرى عليهن الوراثة التي لم تكن لهن قبل الإسلام وكان أمير مرسيلية عند ما اتصل به خبر وصولي بالرسالة قد أخرج إلى الجند ولم يترك شيئاً من مظاهر الاحتفاء إلا أجراه في سبيل تعظيمها وإجلالها ، فلما سألته عن الأبرذور أخبرني أن له غيبة في رومة لأمر

(١) قد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء بقوله إن لنسائكم عليكم حقاً وإن لكم عليهن حقاً إلى أن قال فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً .

بينه وبين الباب^(١) الذي هو خليفة الأمم النصرانية ، وأنه يمكث عنده أربعين أو خمسين يوماً ، فاستطلت هذه الغيبة منه ، وخفت فوات الحج إن بقيت منتظراً رجوعه ، فرأيت أن أوافيه برومة ، فركب معي من لدن الأمير رسول^١ إلى القيصر وجزنا عُبَاب هذا البحر الذي لم تجزّه بعدُ سفن المسلمين إلى أن منَّ الله تعالى علينا بالوصول إلى رومة بأيمن طائر وألطف ريح والحمد لله على جميل ما يوالينا من النعمة ويتداركنا به من اللطف .

ولما أقبلنا على رومة أبلغ الرسول الأنبرذور^٢ خبرَ قدومي من لدن الرشيد فسير إلى أمراء دولته وأهل حاشيته وبطانته ، فساروا بي إلى حيث هو مقيم في دار الباب ، وهو قصر بل قصور قد جمعت بين الضخامة والاحكام ، وعُني البابون من خلفاء بطرس كبير الحواريين بتجميلها وتزييقها حتى صيروها نزهة جمعت الجمال والحسن . وكنت حين جاوزني الأمراء مقصوراتها إلى مجلس الأنبرذور قد رأيت على جدرانها صور ملوك وأئمة وعباد قد طحنهم رحي المنون ، فلما دخلت عليه وجدته جالساً على منصة من فوقها قبة عليها كتابة بالرومية ، وهي مجللة بالذهب ، وعلى رأسه تاج مرصع بالؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وفي يده قضيب الملك ، وعليه حلة من الوشي كأعظم ما يكون من حلل الملوك ، وبين يديه حرس قد وقفوا بالسيوف المشهورة والحرايب والأعمدة ، وبينهم جماعة من العلوج وأشرف العساكر وطائفة من الجئالة والرهبان المقدّمين قد لبسوا الوشي الذي يقيمون به الصلاة في أعيادهم ومواسمهم ، ولكن لم نرمثله على من يجاورنا

(١) كنية البابا بالباب مذكورة في تقويم البلدان ولفظها بتفخيم البائين.

وتشديدهما .

منهم في المشرق حسناً يُعشى الأبصارَ بريقه ولعانه .

فلما مثلت بين يديه قمت بما وجب عليّ من الاجلال له وبلغته سلام
الرّشيد على لسان المترجم ، فكلّمني بترفع الملوك الذين تُوقع جلالتهم مهابة
في قلوب الوافدين عليهم ، ولكن من غير أن يكون في نفسه جبروت ،
وشكر للرّشيد مودته وأثنى عليه ثناء جميلاً ، وكان الأمراء والرهبان يمدّون
اليّ أعناقهم ويحدّقون في أبصارهم كأنهم لم يروا من قبلي مشرقاً على دين
الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم أشرت إلى التّرجّمان أن يذكر له هديّة الرّشيد
، وانه يُطرف بها جلّالته لارتباط المودة بينهما ، فشكرني على ذلك مرة
ثانية ، ثم استدنانني منه وأمرني بالجلوس ، وأخذ يسألني عن رحلتى إليه
عظفاً مال اليه بمد الترفع الذي استقبلني به ، فكنت أجيبه بما تقتضيه
الرسوم من حمد الله على ما آتاه من الملك العظيم والثناء عليه لما أوجد
لرعيته من أسباب الخير والراحة . ثم سألتني عن الدولة في المشرق وأنه يروم
أن يكون الدهر للرّشيد في صفاء ، فأجبتة بما في الإشارة إليه تحفظ عن
ذكر بني أميّة ، والملاّ من الأعيان والرهبان حاضرون ، ثم سألته أن يأذن لي
بالدخول عليه في خلوة وانفراد فأجابني إلى ذلك وهو يظهر اتّناسه بي
وتوسمه الخير مما وقع بينه وبين الرّشيد من التوادّ .

ولما انصرفت من حضرته وقف لصحبتى أميراً من عظماء دواته ملك
نقلني برقة نفسه ، وأحسن مُنقَلَبِي بلطيف أنسه ، وأحلّ كرامتي عنده
بالحل الأرفع ، لم يترك أثراً مشهوراً في رومة من قصر مُنيف ولا منزل
مزخرف ولا موضع ذي حسن وبهاء إلّا سار بي اليه وأرانيه ليعظم في
عيني أمر الفرّنجة ، فما كنت لأكبر من مبانيهم إلّا الكنائس التي

يعظمونها ويتأنقون في تنسيقها بالرسوم التي تتناهى في الحسن وجمال الزينة، وهذا الرسم أثر لهم من الصناعة يفردون به دون المشاركة^(١) الذين ينههم الدين عنه،^(٢) وإنما يكونون في حاجة إلى صناعتهم إذا بنوا مسجداً أو قصرًا مزخرفًا كما علمت، إلا أنه لا يصح انفرادهم بالحِذْق فيه دونهم لبطلان الموازنة فيما يتركه فريق ويأخذ فيه الآخرون. وفي نفسى أن المسلمين لو لا نهى الشرع عن التصوير ما بعد أن يفوقوا فيه الروم، فقد رأيت من عمل الرسامين في المشرق الأقصى ما يقرب أن يكون في جودة عمل الروم. ورأيت صوراً من بلاد الصين وصلت إلى البرامكة وهي تمثل رجلاً ونساءً وأولاداً بحيث إن الناظر إليها يميز بين الضاحك والباكى، حتى لقد يميز بين ضحك السرور وضحك الشماتة،^(٣) وهذه غاية في المهارة لم يبلغها إلا أكبراء أرباب العقول من صناع الروم. وأعظم ما شاهدت من كنائس رومة يئمة بطرس حواري المسيح عيسى عليه السلام، وهي من عجائب الدنيا،^(٤) وفيها من الرسوم والنقوش والأصباغ والأعمدة والذهب^(٥) ما أذكرني جامع دمشق في بهائه وجماله، وهي أبعد ما شاهدته من مباني الروم، وامتدادها مع مقصوراتها نحو ستمائة ذراع^(٦) فيما سمعت، وامتدادها

(١) لم يكن للمشاركة في زخرفة مبانيهم إلا أن يتخذوا أشكال الخطوط دون الصور وقد ابتدعوا من رسومها أشكالاً تقيد الابصار في الحسن والبهجة مع أنه ليس أصعب على الرسام من ابتداع شكل لا يتوسع فيه بغير الخطوط المتماثلة وبذلك يعلم مقدار فضلهم في الصناعة بما وضعوه من هذه الخطوط وما علقوا عليها من الكتابة التي اتخذوا فيها طريقة التزييق تملأ العين بهجة وارتياحاً. (٢) المقدمة ٢٢٨ (٣) القرمانى ٥ : ٢٢٤ (٤) المقرئى والمحاضرة ١ : ٣١ والقرمانى ٦ : ٥٥ (٥) القزوينى (٦) تقويم البلدان ٩٩

الكنيسة يبلغ نصف ذلك،^(١) وهي مستقوفة بالرصاص مفروشة بأفخر أنواع الرخام. وعلى عین الداخل من آخر أبوابها حوض عظیم للمعمودية يجري فيه الماء دائماً من نهريشق هذه المدينة^(٢) كما تشق دجلة مدينة الزوراء. وفي صدرها كرسى مذهب يجلس فيه الباب في أيام المواسم والأعياد. وتحت باب مصفح بالفضة^(٣) يوصل إلى سرداب فيه مشهد بطرس فيما يزعم أهل هذه البلاد، ولكنى علمت أن أهل المشرق من أمم النصرانية يردون ذلك عليهم، ويذهبون إلى أن بطرس إنما قبض في أنطاكية لا في رومة، وأن كرسى أنطاكية عندهم هو المقدم على كرسى رومة، وفي هذه الأقوال نظر لا محل لذكره في هذا الكتاب. وخارج الكنيسة عمود من رخام قائم على قواعد أربع من النحاس، وفي أعلاه عمود من الصفر قد رفعت على رأسه كرة مذهبة يراها كل من في رومة كأنها علم لموضع الكنيسة.

ولما كان الغد أذن القيصر لي بالدخول عليه فلقيته في ثياب من الديباج وغليه تاج من الجواهر أعظم مما كان عليه بالأمس كأنه أراد أن يظهر لي عظم سلطانه^(٤) بما تحوى خزائنه من الجواهر والمال. ولما أمرني بالجلوس بلغته ما أوصاني الرشيد بتبليغه من أمر أمية بالأندلس وما يروم من موافقته عليهم، ولكن بإيجاز أبعثت فيه التأكيد ليكون له إشارة إلى المصلحة

(١) ابن خرداذبة ٩٣ (٢) تقويم البلدان ٢١١ (٣) كذا وجدت وصف هذه الكنيسة في أسفار العرب من أهل الأسفار وغيرهم وذلك قبل الحروب الصليبية (٤) ذكر صاحب الأغاني ٢ : ٢١ أن كسرى لما أنفذ رسوله إلى قيصر الروم حمله على البريد ليريه سعة أرضه وعظم مملكته قد كرت عن هذا القيصر مثل ذلك

ليس غير، فخطبني بما يقرب معناه من كلام وزيرنا جعفر (أعزه الله)، فأكبرت ذلك من غير أن أعجب منه، اذ كنت أعلم أن عقول الحكماء قد تتوارد على الشيء الواحد ولو على اختلاف الآماد. وتلاقى ولو على بعد البلاد. ولما ذكرت له قرابة العباسيين من النبي صلى الله عليه وسلم فكر في نفسه حتى ظننت أنه سيقول لي إن من الناس من هم أقرب منهم ومن بني أمية إليه. ثم انبسط له مجال الحديث فقال إني لأرى الاسلام اليوم أقل اجتماع عصبه منه في أيام الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) لتجزئته بين المشرق والمغرب. على أني أرى دولة صاحبك أعظم هذه الدول وأوسعها رقعة مملكة. وأما أمر الأمويين فانه وعرا المرام لا يناله الأعلى تهادى الأيام. اذ لا يدل الشقاق بين السلطان وعميه على ضعفهم عن رد العدو، فلو شدد صاحبك عليهم لحو طوه بأطرافهم وقتلوه بغرض واحد تدعوهم اليه الحالة التي يقومون فيها جميعاً من الفرز والاشراف على الخطر، ولقد كنت أرى تغلبه قسراً على الأندلس من قبل أن يوافيها الأمويون، وقد كانت قضائها على أغراض متضاربة أفضت بعد الحروب فيما بينهم إلى تغلب الجيرة عليهم، أما اليوم وقد وافوها بالأموال^(١) فليس من السداد أن يبادئهم بالقتال على حين يأتون من إفريقية بالمرتزة من الرجال « وهم الذين يُكروُن أنفسهم للحروب »،^(٢) وزبما تعذر عليه مداهمهم من المغرب لما هوناشب من الفرقة بينه وبين العلويين فيكون له عدوان من الأمويين وأهل البيت جميعاً، وقد قيل في الأمثال « إن الزئبر إذا جمع منه جبل يوثق به الفيل المقتلم » ثم إنه ذكر لي عند ما استنهضته الى مظاهرة الرشيد أن بينه وبين الأندلس ملوكا يجب أن

يبقى معهم على عهد المسالمة والموادة ، وأنه يوجه همة إلى مناصبة الملوك الذين هم في ناحية المشرق كأنه يريد أن يستولى على القسطنطينية . هذا ما وقع بيني وبينه من الحديث ، وقد قال لي في خاتمة المفاوضة قل لأمر المؤمنين إني عنيتُ بحاجته وسأكون ظهيراً له فيما يروم واقرأ عليه السلام .

ذلك ما كان من أسرار الرسالة لم تتوسع المصلحة منها إلى ما وراء التوادّ الظاهر من السياسة كما رأيت ، ولبثت في رومة ثلاثة أيام متواليات . وكان الانبرذور قد اتخذ لي وليمة دعا إليها عظماء دولته ، وتكرم على بخاتم من الياقوت في سبيل التعطف ، ثم طلب إليّ أن آخذ الطريق إلى تونس لأوجه إليه منها برمة عظيم من عظماء النصرانية ، يقولون إنه من أهل الجنة ،^(١) فأجبتُه بالامتنال إلى ذلك ، فسير في صحتي مركباً من أسطوله ليحملها إليه وغادر مركبنا ساحل رومة في يوم شديد الحر من شهر رمضان كأن الحرارة فيه تشمل الأقاليم المرتفعة أيضاً وقد حَقَّ تسميته بـرمضان من الرَّمَض وهو شدة الحر^(٢)

وكان الفراغ من تقييد هذا الكتاب وأنا على متن السفينة وبينى وبين تونس مسيرة يوم وليلة . والله أسأل أن يبلغنا المقصد بالسلامة وهو الكفيل بالتيسير والتسهيل لأربّ سواه .

(١) هو قبر يانوس فيما يقولون شهيد من شهداء النصرانية (٢) الكنز ١٤٦

الرسالة التاسعة

المروور بتونس من بلاد العرب

كتبت اليك الرسالة التاسعة بعد الانصراف من الرسالة . واليوم
أكتب اليك من المشاعر المباركة بعد إبلاغها الى الرشيد . فاني لما قفّلتُ
من ديار الروم عرّجت على تونس من بلاد المغرب فأكرم عاملها من لدن
ابن الأغلب وفادتي ، وأخرج اليّ زورقاً حملني عليه الى المدينة ، لأن البحر
يبعد عنها نحو عشرة أسيال ، ^(١) وبينهما بحيرة قريبة الفوّرفسبق اهتمامي
باخراج الرّمة التي أوصاني بها القيصر الى مركب الروم لابعادهم عن مرقاً
المسلمين اهتمامي بما سواه من الأمور . ثم اني نظرت في شأن ابن الأغلب
ابراهيم وانقطاع أهل الشيعة الى حوزة ادريس بن ادريس (رضى الله
عنه) من غير أن أكشف عما بالنفس من الميل مع أهل البيت ، اذ كنت
أوجبت على نفسي أن أقوم بصدق الخدمة للرشيد في هذه الرسالة التي
حملني مجاشعها واستودعني فيها أمانته ، فاتصل بي من أخباره معهم جسيمٌ
حملت خبره الى ملوكنا البرامكة (أعزم الله) . وقد أذكرني حال العلويين
في المغرب أيام عليّ وأبي بكر وعمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنهم)
من الصلاح والخير والبركة ، يتبعون الرسوم التي حفظوها عن النبي
(صلى الله عليه وسلم) ولا يقيمون أبهة الملك إلا ما تدعوهم اليه حاجة
الخليفة ، وكذلك أهل الشيعة من التزام الخير واتباع السنن العادلة والمحافظة
على القراءة التي قرأها عليّ (عليه السلام) . إلا أن الأغلب (دمر الله ملكه)

(١) تقويم البلدان ٣٨ و ١٤٣

ينقيم منهم أمر الدنيا والدين ، ولا ذنب لهم إلا أنهم يحرصون على الخير والصلاح ويميلون مع أهل نيت السلالة الشريفة الطاهرة .

وهذه القراءة التي ينقيها الأغلب من أهل الشيعة قد كان لها شأن عظيم في صدر الاسلام واسالت من دماء المسلمين بحاراً بما تعصبوا له من الأغراض . كان صدور الخلاف فيما بينهم على قراءة ابن مسعود وقراءة أبي بن كعب ، وكان أهل الشام في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه قد انقطعوا إلى قراءة يعارضون بها قراءة أهل العراق وزعموا أنهم أخذوها عن المقداد بن الأسود ، وكان عثمان في خلافته قد عقد مجلساً من الصحابة على أن يحمل الناس على قراءة واحدة في جميع الأقاليم والأطراف ، فجمع الرقاع والأدراج والخفاف والعُسب التي كان مكتوباً فيها القرآن الكريم ، وأمر بأن تحرق كلها وأن يُنسخ من الصحف التي كتبت في خلافة أبي بكر (رضي الله عنه) ، وكانت مودعة عند حفصة^(١) زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) أربع نسخ^(٢) يبعث بها إلى الديار الإسلامية ، فتولى نسخها زيد بن ثابت الأنصاري^(٣) وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي . وقيل عبد الله بن عباس ومحمد بن أبي بكر^(٤) وقال لهم عثمان إن اختلفتم في شيء أو كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلغتهم^(٥) . ولم تزل هذه المصاحف المنسوخة محفوظة في مكة والشام والكوفة إلا المصحف الذي كان في المدينة فانه فقد في الحرب التي أثارها يزيد بن معاوية .

(١) أبو الفداء ١: ١٦٦ (٢) الفخرى وابن جبير ١٩٥ (٣) أبو الفداء

١٦٦: ١ وابن جبير ١٠٢ (٤) الكندي (٥) أبو الفداء ١: ١٧٦

ولما انفصلت عن تونس ركبنا البحر تَوًّا الى الاسكندرية وفي نفسي
أن أبلغها في عشرين يوماً ، فلما توسطنا البحر غلبتنا الرياح العاصفة
ونكصت بنا السفينة على الأعقاب مسيرة بضعة أيام إلى أن هدا ثائر النوء
وطابت لنا الريح ، فسرنا بعمونة الله إلى أن شاهدنا منار هذا الثغر المحروس .
والقطر المأنوس . لئال خلون من شهر شوال ، فلما طلع النهار انتصب أمامنا
في عظمه وهول مرآه^(١) حتى كأنه عمود يلقي القبة الزرقاء ، ويصل بين
الأرض والسماء .

رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرع لا ينال طويل
فهو من سمو الارتفاع بحيث يهتدى به أصحاب السفن على بعد سبعين
ميلا ، وربما قدر الناس ارتفاعه بنحو مائة وخمسين باعاً ،^(٢) وهم يقولون
إن بانيه الاسكندر الرومي الذي ملك معظم الدنيا أو ملك من خلفائه
يقال له بطليموس قاسى مع رومة حروباً صعباً في البر والبحر ، فبناه
لارتقاب جندهم والاستعداد لمرآكهم قبل وصولها . ويحدثون عن الوليد
ابن عبد الملك الأموي^(٣) أنه سؤل له جهلة قومه أن يهدمه طمعاً في
الوصول إلى ما حوى جوفه من الكنوز الخبئة ، فشرع في الهدم والدمار حتى
قوض جانباً من هذا المنار . ثم تعاظمت عليه النفقة ولم يجد ما يستعيز

(١) ابن بطوطة ١ : ٢٩ وابن جبير ٣٧ وعبد اللطيف ٦٤ (٢) تقويم
البلدان ١٠٥ وابن جبير ٣٧ وربما كانت المنارة قبل أيامهم أكثر علواً كما ذكره
يقول ابن الاثير في حوادث سنة ١٨٠ انه كانت بمصر زلزلة عظيمة سقط منها رأس
المنارة وربما ذكر المقرئ شياً من ذلك في كتاب الخطط والآثار . ويقول القرمانى
٦ : ٦٤ أن طولها ألف ذراع الى غير ذلك . (٣) المقرئ والمحاضرة ١ : ٤٣
والمستطرف ٢ : ١٧٨ وتقويم البلدان ١٠٥

به عنها فكف عن عجز لحقه ولو لم نراه يستحقه . وكان مقامى فى الاسكندرية عند عاملها الليث بن الفضل الأيوبردى^(١) ثلاثة أيام ، وكنت أحب مع ما لقيت من أنسه ووجدت فيها من سعة العمران واستبحاره أن أمد فيها بساط الإقامة لولا أنى خفت فوات الحج ، فانصرفت عنها فى اليوم السابع من شوال ، وكنت قد استقرت كثيراً من أماكنها المشهورة ، ووقفت على ما اتسع لأهلها من طرق المعاش فرأيت أن أجمل الكتاب بذكره ليقى فخراً للمسلمين فى استيلائهم على هذه المدينة التى ليس أعظم منها فى ديار الروم .

فى ذكر الاسكندرية

الاسكندرية مدينة تجارة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعاً وأحفلها بنياناً ، والىها المنتهى فى المنعة والحصانة ، إذ كانت مبنية على لسان من الأرض ، والبحر محيط بها من جميع جهاتها ولذلك يصعب منالها على العدو وان لم يكن وراءها وعرو ولا هضاب يتعز به جانبها من البر ،^(٢) ولقد كانت فى قديم الزمان خاملة الذكر يقال لها رقودة^(٣) فلما تبوأها الاسكندر الرومى^(٤) وصارت كرسى الملك بعده تجلت بجلال الحضارة . وتحلت بحلل النضارة . واتصلت عمائرها تحت الأرض^(٥) آزاجا يجتمع فيها الماء كاتصالها فوق الأرض ، وأقيمت أسواقها فى نهاية من الابداع ،^(٦)

(١) ذكر أبو المحاسن ١ : ٥٢٢ انه كان عامل مصر فى ذلك الوقت وهو سنة ١٨٦ للهجرة

(٢) يقول ابن خلدون فى المقدمة ٣٠٥ ضد ذلك وانه يسهل طروق العدو لها

(٣) المقرئى ١ : ١٤٧ (٤) القزوينى ٩٦ (٥) ابن جبير والمقرئى ١ : ١٥٠

(٦) ابن جبير ٣٦

وشوارعها في غاية من الاستقامة والاتساع ، بحيث إن الغريب الزائر يسير فيها نهاره أجمع فلا يضل^(١) .

ولقد لقيت في كثير من أماكنها وطرقاتها عمداً والواحاً من رخام تحمل العامة على الظن بأنها هي إرم ذات العماد^(٢) التي لم يخلق مثلاً في البلاد ، وأعظم ما شاهدت فيها العمود المعروف بعمود السواري^(٣) وهو مائل للعيان في طرّف المدينة تحفّ به غابة من النخيل ، وهو حجر صلد من الصوّان الأحمر ، يتدّى من قاعدة غليظة وينتهي إلى تاج مكلل بالرسوم ، والناس يقولون إنه كان في أعلاه قصر معلق في الجو لأهل العلم والرياسة ،^(٤) وإنه كانت فيه خزائن كتب أحرقها عمرو بن العاص^(٥) بإشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، إذ كتب إليه « الكتب التي ذكرتها إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى ، وإن كان فيها ما يخالفه فلا حاجة إليها فتقدّم بإعدامها » ولكن هذا قول بعيد عن التدقيق والنظر . وظنى بهذا العمود أنه نصبه الروم معارضةً للعمد التي اتخذها الفراعنة أمثال المسلات ، وطمعاً في تخليد آثارهم في مصر إلى انقضاء الدهر .

وقد رأيت أهل الاسكندرية إصحاء الذوق لطاف الطباع والخلق لقرب مدينتهم من البحر وظهور الصبّا عندهم واعتدال الحر والبرد في إقليمهم ، على أن أكثرهم مهزولو الأجسام وهنّ البنية^(٦) . ووجدت لهم تصرفاً

(١) تقويم البلدان ١١٣ (٢) المقرئى والمسعودى وياقوت وابن جبير

(٣) ابن بطوطة ١ : ٣٠ والقزوينى ٩٧ (٤) المقرئى ١ : ١٥٩

(٥) أبو الفداء وأبو الفرج ١٨١ والمقرئى (٦) المقرئى ١ : ٤٤

واسعاً في التجارة ، ^(١) لأن المال موفور عندهم ، والخيرات تأتيهم من مصر وجميع الأمصار فيتصرفون في الليل بالبيع والشراء كتصرفهم في النهار ، ^(٢) وسمعت أنهم بلغوا من سعة العيش إلى أن بنوا في مدينتهم ألف حمام وأربعمائة ملهى واثنى عشر ألف دكان ^(٣) ، وهذا شيء من الكثرة لم يسمع بمثله في البلدان .

أما المسلمون في هذه المدينة فانهم على رأينا من القول بخلافة أهل البيت ، ويتعبدون على مذهب الامام مالك ، ^(٤) ولكنهم يجهرون بالبسملة في صلاتهم ويبتدئون بها عند الخطبة ^(٥) كأني بهم قد اقتدوا في ذلك بأهل الشام إذ كان الاتصال فيما بينهم مستمراً على غير انقطاع . وأما أهل الذمة فانهم يزيدون على أربعمائة ألف ^(٦) بين نصارى ويهود ، وهم يؤدون جزيتهم إلى الرشيد ديناراً واحداً ميمونياً ^(٧) بعد أن ضربها عليهم عمرو بن العاص دينارين ، واستمرت على ذلك في عهود الخلفاء السالفة ، وهم في الاسكندرية وسائر الديار المصرية ملل كثيرة من النصرانية إلا أن معظم سوادهم ^(٨) روم يرجعون في أمورهم إلى بطركهم بالقسطنطينية ، وقبض ينكرون على الباب خلافته للمسيح ويرجعون في ملتهم إلى بطرك لهم يسمى مرقص ^(٩) كرجوع المشاركة إلى بطركهم في أنطاكية ^(١٠) كما مر في موضعه من الكتاب .
وهؤلاء القبط هم أهل مصر الأولون ، وفي أيديهم الكنائس المعظمة

(١) المحاضرة (٢) ابن جبير ٣٩ (٣) المقرئ والمحاورة ١ : ٥٩
والقرمان ١٣٧ : ٥ (٤) المقرئ (٥) المقرئ ٣٣٤ (٦) ابن خرداذبه
١٢١ والمحاورة ٥٩ والمقرئ ١ : ١٦٢ (٧) ذكر صاحب الأغاني ان هذه
الدنانير سميت بالميمونية نسبة الى ميمون بن عامر ٧٢ : ٧٢ (٨) المقرئ ٢ : ٤٩٢
(٩) ذكره المقرئ ٢ : ٤٩٣ (١٠) المسعودي ١ : ٢٧١

التي لا يوجد مثلها عند الروم ، إذ كانوا السابقين إلى تشييدها والحافظين لها تحت ظل الأسلام . وأعظمها يَبْقَاتُ إحداها كنيسة مرقس ^(١) وهي بجوار الدار التي بناها الزير بن العوام ، ^(٢) فيها رسوم عجيبة وصور تمثل الحواريين والعظماء الذين ظهرت لهم الكرامات في ملتهم . والثانية كنيسة يوحنا المعمدان ^(٣) قد مَوَّهَ سقفها بالذهب ، وصُوِّرَت فيه ملائكة الله محفوفة بالسحاب . وفي جوارها ذور كثيرة لهم قد رفعت على طبقات ثلاث ، ^(٤) وارتفعت على دور المسلمين ، مع أن المطاولة عليهم في البناء محظورة على أهل الذمة . وهذا أمر يتغاضى عنه الولاة كما يتغاضون عن مجاهرتهم في ملتهم بأشياء لو بدت منهم في العراق أو الحرمين جلبت عليهم الحَيْنَ في أسرع من طَرْفَةِ عَيْنٍ . وذلك مثل مجاهرتهم بالانجيل وإخراج آيتهم إلى الأسواق وحمل صُلبانهم على رؤوس الرماح ^(٥) وغير ذلك مما لا ينقمة منهم المسلمون ، ^(٦) وكأنهم إنما يتسامحون في أمرهم تجنباً لاثارة السواكن أو طمعاً في استمرار الخلطة التي وقعت بينهم وأشبهت أن تكون ألفة وصفاء . بل مودة وإخاء . وقد وقع لهم وأنا في الاسكندرية موسم عظيم يسمونه عيد الميلاد ، يتخذونه في اليوم الذي ولد فيه المسيح (عليه السلام) وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر كيهك ، ^(٧) وعادتهم في هذا الموسم أن يُجَيُّوا ليلهم كله بالسرور ، ويُخرجوا آيتهم إلى الأسواق ، وينوِّروا كنائسهم بالشموع المليحة الأصباغ . فكنت أرى كثيراً

(١) المقریزی ٢ : ٤٩٢ (٢) ذكرها ابن خلدون في المقدمة ١٧٨

(٣) المقریزی ٢ : ٥١٩ (٤) القرمانی والمقریزی ١ : ١٦٢ (٥) المقریزی

(٦) المقریزی ١ : ٤٩٤ (٧) المسعودی ١ : ٢٧٢

من المسلمين يتعاون لأولادهم من هذه الشموع المسماة بالفوانيس ويحرقونها في أزقة المدينة ، كأنهم يشاركون النصارى في أفراحهم ، ويظهرون الأُنس بهم إلى انقضاء العشاء الآخرة .

وقد وجدت القوم من الروم والقبط وسائر ملل النصرانية يتأقنون في صنوف الملابس من الخرز والديباج والوشى الذى يصنعونه في مدينتهم ، ويضرب به المثل في جميع البلاد ،^(١) ونوع من الكتان يتنافسون في لبسه إلى أن يبيعوا الدرهم من الثوب المخيط منه بدرهم فضة^(٢) وكنت أحب أن تظهر آثار النعمة في لباس المسلمين^(٣) مثل ظهورها في أهل الذمة ، فقد حدث الرواة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اتخذ جبة مكفوفة بالخرز ،^(٤) ولبس ثياباً بأربعة آلاف درهم وصلى فيها ،^(٥) وكذلك حدثوا عن عائشة أنها خلعت على عبد الله بن الزبير ثوباً من الخز ،^(٦) وعن جماعة من العلماء والفقهاء أنهم لبسوا الثياب المهدبة ،^(٧) فلا أرى موضعاً بعد هذا لأن يكون لبس الحلل الفاخرة محظوراً في الشرع^(٨)

الديار المصرية والنيل

توسّع في الكلام إلى ما خرجت به عن اقتصاص الرحلة ، ولكنى أعود إلى ذكر الأمور التي شاهدتها في ديار مصر ، فاني ركبت من الاسكندرية أريد القسطنطينية ثم أسوان ثم عيذاب إلى طريف الصحراء من ساحل البحر . فررت بدمهور وصا وبرما وطيندة وقلوب في أسرع

(١) الأغاني : ٥ : ٧٦ (٢) المقرئى ١ : ١٦٣ (٣) تزيين الأسواق ٢ : ٥١

(٤) مجمع الأنهر ٩٤ (٥) مجمع الأنهر ٧٩٤ ونقل الشيباني عن ابن جريج

أن ابن عباس كان يرتدى برداء قيمته ألف درهم العقد الفريد ٣ : ٣٤٣

(٦) الزرقاني ٤ : ١٠٤ (٧) البخارى وغيره . (٨) ابن عابدين ٥ : ٣٤٤

مدة من الزمان . اذ ليس في مصر جبل ولا مسلك وعرض يعترض الركبان . وكانت العمارة متصلة في طريقنا إلى القسطنطينية ، ومن حولها اخضرار في السهل يمتد مع البصر إلى أن ينقطع . فأخبرني من كان يصحبني من لدن الليث أن البلاد يتنوع فيها هذا المنظر أربعة أرباعاً في كل سنة ، فتكون ثلاثة أشهر لؤلؤة يضاء ،^(١) أولها شهر أيوب المعروف بتموز عند المشاركة ، يركبها النيل إلى أن تصير ضياءها في بحر من الماء لا سبيل إليها إلا في الزوارق . وثلاثة أشهر مسكة سوداء أولها شهر بابه وهو المعروف بتشرين أو أقطوبر ،^(٢) ينكشف الماء عن الأرض ويترك عليها طيناً عليلاً أسود فيه دسومة صالحة للزراعة يقال له الإبلير^(٣) وثلاثة أشهر زمردة خضراء أولها شهر طوبة الذي يمر بنا اليوم ينجم فيه الزرع ويظهر ربيع الأرض حتى لا يبين الثرى من خلاله . ثم ثلاثة أشهر سبيكة حمراء تبتدى من برمودة المعروف بأبريل عند الروم فيتورد الزرع يبلوغ الحصاد . ويكون كسبيكة الذهب في المنظر .

وإنما يجلب الخيرات إلى مصر ويخرج الزرع اليانع من أرضها الجرز ما يحمل إليها النيل من الطين ويفيض عليها من الماء في أيام من السنة معلومات ، فكأنما تستعوض بالمنفعة منه عن الشتاء الذي يحبسها الله عنها رفقا بمصالحها أن تختل ومساكنها الطينية أن تبتل . وقد قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه^(٤) « أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » فجعل الله عز وجل النيل

(١) المنوفى (٢) في المسعودى ١ : ٢٧٢ أسماء الأشهر الرومية مثلها هي اليوم عندنا

(٣) عبد اللطيف ٣ (٤) المنوفى

من الغموزة والاستبحار بحيث يكفي البلاد كلها من غير أن يكون فيها نهر ولا عين ولا مسيل ماء غيره ، والناس يجمعون محاسنه في ثلاثة ^(١) : الأول غمورته إلى أن يكون بحراً تسير فيه السفن . والثاني بعد منفجره إلى ما وراء الخط من جبال القمر . والثالث طيب مسلكه على رمال تروقه وتأخذ المزوجات الغريبة منه . وإني وجدت له خلة من الخير والبركة أفضل من هذه المحاسن هي أنه يُزْدَرَع عليه ما لا يزدرع على نهر غيره من أنهر العالم ^(٢) فكأين من نهر تجتمع فيه محاسن الغمورة وبعد المنفجر وطيب المسلك ثم لا تحصل المنفعة منه مثل ما يحصل لأهل مصر من بركة نيلهم .

وشأن هذا النهر المبارك في الفيضان أنه يتبدى بالزيادة في شهر أيب ، والقبط يقولون إذا دخل أيب . كان للماء ديب . ^(٣) ثم يغلظ في مسرى وهو شهر آب ، ويزيد بعد ذلك زيادة عظيمة إلى أن يقف حدّها في منتصف توت ، وهو شهر أيلول المعروف بسبتمبر عند الروم ، ثم لا يلبث بعد ذلك حتى يتراجع بالانحسار وقد كفى الناس سقاية زرعهم بمدوده على حد قولهم ^(٤)

كأن النيل ذوفهم ولبّ لما يبدو لعين الناس منه

فيأتي حين حاجتهم إليه ويمضي حين يستغنون عنه

وصفوة القول في هذا الفيضان أن منشأه السحب الماطرة ^(٥) إلى

ما وراء خط الاستواء من تلك البطاح ، وللقبط فيه أقوال كثيرة لا موضع لها في هذا الكتاب ، ^(٦) وهم يزعمون أنهم يعرفون قدر فيضه « قبل حدوثه »

(١) المقرئى ١ : ٦١ وتقويم البلدان ٤٥ (٢) ابن بطوطة ١ : ٧٧

(٣) المقرئى (٤) المقرئى (٥) تقويم البلدان ٤٥ (٦) راجع المجلد الأول من خطط المقرئى

من هبوب الريح في أول يوم من بؤنة وهو شهر حزيران عند المشاركة .
وقد قرأت في بعض الكتب أن هذا النهر هو نهر العسل في الجنة ،^(١) وأن
حائداً اليهودي الذي تاه في الأرض دهرًا لم يستقر فيه بموضع وصل إلى
الجنة مما وراء السودان^(٢) فوجد أرضاً ذهباً وترعاً ذهباً وتلاعاً ذهباً ،^(٣)
ورأى النيل ينساب فيها من طيقان قد ارتفعت مثل قوس السحاب . وهذا
تصور لطيف كنت أقرأ مثله في دواوين الشعراء فأخيت أن أذكره لك
حتى إذا كنت بعيداً عن أن تعجب منه من حيث الحقيقة فلا أقل من
كونك تعجب به من حيث المجاز .

ولما وصلت إلى القسطنطينية نزلت على قاضيها عبد الرحمن بن عبد الله
من ولد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،^(٤) فلما أصبحت وكان يوم الجمعة
جمعت في جامع عمرو بن العاص الذي قاد الجيوش الإسلامية إلى هذه البلاد
وانتزعها من يد المقوقس كما هو معروف . وهو من المساجد المشهورة في
الإسلام حسناً وتزييناً وإحكام صناعة ، وجدت على حائطه القرآن الكريم
مكتوباً على ألواح بيض من الرخام يقرأه الإنسان وهو قاعد ،^(٥) ثم زرت
مشاهد كثيرة من مشاهد آل البيت والصحابة والأولياء والشريفات
العلاويات . ولما مالت الشمس ركبنا إلى موضع غربي المدينة يقال له
الجزيرة وهو مجتمع اللهو والنزهة لاحتاطة الماء به ، وهناك المقياس الذي
يعتبر به قدر زيادة النيل ،^(٦) بناء سليمان بن عبد الملك الأموي في آخر

(١) المقرئ ١ : ٥١ والزرقي ١ : ٣٧٥ (٢) الاسحاق ٢٦١ (٣) المنوفي

(٤) المحاضرة ٢ : ٨٩ (٥) القزويني ١٥٧ (٦) المقرئ وابن جبير ٥١

والمسعودي ١ : ١٦٤

المائة للهجرة النبوية المشرفة ، وهو عمود رخام أبيض مفصل على اثنتين وعشرين ذراعاً من الأذرع القديمة التي كان يتعامل الناس بها قبل أن يضع الرشيد الذراع السوداء التي تزيد عنها بأصبع وثلثي أصبع ،^(١) وهو مبني في موضع ينحصر الماء فيه فإذا انتهى الفيض إلى ثمانى عشرة ذراعاً منغمرة فيه كان ذلك الغاية في طيب العام^(٢) .

وقد أخبرني عبد الرحمن هذا القاضي النبيل أن ما يغمره النيل بمصر يبلغ مئة ألف ألف فدان ،^(٣) والفدان عندهم أربعمئة قصبة ، والقصبة عشر أذرع ، « وهو القدر الذي وجده هشام بن عبد الملك عندما مسح البلاد » ، وكلها ذات خيرات كثيرة . وغلات وفيرة . مما يحمل الإنسان على أن يظن في أهلها اتساعاً في النعمة واسترسالاً في الطيبات من بسطة العمران ، غير أن الأمر على خلاف ذلك عند أهل الزراعة بالأرياف إذ غلب على عامتهم الخمول^(٤) وتولاهم الشقاء ، ولم ينفقوا المال الذي أعطاهم الله في مطالب السعة ، بل دفنوه تحت أطباق الأرض وتظاهروا لدى ملوكهم بالمسكنة وعسر الحال ليسترقوا القلوب رفقا في جباية الأموال . فما كانت هذه الحيلة لتفيدهم شيئاً من الرحمة . وربما انقلبت الغاية إلى التثقل عليهم في الخراج لما تسومع عنهم من تحبئة الكنوز بحيث رأينا لحكامهم اقتداراً في تكثير الجباية ما عرفنا مثله لغيرهم من ملوك الأمم .

(١) ابن خردادبه ١٦١ والمسعودى ٤٠ : ١ والمقرئى ٥٩ : ١ (٢) ابن

بطوطة ٧٨ : ١ (٣) المقرئى ٨٠ : ١ (٤) المحاضرة ١٩١ : ٢

(٥) المقرئى ٥١ : ١ قول الرحالة مائة ألف ألف فدان انتقده ابن المدبر بأن ما يزرع في مصر هو أربعة وعشرون ألف ألف فدان .

في وصف الأهرام

وفي غد اليوم الذي وصلت فيه إلى الفسطاط ركبت إلى أهرام الجيزة،^(١) وهي ثلاثة كبار موضوعة على خط مستقيم^(٢) غربي النيل، وهي من أهول ما بناه المتقدمون وأجله خطراً. وأبقاه على الأيام أثراً. والعهد بجميع الأشياء يُخشى عليها من الأيام إلا هذه الأهرام، فانها صبرت على طواريء الحدوثان حتى راح يُخشى منها على الزمان. اثنان منها عظيمان وواحد دونهما في العظم، وهذان الهرمان الكبيران متناهيان في السموات، يُخيّل للرأي أنهما نهذان قد نهذا في صدر الديار المصرية،^(٣) وهما مبنيان بحجارة بيض صلدة قد اقتلعت من مغاور تحت الأرض بعيدة يدخلها الفارس برمحه فيرتاح فيها. ولقد تقدمت إلى بعض من كان يصحبني من لدن السلطان أن يطلق سهماً إلى أعلى الهرمين فرمى به عن قوس غليظة وساعد قوى فسقط السهم دون ثلث المسافة،^(٤) أما وصف الهرم فهو بناء مخروط مضلع مثلث الزوايا مربّعها، يبتدىء من قاعدة عريضة ويضيق قليلاً قليلاً كلما ارتفع إلى أن ينتهي إلى سطح صغير يكون مبرك بعيرين في الهرم الصغير ومبرك ثمانية في الهرمين الكبيرين. وهذا النمط في البناء يزيد متانة يقوى بها على ممر الليال.

أما السبب الذي دعا الفراعنة إلى نصب هذه الأهرام فلم يزل مستتراً

(١) عبد اللطيف ٥١ والشرشني ١٠١: ٢ والمقريزي (٢) هذا تشبيه

لطيف ذكره عبد اللطيف وغيره من الكتاب (٣) تقويم البلدان ١٠٨

(٤) ابن بطوطة ١: ٨٢

تحت ظل الأبهام ، فمن قائل إنها بنيت مستودعاً للعلم ، ومن قائل إنها اتخذت لتحجز الرمال النائرة من القفر على الفسطاط ، وفي وجه من التاريخ أنها بُنيت لدفن الكنوز^(١) واحتكار الجيوب لأيام يوسف عليه السلام^(٢) ، إلا أن ما يذهبون إليه من هذه الآراء بعيد عما لدينا من القياس الظاهر للأشياء ، فإن العلم لا تحفظه الحجارة ان لم يُستَوْفَع صدور الرجال ، ولا مل لا يحجزه سد غير متصل العِمارة ، وبين الهرم والآخرة فرجة واسعة المجال ، والحب لم يحتكره فرعون إلى دهر لا انقضاء له وفي موضع لا يقدر منه أن يتناوله . ولست أظن إلا أن هذه الأهرام قد بنيت لهُودا^(٣) للفراعنة الذين كانوا يدينون بالرجعة إلى هذه الدار ، ويُعَنُونَ بتحسين مدافنهم من عبث الأدهار ليحفظوا فيها حُلِيِّهم وأموالهم إلى يوم النشركما كان يصنع في جاهليتهم أهل مصر إذ يحملون مع الأموات ما لهم وأشياءهم ليجدوها بين أيديهم يوم رُجعتهم إلى هذه الدار كما كانوا يزعمون^(٤) .

وقد قرأت في بعض الكتب أن باني الهرم الكبير من الفراعنة ملك يقال له سوريد ، وجه زواياه إلى بعض الأبراج السماوية تيمنا بالبركة في اعتقادهم وزبر عليه « أنا يسوريد الملك » أكملت بناء الهرم في ست سنين فمن جاء بعدى وزعم أن له ملكا مثلى فليهدمه في ستين سنة (وفي رواية ستمائة سنة) ، والهدم أيسر من البناء ، وقد كسوته بالديباج الصّرف فليكسهُ هو بالحَصْر والحَصْرُ أهون من الديباج »^(٥) . أماتوجيه

(١) المقرئ ٢: ٢٢ (٢) المحاضرة ١: ٣٤ (٣) المقرئ وتقوم البلدان ١٠٨ (٤) عبد اللطيف والمحاضرة (٥) ابن بطوطة ١: ٨٢ والمقرئ والمحاضرة

زواياه إلى بعض الكواكب كما يعتقدون فهو اقراض ليس للرد عليه موضع مع ما نعلم من عبادة المتقدمين للنجوم وتعظيمهم إياها . وأما الكتابة التي يعزونها إلى فرعون فاني لم أجدها أثرا على الهرم الكبير ولا الصغير ولا أعلم على فرض أنها مرسومة فيه أحداً من الناس يقرؤها . حتى لو جاز أنها كتبت وقرأت كذا على الهرم ما صح أن تكون كُتوته بالحصر مما يُعجز عظماء الملوك ، وسعته من الركن إلى الركن الآخر ثلثمائة وستون خطوة ، إنما المعجز في هذه الآثار هو إحكام بنائها ^(١) بهذا الشكل البالغ النهاية في الاستواء دون أن يتخلل الحجارة شيء تتلاصق به من الكلس وغيره من المواد ، ولو أن نجاراً اتخذ صندوقاً من الخشب ما أحكم عمله ^(٢) ووصل قطعة مثل وصل هذه الحجارة الضخمة بالتصاق لا تنفذ فيه الابرة الصغيرة

وربّ زائر يقف بهذه الأهرام فتشفله الدهشة بعظمها وهولها عن تأمل ما هو حقيق أن نعتبر فيه من آثار السلف . فأنا لا أنكر أن الذين رفعوها من الفراعنة كانوا ضيغام السلطة عظام الصول والحول . غير أنني تمثلهم في نفسى ملوكاً عتاة قد ظلموا الرعية بما آتاهم الله من السلطان ، واستخدموا العباد في مشاق لا فائدة منها ولا طائل تحتها سوى أن تنطق بظلمهم على ممر الأزمان . أو أنني أتمثلهم جبابرة قد كثر المال تحت أيديهم فلم ينفقوه في البر والأحسان . ولا انتفعوا به في غرض من العمران . بل فعوا به حبالا شاهقة من الصوان . وليس في أحد الأمرين منصرف عن لؤمهم أو لؤم أوقعه عليهم ، فلئن أنفقوا المال في غير سبيله لقد

أسرفوا في الملك ، ولئن قبضوا الأجور عن العملة بعد أن نهكوا أبدانهم
بالعنت الشديدة لقد ضلوا سواء السبيل وباعوا رعاياهم بأبخس الأثمان .
ورأيت على مقربة من الهرم الكبير صورة عجيبة من الحجر
قامت كالصومعة ^(١) ومثلت رأس آدمى وعنقا بارزة من الأرض في غاية
العظم يسميها الناس بأبي الهول ، ويزعمون أنها طلسم الرمل لتلا يغلب على
أرض الجيزة ، ^(٢) وهي تشهد لصناع ذلك الوقت من القبط بحذقهم في
فنون الرسم وصحة التمثيل ، لأنهم اتخذوا صورة الوجه متناسبة الأعضاء على
كبره ، وجعلوا عليه حمرة لا يزال دهانها محفوظا مع الحجر ، ^(٣) وكأن الزمان
يعيره روتقا وجدة ، حتى إنه ليُخَيَّل للناظر إليه أنه ذو مسحة من جمال وأن
شفتيه تنفتحان للابتسام ، وقد أخبرني حاجب الليث أنه كانت له حية
تكسرت على تمادى الأيام ، وأن جثته مدفونة تحت الأرض ويقتضى
القياس بالنسبة إلى رأسه أن يكون طولها سبعين ذراعا ، ^(٤) إلى حديث
طويل مما يتعلق بهذا الصنم وبنيره من آثار فرعون ، فيقول وهو أعرف
الناس بالبلاد ^(٥) إن بمصر ثمانين كورة في كل كورة مدينة عظيمة وفي كل
مدينة آثار حسان ، ورسوم باقية على ممر الزمان ^(٦) .

(١) المقریزی ١ : ١٢٢ وابن جبير ٥٠ (٢) القرمانی ٦ : ٥٥
(٣) عبد اللطيف ٥٩ (٤) عبد اللطيف ٥٩ (٥) المقریزی وكتاب
المحاضرة للسيوطي (٦) قال الجاحظ وغيره عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة عشر
منها في سائر البلاد وباقيها في مصر المقریزی والمحاضرة والقرمانی ٦ : ٥٥

الى عِيذاب فُجَّة فالبلد الحرام .

كان انفصالنا عن الفسطاط في بُكْرَة يوم قارس برده ، وكانت المارة متصلة في طريقنا على شاطئ النيل ، فاجتزنا ببلد يعرف بِمُنْيَة ابن خصيب^(١) فيه الأسواق والمرافق والحمامات ، ثم اجتزنا ببلدة يقال لها أنصنا وهي تبعد عنه بمرحلة طويلة^(٢) فيها شجر اللبَخ^(٣) الذي تصنع منه السفن ، وكثير من العمُد والصخر الجمَل بالنقوش والرسوم ، وفي بعض الكتب أنها كانت مسكنا لسَحرة فرعون ،^(٤) ثم اجتزنا بمحاذاة حائط عتيق البنيان يقال له حائط العجوز^(٥) وهو يمتد من الفسطاط فما فوقه إلى جهات اسوان يزعم أهل الأخبار أنه بنته مَلِكَة يقال لها دلوكة وقاية لابنها من الوحش أن يهاجمه في مزاولة القنص ،^(٦) مع أن الأقرب إلى العقل أن يكون بناؤها له خوفا من الآدميين وغزواتهم لا من الوحوش التي يصح أن تكون في هذا الجانب منه كما هي في الجانب الآخر . ثم مررنا بمنفلوط في البر الغربي^(٧) وفيها قمح مشهور برزانة حبه^(٨) ثم بأسبوط وهي من النيل على ثلاثة أميال ، فيها الأفيون المصري الذي يُحْمَل إلى سائر البلاد^(٩) وهو عُصارة الخشخاش الذي يزرع فيها^(١٠) وفيما جاورها من البلاد ، ثم

(١) ابن جبر ٥٤ (٢) تقويم البلدان ١١٥ (٣) المقرئى ١ : ٢٠٤

(٤) ذكر المسعودى ١ : ٢٨٤ الاسرائيليات من الاخبار بمعنى الحكايات التي لا طائل تحتها وربما كان هذا الخبر لاحقا بها . (٥) المسعودى ١ : ١٧٢ والقرمانى ٥٧٦

(٦) المقرئى ١ : ٣٨ (٧) المسعودى ١ : ٢٧٢ (٨) تقويم البلدان ١١٣

وابن جبر ٥٧ (٩) القزوينى ٩٩ (١٠) تقويم البلدان ١١٥

ركبنا مرحلتين الى إخميم وهو بلد مشهور فيه البرّبا العظيمة التي صُوِّرَ فيها ملوك مصر^(١) وصورت فيها الأفلاك والكواكب حين كان النسر الطائر في بُرج العقرب،^(٢) وهي مرفوعة من صخور منحوتة، وفيها أربعون سارية مزينة بالرسوم والنقوش،^(٣) وعليها سقف من الحجر مُغشّى بالأشكال العجيبة حتى لا يخلو مفرز إبرة فيه من رسم أو نقش أو رمز بالخط المُسند لا يُعَلِّم ما هو، فسبحان من أباد أمة اقتدرت على عظام الأمور، لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

ثم تمادى بنا السير من هذه البلدة الى دندرة وهي مدينة عتيقة يقال إنها من بناء قفطريم بن مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام وفيها برّبا عظيمة من آثار الفراعنة يُخَفُّ بها نخل كثير،^(٤) وقد تحققت فيما رأيت بها وبغيرها من آثار القبط صحة ما نقلته الأخبار عن قدمائهم من بلوغهم الغاية القصوى من الحضارة في زمن كان به ظلام وجاهلية للناس، حتى إن الذين كانوا يطلبون العلم من اليونان أنفسهم لم تستكمل آدابهم إلاّ باقتباس الحكمة عنهم واستخراج الفلسفة من كتبهم، وكذلك قوم موسى (عليه السلام) لم تكن لهم معرفة بالعلوم إلاّ بعد مُقامهم في مصر ومحاضرتهم أهل العلم من رجالها. فتجد أنّ للقبط في فلسفة التاريخ نكتة شغلت عقول الحكماء من كل عصر وأمة، حتى ذهب أفلاطون في بعض كتبه إلى أنه يلزم أن يكون أتي عليهم عشرة آلاف سنة حتى تمكنوا من بلوغ الغاية التي بلغوها من الأدب والصناعة ودلت عليها الآثار الباقية عنهم إلى هذا اليوم

(١) القرمانى ٦: ٦٠ (٢) ابن بطوطه ١: ١٠٤ (٣) القزوينى ٩٤ وابن جبير

(٤) المقرئى ١: ٢٣٣

وإن كان قد غاب عنا معرفة كثير من سيرهم وأسرارهم فلا نؤم
نوجههم عليهم من قبيل التقصير أو الإهمال لأنهم لم يغفلوا عما وجب عليهم
نحونا من تأدية علمهم إلينا ، بل اجتهدوا بأن يستبقوه على الأيام صلة
دائمة فيما بيننا وبينهم إذ حفظوه لنا فيما هو أصبر الأشياء على الزمان «الحجر»
ليأمنوا اتصاله بنا وافادتنا به الغرض الذي شغلهم قبلنا من الحكمة والنوص
على أسرار الطبيعة . وانما أفسد هذه الصلة علينا العفاء من سنه الغلب في
الناس ، إذ يتعاقبون في الأرض دولا بعد دول وأجيالا تها بموت أجيال .
وتحتاج لحفظ نوعها أن تبعد الجيل الذي كان من قبلها وتُسبل على آثاره
سِر المَحْو والعفاء ، وهذا هو السبب الذي قطع الآخرين عن الأولين ،
وعمى علينا قراءة رموز لهم إن تبد لنا غوامضها فقدنا علما واسما من
حكمتهم ، ونبا صادقا من سيرهم وأعمالهم . فكم رأيت لهؤلاء القبط من
صور على الحجارة مودعة هذا العلم تنظر إلينا بعيون قد غابت تحت غبار
القدم . وتبتسم بشفاه تكاد تنطق لو لم يصمتها الوجم . كأنى بها تنتظر أن
نخاطبها بلسان تعرفه وإشارة تفهمها من رموز أهلها لتبيع لنا بما استودعوها
من هذه الأسرار الثمينة .

على أن أكثر ما وجدت في آثارهم من الصور (غير الأوثان التي كانوا
يعبدونها والحيوان الذي دخل في ملتهم بطريق التكريم إلى أن صار له
تعظيم يشبه أن يكون عبادة والعباد بالله من جاهلية الناس) إنما هو رسوم
هيئات مختلفة للملك وسوقة منهم تمثلهم في معاشهم وأعمالهم وفروض
دينهم وصنائعهم وسائر أشياءهم ، وليس بينها صور تمثل أناسا غيرهم من
الأمم مثلما نرى في آثار الفرس الذين صوروا اليهود والنبط والكنعانيين

والقبط والروم والهنود وغيرهم . فيظهر أنه لم تكن لهم خلطة مع الأنهم ، ولا اتسعت لهم الفتوح في دولتهم اتساعها للفرس والروم من بعدهم . وكأنهم خلدوا إلى السكون والدعة بما كثر لديهم من الخيرات وأغنام مصرهم عما سواه من الأمصار . وهذا مما يخالف طبائع العرب الذين يطمحون بأبصارهم إلى بلدان الخصب ليتوسعوا فيما لا تشره باديتهم الجدباء من نعمة العمران .

عُود إلى الحديث عن الرحلة . ثم ركبنا من دندرة إلى قوص من البر الشرقي ، وهي من أعظم مدائن مصر ،^(١) فيها قبائل من عرب عدن وغيرهم ،^(٢) وليس بمصر أرض يسكنها العرب إلا قوص وأسوان وجهات بلبيس ،^(٣) وربما كانوا في أسوان أكثر منهم في بادية قوص ، إذ كان يمازجهم فيها قبائل من قریش وقحطان ونزار بن معد من ربيعة ومضر ،^(٤) وليس هذا أول عهد العرب بمصر ، فقد أنبأت الأخبار السالفة^(٥) أنهم غزوها في عهود الفراعنة الأولين واستقروا بها زمناً فيما لا كفاء له من عز الدولة ونفوذ السلطان . وقوص هذه المدينة فرضة التجار اليمنيين والمصريين والحبشيين ، وفيها جبال وحجارة يجرى فيها النيل من غير أن يكون ثمة سبيل لجريان السفن عليه ،^(٦) (وهي المعروفة بالجنادل والصخور) فتنتقل بضاعات المسلمين إلى مراكب الحبشة وتنقل بضاعات

(١) المقریزی ١ : ٢٣٦ وابن بطوطة ١ : ١٠ (٢) تقويم البلدان ١١١

(٣) المقریزی ١ : ٨٠ (٤) المسعودی ١ : ١٩١ (٥) المسعودی

(٦) المسعودی ١ : ٤٧ وابن حبير ٦١

الحبشة إلى مراكب المسلمين فوقع فيها العمران من هذا القليل باجتماع
التجار فيها وتوارد الحجاج إليها في ذهابهم وإيابهم على مراكب النيل ،
ولما انفصلنا عن قوص ابتدأت صحراء عيذاب بالامتداد وهى مفازة
قاحلة لا عمارة فيها البتة ، فكنا نبيت فيها حيث جَنَّ الليل علينا ^(١) ثم
نُقَوِّز إلى ورود الماء من آبار أو مناهل لانكاد نترك فيها جرعة ماء بعد
سِقَاية دوابنا ، وكنت إذا أصابنا رَقْدَةٌ من حرٍ أجلس فى هَوْدَج على ظهور
الجمال وأرعى عليه الأستار محركا للهواء فيهن على احتمال عنتها الشديد .
إلا أن صحى من لدن السلطان كان يبرِّح بهم العطش ويُجهد دوابهم فى
الأيام الآتية ، لأن السموم كانت تنشف المياه فى الأسقية ، فكانوا
يحتالون لذلك بأن يستصحبوا أبرة فارغة من الأحمال ويُعطشوها قبل
الورود ثم يوردوها على الماء نهلا وعلا حتى تمتلئ أجوافها ثم يشدوا أفواهها
كيلا تجترق بقی فيها الرطوبة فاذا نشفت الأسقية نحروا بضعة أبرة من
هذه الجمال وسقوا خيلنا مما فى بطونها ، ^(٢) وفى هذا من المشقة ما لم ينزل
بنا أشد منه فى جميع ما طرقناه من البلاد ، ولم نزل فى مكابدة عنائه الشديد
وقد أضر بنا الحر وأخذ منا مأخذة حتى سهل الله وصولنا بالسلامة إلى
عيذاب ، والحمد لله على جميل ما أولاه . حمداً يبلغ رضاه . ويستفيض
النعمة من علياه .

وهذه المدينة هى آخر بلاد مصر ، ^(٣) وعاملها مفوض من لدن الليث
ابن الفضل الأيوبرى ، وهى موسعة بأسباب الكسب من الحجاج إلا

(١) ابن جبير ٦٣ (٢) القزوينى ١٢ (٣) ابن جبير وابن بطوطة

أن مبانيها أشبه بيوت القرى منها بيوت المدن ،^(١) وكل ما فيها محبوب إليها حتى الماء ،^(٢) وليس لأهلها حرفة للعيش إلاّ تعمير سفن للحجاج يسمونها الجُلُبات واحدها جُلبة وهي ملفقة الانشاء ، ولا يستعملون فيها المسامير وإنما يخطون الخشب بالليف ، ويضعون خلالها دُسرًا من عيدان النخل ثم يطلونها بالشحوم والنورة ،^(٣) فتستمر عرضة للخطر وآفة للحجاج البيت ، يفرق الكثير منهم بسببها في بحر فرعون ذى الأهوال الموصوفة^(٤) ولما أخذت فيها نصيبًا من الراحة ركبت البحر ثلاثة أيام إلى جدّة ، وهي قرية كبيرة تجتمع فيها مراكب الحجاج ، وفيها آثار كثيرة تدل على قدم اختطاطها وتنطق بأنها دخلت في ولاية الفرس . وفيها قبة مشيدة يقال إن موضعها كان منزلاً لحواء (عليها السلام) ومسجد بناه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وجامع بناه الرشيد منذ ثلاث سنين ،^(٥) وهي أحفل بناية في المدينة ، فكثت فيها بقية النهار ثم ركبت عنها تحت الليل إلى القرين وهو محط رحال الحجاج (اسرعا في موافاة الرشيد بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل السلام وأزكى التحية) إذ كنت علمت بركوبه إليها من مكة في صباح اليوم الذى وصلت فيه إلى جدّة ، فبلغته في جوف الليل ثم سرّيت منه إلى مكة المكرمة مهوى الأفتدة الصالحة ، فقضيت الواجب من زيارة المشاعر المباركة وابتهلت إلى الله تعالى في موضع استجابة الدعاء^(٦)

(١) تقويم البلدان ١٢١ (٢) المقرئى ٢٠٣ : ١ (٣) ابن جبير ٦٨ والمسعودى ٧٨ : ١ (٤) المقرئى ٢٠٣ : ١ وابن جبير ٧١ (٥) أى سنة ١٨٣ للهجرة وقد ذكره ابن جبير ٧٣ (٦) ابن بطوطه ١ : ٣٠٠ وابن جبير ٨٠

من البيت العتيق ، والحمد لله عز وجل على أن شرفنا بالوفادة على هذا البيت
الكريم

في ذكر المشاعر المباركة

أما مكة شرفها الله فانها بطن واد^(١) بين الجبال تسع من الخلق مالا
يعلمه إلا الله سبحانه ،^(٢) لأن الحجاج الوافدين اليها قد يزيدون على مئتي
ألف في الموسم ، إذ كان الحج مفروضا على المسلم المستطيع في العمر مرة
لقوله تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » ،^(٣)
فلوقد رنا عدد الرجال ثلاثين ألف ألف ، وقد رنا العمر بأربعين سنة لاقتضى
أن يكون نصيبها منهم في كل سنة أكثر مما ذكرنا ، فما بالك بمن يحج
أكثر من مرة في عمره ، ويقال في اجتماع الناس اليها من جميع الأطراف
إنه لو جمع ما يباع ويشترى بها من السلع والمآكل والبضائع في ثمانية
أيام وقت الموسم لأقام الأسواق^(٤) في العراق كله ونال كل واحد من أهله
نصيبه من حاجته .

ولها كرمها الله تعالى ثلاثة أبواب ، أولها باب المعلى^(٥) وهو إلى
الشرق الشمالى ، ومنه يذهب الذهاب إلى الحجون وهو جبل بأعلى مكة
له ذكر في الأشعار وفيه صلب الحجاج بن يوسف جثة عبد الله بن الزبير
لما غلبه على الخلافة التي كان يناصب عليها الأمويين . ثم باب المسفل وهو

(١) ابن بطوطة ١ : ٣٠٣ وتقويم البلدان ٨٧ (٢) ابن جبير ١٠٨

(٣) سورة آل عمران (٤) ابن جبير ١١٩ (٥) ابن بطوطة ١ : ٣٠٤ وابن

خلكان ١ : ٣٩٨

إلى الجنوب ومنه دخل خالد بن الوليد يوم الفتح ، ثم بابُ العمرة وهو إلى الغرب على طريق الشام وأمامه جبالُ مكة قد مثّلت بلا ارتفاع وكأنها أهوت تواضعا لبيت الله ، أشهرُها جبل حراء وهو الذي اهتز حين كان فوقه النبي (صلى الله عليه وسلم) ومعه أبو بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما فقال له « أثبت حراءُ فما عليك إلا نبيّ وصدّيق وشهيد »^(١) وكان (صلى الله عليه وسلم) يختلف إليه ويتعبد فيه ، وعليه نزلت أول آية من القرآن الكريم وهي قوله تعالى اقرأ باسم ربك الذي خلق^(٢) وكفى هذه البلدة شرفاً أن بناها آدم (عليه السلام)^(٣) وهبط إليها جبريل الملك الكريم ونزل فيها الوحي على النبيين وخصنها الله بالمشاهد المباركة والمواضع التي هي معدن الطهارة ومظهر نور الملائكة مما ليس مثله في جميع العالم . فما تبرّكت بزيارته من مواضعها الميمونة محل مولد النبي (صلى الله عليه وسلم) وقبة الوحي^(٤) التي فيها بنى النبي (صلى الله عليه وسلم) بمخديجة أم المؤمنين (رضى الله عنها) والموضع الذي كان يقعد فيه سيد ولد آدم محمد (صلى الله عليه وسلم) ، تبرّكت بلمسه وتقبيله ، وزرت دار أبي بكر ودار جعفر بن أبي طالب ذى الجناحين ودار الخيزران التي قدّمت لك ذكرها في الرسائل السالفة ، وهي على باب زقاق الخيزران بمقرّبة من القصر المعروف بمنزل الأبحر ،^(٥) وكنت أحب أن أزور المشاهد المباركة التي في الجبال والغار الذي أوى إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) المسمى بغار

(١) ابن جبير ١١٢ (٢) المسعودي ١ : ٣٠٧ وأبو الفداء ١ : ١١٧

(٣) وربما لم يحده ابن خلدون خبراً صحيحاً كما في المقدمة ٣٠٦ (٤) ابن جبير

والأزرق (٥) الأغاني ٣ : ١١٦

ثور^(١) الوارد ذكره في القرآن ، ولكن لم يتيسر لي ذلك لقصر الوقت كما لم يتيسر لي مزار بعض المواضع الميمونة التي هي في نفس البلدة .
وأما البيت الحرام فقد بناه إبراهيم (عليه السلام) حزين الملائكة لقوله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل^(٢)) ، وقد أخذ الناس في تعظيمه والحج إليه من الجاهلية والفرس والعماليق والتبابعة وغيرهم ممن دنا ونأى ، ثم صارت الولاية عليه بعد ولد إسماعيل إلى جرهم وكانت سدة البيت ومفاتيحه معهم ، وإلى ذلك يشير مضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمي بقوله^(٣) .

وكنا ولاية البيت من بعد ثابت نطوف بذاك البيت والأمر ظاهر
كأن لم يكن بين الجحون إلى الصفا أنيس^(٤) ولم يسر بمكة سامر
ثم صارت ولايته إلى خزاعة ثم إلى قريش بعدهم وكانت صورة إبراهيم وإسماعيل ماثلة^(٥) فيه لأيامهم فأحسنوا ولايته وجددوا بناءه كما أشار إلى ذلك زهير بن أبي سلمى في قوله :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
ثم صارت ولايته بعد الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) إلى عبد الله

(١) ابن جبير والانس الجليل (٢) المقدمة ٣٠٦ والمسعودي :
(٣) الأغاني ١٣ : ١٠٨ و ابو الفداء ١ : ١٢٠ وابن جبير ١٠٩ والعقد الفريد ٣ :
٢٧ وفي مروج الذهب ١ : ٢٠٣ انه ثابت بن إسماعيل ولعل في إحدى الروايتين أو
تنتيهما تحريبا وفي هذه القصيدة بيت آخر مشهور وهو قوله
فألت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالاياب المسافر
وفي العقد الفريد ١ : ١٣٩ أن راشد بن عبد الله أنشد هذا البيت وكان في زمن
النبي صلى الله عليه وسلم . (٤) المسعودي ١ : ٣٠٥

ابن الزبير (رضي الله عنهما) فترع عن كُسوته المسوحَ والأنطاع وكساه
الديباج الملوّن واتخذ له المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب ، وكان يطيبه
حتى يوجد ريح المسك من خارج الحرم ، ^(١) فلما رماه يزيد بن معاوية
بالمَنجنيق بعث إلى صنّعاء في الفضة والكِلْس فحملهما ، ثم شرع في البناء على
أساس الخليل إبراهيم عليه السلام ، فما كاد يستكمل بناءه حتى وفد الحجاج
نقلته بعد يزيد وحاصره بالزحف والترايب ، وأحرق مكة وزماها بالمَنجنيق
حتى تصدعت جدران الكعبة نسأل الله السلامة من شرور الأنفس
وسيئات الأعمال ، فكتب إليه عبد الملك بن مروان أن يعيد بناءها على
الصفة التي بنتها عليها قريش ^(٢) في أيام النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل
النبوة ، ^(٣) فبناها على ذلك الرسم وهي باقية عليه إلى أيامنا .

وهذا البيت المكرّم مبني بالحجارة الصماء السوداء مفروش بالرُخام
المجزّع ، وفيه مُعدنضة من الساج ، وسقفه مُغشّى بالحرير الملوّن ، وهو
قريب من الترييع ، ونصفه الأعلى من الفضة المذهّبة ^(٤) وله أركان أربعة
أولها الركن الشرقي الذي فيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطواف ، ولا
يُدري قدر ما استتر من الحجر في الركن ، ^(٥) وسعته الظاهرة ثلثا شبر
وطوله شبر واحد ، وقد وضعه النبي صلى الله عليه وسلم بيده ^(٦) على ما هو
معروف عند الكل ، ثم الركن العراقيّ وهو شماليّ . ثم الركن الشاميّ وهو
غربيّ . ثم الركن اليمانيّ وهو جنوبيّ . وارتفاع هذه الأركان ثمان وعشرون

(١) الابشيهي ١ : ١٥ (٢) المقدمة ٣٠٧ (٣) ابو الفداء ١ : ٢٠٨

(٤) ابن جبير ٨١ (٥) ابن بطوطة ١ : ٣١٣ (٦) المسعودي ١ : ٢٠٥

أما الـ ركن الشرقى فانه يزيد عليها ذراعاً في الارتفاع^(١) لا نصباب
السطح إلى الميزاب،^(٢) وطول الكعبة سبع وعشرون ذراعاً،^(٣) وبابها
في الصفح الذي بين الركن العراقى والركن الشرقى على أحد عشر شهراً
من الأرض، وهو من الساج الملبس بالفضة والذهب المنقوش،^(٤) وطوله
ست أذرع وزيادة، وعرضه أربع أذرع وهو قريب من الحجر الاسود
ويسمى ما بينهما الملتزم وهو موضع استجابة الدعاء يتزاحم الناس فيه
عند طوافهم بالبيت بحيث لا يخلو منهم ساعة من نهار أو ليل، وقد
أخبرنى أمير مكة أنه لا يوجد من يخبر أنه رآه خلوّاً من طائف به أو
مصل، وأخبرنى وهو غاية ما يكون من احترام الدين وشعائره المقدسة
أنّ في مكة من الصالحين من لم يدخل الكعبة تعظيماً لها،^(٥) إذ كانت
أول بيت وُضع للناس فيه آياتٌ بيناتٌ «مقام إبراهيم» ومن دخله
كان آمناً.

وفي الركن العراقى المذكور باب يسمى باب الرحمة ينتهى بالراقى عليه
إلى سطح البيت، وتحت قبوته فيه حجر مغطى بالفضة^(٦) تبركتُ بزيارته
ولسه وهو مقام إبراهيم الخليل (عليه السلام) وتحت الميزاب المذهب
في صحن الحجر قبر إسماعيل (عليه السلام) وموضع رُخامة بل رُخامتان
خضراوان فيهما نُكَّتْ يَمِيل لونهما إلى الاصفرار^(٧) حتى يُخَيَّل للناظر أن
ذلك تجزيع بأيدي الصناع، وإلى جانبه مما يلي الركن العراقى قبر هاجر

(١) ابن بطوطه ١: ٣٠٧ (٢) ابن جبير ٨٠ (٣) الكنز ١٢١
(٤) العقد الفريد ٣: ٣٥٩ (٥) القزوينى ٧٧ (٦) الماوردى ٢٧٨
(٧) ابن جبير ٨٦

أم اسماعيل عليه السلام وموضعه رُمخامة خضراء أيضاً ، وفي مقابلة ركن الحجر الأسود الميمون قبة بَرزَمَزَم ، ^(١) وهي البئر التي شرب منها الخليل عليه السلام ^(٢) وداخلها مفروش بالرخام ، وعمقتها فيما يقال إحدى عشرة قامة ، أربع فضاء وسبع ماء ، وماؤها لمن شربه كما ورد عنه «طعام طعم» وشفاء مُسقم .

أما الحرم فانه يُحمدق بالبيت العتيق من جميع جهاته وهو قائم على مُهد من الرخام ، ^(٣) وله صوامع سبع ، أكبرها في دار الندوة ^(٤) وأصغرها على باب الصفا ، وهو أكبر أبواب الحرم ، ثم بعده باب السلام وباب السدرة وباب الندوة ^(٥) ، وشاهدت في بعض مقاصير الحرم الشريف مصحفاً بخط زيد بن ثابت الأنصاري ^(٦) ، نسخته بأمر عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ثمان عشرة للهجرة كما تقدم بيان ذلك ، ولا أدري في أي موضع كان قبل أن يوضع هناك ، لأنه لم يكن للحرم في تلك الأيام جدار ، وإنما كان موضعه دوراً ^(٧) لم تتم زيادتها فيه إلا في خلافة الوليد بن عبد الملك ، كما أنه لم يتم بناؤه على ما هو عليه اليوم إلا في خلافة المهدي (رحمه الله) ، وهو الذي زينته بالرسوم ، ^(٨) وكتب اسمه في مواضع كثيرة منه تبركا بالخير الذي صنع . ومما كتُب على سارية منه خارج باب الصفاء (أمر عبد الله

(١) تقويم البلدان ٨٧ والشريشي ٢ : ١١٤ (٢) في العقد الفريد ٣ : ٣٦٠
أن سقفها قبر مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل ركن منها عمودان
من رخام متلاصقان (٣) في العقد الفريد ٣ : ٣٥٨ أن بين كل عمودين
نحو عشر أذرع (٤) ذكرها الاتليدي ٧٦ (٥) ابن جبير ٨٩ والكنز ١٠٣
(٦) الكندي وابن جبير ١٠٢ (٧) المقدمة ١٠٨ (٨) ابن الاثير
والخليس ٢ : ٣٣٠ وابن جبير ١٠٧

محمد المهدي (أصلحه الله) بتوسعة المسجد الحرام مما يلي باب الصفا لتكون الكعبة في وسط المسجد في سنة سبع وستين ومائة «

موافاة الرشيد بالمدينة

وكان انفصالي عن مكة المكرمة لسبع بقين من ذى الحجة . ومررت في طريقى إلى المدينة المنورة بمنازل أعراب لم يتغربوا بالأسفار . ولا سبق لهم عهد بحضارة الأمصار . فوجدتهم ^(١) يقولون بالقيافة والزجر والعناء والبومة التى تأخذ بثأر المقتول وغير ذلك مما كان يقول به أهل الجاهلية ، وبلغنى أن بجوارهم أعرابا لم يدخلوا في دين الاسلام لا يختلفون عنهم إلا بتعظيم عيسى (عليه السلام) وينطقون بالجيم كافا مخففة فينادون الرجل يار كل ، ^(٢) فوصلت من مكة إلى بطن مر ^(٣) وهو واد خصيب ذو عين فوارة ، ثم عطفت منه الى عسفان وهى مدينة تحف بها الجبال وفيها كثير من شجر المقل وآبار منسوبة إلى عثمان بن عفان ^(٤) (رضى الله عنه) ، ثم ركبنا الى الخليص وهو موضع فى بسط من الأرض وفيه خيام لقيلتين كبيرتين من العرب يقال لهما كنانة وخزاعة وهم متقاربون فى المنزل وينبهم نسب لم ترم فيه العصا ، ^(٥) ثم امتد بنا السير من خليص الى بدر وهى قرية كثيرة الخيرات كانت بازاء موضع من مواضعها يقال له القليب وقعة النبى (صلى الله عليه وسلم) المباركة التى أعز الله تعالى بها الدين وقهر

(١) راجع مروج الذهب والأغانى وتزيين الاسواق (٢) الأغانى ٩: ١٣٩

(٣) تقويم البلدان ٩٤ وابن جبير ١٨٥ (٤) ابن جبير ١٨٦ والأزرقى

(٥) تزيين الاسواق ١١٤

المشركين ، ^(١) ثم اتجهت إلى الصفراء في صدر النهار ، وهي تبعد عن بدر
بريدا ثم إلى الروحاء وهي موضع بئر يقال في الحكاية إن عليا عليه السلام
قاتل فيها الجان ، ^(٢) ثم رحت أفوز في الهضاب والبطاح حتى أقبلت على
المدينة المنورة حرسها الله وزادها شرفا بمنه وكرمه .

وبعد أن تبركت بزيارة المسجد المكرم وفضلت في الروضة التي بين
القبر المقدس والمنبر الذي كان موطن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ،
ركبت إلى قصر الامارة حيث حلّت ركاب الرشيد ، فأصبته في مجلس يشبه
أن يكون من مجالس قصر له في بغداد يقال له قصر الفرجة ، وهو مزخرف
بالصدف ^(٣) الأبيض وفيه كتابة بالصدف الأحمر والأخضر كأنها لعين
الناظر يا قوت وزبرجد ، ^(٤) فلما وقفت بين يديه بادرنى بالسؤال عن أمر
الرسالة وما كلمني به الأنبر ذور ، فأخبرته بما توسم في غايتها من الخير وما
وجدت في البلاد من عدل العمال ودعائهم له في مساجد مصر والقرب ،
وذكرت له من كلام القيصر ما اقتضته جلالة الخلافة ، فشكرني على حسن
القيام بهذه المهمة ولكن من غير أن يظهر إلى ذلك الصفاء الذي كان
يشرفني به من قبل . ولما أذن لي بالانصراف ذهبت إلى موضع البرامكة
فوجدت في نفوسهم ما وجدت في نفس الرشيد ، ليس من تجافهم إلى
عن المصافاة بل من إدمان فكرتهم في أمر ظننت أنه وقع بينهم وبينه في
المشاعر المباركة بحيلة المدلسين . التي تصادف محلا في قلوب العباسيين .

هذا ختام رسالتي إليك عن رسالتي إلى القيصر وأحب قبل أن أفارق

(١) ابن الأثير وأبو الفداء وابن جبير ١٨٩ والقزويني ٥١

(٢) ابن جبير ١٩١ (٣) المقدمة ٣٥٧ (٤) ابن خلكان ١: ٣٨٣

هذه المواطن المقدسة أن أذكر لك شيئاً عن المدينة المنورة تبركا بذكره فأقول . إني وجدت المسجد المكرم قائماً على أعمدة من الحجارة اللامعة، وسقفه من الساج المزيّن بالرسوم،^(١) وجدرانه منزلة بفصوص من الفسيفساء^(٢) تمثل أشجاراً وثماراً وأزهاراً بأبداع ما يكون من الصناعة، وهي من عمل الروم والقبط^(٣) فيما رسم لهم عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك،^(٤) ووجدت الروضة التي تجاور القبر المقدس مؤزرة إلى ثلثها برُخام بديع النحت غريب النعت، وأعلىها مضمخ بالمسك والطيب،^(٥) ورأيت القبر المقدس مبنياً برُخام يقال إنه من عمل وُردان^(٦)، وعلى رأسه صندوق من الآبنوس مختم بالصندل مصفح بالفضة طوله خمسة أشبار في ارتفاع أربعة وعرض ثلاثة . وإلى طرف القبر مما يلي أقدام النبي صلى الله عليه وسلم رأس أبي بكر، أما عمر بن الخطاب فدفون عند رجل أبي بكر رضى الله عنهما، وعليهما قناديل من فضة وذهب،^(٧) وبين الركن الجوفي والركن الغربي من المسجد موضع عليه سائر مُسَبَّل يقال إنه مهبط جبريل^(٨) عليه السلام .

أما المدينة المنورة فانها بمكان من العظم والاتساع وتدل تسميتها بِيَثْرِبَ بن وائل من ولد سام^(٩) بن نوح مع ما هو فيها من الآثار العتيقة

(١) ابن جبير والسيوطي (٢) العقد الفريد ٣ : ٣٦٢ (٣) القزويني

٧١ (٤) ابن الاثير ٥ : ٤ وأبو الفداء ١ : ٢٠٩ وابن بطوطة ١ : ٢٧١

(٥) ابن جبير ١٩٣ (٦) الأغاني ١٧ : ٨٤ (٧) ابن جبير وابن بطوطة

١ : ٣٦٤ وتقويم البلدان ٨٧ (٨) ابن جبير ١٩٣ (٩) الاتفاق في تفسير القرآن

على قديم اختطاطها وعلو شأنها بين مدن الحجاز . ولها أربعة أبواب أعظمها باب الحديد وهو من الحديد ،^(١) ثم باب البقيع حيث الآثار المذكورة والمشاهد المباركة الميمونة ،^(٢) وغيرها قصور لا يوجد فيما نقله السفر الخبر . ماهو أعظم منها في ديار العرب ، وأعظمها قصر للمقداد بن الأسود في الموضع المعروف بالجرف ،^(٣) وهو مجصص الظاهر والباطن ،^(٤) وقصر لعثمان بن عفان مشيد بالحجر والكلس ، وأبوابه من الساج والعرعر^(٥) وفيها مشاهد كثير من الصحابة والتابعين والأنصار وأهل البيت الكريم (شرفهم الله تعالى)^(٦) وقد زرت منها قبر السلالة الطاهرة إبراهيم ابن النبي (صلى الله عليه وسلم) وقبور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده ومشاهد أولاد علي (عليه السلام) وفي موضع هذه القبور رُخامة مكتوب عليها^(٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الحمد لله مبيد الأمم . ونحيي الرمم . هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين . وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومحمد بن علي وجعفر بن محمد رضي الله عنهم أجمعين » . فيالها من قبور ما أشرفها وأكرمها . وإلى مقربة من المدينة المنورة موضع يقال له قباء^(٨) وفيه كان مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وموضعه المسجد المبارك الذي أسس على

(١) ابن جبير ٢٠٠ (٢) ابن بطوطة ٢٦٨ : ١ (٣) المسعودي ١ : ٣٣٣

(٤) المقدمة ١٧٨ (٥) المسعودي ١ : ٣٣٥ (٦) ابن جبير ١٩٧ و ١٩٩

والمسعودي ٢ : ١٨٢ (٧) ابن جبير ١٩٨ (٨) ياقوت وتقيم اللدان

التقوى والرضوان ، ^(١) وفي صحَّحه شَيْبَةُ مُحَرَّابٌ عَلَى مِصْطَبَةٍ يَقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَوْضِعِ رُكْعٍ فِيهِ ^(٢) النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَفِي قِبْلَتِهِ بَثْرٌ مَعْرُوفَةٌ يَبْثُرُ أَرِيْسٌ يَقَالُ إِنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) تَقَلَّ فِيهَا فَعَادَ مَاؤُهَا عَذْبًا صَافِيًّا بَعْدَ أَنْ كَانَ آجِنًا أَجَاجًا ، وَفِيهَا سَقَطَ خَاتَمُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ يَدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) . هَذَا بَعْضُ الْخَبَرِ عَنِ الْمَشَاعِرِ الْمُبَارَكَةِ وَالْمَوَاطِنِ الْمُقَدَّسَةِ وَالْقَلِيلُ دَلِيلٌ عَلَى الْكَثِيرِ . وَقَدْ خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى تِلْكَ الْبِقَاعَ الْمُبَارَكَةَ مِنَ الشَّرَفِ وَالتَّكْرِيمِ بِمَا لَمْ يَخْصُ بِهِ غَيْرَهَا مِنَ الْبِلَادِ . وَهُوَ مَالِكُ الْمَلِكِ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ .

الرَّشِيدُ وَالْبِرَامِكَةُ فِي مَكَّةَ

هَذَا ذِيلٌ لِلرَّسَالَةِ أَكْتَبَهُ إِلَيْكَ مِنْ ظَاهِرِ الْحَيَرَةِ وَأَنَا مُنْفَصِلٌ عَنِ الْبِرَامِكَةِ فِي كِتَابِ أَحْمَدَ إِلَى الرَّقَّةِ مِنْ لَدُنِ الرَّشِيدِ لِأَعْلَمَكَ مَا يَنْبَغُ وَيَنْهَمُ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ . كَانَ انْفِصَالُنَا عَنِ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ فِي غَدِ الْيَوْمِ الَّذِي كُتِبَتْ فِيهِ هَذِهِ الرِّسَالَةُ ، وَعَلِمْتُ فِيمَا تَقَلَّ إِلَى أَبِي زَنْجٍ الْهَمْدَانِيِّ صَاحِبِ جَعْفَرٍ ^(٣) (أَيْدَهُ اللَّهُ) أَنَّ الرَّشِيدَ انْمَا تَحُولُ عَنِ الْبِرَامِكَةِ خَوْفًا مِنْ مِيلِ النَّاسِ إِلَيْهِمْ بِمَا أُغْدِقُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الْجُودِ وَالْكَرَمِ ، فَانْه كَانَ إِذَا جَلَسَ فِي مَكَّةَ لِلْعَطَاءِ جَلَسَ مَعَهُ يَحْيَى فَأَعْطَى مِثْلَ عَطَائِهِ ، وَإِذَا جَلَسَ الْأَمِينُ جَلَسَ مَعَهُ الْفَضْلُ فَأَعْطَى مِثْلَ عَطَائِهِ ، وَإِذَا جَلَسَ الْمَأْمُونُ جَلَسَ مَعَهُ جَعْفَرُ فَأَعْطَى مِثْلَ عَطَائِهِ ، ثُمَّ اسْتَرْسَلُوا هُمْ وَأَوْلَادُهُمْ مِنْ بَعْدُ فِي سَعَةِ

(١) أَبُو الْفَدَاءِ ١ : ١٣٢ (٢) ابْنُ جَبْرِ ١٩٩ (٣) الْأَغَانِي ١٧ : ٣٣

الهبّات حتى ذهبت أعطياتهم مثلاً بين الناس فانصرفوا عن مديح الخليفة إلى صوغ الشعر في مدحهم بالكرم ، وكانوا يقولون والله هذا عام الأعطيات ^(١) وينشدون .

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت يحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خلقت إلا لجودٍ أكفهم وأقدامهم إلا لأعواد منبر
فأحدث ذلك في نفس الرشيد غيظاً من تمام النعمة عليهم ، وانطلق
المجال لأخصامهم من آل الربيع فيما كانوا يرتقبون من فرصة تهويل أمرهم
على الرشيد فخوفوه استقواءهم بالمال والرجال واستعانوا برقعة رفعوها إليه
وزعموا أنها تدور بين الناس وفيها هذه الآيات ^(٢) .

قل لأمين الله في أرضه ومن إليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا مثلك ما ينكا حد
أمرك مردود إلى أمره وأمره ليس له رد
وقد بنى الدار التي ما بنى السفرس لها مثلاً ولا الهند
الذر والياقوت حصباؤها وتربها العنبر والند
ونحن نخشى أنه وارث ملكك إن غيبك اللحد

فأدخلوا عليه الخوف منهم على سلطانه . فاستدعى من كان بمكة من
بنى هاشم ، وبعث إلى المدينة يستقدم أهل الحل والعقد ، وجدّد البيعة
بمحضرهم للأُمون بعد الأمين ، وكتبها من بعدهما لمحمد القاسم ولقبه بالمؤمن
فصير ولاية العهد إلى ثلاثة من أولاده يتعاقبون فيها كما قالت الشعراء في
مدحهم له ^(٣) .

(١) الفخرى (٢) ابن خلكان ١: ١٥٢ (٣) السيوطى

أبو أمين ومأمون ومؤمن أكرم به والديا برًا وما ولدا
ثم إنه ولي المأمون خراسان وهمدان إلى آخر المشرق، وأحضر
القضاة والشهود وأشهدهم أن جميع ما في عسكره من الأموال والخزائن
والسلاح والكراع وغير ذلك للمأمون وليس له فيه شيء،^(١) وضم إلى
القاسم الجزيرة والثغور والعواصم، وفرق في الناس نحو ألف ألف دينار^(٢)
ليظهر اقتداره على العطاء الكثير ويحط من قدر البرامكة وما وقع في
نفوس الناس من انفرادهم بسعة العطاء دون غيرهم من خليفة أو سلطان.
وهو يظن أنه يفعل هذا أمنًا لمكروه من ناحيتهم وردًا لمكيدة خافها من
وراء ما كانوا يعارضونه من قبل في قسمة الملك بين المأمون والمؤمن، مع
أنهم إذا لم تجر لهم موافقة على هذه القسمة فلم يكن ذلك إلا حبا فيه ومنعًا
لوقوع الشقاق بين أولاده.

وكان مع ما في قلبه من الموجدية يصانهم ويظهر استرسال نفسه
إليهم حتى لا يفظنوا إلى ما يريد بهم من المكروه، فاذا جلسوا إليه أظهر
الرضا عنهم وأقبل بالمعطف عليهم ليوهمهم أن الأمر على غاية الصفاء. فكان
يغرمهم ذلك منه إلا جعفرًا (حفظه الله)، لأنه كان أعلم الناس بما في نفسه
من حب الأثرة حتى إذا أهداه مسروقًا غلامه^(٣) قال لي والله إن في إهدائه
إليّ هذا الغلام لحيلة لم يخف على أمرها. فانه يومنا برضاه حتى لا نظن
به سوءًا فيما داخله من الحسد، وقد أخبرني جبريل بن بختيشوع أن
الرشيد إنما تحول عنهم بمحل الفضل بن الربيع الذي كان يذكر له ما على

(١) ابن الأثير ٦: ٦٨ (٢) ابن الأثير ٦: ٦٢

(٣) الأغاني ٣: ١٤٠ والاتليدي ١٦٨

بابهم من الجيوش والأعوان ، ويخوفه استقواءهم في فارس وخراسان
وتعميرهم خطط الدولة بمن يعرفون فيه حباً لأهل البيت ، ويشكهم لديه
باحتياز مال الجباية^(١) وتصرفهم في الأمور بما يشاءون ، والملوك لا تصبر
على مثل ذلك فأوغر صدره خوفاً منهم بعد أن ملأ قلبه عداوة لهم^(٢).

هذاما اتصل بي في مكة من أمر الرشيد بالبرامكة ،^(٣) وقد تحول
عنهم لأمرين لا أرى له مندوحة في أحدهما . فأما استفحال ملكهم في
الاسلام وتزلف الملوك إليهم بالهدايا الفاخرة والأموال الطائلة فانه غير مضر
بالرشيد وله بهم سند للدولة وفخر في الملة الا أن يكون ضعيف البصيرة
فاتراهمة ، وقد مضى لهم من تعظيم شأنه وتقويم سلطانه ما يشهد بأن
سيفهم خادم لنصره . وأما وفور المال تحت أيديهم وانبساط الجاه لديهم
وكثرة الضياع عندهم فذلك لهم بعد أن تولوا المراتب خمسين سنة في
الوزارة والولاية وقيادة الجيوش ، وليس فيه في من أموال المسلمين كما
يزعم الواشون بهم إلى السلطان ، فكان أولى بالرشيد وأكرم لنفسه أن
يذكر بلوغه المجد والصولة بهم لا أن يدب فيه الطمع ويمد عينه إلى ما
أدخروا لولدهم بعد أن دبّروا دولته هذا التدير العظيم .

ولما اجتمعت بالبرامكة بعد ذلك وخلوت بجعفر النفس الزكية هله -
مقدار النفرة التي وقعت بينه وبين الرشيد . فقال لي جعفر انظر كيف أنه
يركب هذا المركب الوعر . ما كفاه أننا أقمنا ملكه ومهدنا أمره حتى
يحسدنا على ما آتانا الله من النعمة ، فوالله لئن لم يرجع عن غيّه ليكونن

(١) المقدمة ١٤ (٢) ابن الأثير ٦ : ٦٢ (٣) في الأغاني ٥ : ١١٣

ان الناس كانوا يتحدثون بتحول الرشيد عن البرامكة قبل نكبتهم بأيام

ذلك وبالأ سريعاً عليه^(١) فقلت يا سيدى ليس للرشيد عنكم مرغب ولا أظنه يحرم دولته عنايتكم ، فقال تمهل على نفسك ، إن لنا فارس وخراسان ، فان يجاهرنا بالعدوان يقيم في وجهه من يغالبه على السلطان . فلما رأيت ما بنفس جعفر من التأثير أخذت في تهدئة خاطره ، وقد كنت أعرفه سريع الرجوع عن غضبه ، فلم يهدأ ثأثر صدره ، وانما أدمن الفكرة فيما يشغله من القلق ، وأمرنى بالأ أفارق بابه في ذلك الوقت .

وكان الفضل بن الربيع لا يفتر عن السعاية به إلى الرشيد ساعة من ليل أو نهار ويخوفه منه التحمل في مؤامرة جارية بينه وبين الفرس ، فكان الرشيد يحتال باستبقاء جعفر عنده والميل إليه بتصنع العطف ليوهمه زوال ما بنفسه من الموجدة ، وكان جلوسى إليه في ذلك الوقت قد أقلقه كل القلق ، فرأى أن يفصلنى عن البرامكة بوجه لا يرد على الملوك بأن يوجهنى إلى الرقة في كتاب من لدنه إلى عاملها ، وهو يقول لى إن بنا من جميل الاعتقاد بك ما نرتاح فيه إلى أنفاذك برسائلنا ، فكن عند رجائنا فيك ، فأدركت الحيلة من ذلك الأمر ، ولكن أشار إلى البرامكة ألا أخالف أمره حتى نطمع في حسن النجاح ونحصل من المراد بما تم عليه العزم من إثارة خراسان والمناداة بخلافة أهل البيت .

فانفصلت عن البرامكة بالجيرة في اليوم الذى نزل الرشيد فيه السفن إلى العمر الذى بناه الأنبار^(٢) وكان الرشيد قد غلب عليه الخوف في ذلك الوقت حتى كان ذا تناول الطعام يخشى أن يكون فيه سم^(٣) فاستبقى

(١) الاتليدى (٢) ابن خلكان ١٥١ : ١ (٣) المسعودى ٢ : ٢١١

الأطباء على مائدته ممن كان مخالفاً للبرامكة إلا جبريل بن محتشوع^(١)، وقد طوى عنه سرّاً ما عزم عليه من إقصائهم عن المراتب إلا كلمة حسد قالها له حين رأى إقبال الملوك على بابهم^(٢)، وأنا اليوم أسير حيثما حتى لا يفوتني الرجوع إلى بغداد قبل وصول جعفر بموكب الحجاج.

الرسالة المباشرة

«أصبت بسادة كانوا عيوناً بهم تُسقى إذا انقطع الغمام»
أكتب هذه الرسالة إليك والدمع جارٍ في الآفاق ليس على البرامكة وهم أحياء في الناس، ولكن على الدنيا التي ذهب خيرها وعفت بليتها رسوم محاسنها، حتى كأنها طلّت من هذه الاطلال التي يهجرها الأنس ولا يقف عندها إلا الباكون النادبون.

كنت قبل الوصول إلى الرقة قد وافاني من قبل البرامكة رسول يستقدمني إليهم ويعلمني أن الكتاب الذي أحمله إلى عاملها يأمره فيه الرشيد بأن يستبقيني عنده ويمنعني من الرجوع إلى الحضرة لما داخله في من الريبة، ففضضت الكتاب فوجدت فيه تلك الإشارة، فأصابني من الانقباض ما يصيب الرجل المستسلم للحين، لأنني ما كنت أراني ناجياً من وقوع الغدر بي ووصول المكروه إلى. ووقفت أتساءل فيما قام بنفس الرشيد من سوء المظنة بي بعد أن أدت رسالته حقها من الاخلاص،

(١) ذكر ابن خلدون في المقدمة ١٦ أنه كان ينظر في طعام الرشيد

(٢) الاتليدي والفخري

وخدمته خدمة الناصح الأمين ، فلم أجد في نفسي علةً إلا المودة التي بيني وبين البرامكة ؛ ^(١) فأتاني أن أنضم إليهم ، فقامت لساعتي وتبدلت بزيتي زي الحجاز الجاف ثم ركبت إلى بغداد متنكراً كيلا يعرفني أحد من الناس .

فلما وصلتها وجدت في أهلها ذلك الخول الذي يقع في الجماعة من هول عظيم ، فاستدلت بذلك على وقوع الأمر بينهم وبين الرشيد ، فأسرعت إلى منازلهم فوجدتها مغلقة وعلى أبوابها حرس الخليفة قد وقفوا بالسيوف ، فاسودت الدنيا في عيني وامتلا قلبي من الوحشة وكدت أفقد إحساس رجلي من الجهد ، إلا أنه لم يكن لي وأنا طلبة الخليفة أن أطيل الوقوف تلقاء دورهم ، فرجعت أمشي على غير دراية لعل أصادف صديقاً أتوجع إليه وأستطلع أخبارهم من قبله ، حتى وصلت إلى دار إسحق النديم ^(٢) فدخلت الدار وحسرت اللثام عن وجهي ، فلما عرفني ترققت عيناه دموعاً ، وقال بم أندب البرامكة ؟ أعزيك أم أعزي نفسي أم أعزي الأيام بفقدكم ؟ وبكى حتى حنقته العبرة ، وكنت في ذلك الوقت لا أعى من شدة الهول ، ولم يكن إسحق يكلمني عن أمرهم مع الرشيد إلا كلاماً متقطعاً ممزوجاً بالزفرات ...

قد علمت مما مضى إليك في الرسالة السالفة موقف البرامكة مع الرشيد ، هو يحاول الإيقاع بهم حسداً على ما ضار إليهم من النعمة ، وهم

(١) ذكره الأغاني ١ : ٢٥ و ٢ : ١٢٣ وقبض الرشيد على صنائع البرامكة ومن هو مشهور بمخالطتهم مذكور في كتب التاريخ (٢) في الأغاني ٥ أن إسحق بن ميالا مع البرامكة بعد مقتل جعفر

يسلُكون معه مسلَكَ المودة ليرجع عما قام بنفسه من الحقد وإلاّ أثاروا
الجراسانيين خروجاً عليه في دعوة أهل البيت . وعلمت أنّ الفضل بن
الربيع كان موقناً بزوال النعمة عنه مع بقاء البزامة ، وأنه كان يخوّف الرشيد
مؤامرتهم مع الفرس ويذكر له أن الخلافة في موقف بعيدٍ عن التخلص
من دَهائهم ، إذ كانت الملوك طوعَ أمرهم وأموالُ الدولة كلّها بأيديهم ،
حتى ملأ صدره من غداوتهم . ثم علمت أنّ الرشيد كان قد أهداهم مسروقاً
غلامه ليوهبهم رضاه ، ولكنك تعلم أنه كان بينه وبين هذا الغلام مواطاةً
على نقل أحاديثهم إليه وعدّ أنفاسهم عليهم ومراقبتهم في جميع حركاتهم
خديعةً منه ، حتى إذا نقل إليه الكلام الذي كان يحدثني به جعفر في المشاعر
المباركة عمد إلى هدر دمه الزكيّ ، ووجهني إلى الرقّة مثلَ المجرمين الذين
في نفوسهم تبعّة من شرٍّ نعوذ بالله من سُخطِهِ .

وقد حدثني إسحق أنّ الرشيد كان قبل اليوم الذي نكبهم فيه قد
ركب إلى أرباض المدينة ومعه إسماعيل بن يحيى الهاشميّ وجماعة من أقاربه ،
وبينما هو يسير إذ نظر إلى موكبٍ عظيم قد اعترضه عن بعد ، فقال لإسماعيل
يا إسماعيل لمن هذا الموكب ؟ قال لأخيك جعفر ، فالتفت يميناً وشمالاً وإلى
من معه فاذا هم شِرْذِمَةٌ قليلون ، ثم نظروا إلى الموكب الذي فيه جعفر فلم
يره ، فقال يا إسماعيل ما فعل جعفر وموكبه ؟ فقال يا سِنْدِي قد مضى
أخوك في طريقه ولم يعلم بموضعك ، فقال مارآنا أهلاً لأن يزينا بموكبه
ويجملنا بجيشه ، فقال عفواً يا أمير المؤمنين إنه لو علم بموضعك ما تعدّاك
ولا سار إلاّ بين يديك . ثم سار حتى انتهى إلى ضيعة عامرة ومواش كثيرة
وعِمارة حسنة ، فقال يا إسماعيل لمن هذه الضيعة ؟ فقال لأخيك جعفر ،

فسكت الرشيد وتنفّس في كمد ثم سار وما زال يمر بشياع بعضها أعمر من
بعض وكلما مرّ بشيعة سأل إسماعيل عنها فيقول هي جعفر ولأخوته ، حتى
وصل إلى الحضرة ، فلما خلا مجلسه قال يا إسماعيل انظر إلى البرامكة أغنيانهم
وأفقرنا أولادنا وأهل بيتنا ، فاني لا أعرف لأحد من أولادنا ضيعة من
ضياع البرامكة ^(١) على طريق واحد بقرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم
من غير ذلك على غير هذه الطريق في جميع البلدان ؟ فقال إسماعيل يا أمير
المؤمنين انما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات وأموالهم وجميع ما يملكون
هولك ، فنظر اليه نظرة جنّار وقال والله يا إسماعيل ما عدّ البرامكة بني
هاشم إلا عبيدهم ، وإن الدولة لهم ، ولا نعمة لبني العباس إلا وهم
المنعمون بها عليهم ، فقال أمير المؤمنين أبصر من غيره بخدمة ومواليه ،
فقال والله يا إسماعيل إنك لتعلم أني قلت هذا وكأني بك تخبرهم به فتخذ
به يداً عندهم ، وإني آمرك أن تكتم هذا الأمر فانه لم يعلم به أحد غيرك ،
ومتى بلغهم شيء مما جرى بيني وبينك علمت أنه ما أفشاء إلا أنت ، فقال
يا أمير المؤمنين أعوذ بالله أن مثلي يُفشي سرّك ، ثم ودعه وجاءه من الغد وهو
في محل من قصره يُشرف على درجّة وبازائه منازل البرامكة التي كانت
محفوظة باليمن والبركة ، فقال يا إسماعيل هذا ما كنا فيه بالأمس ، انظر كم
على باب جعفر من الجيوش والغلمان والقواد والمواكب وليس على باب
داري أحد ، فقال يا أمير المؤمنين ناشدتك الله ألا يعلّق بنفسك شيء من
هذا ، فانما جعفر خادمك ووزيرك وصاحب جيوشك ، وبابه باب من
أبوابك فاذا لم يكن الجند على بابه فعلى باب من يكون ؟ فقال والله إن

(١) الديمري : ١٥٤ والعقد الفريد ٣٠٣

البرامكة قد ملكوا الدولة واحتجفوا أموال الجباية وانصرفوا عن خدمتي
الى محبة العلويين وتعزيز شيعتهم ، وأنا لا أصبر على ذلك ^(١) .

وكان جعفر في ذلك الوقت قد عزم على الركوب الى خراسان ^(٢) وهو
عالم بما أضمر الرشيد له ولأهل بيته من سوء ، فما أحب أن يتركهم بغير
حراسة ، وانما أبقى في يد الفضل رجلاً يعرف فيهم الأمانة ليقبضهم مكيدة
الرشيد حتى اذا قدم الحرمين في دعوة أهل البيت وجد في العراق من
يستعين به على العباسيين . غير أن الرشيد قد فطن لما كان يبشره من تعبئة
الجند فأيقن بالاشراف على الخطر ، إلا أن يتمحل في أمر يغلبه به قبل
ركوبه الى خراسان ، فأرسل إلى بني هاشم تحت الليل أن يضموا إليهم
جماعاتهم ، وأمر الفضل بن الربيع أن يحوِّط دور الخلافة بما بين يديه من
الحرس والغلمان وأرسل إلى يزيد بن مزيد الشيباني ^(٣) أنه إذا ركب جعفر
من الفد إلى دور الخلافة يبعث بمن يحوِّط البرامكة ويقبض عليهم ^(٤) ،
واستبقى الأمر سرّاً لم يستخدم في قضائه إلا جماعة من أقاربه ^(٥) دون الغلمان
الذين كان يغمّرهم جودهم وكرمهم ، ثم أرسل في تلك الليلة إلى جعفر من يقول
له إنه يمكنه من بيوت المال أن يتناول منها ما يشاء ، ويأخذ من الجند الى خراسان
من ينتخبه ويريده ، وأن أمانته فوق كل أمانة وأمثال هذه المصانعة ، حتى
لا يفطنوا لما أخذ في تديره من اغتيالهم . وكان جعفر يعلم بما في تمحل الرشيد
من المصانعة والرياء ولكنه ظن أنه يريد استمالتهم ورجوعهم إلى الثقة به

(١) أبو الفداء ٢ : ١٧ (٢) ذكر الاتليدي أن جعفراً كان عازماً على

الركوب الى خراسان في ذلك الوقت (٣) وقد تقدم أنه كان منحرفاً عن البرامكة

(٤) ابن الأثير وأبو الفداء والعقد الفريد (٥) ابن خلكان ١ : ١٥٢

لا أنه يريد نكبتهم في صباح تلك الليلة .

ولما أصبح الرشيد استدعى خادمه مسروراً^(١) وقال له قد انتخبتك
لأمر لم أر له محمداً ولا عبداً لله ولا القاسم^(٢) فحقق ظني فيك واحذر أن
تخائف قهلتك ، فقال مسرور لك على إمرة مظاعة ، فبرني بقتل نفسي ،
أفعل ، فقال له امضي الساعة إلى الحديقة وحوظها بالحرس وضم إلى جماعة
من الغلمان ثم اذهب إلى جعفر وحنني به وقل له إنه وردت كتب من
خراسان ، فإذا دخل الباب فلا تدع من معه يدخل بعده ، فإذا تمكنت منه
فخذ رأسه ولا تراجعني في ذلك ، وإياك إياك أنت يفوتك الأمر . فسار
مسرور إلى جعفر فأصابه في داره قد طرح نفسه ليستريح ، فقال له
يا سيدي أمير المؤمنين يدعوك لرسائل وردت الساعة في خريطة البريد من
خراسان . فلبس جعفر ثيابه وتقلد سيفه ثم ركب في جماعة من الحرس
والجند ، لأنه لم يكن بمأمن من غدر العباسيين به ، فلما دخل الباب طلع
عليه من في الحديقة من الحرس وحاولوا رد غلمانه وهم غير مأمورين
بالقتال ، فانفرد به مسرور وبضعة عشر رجلاً دخلوا معه الباب فجرد عليه
السيف وصاح بمن معه من العبيد فأهدروا دمه . وإني لست أنسب الشر
إلى مسرور هذا الخادم اللئيم ، فما هو إلا ذئب من استرطاه وهو الرشيد ،
ومن استرعى الذئب فقد ظلم ، ومع ذلك إني لا أبرئته من تبعه ذلك
الأثم الفظيع ، ولا أرى بينه وبين شديد العقاب إلا الموت الذي يساق
بعده إلى دار العذاب .

(١) الاتليدي والأغانى ١١ : ٥٤ وابن خلكان ١ : ١٥٢ وابن الأثير ٦ : ٦٣ .

(٢) قوله محمد وعبده الله والقاسم يريد بهم الامين والمأمون والمؤمنين أولاده .

هذا ما بلغني من إسحق ثم سمعت في أحاديث الناس أن جعفرًا لما صار في وسط الحديقة ولم ير معه الجند ارتاع وندم على ركوبه في تلك الساعة ، فقال لمسرور يا أخى ما القضية ، فقال ياسيدى إن أمير المؤمنين قد أمرنى بقتلك ، فيقولون إن جعفرًا بكى حينئذ وجعل يقبل مسروراً ويقول له أنت تعلم إكرامى لك دون خدَم الرشيد وأن حاجاتك عندى مقضية في جميع الأوقات ، وأنت تعرف مكانتى عند الرشيد وما يوجه إلى من الأسرار ، ولعل أن يكونوا بلغوه عنى باطلا ، وهذه ألف ألف دينار ، وفي رواية عشرة آلاف ألف دينار أدفعها إليك الساعة وخلصني أهيم على وجهى ، فقال لا سبيل إلى ذلك ، فقال احملنى إليه وقفنى بين يديه ولعله إذا وقع نظره على تدركه الرحمة فيصفح عنى ، فقال وهذا أيضاً لا سبيل إليه ،^(١) ولا يمكننى مراجعته ، فقال توقف عنى ساعة وامض إليه وقل له إنك فرغت مما أمرك به واسمع ما يقول ثم عد وافعل ما تريد ، وإني أشهد الله وملائكته على أنى أشاطرك نعمتى وأوليك من الأمور جسيماً إن فعلت ذلك وسأمت إلى نفسى ، ولم يزل به وهو يبكى فيما يقولون طمعاً في الحياة حتى قال له ربما يكون ذلك ، ثم إنه وكَّل به غلماناً من السودان يحفظونه ومضى إلى الرشيد وهو جالس يقطر غضباً ، فلما رآه قال له تكلمتك أمك ما ذا فعلت ؟ فقال يا أمير المؤمنين قد أنفذت أمرك ، قال فأين رأسه ؟ قال في قبة الحديقة ، فقال فأتنى بها الساعة ،^(٢) فرجع مسرور وجعفر يصلى وقد ركع ركعة فلم يمهله أن يصلى الثانية بل سل سيفه وضرب عنقه وأخذ رأسه وطرحه بين يدى الرشيد يشخب دماً ، فيقولون إن الرشيد تنفس الصعداء وبكى بكاء

(١) الأغاني ١١ : ٥٤ والالتىدى ١٣٧ (٢) ابن الاثير ٦ : ٣٦٠

شديداً ، وجعل يقول كالمعاتب يا جعفر ألم أحللك محل نفسي ؟ يا جعفر ما كافأتني ولا عرفت حقى ولا حفظت عهدى ولا ذكرت نعمتى ولا فكرت فى صلاح أمرى ، يا جعفر قد غررتك نفسك فدار عليك الدهر ، وكان يقول هذا وهو يقبرع أسنانه بالقضيب بعد الكلمة والكلمة ، وكان ذلك بين سلخ المحرم^(١) وأول صفر^(٢) .

وقوع التوانى فى الدولة بعد نكبة البرامكة

ولما اتصلت بى هذه الأخبار الفاجعة انهملت عيناى بالدموع لقتل جعفر النفس الزكية بقضاء لا حيلة بعده إلا اللوعة والندم . فكنت مثل الرجل الذى يرى فى منامه هو لا ينزل به وهو لا يدرك سره . ولا يجد لنفسه مردأ يتقى به شره . وإن كان يسوءنى من الرشيد احتياله فى مصانعة البرامكة^(٣) قبل ركوب جعفر الى خراسان ليذهلوا عن تدير ما يتقون به مكايده ظناً بزوال باعنده من الموجدة ، مع أنه كان يضر قتلهم^(٤) (والعياذ بالله من شرور النيات) . فإني ليسوءنى أكثر من ذلك تتبعه النعمة فيمن أخذه منهم (كشف الله الغمة عن قلوبهم) فقد بلغنى عن يحيى والفضل (واحرقتاه) جهد شديد يقاسيانه فى الحبوس ، فانهما ليطلبان الماء الفاتر للوضوء فلا يحصلان عليه ، ويشتهيان الطعام تأتيهما به الحراس فلا يجدان من يطبخه لهما فيتوليان طبخه بأنفسهما ويقومان على القدر^(٥) مع جلالة

(١) ابن خلكان ٢ : ١٥٢ (٢) أبو المحاسن ١ : ٥٢٦ (٣) فى الأغاني

١١ : ٥٤ وغيره أن الرشيد كان يصانع البرامكة (٤) فى العقد ٣ : ٣١ انه كان

يريد قتلهم (٥) الا تليدى ١٧٨

قدرهما فيارحمنا لهؤلاء الملوك الذين أخذتم الرشيد خدراً^(١) تنماه عليه. الأبا
ويسأل عنه في يوم القيام . وإني لأحسب جعفرًا مع ما أصابه من الأ
الفضيع أكبر حظًا من أيه واخوته ، إذ قدم على ربّه شهيداً في دعوة أهن
البيت ولم يصير إلى هذا الهوان^(٢) الذي صاروا إليه وهم الذين عرقهم
عظماء الملة . والرؤساء من أهل التّجيلة . والذين آتوا الرشيد بحكمتهم منعة لم
يكن مثلها لدولة من دول الاسلام .

ولقد كنت أحب أن أتوصل إلى موضع البرامكة أو استنبط حيلة
لا تقاذهم مما يعانون من الشدة ، غير أنني رأيت الأمر لا يتم على الوجه الذي
أرومه إلا بالقوة التي تغالب الحرس . ولما كانت جماعتنا في بغداد
فئة قليلة من الرجال وأكثرهم داخل في جيش الخليفة وتحت إمرة
العباسيين أيقنت أن مجاهرة الرشيد بالمعدوان قبل العودة إلى فارس ليست
من الرأي الصواب ، ولم يكن إحجامي عن ذلك خوفاً على نفسي من القتل
لأن النفوس لا يعظم بذلها في سبيل البرامكة ، ولكن رحمة بهم من جور
الرشيد الذي يضيق عليهم بقدر ما يرى من ميل الناس الى الوصول اليهم
أو الثأر بدمهم ، فقد بلغني أنه لما قام عثمان بن نهيك ليثأر بجعفر؟ وهو يقول
والسيف صلت في يده . ياضل ما تجرى به العصا ، واجعفر اه . واسيداه .
والله لأقتلن قاتلك ولأثأرن بدمك^(٣) عزم الرشيد بعد قتل عثمان هذا المبرز
سيفه الكريمة نفسه على التضيق عليهم وتقريقهم في الحبوس المنقطعة

(١) الفخرى (٢) ذكر هوان البرامكة في محبسهم ابن الاثير وابن عبد ربه
والابشهي والاتلدي وأبو الفرج وغيرهم (٣) ابن الاثير ٦ : ٦٦

وقبض ضياعهم عن أهل يثهم^(١) حتى يقتلهم بالشدة التي هي أمر من القتل
وقد مضى على اليوم في بغداد وأنا متقطع النفس سبعة وأربعون
يوماً لم آل فيها جهداً للوصول إليهم فلم أحصل على ذلك مع وفور ما بذلته
من المال، وكنت أحب أن ألقى أحداً من خدامهم وحجابتهم فلم أظفر
بواحد منهم في بغداد، وكأني بهم قد تصدّعوا في الآفاق^(٢) في جملة من
هرب من غلمانهم وجواريهم ومغنياتهم^(٣) ومن هو معروف بمخالطتهم من
العلماء والشعراء والندماء وأهل الأدب، غير أنني رأيت فيمن بقي من
الطامعين فيهم دموعاً يسترونها عن العيون، وما وجدت منهم الا منقبض
النفس ومن يذيه الأسف عليهم حتى كأنهم صدع واحد في لوم الرشيد
على قتلهم^(٤) فما أذكر أنني نزلت مرة الى السوق الا نظرت رقاع الأشعار
معلقة على الحيطان رثاء لجعفر وندياً للدنيا لما لحق أهله من النكبة
الفضيحة. ومما بقي في ذهني من هذه الأشعار قول بعضهم وأظنه الرقاشي
أو أبا نواس^(٥)

وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي	الآن استرحنا واستراحت ركابنا
وطي الفيا في فدفاً بعد فدفاً	فقل للمطايا قد أمنت من السرى
ولن تظفري من بعده بمسود	وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر
وقل للرزايا كل يوم تجددى	وقل للمطايا بعد فضل تعطلى

(١) أبو الفداء ٢: ٨ والأغانى ٨: ٧٩ والاتليدى ١٧٤ وابن الأثير ٦: ٣٦

(٢) الاتليدى ١٧٤ (٣) الأغانى ٣: ١٨٣ (٤) أبو المحاسن ١: ٥٢٧

والفخرى وابن الأثير ٦: ٧ والعقد الفريد والاتليدى (٥) ابن الأثير ٦: ٦٤

وأبو الفداء ٢: ١٨ والمسعودى ٢: ٢٧٩

ودونك سيفاً برمكياً مهنّداً أصيب بسيف هاشمى مهنّداً

وقولهم^(١)

يامنزلاً لعب الزمان بأهله فأبادهم بفرق لا يجمع

إن الذين عهدتهم فيما مضى كان الزمان بهم يضرّ وينفع

أصبحت تُفزع من رآك وطالما كنا إليك من المخاوف تفرع

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقي الذين حياهم لا تنفع

وقرأت رقعة مكتوباً عليها هذه الأيات وأظنها من نظم أنس بن

أبي شيخ النصرى^(٢) صاحب جعفر برّد الله مضجعه وسقى ضريحه صيّب

الرحمة والرضوان

لعمرك ما في الموت عار على الفتى إذا لم تُصبه في الحياة المعابر

ومن كان مما يُحدث الدهرُ جازعاً فلا بدّ يوماً أن يرى وهو صابر

فلا يُبعدنك الله عن جعفرأ بروحي ولو دارت على الدوائر

فأليت لا أنفك أبكيك مادعت على فنّ ورقاء أو طار طائر^(٣)

وقال عليّ بن أبي معاذ^(٤)

يا أيها المغترّ بالدهر والدهر ذو صرف وذو غدر

لا تأمن الدهر وصولاته وكن من الدهر على حذر

إن كنت ذا جهل بتصرفه فانظر إلى المصلوب بالجسر

وخذ من الدنيا صفا عيشها واجر مع الدهر كما يجري

(١) الاتليدي ١٨٠ (٢) ذكره صاحب الأغاني ١٧: ٣٣ وقال صاحب

العقد الفريد أن الرشيد قتله بعد نكبة البرامكة ١٨٨: ١ (٣) الأغاني ١٥: ٣٦

(٤) المسعودي ٢: ٢٢٩

كان وزير القائم المرتضى وذا الحجا والفضل والذكر
وكانت الدنيا بأقطارها إليه في البر وفي البحر
يُسَيِّدُ الملك بآرائه وكان فيه نافذ الأمر
فبينما جعفر في ملكه عشية الجمعة بالقصر
يطير في الدنيا بأجناحه يأمل طول الخلد والعمر
إذ عثر الدهر به عثرة يا ويلنا من عثرة الدهر
فغودر البائس في ليلة السب سبت قتيلا مطلع الفجر
وجيء بالشيخ وأولاده يحيي معاً في الغل والأسر
والبرمكيين وأتباعهم من كان في الآفاق والمصر
كأنما كانوا على موعد كموعد الناس إلى الحشر
وأصبحوا للناس أخطوثة سبحانه ذي السلطان والأمر

وقال سلم الخاسر

خوت أنجم الجدوى وشئت يد النوى وغاضت بحار الجود بعد البرامك
هوت أنجم كانت لأبناء برمك بها يعرف الهادي طويل المناسك
وقال أشجع السامي

ولّى عن الدنيا بنو برمك فلو توالى الناس ما زادوا
كأنما أيامهم كلها وهى لأهل الأرض أعياد

وقال فيهم أيضاً

قد ساد دهر بني برمك ولم يدع فيهم لنا لقيا
كانوا أولى الخير وهم أهله فارتفع الخير عن الدنيا

وقال فيهم صالح الأعرابي

لقد خان هذا الدهرُ أبناءَ برمك وأى ملوك لم تخنها دهورها
ألم يك يحيى وإلى الأرض كلها فأضحى كمن وارتته منها قبورها
وقال واحد من بيت البرامكة فى رثائهم وقيل بل هو سليمان الأعمى
أخو مسلم بن الوليد

أصبتُ بسادة كانوا عيوناً . بهم نُسقَى إذا انقطع الغمام
فقلت وفى الفؤاد ضريم نار . وللغبرات من عني انسجام
على اللذات والدنيا جميعاً . ودولة آل برمك السلام
جزعت عليك يا فضل بن يحيى . ومن يجزع عليك فلا يلام
هوت بك أنجم المعروف فينا . وعزّ بفقدك القوم اللثام
وما أبصرت قبلك يا ابن يحيى . حُساماً قده السيف الحسام
إلى أن يقول

ألهو بعدكم وأقرّ عيناً . على اللهو بعدكم حرام
وكيف يطيب لى عيش وفضل . أسير دونه البلد الشبّام
وجعفرُ ثاوياً بالجسر أبلت . محاسنه السمائم والقتام
أمرٌ به فيغلبنى بكائى . ولكنّ البكاء له اكتتام
أقول وقت متحبباً لديه . الى أن كاد يفضحنى القيام
أما والله لولا خوفُ واش . وعين للخليفة لاتنام
لطفنا حول قبرك واستلمنا . كما للناس بالحجر استلام^(١)

فكان الرشيد يخاف من كثرة البكاء عليهم وقوع الفتن فى الدولة
فلذلك منع الشعراء من رثائهم^(٢) وجعل عقاب من يُقدم على ذلك القتل^(٣)

(١) الأغاني ١٥ : ٣٦ (٢) الفخرى والنواجى والآلیدی (٣) الاسجاقى ٩٨

وأمر الحراس أن ينزعوا الرقاع التي علقت في الأسواق لئلا يشور ثائر الشعب من الشعب،^(١) ولكنه لم يبلغ من ذلك الغاية التي كان يرومها من محو ذكرهم^(٢) وطمس معالمهم بعد أن زينوا الخلافة بحاسنهم خمسين سنة وانطبعت في قلوب الناس محبتهم^(٣) بما صنعوا من المعروف وبذلت أيديهم من العطاء . ثم إن خوفه من غوائل هذا الأمر لا يقف عندما كان يراه من وقوع الفتن في الدولة فربما وصل إليه أن فارس قد قامت فيها القيامة ، وأن خراسان^(٤) قد عصفت فيها ريح الفتنة ، والمغرب قد تضعف حكمه في يدا بن الأغلب ، والروم قد جاشوا في بلدهم وامتنعوا عن تأدية الجزية لهم باختلال الدولة بعد نكبة البرامكة وضعف آل الربيع الذين تولوا الوزارة بعدهم ، ولا أرى لهم بها استمناحا طويلا كما يشير أبو نواس الى ذلك بقوله^(٥)

ما رعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع
ان دهرًا لم يرع عهدًا ليحيي . غير زاع زمام آل الربيع^(٦)
حتى اذا اتصل بهم خبر الروم والتوائهم عن الخراج لم ينبهم العزم ولا
الحزم على ابلاغ الرشيد بأنفسهم^(٧) بل اتخذوا طريقة البلاغ على السنة
الندماء ، وفي ذلك يقول الشاعر استخفافا بالأمر ، وهذا بعيد عن سياسات

(١) أعلام الناس ١٧٤ (٢) ابن الأثير ٦ : ٧٥ والعقيد الفريد ٣ : ٢٦
وابن خلكان (٣) الأتليدي وابن الأثير والفخرى وأبو الفداء (٤) الأتليدي ١٧٤
(٥) كان أبو نواس منحرفا عن الفضل بن الربيع وفيه يقول .

أيها الزاكب المجد الى الفضل ترفق فدون فضل حجاب
ونعم فبك قد وصلت الى الفضل فهل في يدك الا التراب

(٦) المحاضرة ٢ : ١١٤ (٧) الأغاني ١٧ : ٤٦

الدول^(١)

نقض الذي أعطاكه تقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه غنم أتك به الأله كثير
فتأمل (رعاك الله) هذه الدولة التي كانت زينة الدنيا في أيام البرامكة^(٢)
كيف صارت الى رجال لا رأى عندهم ولا عزيمة ، فان يبلغك عن وهنها
خبر فيما بعد فاعلم أن صدور هذا الفتور ناشىء عن فتور الصدور . وهذه
الجنود التي تراها في قبضة الرشيد لا تنفع دولته ما لم يكن عنده عقل يدير
به سياسته ، فكم رأينا من دولة كانت في العالم عظيمة فأعمى ساستها الجهل
فأنحطت لفقدان الحكمة . ودولة كان أمرها في توان فتولاها رجال كبراء
أصلحوا ما فيها من الاختلال ، وصعدوا بها من العزة المقام الذي لا ينال .
وتأمل الدولة الأموية كيف قامت بمعاوية بطل السياسة والتدبير اذ ضم
الاسلام الى مصلحة واحدة من طرف المشرق الى أقصى المغرب ،^(٣) ثم
أقام دولته على هذا الأساس المتين ، ثم تأمل ما صنع الحجاج بن يوسف
وكيف أصلح ما فسد من العراق وأزال ما وقع بين أهله من الشقاق حتى
جعل الجزيرة والحرمين أقرب الى طاعة الأمويين من الشام ومصر ثم انظر
الى الدولة العباسية كيف قامت على أثر تلك الدولة بتدبير أبي مسلم (رحمه
الله) وكيف عجز أبو جعفر بعد مقتله عن رد الفرس والأكراد الى سياسة
خالد البرمكي اني ضمن له الكفاية عليهم بالرأى^(٤) دون الجنود . وانظر

(١) السيوطي وابن خلدون وابن الأثير ٦ : ٦٦ والأغانى ١٧ : ٤٥ والمسعودي

١ : ١٥٨ (٢) الاتليدي (٣) نذكر هنا أنه ما توطد للاسلام ملك في أفريقية

الا في خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤) ابن خلكان ١ : ١٤٩

الى دولة الرشيد كيف زهت في وزارة البرامكة بما لم تزه به دولة ^(١) المهادي، ووزراؤه أغفال من آل الربيع . فهذه دول لم تزه بقوة الجند كما يسبق الى وهم الناس ، لأنه لم يكن لأبي مسلم من الرجال ما كان للملوك بني أمية ولم يكن للرشيد ما كان للمهادي قبله . وانما كان المعزز لها رجالاً يرسلون من عقولهم على الناس أشعة كأشعة الشمس بها يستنيرون . وفي ضوئها يسرون، ولا سيما هؤلاء البرامكة الأجداد الذين حرم الرشيد دولته مساهمتهم له فيها وتديرشئونها ، واستأعلم ما يكون من أمره مع صهب السبيل ^(٢) ولقد قام به اليوم من الندم والأسف ^(٣) على جعفر والتلف على ما سبق به القضاء ما يشغله عن الدنيا قاطبة ، فقد أخبرني من هو مقرب اليه أنه يذكره لكل طلوع شمس . ويبكى عليه بتحرق نفس . ولا يستطيع الخلوة بنفسه على انفراد بعد مصرعه الا أن يكون عنده جماعة يلهو بمسامرتهم عما فرط منه في أمره ، ^(٤) واذا خلا مجلسه أمر الحجاب أن يدخلوا عليه من يحدونه من الندباء ^(٥) ليستأنس بهم ويتسلى بمناذمتهم عما هو فيه من البلاء وقد رأى خلل السياسة في دولته وكثرة الأراجيف .

فيما يتحدث به الناس من أسباب نكبة الرشيد للبرامكة

ولما كان الحديث عن هذه النكبة الفظيعة دائراً على ألسنة الناس اختلفت آراؤهم فيما دعا الرشيد اليها ، وان كانت خواطرهم متوافقة في لومه

(١) الزمخشري في ربيع الابرار (٢) هي لقب للزوم (٣) الأغاني ١٧ : ٧٤ (٤) العقد الفريد ٣ : ٢٨ (٥) ابن خلكان ١ : ٣٢ وذكر غيره أن الرشيد كثيراً ما كان يوجه خادمه في طلب بعض خواص الدولة ومن يكون عندهم حينما يطلبهم

والبكاء على جعفر. فمن قائل إنه نكبه وأهل بيته لاستبدادهم بأمر الولا واحتجافهم أموال الجباية، حتى لقد كان يطلب الدسير من المال فيما يزعمون فلا يصل إليه، ومن قائل إنه حنق على جعفر لتطاوله عليه في الكلام اذ كان يقول لى لئن لم يرجع الرشيد عن سوء ظنه بهم ليكونن ذلك وبالا سريعاً عليه، ^(١) ومن قائل انه تنغص من الفضل أن يكون أكرم مر أولاده، ومن جعفر أن يكون أفصح منهم لساناً وأحكم سياسة، وهر محمد أن يفضلهم في المروءة، ومن موسى أن يغلبهم في الشجاعة فنكبه، لذلك.

ولست أطيل عليك الكلام في أمر هؤلاء الملوك الذين رماهم الدهر بالأرزاء وسحب عليهم أذيال الفناء. ولو أنى كتبتُ اليك غير ما ذكرت ما بقى لدى إلا البكاء والنحيب، على أنى أحب أن أختم رسالتى اليك عنهم بذكر مأثرة من بعض ما صنعوا الى الورى من الجميل. وهى أن الرشيد ^(٢) مع تشديده فى النهى عن رثائهم بلغه أن رجلاً يحضر ليلاً الى دورهم وينشد أشعاراً ويذكر محاسنهم وما آثرهم ويندبهم ويبيكى عليهم ثم ينصرف، فدعا مسروراً هذا الخادم اللثيم وسارّه بالأمر وأمره بأن يمضى تحت الليل حتى يرد تلك المنازل الدارسة التى كانت مظهر الأنس بما آتى الله أهلها من سعة الملك. وأن يستتر خلف بعض الجدران هو واثنان من اخدمهم هما له وأظنهما ياسراً ومروان، ^(٣) حتى اذ جاء ذلك الشيخ وبخى وندب وأنشد الأشعار قبضوا عليه وجاءوا به إليه فأخذ مسرور الخادمين

(١) الاتلبدى ١٦٨ (٢) هذه القصة قد وقعت للمأمون لا للرشيد وإنما ذكرناها هاهنا تنبيهاً لحازن البرامكة

ومضى بهما آخر الليل إلى تلك المنازل ، فاذا هم بـغلام قد أقبل ومعه بساط
وكرسیّ حديد ، وأقبل بعده شيخ له جمال وعليه مهابة وآثار نعمة ، فجلس
على الكرسيّ وجعل يبكي وينتحب ويقول .

ولما رأيت السيف جدّال جعفرًا ونادى منادٍ للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسّنى عليهم وقلتُ الآن لا تنفع الدنيا
مع آيات أطالها ، فلما فرغ قبضوا عليه وقالوا له أجب أمير المؤمنين
ففرع فزعاً شديداً ، وقال دعوني حتى أوصي بوصية ، فاني لأوقن بعد اليوم
بحياة ، ثم تقدّم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها
وصيته وسلّمها لـغلامه ، ثم سار به مسرور إلى دار الرشيد ، فلما مثل بين
يديه زجره وقال له من أنت ؛ وبم استوجب البرامكة منك ما تفعل في
خرابات دورهم ؟ فقال يا أمير المؤمنين إنّ للبرامكة أيادي خطيرة ، أفتأذن
لي أن أحدثك بحالي معهم ؟ قال قل ، فقال يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن
المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال ، فلما
ركبني الدين واحتجتُ إلى بيع ما على رأسي ورءوس أهلي وبيتي الذي ولدت
فيه : أشاروا علي بالخروج إلى البرامكة فخرجتُ من دِمَشق ومعي نِيف
وثلاثون امرأة وصبيّاً وصبية ، وليس معنا ما يباع أو يوهب ، حتى دخلنا
بغداد ونزلنا في بعض المساجد فدعوت بثياب كنت أعددتها لأستر بها
فلبستها وخرجت وتركتهم جياعاً لا شيء عندهم ، ودخلتُ شوارع بغداد
فاذا بمسجد مزخرف وفي جانبه شيخ متزّي بأحسن زيّ وزينة ، وعلى
الباب خادمان ، وفي الجامع جماعة جاوسٍ فطمعت في القوم ، ودخلت
المسجد وجلست بين أيديهم ، وكنت أقدم رجلاً وأوخر أخرى ، والعرق

يسيل منى ، لأنها لم تكن صناعتي وإذا بخادم قد أقبل ودعا القوم ، فقاموا وقت معهم حتى دخلنا جميعاً دار يحيى بن خالد ، وإذا هو جالس على دكان في وسط بستان فيه أطيب الرياحين ، فسلمنا عليه فرد علينا السلام وهو يعدنا مائة وواحداً ، وبين يديه عشرة من ولده وإذا بعلام أمر قد عذر خداه قد أقبل من بعض المقاصير وبين يديه مائة بخادم متمنطقون في أوساطهم بمنطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ، ومع كل واحد مجمرة من الذهب ، في كل مجمرة قطعة من العود كهيئة الفهر قد قرن بها مثلها من العنبر ، فجلس الغلام بجانب يحيى ووضع تلك المجامر بين يدي الغلام ، ثم قال يحيى للقاضي زوج بنتي عائشة من ابن عمي هذا فخطب القاضي خطبة الزواج وأجرى صيغة العقد وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار من بنادق المسك والعنبر ، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ، ونظرت فإذا الحاضرون بالجلوس ما بين يحيى وأولاده والمشايخ والغلام مائة واثنى عشر رجلاً ، وإذا بمائة واثنى عشر خادماً قد أقبلوا يحمل كل واحد منهم صينية من فضة عليها ألف دينار ، فوضعوا بين يدي كل واحد منا صينية ، فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم ، ويجعلون الصواني تحت آباطهم ، ويقومون واحداً بعد واحد حتى بقيت وحدي لا أجسر على أخذ الصينية فغمزني خادم فجسرت على أخذها ، وجعلت الذهب في كمي وأخذت الصينية يسدي ، ثم قتت وجعلت ألتفت خلفي مخافة أن أمتنع من الذهاب ، فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيى يلحظني إذ قال للخادم ايتني بهذا الرجل ، فرددت إليه ، فأمرني بصب الدنانير والصينية وما في كمي ، ثم قال اجلس فجلست ، فقال لي ممن الرجل ، ولم تلتفت خلفك ؟

فقصصتُ عليه قصتي ، فقال للخادم ايتني بولدي موسى ، فأتي به ، فقال يا بني هذا رجل غريب فخذهُ إليك واحفظه بنفسك ونعمتك ، فقبض موسى عليّ وأدخلني إلى دار من دورهِ وأكرمني غايةً الأكرام وأقمتُ عنده يومى وليتى في ألد عيش وأتم سرور ، فلما أصبح دعا أخاه محمداً وقال له إن الأمير قد أمرني بالمطف على هذا الرجل وغيرُ خاف عليك اشتغالي اليوم في دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك وحوطه بنعمتك ففعل ذلك وأكرمني غاية الأكرام ، فلما كان من الغد تسلمني أخوه العباس فبت ليلى عنده بين غناء وأنوار وبهجة ثم تسلمني أخوه خالد ،^(١) ولم أزل في أيدي البرامكة يتداولوني مدة عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وأهلى أفي الأموات هم أم في الأحياء ، فلما كان اليوم الحادى عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الحشم والعلماء فقالوا لي قم فاخرج إلى عيالك بسلام ، فقلت ويلاه سلبتُ الدنانير والصينية وأخرجُ إلى عيالي على هذه الحالة ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، فرفع الستر الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع ، ولما رفع الخادم الست الأخر قال لي مهما يكن لك من حاجة فارفعها إلى فاني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به ، ثم بدت لي حجرة كالشمس بهاء وإشراقاً ، واستقبلتني منها رائحة الند والعود ونفحات المسك ، وإذا بصبيان وأهلى يتقلبون في الحرير والديباج ، وحمل إلى ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشوران بضيعتين من عمل السواد وتلك صينية التي كنت أخذتها بما معها من الدنانير وبنادق ، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أنا من البرامكة أم رجل غريب اصطنعوه ،

(١) ذكره صاحب العقد الفريد ٣ : ٢٨ من أولاد يحيى بن خالد

فلما نزلت بهم الفاجعات أجنفتني عاملك على العراق وأزمنتني في هاتين
الضيمتين ما لا يفي دَخلُهما به . ولما تجامل على الدهر كنت في آخر الليل
أقصد منازلهم فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إليّ وأشكر عطفهم عليّ .
فقال الرشيد كم أخذ منك هذا العامل ؟ قلت كذا وكذا ، قال هو مردود
عليك وستبقى أنت وعيالك من بعدك على ما كان لك في أيام البرامكة .
فعلا نحيب الرجل حتى كاد يقع من شدة بكائه ، قال له يا هذا قد أحسنّا إليك
برد ما قد سلب منك فما يُكيك ؟ فقال يا أمير المؤمنين وهذا أيضاً من
صنائع البرامكة ، إذ لو لم آت منازلهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري
بأمر المؤمنين وفعل بي ما فعل ما كنت أصل إلى أمير المؤمنين ، فدعمت
عينا الرشيد وظهر عليه الحزن ، وقال لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم
فابك ، وإياهم فاشكر ،^(١) والله درّ أبي نواس حيث يقول في وداع الدنيا التي
أوحشت لفقدهم

سلام على الدنيا إذا ما فُقدتمُ بنى برمك من رأتين وفاد^(٢)

خاتمة الكتاب

أودعت رسالتى اليوم إليك سطوراً قد كتبتها بدموع العين وأنا بين
حزن على هؤلاء الشهداء وخوف من الرشيد أن يُعلمه بموضعى الرقباء
فقطعتى ما ينالني منه عن الاستصراخ إلى دعوتهم في خراسان وفارس
وسائر بلاد الخير واليمن ، لأننى علمت من بعض المقرّين إليه أنه يطلبنى طلباً
حقيقاً ، وقد جعل لمن يأتيه بي مالا جزيلا ، وربما كان هذا الكتاب آخر

(١) الفخرى والأتلىدى ١٩٩ والأبشيى ٢٤٣ : ٢ (٢) الطواط ٦١٣

عهدى بمراسلتك بعد اليوم وإن كنت قد رأيت فيما تقدم إليك من الكتب السالفة أن العرب قد حصلوا في زماننا هذا ما لم يخلج في صدورهم زمن الخلائف ، ونبغوا النبغة التامة في جميع الفنون والصناعات والمعارف ، وتبحروا في حكمة الروم والفرس على اجتهد ، ودونوا أصول الشريعة في مذاهب صحيحة المبدأ جميلة المعاد ، فاعلموا الفضل في ذلك كله عائد إلى البرامكة ، وهم الذين رفعوا منار العلم وقربوا إليهم الأدباء وأجزلوا أعطيهم بالمال الكثير ، وكان عصرهم تاجاً^(١) على هامة الدهر ونوراً أضاء به المشرق حتى انقلب من الضعة إلى سمو الارتفاع ، ومن عمية الجهل إلى نور الاطلاع . فها هو عندي إلا الزمن الذي يبقى موسوماً عند العرب بالعلم والصلاح وكثرة الخير وسعة أسباب المعاش والارتفاع بعلوم الأماجم ومحاسن هؤلاء الملوك^(٢) الذين كانوا جمال المشرق وحسن الاسلام وزينة العالم^(٣) ومنعة هذه الدولة التي لم تقم من قبلهم إلا بالخيال والمكايد ، فانك لتعلم أن الدعوة التي قام باعبائها أبو مسلم (رحمه الله) إنما كانت لذرية النبي (صلى الله عليه وسلم) وهم أولاد الحسن والحسين (رضى الله عنهم) ، ولم يكن للعباسيين غرض في انضمامهم إليها إلا مقارعة بني أمية في جملة من انضم إليها من أهل البيوتات ، حتى إذا خدمهم السيف رأوا أن ينفردوا بالخلافة دونهم ، ويصرفوهم عنها بالخيلة التي كان يمزجها أبو جعفر باشتداده على العمال وإرهاق الرعية في الخراج ، حتى يقع فيهم الفشل ويقعدهم عن الخروج عليه في دعوتهم ، فكان عظماء الملة يرون ذلك منه ولكنهم لم يروا أن يحملوا

(١) العقد الفريد والفخرى والسيوطى وابن خلكان (٢) الزمخشري في ربيع الأبرار (٣) يقول الحصرى ١٠٣:٢ ان أيامهم كانت روض الأزمنة

الأمة على الخلاف ضناً بالنفوس الصالحة أن تسيل دماؤها في قتال المسلمين
بالمسلمين ، فثبت له الملك من هذا الوجه ، لم ينازعه فيه إلا جماعات متفرقة
من أهل الدعوة ومن كان لا يضمهم الغرض الى جامعة واحدة في جميع
الأتحاء ، فلم يستطيعوا مقاومتها ولا بلغوا من غرضهم إلا أن جعلوا له
سبيلا الى غائب جماعة منهم بعد جماعة ، فلما تقلب عليه حب الولد فخلع
ابن عمه عن ولاية العهد وصيرها للمهدي من بعده لم يكن في الناس إلا
من ينقص ذلك عليه ، فخاف الزبيع أن تذهب الخلافة من ولده وله
في مصيرها الى المهدي مصلحة لا تكون في دولة غيره من أهل البيت
ولا من العباسيين أنفسهم ، ففتق له عقله تلك الحيلة التي تسارع أهل الحل
والعقد الى تنفيذها خوفاً من أبي جعفر لظنهم أنه حتى لم يميت ، فلما استوثق
له الأمر استهل خلافته باستمالة الناس بالاحسان والمعروف حتى لا تنفر
منه قلوبهم ولا يظنوا به متابعة لسيرة أبيه ، وأقام لهم ديوان المظالم ورفع
عنهم ضرائب الخراج ووسع لهم أسباب المعاملة بعد ما ضاقت نفوسهم
حتى استمالهم لغرضه وضاروا طوعاً ويمينه ، فلم يبق عليه بعد ذلك إلا أن يأمن
خروج أهل الدعوة في جمع غير متفرق ، فرأى أن يستميل اليه الحرم الآمن
وهو الموضع الذي يُنادى فيه بالحقوق المقدسة لأربابها من أهل البيت
ففرق في أهله الأموال الجسام . ووالى على عامتهم جزيل الانعام ، وجدّد
لهم بناء البيت الحرام وعهد الى عظمائهم بالولايات والامارات ، وأجرى
الأرزاق الواسعة على من استخدم في الجند من أولادهم كما علمت . فلما آلت
الخلافة الى الهادي وصارت إرثاً في بيت أبي جعفر رأى البرامكة برأيهم
الصائب أن ليس للعلويين بعد ذلك كله مطمع في المشرق بازاء العباسيين

الذين يستخدمون الحيلة من وراء السيف لقهر أخصامهم ، فانصرفوا عن تدبير أمر الحرابين لهم إلى تمهيد الطريق لخلافتهم في المغرب ، وراموا تعظيم دولة الرشيد بضم المشرق كله الى جناحه حتى ينصرف عن مقارعة أهل البيت في إفريقية ويقنع بما دبّروا له من السلطان العظيم الذي لم يكن مثله لأحد من الخلفاء قبله ، فكان بعض ما أشاروا به عليه لتعظيم هذا السلطان أن يأخذ الرعية باللين والعطف بعد أن أمّنه خروجهم في دعوة أهل البيت وبنى أمية وغيرهم ، فجرى على ما رسموه له من سياسة الرفق والحلم برهة من الزمان ثم غلب عليه حب الأثرة فرجع الى الشدة ونكّل بمن كان أحبّ الناس إليه .

هذه هي دولة العباسيين التي أشرقت شروق الشمس في البهاء والعظمة ، وإنها تحتاج الى رجال عقلاء يُديرون سياستها ، لأنها لو سقطت على يد خليفة قليل الخبرة بأمر الملك ما قامت لها قائمة بعد ذلك ، فاليوم أترك الاسلام بين رايات خضر وسود ويض ، فأما العلويون فإنهم حازون أمر المشرق وهم أهل سيف شديد الوطأة . وأما الأمويون فإنهم يرتقبون الخلافة من وراء البحار ، ويرومون إعادة الملك الذي ذهب من أيديهم بغفلة صبيانهم في دمشق ، والمسلمون في عرض ذلك يتمزقون بالفتن والشقاق ، فإذا كان هذا حال الدولة من العظمة وهي متفرقة على أغراض لا تضمها الى الوحدة فما الظن لو جمعتها عصبية الدين إلى جامعة الاسلام ففي المسلمين ملوك عظام أحسبهم ينتهبون الى ما بهم من الاتقسام . وقيمون على أساس الجامعة دولة تهتز لها دول الروم والله يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، لا اله إلا هو رب العرش العظيم .

الأسفار التي وجدت بين يدي وأسندت إليها رواية الرحالة

« علوم الدين والشرع »

١٢٨٧	طبع بولاق	الاتقان في تفسير القرآن للسيوطي
١٨٥٣	» بن	الأحكام السلطانية للهاوردی
١٢٨٦	» بولاق	رد المختار على الدر المختار لابن عابدين
١٢٧٦	» القسطنطينية	جمع الأنهر على ملتقى الأبحر لشيخ زاده
١٢٧٩	» بولاق	شرح الزرقاني على موطأ الامام مالك
١٢٨٧	» مصر	كليات أبي البقاء
		ومطالعات في صحيح البخاري وتفسيرى الزمخشري والبيضاوي

« علم اللغة »

صاح الجوهري . المحيط للفيروز آبادي فقه اللغة للثعالبي

« الممالك والبلدان »

١٨٧٧	طبع ليدن	أحسن التقاسيم في معرفة البلدان والأقاليم للقدسي
١٨٧٢	» »	المسالك والممالك لابن حوقل
١٨٥٢	» »	الرحلة (إلى المشرق) لابن جبیر
١٨٦٦	» لينسيك	معجم البلدان لياقوت
١٨٤٠	» باريس	تقويم البلدان لأبي الفداء
١٨٦٥	» »	المسالك والممالك لابن خردادبه
١٨٣٧	» »	الفيض المديد في النيل السعيد لأحمد المنوفي
١٨٧٠	» ليدن	مسالك الممالك للاصطخري
١٢٧٠	» بولاق	الخطط والآثار للبقریزی
١٧٨٩	» توبنك	آثار مصر لعبد اللطيف
	» درمية	نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للأدریسی
١٨٥٣	طبع باريس	تحفة النظر في عجائب الأسفار لابن بطوطة
١٨٤٨	» غوتنغن	أخبار العباد وآثار البلاد للقزويني
	(خط)	جواهر البحور . ووقائع الدهور لابراهيم بن وصيف شاه
	(»)	نشق الآثار . في عجائب الاقطار لمحمد بن اياس
		السير والأخبار وأيام الناس
١٢٩٠	» بولاق	الكامل لابن الأثير

١٨٨٠	صبيح ليدن	تاريخ الملوك وأندلس المطبوع
١٢٨٤	د بولاق	ديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون
١٢٨٦	القسطنطينية	تاريخ أبي الفداء
١٨٥٨	د غريغزولد	آداب السلطانية وآداب الإسلام للفخري
١٢٨٣	د بولاق	مروج الذهب للمسعودي
١٢٧٩	د	نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب للمقري
١٢٧٥	د	وفيات الأعيان لابن خلكان
١٦٦٣	د اكسفورد	تاريخ الدول لأبي الفرج الملقب
	د بولاق	أخبار الدول والإسلام (المختصر)
	(خط)	تاريخ الخلفاء للسيوطي
١٢٨٣	د مصر	الأنس الجليل في تاريخ المقدس والخليل للسيوطي
	مصر طبع حجاز	حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي
١٨٥١	د لندن	النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لأبي المحاسن
١٢٨٠	د بولاق	أعلام الناس فيما وقع للإبرامكة مع بني العباس للأتليدي
	(خط)	فتوح الشام للواقدي
١٢٩٠	د بولاق	آثار الأول للقرماني
١٧٨٢	د	فوات الوفيات لمحمد بن شاكر
١٢٨٣	د	العقد الفريد لابن عبد ربه
١٢٨٦	طبع تونس	المونس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار
	(خط)	قضاة الشام لشرف الدين الانصاري
		لطائف الأخبار الأول فيمن تصرف في مصر
١٣٠٠	مصر	من أرباب الدول للاسحق
		تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين للشرقاوي
١٣٠٠	مصر	مطالعات في ابن الوردي والازرق

العلوم الأدبية

		الفهرست لأبي يعقوب الوراق
١٨٦٣	لندن	حاجي خليفة . كشف الظنون . عن العلوم والفنون
١٢٨٥	د بولاق	الآغاني لأبي الفرج الإصبهاني
١٨٧٩	د بيروت	المقدمة لابن خلدون

سنة	طبع بولاق	الملل السائر لابن الاثير
١٢٩٩	د قسطنطينية	أدب الدين والدنيا للهاوردى
١٢٧٥	د بولاق	حياة الحيوان للدميرى
١٨٤٩	د كوتكن	عجائب المخلوقات للقزوينى
١٢٩١	د بولاق	خزانة الأدب لابن حجة
	د بيروت	مقامات الحريرى
١٢٨٤	د بولاق	جمع الامثال للبيداني
١٢٧٧	د باريس	قلائد العقيان . للفتح بن خاقان
١٢٧٩	د بولاق	المستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى
	د حجر	نهج البلاغة للإمام على كرم الله وجهه
	خط	طبقات الشعراء لأبى عبيدة
١٢٧٨	د مصر	شرح لامية ابن الوردى للقناوى
١٢٧٩	د بولاق	سراج الملوك للطوطوشى
١٢٨٦	د	الطبقات الكبرى للشعرافى
١٢٦٢	طبع باريس	مختصر كتاب الخراج لقدامة بن جعفر
١٢٨٨	د بولاق	الكز المدفون . والفلك المشحون للسيوطى
١٢٨٤	د	شرح مقامات الحريرى للشريشى
	(خط)	الكشكول لبهاء الدين العاملى
	د دمشق	يتيمة الدهر . فى شعراء اهل البصر للثعالبي
		زهر الآداب وثمر الالباب بهامش العقد الفريد للحصرى
١٢٨٤	د بولاق	غرر النصائح الواضحة لأبى الوطواط
	خط	شرح العيون لرسالة ابن زيدون لابن نباتة المصرى
١٢٩١	د بولاق	تزيين الاسواق . فى أحوال العشاق لداود بن عمر
١٢٦٩	د الموصل	فاكهة الخلفاء لابن عمر شاه
١٢٥١	د بولاق	كتاب ألف ليلة وليلة
١٢٩٠	د	نور الابصار فى مناقب آل بيت النبى المختار للشبلنجى
	د باريس	كليله ودمنه لابن المقفع
	د بولاق	حلبة الكميت لشمس الدين النواجى
١٢٨٧	د القسطنطينية	الموازنة بين أبى تمام والبحترى
		مطالعات فى لطائف العرب وريبع الابرار للزمخشري وغير ذلك

تاريخ العراق

في عهد النعمان
سنة ١٢٧٠

بمطبع دار الكتب

Bibliotheca Alexandrina



04300001